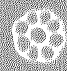
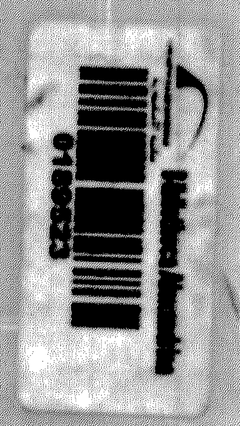


تأليف

خليفة محمد التليسي

الدار العربية للكتاب





حكاية مدينة

طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب

تأليف

خليفة محمد التليسي

رقــم الايداع بدار الكتب الوطنيــة
97/1356
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

الطبعة الثالثة
1997

بسم الله الرحمن الرحيم

الأصل في هذه الحكاية ، فصل كنت قد أعددته للمشاركة به في احدى الملتقيات التاريخية الأدبية العربية بعنوان (طرابلس لدى الرحالة العرب) . وكان من المقدر لهذا الموضوع أن ينتهي عند حدود الفصل المقرر للبحث أو المحاضرة ، ولكنني ماكدت أمضي في كتابته حتى وجدته قد خرج عن الفصل القصير إلى الفصول الطويلة ، ومن نطاق الرحالة العرب إلى الرحالة الأجانب حتى كان في النهاية هذا الكتاب الذي يشكل رحلة مع الرحالين في تاريخ هذه المدينة الاسلامية العريقة بين مدن البحر الأبيض المتوسط . .

ولو طاوعت نفسي واغراء البحث والدراسة لانتهى إلى حجم أكبر من هذا الحجم وأفضى إلى نهج يختلف عن هذا النهج ، وذلك أن أفكاراً عديدة قد تتابعت على ذهني عند تأليفه ، وأولها أن أجعله كتاباً تاريخياً منهجياً صارماً في تاريخيته ومنهجيته ، وثانيها أن أجعله نوعاً من السيرة الذاتية لمدينة على نحو ما يفعل كثير من المؤلفين الذين يحاولون التوفيق بين التاريخ والأسلوب الأدبي الفني . وثالثها أن أجعله كتاباً فنياً مصوراً يجمع بين المادة الفنية المصورة والتاريخ في نسق عصري حديث . وقد اصطدمت الفكرة الثالثة بعجز الامكانيات عن تنفيذها ، فكانت النتيجة هذا الكتاب في واقعه الذي يراه القارئ .

وكثيرا مايجد الباحث نفسه في موقف الفنان المبدع أو الأم الولود لا تستطيع أن تدخل أي تعديل على وليدها كما لا يقدر الفنان أن يضيف شيئاً إلى إبداعه . إن العمل يولد حاملا لخصائص نقصه وكماله . فلا مزيد .

وهكذا جاء هذا الكتاب على صورته الحالية . إنه نوع من السيرة الذاتية لمدينة من خلال ما سجله عنها الرحالة الذين عبروا بها من انطباعات مفرغة في اطارها التاريخي . وقد تركت للأصول والوثائق التي اعتمدت عليها أن تتحدث بلسانها وبارائها وانطباعاتها ما وسعني ذلك ، بل ربما تعمدت في بعض الأحوال أن أغيب غياباً مطلقاً وأترك بعض النصوص التاريخية الجميلة أو الهامة تتحدث بنفسها وتكشف عن دور هذه المدينة وألوانها المختلفة وملامحها العامة .

وقد وقف بنا الموضوع حيثما وقفت الرحلات التاريخية الشهيرة أو الهامة . ومن المعروف أن تاريخ الرحلات الكبرى قد انتهى في هذه المنطقة قبل نهاية القرن التاسع عشر . ولكنني رأيت إكمال الصورة ببعض الانطباعات التي تدخل في إطار أدب الرحلات أو الرحلات الصحفية التي نعثر على أخر محاولاتها عند نهاية العهد العثماني الثاني أي سنة ١٩١١ .

وعلى كل حال ، فإن النتيجة الهامة التي أردنا أن يخلص اليها القارئ من هذه الحكاية هي أن هذه المدينة كانت ذات ماضٍ عريق ، ودور إيجابي فعال كما كانت حاضرة على الدوام في أحداث هذا العالم الاسلامي العريق وتاريخ البحر الأبيض المتوسط ، فعسىَ أن يجد فيها القارئ ما يمتعه ويفيده ، ويفتح له الأبواب لمزيد من البحث والدراسة والتوسع بما يكشف في النهاية عن زوايا مجهولة من تاريخها الحافل بالأحداث .

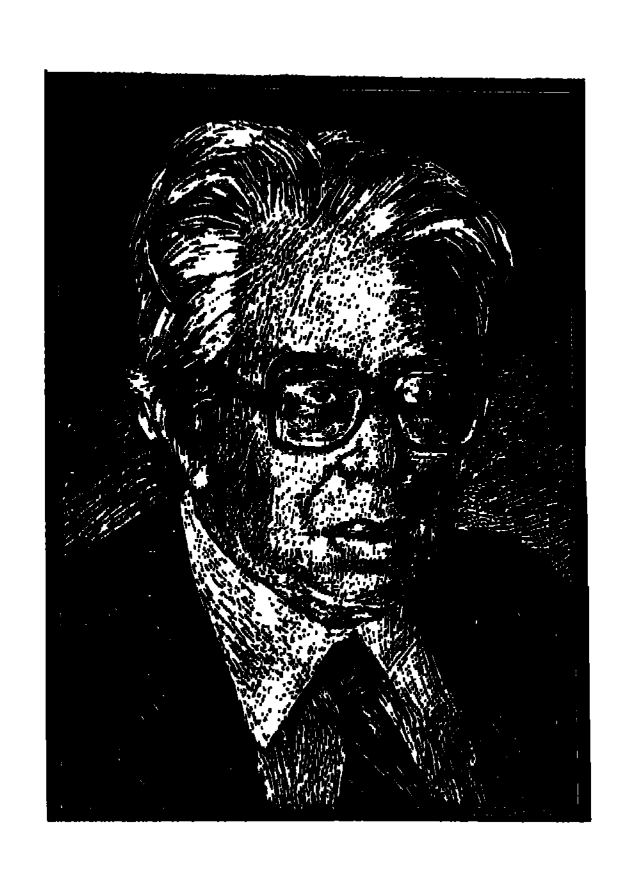
وقد تضمن هذا الكتاب مجموعة من الصور التاريخة النادرة توخيت الحاقها به حتى تكتمل الصورة . وقد بذلت الجهد الكبير في جمعها والحصول عليها كما تفضل بعض الأخوة بتزويدي ببعضها الأخير . ويقتضي الواجب أن أسجل هنا شكراً عميقاً خاصاً لكلٍ من الدكتور محمود انديز والدكتور صلاح الدين حسن المدير العام السابق لمصلحة الآثار والحاج بهجت القرمانللي ولزملائه بمراقبة آثار طرابلس الذين لم يتوانوا في تقديم بعض الصور القديمة وكذلك الحاج محمد الأسطى الذي زودني مشكوراً بمجموعة نادرة من الرسوم اليدوية

للفنان الليبي محمد علي لاغا الذي عاش في العهد العثماني (١٨٩٨ — ١٩٤٧ م) ورسم بعض معالم مدينة طرابلس في عصره .

فلهم جميعاً الشكر العميق ، وبالله التوفيق .

١٩٧٤ م

خليفة محمد التليسي



لمحة عامة عن مدينة طرابلس
في عصورها القديمة

لا تسعفنا المصادر المتوفرة لدينا ، بكثير من المعلومات عن التاريخ القديم لهذه المدينة . وهي اذا اسعفتنا بمعلومات عامة عن المدن الفينيقية ، فلا تقدم الينا صورة واسعة عن الحياة العامة فيها. وتجمع أغلب المصادر التاريخية، على أن تأسيس مدينة طرابلس (اوئيا) يرتبط بظهور الفينقيين في المناطق الوسطى والغربية من البحر الابيض المتوسط ، وقيامهم بانشاء العديد من المراكز والمحطات التجارية . وتعود هذه المصادر بنشأة المدينة إلى نهاية الألف الثانية أو بداية الالف الاولى قبل الميلاد شأنها في ذلك شأن المستعمرات الكثيرة التي أنشأها الفينيقيون في هذه المرحلة من توسعهم التجارى والحضارى بالبحر الابيض المتوسط .

ويطرح بعض الباحثين السؤال الذى طرح ازاء أغلب المدن الفينيقية التي قامت بالساحل الشمالي من أفريقيا . . . هل كانت هذه المدن انشاء فينيقيا ؟ أم أنها كانت قائمة قبلهم ودخلت التاريخ بدخولهم ؟ وكيف نفسر انتشار هذه المدن على الساحل الليبي انطلاقا من خليج سرت حتى أقصى الغرب ولم يكن الليبيون شعبا بحريا ؟ كما لم يكن من مصلحتهم أن يعرضوا أنفسهم لا طماع القوى البحرية ؟

هنا لا يمكن الركون إلى الخيال والافتراض ، فلنكتف بما قرره أغلب هؤلاء الباحثين من انها كانت مدينة أو مركزا من المراكز الهامة التي اتخذ منها الفينيقيون محطة من المحطات التجارية وارتبطوا بها بعلاقات تجارية .

ولقد دخلت في ذلك الفلك الحضارى الفينيقي الذى ساد العصر بعلاقاته التجارية الواسعة ، وطموحاته التوسعية ، وصراعه على السيادة والسيطرة على الاسواق وقد أفادت هذه الصلة التي سجلت أول لقاءها مع الحضارات التي قامت على الضفاف الشرقية من البحر الابيض المتوسط وربطتها بتلك الشبكة التجارية الواسعة التي مد الفينيقيون خيوطها وخطوطها عبر هذا البحر الحضارى العريق .

فالطابع الحضارى الاول الذى يصادفنا في حياة هذه المدينة هو الطابع الفينيقي ، وهو الطابع الذى ظل سائدا بعقائده وتقاليده ولغته حتى عصور متأخرة من العهد الروماني .

ولم يبق من أثار الفينيقيين في هذه الديار ما يدل على معالمهم ومؤسساتهم ، سوى هذا الموقع الذى تقوم عليه المدينة والذي يدل من وجوه متعددة على حسن اختيار ودراية كاملة بهذا الساحل الليبي . باعتباره نقطة تتوسط المحطات العديدة التي انشئت على الساحل الغربي والتي كانت تراعى في انشائها الحرحلة اليومية للسفينة الفينيقية التي تقطع في اليوم الواحد من ٢٥ ميلا إلى ٤٥ ميلا .

وقد روعي في اختيار موقع المدينة الشروط التي يلتزم بها الفينيقيون في اختيار مواقعهم أو محطاتهم التي ينبغي أن تقوم على الجزر أو الرؤوس أو الخلجان أو مصاب الاودية والانهار أو الاماكن الساحلية الخصبة التي تتوفر بها المياه العذبة .

وقد توفرت هذه العوامل لموقع مدينة طرابلس ، فهي تقع بين لبدة وصبراته ، وعلى طريق القوافل إلى المناطق الجنوبية كما تتوسط جملة أخرى من المدن والمحطات الفينيقية فضلا عن موقعها بالنسبة لصقلية والجزر المجاورة في البحر الابيض المتوسط .

وقد مثلت ، منذ تلك العصور القديمة ، أهمية كبيرة بموقعها وساحلها

الغربي والشرقي ، وخاصة في تلك العلاقة التي قامت بينها وبين مالطا وصقلية وقد عرف الفينيقيون لهذا الموقع أهميته ، كما عرفته فيما بعد قرطاجنة التي دافعت عنه ، ووقفت في وجه التوسع الاغريقي ، وتشبثت به على النحو الذى تشبث به الاغالبة في العهد الاسلامي .

ويعتقد بعض الباحثين أن الفينيقيين الذين أسسسوا مدينة (اوئيا) انما جاءوا اليها من صقلية ، ولم يأتوا اليها من مواقعهم الاصلية بالشرق . ويرى آخرون أن تأسيسها قد تم على أيدى الفينيقيين القادمين اليها من صور وصيدا الذين أخذوا يزحفون على الشاطئ الغربي الليبي انطلاقا من مناطق الخليج . وقد أنشأوا بهذا الساحل مايقرب من عشرة مراكز برزت منها المدن الثلاث التي لعبت الدور الاكبر في تاريخه القديم ، وهي لبده وأوئيا وصبراته .

وقد بدأ التعامل مع هذه المراكز كأسواق تجارية ثم اتجه اليها الفينيقيون بأبصارهم كمستوطنات أو مستعمرات في أواخر الالف الثانية قبل الميلاد في نفس الفترات التي أسسوا فيها قرطاجنة وغيرها من المراكز الهامة .

والقليل الذى نعرفه عن المدينة في هذه الفترة لا يساعدنا على استعادة صورتها ، ومتابعة مختلف مراحلها التاريخية في ظل السيادة الفينيقية ثم القرطاجنية فالبونيقية . ولابد أن نستحضر النموذج العام للحياة في المدينة الفينيقية والقرطاجنية والبونيقية ، لنلتمس فيه صورة الحياة العامة في المدينة التي تعنينا سواء في حياتها العامة أو في علاقاتها التجارية والثقافية وأوضاعها الاجتماعية وأحوالها العمرانية . ولكن المهم أن نعلم قبل ذلك بانها ومنذ عصورها السحيقة الضاربة في القدم ، كانت مدينة (حاضرة) في أحداث البحر الابيض المتوسط ، وحضارته ، وتياراته السياسية ، وصراعاته الحربية ، وحواره بين مختلف الثقافات والاديان . تهب عليها نسماته الندية الطرية ، وتعصف بها من حين إلى آخر عواصفه واعاصيره ، وتبتسم لها شمسه الساطعة وسماؤه المشرقة .

لقد كانت حاضرة في خضم الاحداث الكبرى التي المت بهذا البحر حين تصارعت القوى الكبرى القديمة (الفينيقيون واليونانيون والرومانيون والقرطاجنيون) كما كانت من المدن القليلة التي تميزت بالاضافة إلى الحضور (بالاستمرار التاريخي) . فقد استمرت في التاريخ ، أى في الحياة ، منذ تأسيسها حتى الآن . وقد كان استمرارها التاريخي هذا عاملا هاما في طمس ملامحها التاريخية كأغلب المدن التي ظلت مستمرة في الوجود ، ولم تتوقف بها الحياة عند مرحلة من المراحل تشهد عليها اثارها المرسومة المعلومة كما هو الشأن بالنسبة لصبراته ولبدة .

ومع ذلك كله . تتوفر لدينا من المبررات التاريخية ما يدفع إلى الاعتقاد إلى انها لم تكن قديما في منزلة أى من هاتين المدينتين . وان دورها لم يأخذ في الظهور والتبلور والبروز الا بعد أن أخذ نجم هاتين المدينتين في الافول . وذلك ما يفسر غيبة ذكرها التاريخي في ابان ازدهار هاتين المدينتين ، ونموها وبروزها في المرحلة الاخيرة من السيطرة البيزنطية حيث يرتفع شأنها ويكتمل ظهورها بالفتح العربي وتبدو لنا وبشكل واضح ملموس في مختلف المراحل التي مرت بتاريخ البحر الابيض المتوسط ، حتى لكأنها كانت تنتظر هذا الفتح لتسهم بدور بارز في مده وتوسيعه ، وفي الدفاع عنه وترسيخه .

والواقع ان هذه المدينة رغم عراقتها القديمة ، والرجوع بأصلها إلى العهود الفينيقية ، الا انها في دورها التاريخي وفي تراثها الوجداني الباقي ، مدينة اسلامية تأكد دورها بظهور الاسلام كقوة عظمى في البحر الابيض المتوسط بأكثر مما تأكد دورها في العهود السابقة له .

ولم تلبث طرابلس (اوئيا) بعد أن تراخت خيوط الامبرا طورية الفنيقية وأخذ الكيان الفينيقي يتهاوى ويسير نحو الانهيار ، حتى دخلت في فلك قوة جديدة ناشئة فينيقية الاصل . تأخذ مكانها وتقوم بدورها في التصدى اولا للتوسع اليوناني ثم التوسع الروماني فيما بعد . . . ونعني بها قرطاجنة التي بسطت

يدها على المستعمرات الفينقية لتشد قبضتها عليها ، لتنقذها من الانهيار الذاتي ولكن لتفقدها ايضا كل مظهر من مظاهر الاستقلال .

وكان الساحل الشرقي هاما لقرطاجنة كما كان هاما للفينيقيين من قبلهم . ولذا كان اول ذكر لظهور قرطاجنة كوريث للفينيقيين في هذه البقاع ، يقترن بتصديها بالتعاون مع السكان المحليين في سنة ٥٢٠ قبل الميلاد إلى محاولة يونانية لانشاء مستوطنة بالغرب من مصب وادى كعام . . . ولكن المغامرة اليونانية لم تلبث أن فشلت ، لتجد بعد ذلك قرطاجنة نفسها في صراع دائم مع جارتها قورينا . . . وواضح من هذا الموقف أن المصالح القرطاجنية في هذا الشريط الساحلي ومراكزه أو (أمبورياته) كانت مصالح تجارية واستراتيجية في المقام الاول . فلم يكن يشغل قرطاجنة الا أن تكون هذه المصالح محفوظة بعيدة عن الخطر . ولذا ظلت هذه الامبوريات تعيش حياتها الخاصة ، مستقلة بشئونها الداخلية ، تسير على النظم الموروثة من الفينيقيين . اما مسئولية الدفاع فقد كانت تتولاها قرطاجنة التي لم تكن تسمح لهذه (الامبوريات) بالتسليح وتكوين الاساطيل . كما كانت تحتكر الملاحة البحرية وتغلق موانئ الامبوريات في وجه الدول البحرية الاخرى ، مما أدى إلى أن تحتكر الحركة التجارية في الامبوريات التي اقتصرت في معاملاتها التجارية مع العاصمة القرطاجنية . وبذلك تطورت قرطاجنة على حساب امبورياتها التي أخذت تتخلف عنها اقتصاديا وثقافيا ودفاعيا وقد عادت هذه السياسة على قرطاجنة نفسها كما يقول الباحثون بأسوأ العواقب حين وجدت نفسها في صراع مرير مع روما . فلم تستطع هذه الامبوريات المستغلة المبتزة أن تقدم اليها أى عون .

ولابد أن ننبه إلى نظرة الطمس والتحامل التي تميز المصادر التاريخية اللاتينية القديمة نحو كل ما هو فينيقي وقرطاجني ، مما يجعل صورة هذا العهد غائمة تماما الا أن أغلب المصادر تجمع على تصوير هذا الجانب السلبي من السياسة القرطاجنية ازاء الامبوريات التابعة لها . في الوقت الذى كانت تسمح

فيه لنفسها كعاصمة بحرية التجارة حتى مع منافسيها ومزاحميها وأعدائها . كانت تحرم على الامبوريات الطرابلسية هذا الحق ، وتنظم للدول الاخرى امكانية التعامل في حدود معينة ، وفي مناطق معينة . وقد عقدت اتفاقا مع روما يحرم عليها امكانية التجارة مع الساحل الشرقي لقرطاجنة . بحيث أدت هذه السياسة إلى تدفق كل الحركة التجارية على العاصمة .

كما كانت قرطاجنة تجبي ضرائب فادحة من هذه الامبوريات . وقد كانت المدن الفينيقية عامة والليبوفينيقية خاصة عرضة لانواع أخرى من الاستغلال والتسخير عند تجريد الحملات العسكرية الكبرى . ومن المعروف أن (حنبعل) القائد القرطاجني المعروف قد جند اربعمائة وخمسين فارسا من المدن الليبوفينيقية في حملته الشهيرة ضد روما سنة ٢١٨ ٢١٩ م .

ونتيجة لذلك فقد اعتمدت هذه الامبوريات في تطوير اقتصادها على مجهودها الذاتي في الحقل الزراعي . وقد كان الفينيقيون ثم القرطاجنيون من بعدهم ، من أمهر المزارعين طوروا الاساليب الزراعية بالمنطقة وأدواتها وطرق ريها كما أدخلوا انواعا كثيرة من الاشجار المثمرة اليها . . .

كيف كان يدار الحكم المحلي ؟ وماعلاقة هذه الامبوريات بالعاصمة ؟ وهل كانت تنعم باستقلال ذاتي ؟ يرى بعض العلماء أن قرطاجنة قد وفرت لهذه الامبوريات نوعا من الحكم الذاتي فيما لا يتصل بالجانبين الاقتصادى والعسكرى كما أوضحنا سلفا . وأن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن ذلك قد توفر لمدينة لبدة الكبرى على الأقل .

وقد احتفظت هذه الامبوريات بنظمها ومؤسساتها الفينيقية . فقد كانت المدينة تعين كل عام عن طريق مجلسها الشعبي حَاكِمْين (سوفيت) يتوليان السيادة المدنية العليا ، وكذلك القضائية . كما أن هناك مجلسا بلديا أو مجلس شيوخ يدعى من قبل هذين الحاكمين لمناقشة المصالح الوطنية العامة . كما كانت

السلطة العسكرية ايضا في ايدى هذين الحاكمين ، وهي سلطة محدودة ولعلها تقتصر على الجانب الأمني . ذلك لأن مسئولية الدفاع كانت تتولاها قرطاجنة .

ونظرا لضعف سلطة المجلس الشعبي ازاء سلطة مجلس الشيوخ المكون من عدد محدود من الاعضاء المختارين من ذوى المكانة والكفاءة العالية فقد كان طابع الحكومة (أوليغاركيا) أى حكم الفئة القليلة ويخبرنا سالوستيوس أن هذه النظم قد ورثتها لبدة عن الفينيقيين ، وهي نفس النظم التي ظلت قائمة بقرطاجنة نفسها والتي لم تجد أى مبرر لاجراء تعديلات جذرية عليها .

ولكن قرطاجنة مع ذلك لم تتخل عن ممارسة الرقابة الصارمة بواسطة مندوبها للحيلولة دون الاتجاهات الاستقلالية الكاملة .

وعلى الجملة فلم تكن العلاقة بين العاصمة والامبوريات تتسم بالود والولاء ، بل كان يسودها شعور الضيق والتذمر والخوف وتحيّن الفرصة المناسبة لفك هذا الارتباط المزيل . . .

وحين تهيأت هذه الفرصة للقائد مسِّينيسًا لم يجد صعوبة في الاستيلاء على هذه الامبوريات التي لم تبذل أى جهد للدفاع عن السيادة القرطاجنية ويمكن القول بان حظ هذه الامبوريات في ظل السيادة القرطاجنية كان حظا سيئا ، بل لعلها كانت أسعد حالا باوضاعها الذاتية قبل هذه السيادة . وقد وقعت هذه الامبوريات تحت الحكم النوميدى ، وظلت تعاني من آثار الاوضاع السابقة التي لم تستطع أن تتجاوزها بل ظلت متخلفة عن مثيلاتها من أمبوريات الشمال الافريقي سياسيا وثقافيا .

ويحاول المؤرخون اللاتينيون اقناعنا بان هذه الاوضاع لم تتحسن الا بعد دخول هذه المدن في تلك السيادة الرومانية . بعد أحداث كثيرة كان لها أكبر الانعكاسات على اوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ذلك انه بعد وفاة مسينيسا ، وتوجيه روما لضربتها القاضية إلى قرطاجنة ، واضعة بذلك خاتمة

لوجودها وللحرب البونيقية الثالثة ، تطلعت الامبوريات الليبية ومنها (أوئيا) إلى التخلّص من السيطرة النوميدية والاندماج في الكيان العام للامبراطورية الرومانية . ولكن روما ظلت على استمرارها في الاعتراف باستقلال ملوك نوميديا الذين خلفوا مسينيسا . ويبدو أن الامبوريات قد استمرت في ما يشبه الحكم الذاتي . اذ كانت بمنأى عن السطوة النوميدية المباشرة التي لم تكن تقدر على التدخل في شئونها اليومية ولكن ذلك لم يقتل نزعة الاستقلال في نفسها التي ستظل تعبر عن نفسها في مختلف العهود من خلال حركات ثورة تمردية .

وقد ظلت الامبوريات تعمل على تحسين علاقاتها المباشرة مع روما وتسعى إلى تطويرها ، حتى اذا اندلعت حرب أهلية جديدة بمملكة نوميديا ، بسبب طموح يوغرطا المطالب بعرشها ، وجدت لبدة (ويحتمل أن تكون اوئيا وصبراته) نفسها مضطرة إلى عقد معاهدة وتحالف مع روما . ثم بدأ التسلل الروماني في الظهور حين طلبت لبدة مساعدة روما لاخماد ثورة داخلية نشبت داخل أسوارها . وجاءت النجدة في شكل حامية رومانية .

وكانت تلك هي المرة الاولى التي يستقر فيها الجيش الروماني بطرابلس الغرب . . . ومن ذلك الوقت أخذ الوجود الروماني بأشكاله المتعددة في الزيادة والتصاعد حتى تم ادماج هذه المقاطعة في كيان الامبراطورية في عهد قيصر .

ويبدأ العهد الامبراطورى المباشر بانتصار قيصر في حربه الأهلية ضد بومبي . وكان ملك نوميديا (جوبا الاول) قد انحاز إلى جانب أهل بومبي ، وساعدهم في التمكين لانفسهم في المقاطعة الافريقية . ولكن معركة ثابسبوس قد حسمت الأمر لصالح قيصر ٤٦ ق . م الذى قضى على المملكة النوميدية وأدخل القسم الاكبر من أراضيها فيما عرف باسم افريقيا الجديدة الذى كان يشمل الامبوريات الليبية .

ويعتقد الباحثون أن الامبوريات الليبية قد استراحت إلى هذا التنظيم الذى هيأ لها فرصة جديدة للازدهار الاقتصادى والرخاء العام . وقد انسحبت

عليها نتائج الاحداث التي عصفت بالامبراطورية عقب مقتل قيصر وايلولة الامر إلى الامبراطور اغسطس ٢٥ ق . م الذى وحد المقاطعات الافريقية ، وأحكم السيطرة عليها ، ووزع حاميات بها للدفاع عنها ، وأحال شئون حكمها إلى مجلس الشيوخ الذى كان يتولاها عن طريق (بروكنسل) الذى يقود الحامية أيضا .

يؤكد المؤرخون الرومان أن هذا النظام قد وفر للامبوريات فرصة واضحة للنمو والازدهار بعد أن تحقق لها الأمن والسلم في ظل الحاميات المباشرة ، وفتحت أمامها الأبواب التي أغلقها القرطاجنيون ، وأخذت التجارة تتدفق عليها ، والثروة تزداد لدى الافراد ، وتحولت هذه المدن الفينيقية القديمة إلى مدن رومانية جميلة بمعابدها ومسارحها وأسواقها ومساكنها وحماماتها ودورها ومزارعها الجميلة . وساد حياتها نموذج الحياة الرومانية وعوملت هذه الامبوريات كحليفات حيث استمرت في سك نقودها والاخذ بالنظام التشريعى القائم بها في العهد الفينيقي والتعامل باللغتين الفينيقية واللاتينية . وقد ظلت هذه اللغة الفينيقية قائمة بهذه الامبوريات حتى الفتح العربي ، وكذلك الأمر بالنسبة للمراسم الدينية والتقاليد والعادات .

ولكن القبائل الداخلية التي كانت ترفض الاحتلال الروماني . وتسعى إلى استعادة الاستقلال الذاتي الذى كان قائما في العهد النوميدى ، أخذت تهدد هذه المدن . وكان على الرومان أن يواجهوا هذا الوضع بالسعي إلى التوغل في الدواخل لضمان احتلالهم للسواحل .

وكان الخطر الأول يتمثل في موقف (الجرمانت) الذين تعاطفوا مع بعض الحركات الثورية النوميدية وأخذوا يهددون تهديدا قويا الحدود الجنوبية وقد وجه الرومان حملة بقيادة كورنيليوس بالبوس الذى زحف على فزان في ٢٠ ق . م منطلقا من صبراته عبر غدامس ثم إلى فزان . حيث مدينة (جرمة) عاصمة الجرمانت ، وتمكن من اخماد الثورة ولكن إلى حين . حيث عاد الجرمانت في عهد تبيروس إلى الثورة بالتضامن مع القبائل النوميدية التي كان

يقودها تكفريناس وقد انتهت هذه الثورة بهزيمة تكفريناس ١٤ ق . م وارسل الجرمانت وفدا إلى روما يطلبون الصلح ويبدون الرغبة في السلم ، لولا أن ظروف الامبوريات قد دفعتهم إلى نقض هذا العهد ورفع السلاح من جديد ، اذ نشب خلاف حول الحدود بين لبدة واوئيا أدى إلى قيام حرب بينهما . وقد خافت (اوئيا) من تفوق لبدة عليها فاستنجدت بالجرمانت الذين غزوا لبدة وحاصروها . واستنجد سكان لبدة بدورهم بالبروكنسل فاليروس فستوس الذى استطاع أن يفك هذا الحصار .

ويستخلص المؤرخون من هذه الحرب الأهلية بين المدينتين الدليل على ماكان يتوفر لها من استقلال ذاتي وحرية في التصرف .

وقد نبهت هذه الظروف الرومان إلى ضرورة السيطرة الكاملة على المناطق الجنوبية فجردوا لها حملات توغلت في مناطق من أفريقيا لم يعد اليها الاوربيون الا في العصور الحديثة .

وبنهاية القرن الأول بعد الميلاد تمت تهدئة هذه المنطقة الساخنة وخيم عليها ماكان يسمى بالسلم الرومانية ، وامتدت السلطة المباشرة من الساحل حتى الداخل . . . وخلال المئة الثانية التي مثلت أهدأ الفترات في تاريخ العالم الروماني عاشت الامبوريات الليبية عيشة رضية هانئة دون حروب ولا قلاقل، ولا اضطرابات . وساد الأمن طرق القوافل التي كانت تتاجر بها مع روما . ويقول المؤرخون أن التجارة بين روما وهذه الامبوريات قد بلغت حجما جعل صبراته ولبدة تعينان ممثلين تجاريين لها في مدينة (اوستيا) ميناء روما .

كما ازدهرت الزراعة ، وارتفعت الأهمية الاقتصادية لهذه المدن ونعمت ببعض الاعفاءات ، وحصلت على بعض الامتيازات ، وعومل سكانها على قدم المساواة مع سكان روما . وقد انعكس هذا الرخاء في هذه المعالم البارزة الباقية من هذه المدن فحمامات لبدة ومسرح صبراتة وقوس ماركوس اوريليوس (بأوئيا) انما تعود إلى هذه الفترة التاريخية الهامة .

ويعكس وجود الشاعر والفيلسوف والخطيب ابوليس والجو الذى اثاره حوله ، وحق الاقامة أو الجنسية التي عرضها عليه أهل اوئيا ، والاحداث التي نشأت عن دفاعه عن نفسه بصبراته نوع المستوى الثقافي لهذه المدينة خلال هذه الفترة من رخائها وازدهارها .

وبوصول سبتيموس سفيروس ابن لبدة إلى عرش روما ، وجدت لبدة مسقط رأسه والامبوريات الليبية الأخرى عناية خاصة ، ونالت حظوة ظهرت اثارها في ذلك الاهتمام الذى ظهر في تلك الانشاءات التي خلدت عهده وذكره .

ولكن هذا الرخاء الذى نعمت به هذه المدن في بداية القرن الثالث للميلاد لم يلبث أن أخذ في الضعف والانهيار بعد القضاء على اسرة (سفروس) بقتل الاسكندر سفروس ، ودخول الدولة الرومانية في دوامة الحرب الاهلية ، ثم تألب برابرة الشمال عليها . ولم تجد اصلاحات الامبراطور ديوكليتيان ٢٨٤ ــ ٣٠٥ م ولا اصلاحات الامبراطور قسطنطين ٣٠٦ ــ ٣٣٧ شيئا يذكر اذ أخذ الوهن يتسرب إلى الكيان الروماني . ولعل الميزة الوحيدة التي حملتها هذه الاصلاحات هي الاعتراف لمقاطعة طرابلس باستقلالها كمقاطعة منفصلة غير تابعة لمقاطعات أخرى . . .

ولكن الشيخوخة قد أخذت تدب في أوصال الكيان الروماني . وكان لابد أن تنسحب آثارها على هذه المقاطعة الطرابلسية ايضا . فعادت اليها الحركات الثورية الاهلية الداخلية . وتسرب اليها ايضا الدين المسيحي الجديد . وكان للكنيسة الافريقية اراؤها ومذاهبها التي انفصلت بها عن الآخرين ، واتخذت هذه الانقسامات أشكالاً سياسية ، واختلفت مذاهب هذه المدن الافريقية نفسها . بل ان هذه الحركات الدينية الرافضة قد أخذت تناصر الحركات الثورية ولم تستنكف في سنة ٤٢٩ م عن دعوة الملك جنسريق ملك الوندال إلى عبور افريقيا والاستيلاء عليها بتواطؤ من حاكمها . وقد كان

جنسريق يتحين هذه الفرصة فلم يتخلف عن تلبية الدعوة ، وأقام علاقة وطيدة مع أنصار مذهب (الدوناتزم) الذين وجدوا فيه حليفا طبيعيا ضد روما وضد أتباع المذهب الكاثوليكي .

وحين عاد الحاكم بونفاشيو إلى التصالح مع ملكته بلاشيديا وحاول التخلص من جنسريق وشراذمه ذهبت محاولاته سدى ، وبدلا من أن يخرج الوندال اضطر هو إلى الخروج . . . وبذلك انتهى الحكم الروماني لافريقية .

ولم تصبح مقاطعة طرابلس جزءا من المملكة الوندالية الا في سنة ٤٥٥ م . ولعلها لم تكن لتجتذبهم بأوضاعها الاقتصادية المهزوزة فقد دمرت الثورات والقلاقل كثيرا من امكانياتها الزراعية وانهارت حركتها التجارية بقطع الطرق التجارية واختفاء بعض الاسواق التي كانت تتعامل معها وأصبحت شبه مهجورة ، وأخذت الرمال تزحف على بعضها ، مثل لبدة . ولم يهتم الوندال بهذه المقاطعة كثيرا ، كما لم يفطنوا إلى أهميتها الاستراتيجية ، واقتصر وجودهم العسكرى على بعض الحاميات الموزعة على بعض النقاط وربما اعطيت أهمية خاصة في هذه المرحلة إلى مدينة (اوئيا) وميناثها بالنظر إلى استمرار هذه المدينة في الاحتفاظ بأسوارها .

وعلى الجملة فان الوجود الوندالي كان هزيلا ضعيفا وكان مقدرا له أن يهتز عند الضربات الاولى التي توجه اليه حين فكرت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) في استعادة ماضاع من روما من بلدان في المناطق الغربية من البحر الابيض المتوسط . وجردت في عهد الامبراطور ليو الاول حملة بقيادة هرقليوس ٤٦٨ م لم تجد عناء كبيرا في طرد الوندال من طرابلس ولكن البيزنطيين اضطروا إلى الانسحاب بعد ثلاثة اعوام من ذلك اثر هزيمة الحملة البيزنطية على تونس . ولم تعد بزنطة إلى هذه الشواطئ الابعد ستين عاما من ذلك . وظل

الوندال على اهمالهم لهذه المقاطعة الأمر الذى أغرى بها القبائل الداخلية . وقد كان من أشهر هذه الثورات الثورة التي قادها الزعيم (كابون) لم يستطع أن يتجاهلها الوندال ولكنهم انهزموا أمامها . وبعد أعوام قليلة من ذلك ثارت لواتة وغزت لبدة .

وحين عاد الامبراطور البيزنطى جوستنيان إلى احياء مشروع الامبراطور ليو في سنة ٥٣٣ كانت الامبراطورية الوندالية تهتز وتتداعى . وقد اتفق إرسال الحملة البيزنطية الجديدة لاستعادة الشمال الافريقي لبيزنطة والكاثوليكية أن كانت هذه المقاطعة تعيش ثورة قادها أحد زعمائها (بودنتيوس) ضد الوندال وأعلن ولاءه للامبراطور البيزنطي الذى طلب منه المساعدة التي ارسلت اليه في شكل نجدة بقيادة القائد البيزنطي (تاتيموت) . وخرج الوندال عقب هزيمتهم في تونس ٥٣٣ م .

ولكن هزيمة الوندال لم تكن لتعني السيطرة الكاملة للبيزنطيين على هذه المنطقة ، فلم تلبث أن عادت اليها ثوراتها الداخلية ، وحاصرت لواته القائدين تاتيموت وبودنيوس . واضطر بليزاريوس إلى ارسال العون اليها . وقامت في نفس الوقت ثورات بنوميديا وتونس ووجد سلمون خليفة بليزاريوس صعوبة في اخمادها .

وفي سنة ٥٤٤ م وقعت المذبحة المشهورة التي جرت اثر الدعوة التي وجهها سرجيوس الحاكم العسكرى للزعماء المحليين لحضور مأدبة تقام على شرفهم. ولكن الحرس البيزنطي انقض عليهم وقتل منهم ثمانين زعيما ولم ينج من هذه المذبحة سوى زعيم واحد .

وكان هذا الحادث ايذانا بثورة جديدة تقودها لواتة ضد البيزنطيين وحاصرت لبدة ولم يتمكنوا من فك هذا الحصار الا بعد أن جاءهم العون من قرطاجنة (تونس) .

وانتشرت الثورة في تونس ونوميديا وقد كان في وسع الثوار بشيءٌ من الوحدة والتنظيم استعادة السيطرة الكاملة على الشمال الافريقي . وقد كانت المهمة الاولى التي نهض بها القائد جون تروغليتا الذى عين على رأس القوات البيزنطية في الشمال الافريقي سنة ٥٤٦ هى الزحف على القبائل الليبية التي اعتبرها المسئولة الاولى عن الثورة وقد فتك بهم في احدى المعارك ولكنهم عادوا من جديد إلى تنظيم صفوفهم بالتعاون مع قبيلة الناسمون والجرامنت ثم زحفوا على الساحل وخرج لهم القائد البيزنطي من جديد ولكنهم لجأوا إلى الأسلوب التقليدى في الاختفاء في الصحراء ، ثم حين اضطر إلى الانسحاب تحت ضغط جنودهم اخذوا يهاجمون مؤخرة الجيش وعندما اتيحت لهم الفرصة المناسبة انزلوا به هزيمة منكرة وأرغموه على الجلاء عن طرابلس الغرب إلى تونس حيث أعاد تنظيم قواته وأعد نفسه لموقعة جديدة كانت نهاية للثورة في هذه المقاطعات البيزنطية التي أخذت منذ هذا التاريخ تنعم بشيءٌ من الهدوء استمر ما يقرب من مئة سنة حتي الفتح العربي ٦٤٣ م .

وقد اهتم البيزنطيون بالتنظيم الادارى والدفاعي ولم يهملوا هذه المقاطعات التي أصبحت تشكل واحدة من المقاطعات السبع التي تنقسم اليها افريقيا وقد وضعت تحت حاكم يساعده مجلس خماسي وكانت لبدة عاصمة البلاد كما أعادوا تحصين صبراتة كما أعيدت الحدود وتم احياء مشروع الجندى المزارع للدفاع عن النقاط الاستراتيجية الداخلية .

وقد تبنى البيزنطيون برنامجا واسعا لاعادة المذهب الكاثوليكى للشمال الافريقي ويحدثنا بروكبيوس عن برامج واسعة لتحويل سكان الدواخل إلى المسيحية وشيدت كثير من الكنائس في الدواخل وفي المدن الثلاث الرئيسية .

وما كان للاصلاحات الادارية البيزنطية وعودة الكاثوليكية أن تعيد الحياة

إلى هذا الكيان الذى اخذت تنضب فيه الامكانيات البشرية والطبيعية وذهبت هذه المدن بين الموقف السلبي للسكان المحليين وفقدان السياسة الانشائية لدى البزنطيين .

ذلك كان الحال عندما بدأت طلائع الفتح العربي تزحف نحو هذه البلدة تحمل اليها دينا جديدا ، وحضارة جديدة ، ودورا حديثا ما يزال ممتدا بها في الحياة .

طرابلس في عهودها الإسلامية

في تتبعنا لتاريخ هذه المدينة في العهد الإسلامى نلاحظ أن روايات المؤرخين والرحالة العرب تشهد لها بالعراقة والازدهار والبروز ضمن المدن الهامة التي قامت على الساحل الشمالى من قارة أفريقيا . وقد جعلها كثير من الجغرافيين والرحالة العرب حداً فاصلاً تبتدىء به أفريقية ، نحو الغرب . وكان العرب قد اصطلحوا على تسمية المغرب الأدنى الذى يتكون من طرابلس وتونس بافريقية ، وسموا الجزائر (بالمغرب الأوسط) والمغرب (الأقصى) . وهكذا كانت طرابلس نقطة بداية نحو الغرب وهى بالطبع نقطة بداية ايضا نحو الشرق .

إن اهتمام المؤرخين بتسجيل أخبار فتوحها ونهوض عمرو بن العاص شخصيًا بذلك ، يدلّان على ما كانت تتمتع به من أهمية في سلسلة المدن القائمة على الساحل الأفريقي الشمالى . فلم يغفلْها أحد من المؤرخين الذين تتبعوا أنباء الفتوح ، كما لم يهملها أى واحد من الجغرافيين أو الرحالة الذين أتيح لهم أن يزوروا الساحل الشمالى لأفريقيا أو يكتبوا عنه ، وإذا استعرضنا وصف العرب لها في مختلف العهود أدركنا ما كانت تتمتع به من منزلة بين المدن الإسلامية القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

وأول ما يصادفنا من أوصافها في العهد الإسلامى ، ما ورد من أخبار فتوحها . فقد اتفقت الروايات الإسلامية ، على أن عمرو بن العاص قد سار إلى طرابلس ، بعد فتح برقة ، فحاصرها شهراً ، فلم يظفر بها حتى استطاع بعض جنوده الذين خرجوا يتصيدون ، أن يجدوا منفذاً لها من جهة البحر ،

غربي المدينة ، فسلكوه ودخلوا منه وكبّروا ، واستولوا على المدينة . وتصف هذه الروايات بأن السور لم يكن متصلاً بالبحر ، وكانت سفن الروم في مرساها مقابل بيوتهم .

ونفهم من ذلك أن تحصينات المدينة وأسوارها كانت موجهة نحو الجهات التي تصلها بالبر . وأنها كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على صلاتها البحرية ، خاصة في مثل هذه الحالات من الحصار . وكانت طرابلس آخر ما افتتح عمرو بن العاص ، في خلافة عمر بن الخطاب . وكتب عمرو بن العاص يخبر الخليفة بفتح طرابلس ويستأذن في الزحف على أفريقية ، فلم يؤذن له كما يقول بعض المؤرخين .

وإذا استعرضنا ما كتبه الجغرافيون والرحالة والمؤرخون العرب ، في مختلف العهود الإسلامية ، وجدنا ذكرا واضحا لهذه المدينة ، ولغيرها من المدن والبلدان الليبية الداخلية منها والساحلية .

تحدث عنها اليعقوبي فقال :

(إطرابلس مدينة قديمة جليلة ، على ساحل البحر ، عامرة آهلة وأهلها أخلاط من الناس ، افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاث وعشرين في خلافة عمر بن الخطاب) . ويستوقفنا من هذا القول ، وصفها بالقدم والجلال ، وبأنها كانت عامرة آهلة . مما يقطع بأنها كانت تحتل مكانا هاما في تلك الفترة ، بين المدن الإسلامية المنتشرة على الساحل . وقد اهتم اليعقوبي أيضا بوصف بقاع أخرى من ليبيا هي برقة وودان وزويلة وفزان .

ومن الواضح أن العرب وجدوا فيها ، وفي بعض المدن الليبية الأخرى ما أغناهم عن التفكير في إنشاء مدن جديدة . كما هو الشأن في المدن التي حرصوا على إنشائها بالمناطق الداخلية من أفريقيا الشمالية . واتخذوا منها مركزا بحرياً وحلقة اتصال برية وبحرية بين الشرق والغرب . ولم يهملوها كما كان شأنهم مع

بعض المدن الأخرى مثل لبدة . ولكنهم احتفظوا لها بمركزها عبر مختلف العصور وقد شاركت هذه المدينة في مختلف الأحداث التي تعاقبت على الوجود الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط منذ القدم حتى العصر الحديث .

كما ذكرها ابن خردادبة في كتابه (المسالك والممالك) وقال عنها : (اطرابلس أى ثلاث مدائن . وكانت للروم فجلت الروم إلى صقلية) وذلك يؤكد الصلة البحرية التي كانت لها ، في العهود السابقة ، بالسواحل الإيطالية .

كما وصفها الكرخي في كتابه المسالك والممالك فقال : (واما طرابلس المغرب فهى من عمل افريقية . وهى مدينة مبنية من الصخر على ساحل بحر الروم . خصبة واسعة الكورة ، حصينة جدا) وبذلك يقدم لنا الكرخي وصفا لمدينة طرابلس في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ونتبين منه أنها كانت مدينة حصينة ، خصبة .

أما ابن حوقل فقد تحدث عنها حديثا طويلا في كتابه الجغرافي الهام (وصف الأرض) وقدم لنا نصاً جميلا تضمن وصفا ضافيا ، يعبر عن الأهمية التي كانت تحتلها في عصر هذا الجغرافي العربي الكبير .

(وهى مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر ، خصبة ، حصينة ، ذات ربض ، صالحة الاسواق . وكان لها في ربضها اسواق كثيرة ، فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور . وهى ناحية واسعة الكور ، كثيرة الضياع والبادية . وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا . وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره . كالخوخ والفرسك والكمثرى اللذين لاشبه لها بمكان . وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع ، وطيقان الاكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية . السود والبيض الثمينة . إلى مراكب تحط ليلا ونهارا ، وترد بالتجارة على مر الاوقات والساعات صباحا ومساء ، من بلد الروم وارض المغرب ، بضروب الامتعة والمطاعم واهلها قوم مرموقون من بين من جاورهم بنظافة الاعراض والثياب والاحوال . فيتميزون بالتجمل

في اللباس ، وحسن الصور والقصد في المعاش ، إلى مروءات ظاهرة وعشرة حسنة ، ورحمة مستفاضة ، ونيات جميلة ، إلى مراء لا يفتر ، وعقول مستوية ، وصحة نية ومعاملة محمودة ، ومذهب في طاعة السلطان سديد ، ورباطات كثيرة ، ومحبة للغريب اثيرة ذائعة . ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم اهل بلد ، إذا وردت المراكب ميناءهم عرضت لهم دائما الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الارساء ، فيبادر اهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين ، فيقيد المركب ويرسى به في اقرب وقت ، بغير كلفة لأحد ولا غرامة حبة ولا جزاء بمثقال) .

وهذه شهادة من أروع الشهادات التي يقدمها ابن حوقل لمدينة طرابلس ، في عهده . ويهمنا من هذه الشهادة الطيبة ما تضمنته من وصف للأوضاع العامة للمدينة ومركزها الاقتصادى والبحرى . ويمكن أن نستخلص من هذه الشهادة ما يلى :

أن المدينة كانت حصينة كبيرة ذات أسواق صالحة بداخلها وبضواحيها .

وأن ضواحيها كانت خصبة كثيرة الثمار والفواكه اللذيذة التي يقل نظيرها بالمغرب وغيره .

وأنها تشتهر بالاكسية الصوفية المختلفة .

وأنها كانت مركزا بحريا هاما نشطا (تحط بها المراكب ليلا ونهارا وترد بالتجارة على مر الاوقات والساعات ، صباحا ومساء ، من بلد الروم ، وارض المغرب ، بضروب الامتعة والمطاعم) . وفي هذه الشهادة تأكيد على الأهمية البحرية التي كانت لهذه المدينة في العهود الإسلامية من حيث صلاتها بالشرق والغرب والسواحل الشمالية من البحر الأبيض المتوسط .

وأن أهلها كانوا معروفين بحسن السمعة ، وجمال الخلق ، والتجمل في اللباس ، وحسن الصور والقصد . مما يؤكد المستوى الطيب من الحياة الذى

كانوا ينعمون به هذا إلى محبة للغريب أثيرة ذائعة . وإلى غيرة وعصبية ونجدة (بغير كلفة لأحد ، ولا غرامة حبة ، ولا جزاء بمثقال) .

لقد كانت طرابلس من المدن القليلة الإسلامية التي ظفرت بهذا الإطراء ، وهذا التعريف الضافي من ابن حوقل ، مما يؤكد ازدهارها ، وبروز مكانتها بين المدن الإسلامية الهامة على البحر الأبيض المتوسط .

أما المقدسي (من القرن الخامس) فيقول عنها في كتابه أحسن التقاسيم : (واطرابلس مدينة كبيرة على البحر ، مسورة بحجارة وجبل ، لها باب البحر وباب الشرق وباب الجوف وباب الغرب . وشربهم من ابار . وماء مطر . كثيرة الفواكه والانجاص والتفاح والالبان والعسل) .

فالمقدسي أيضا يؤكد وصفها بالمدينة الكبيرة . ونقف منه على أنه كان بالمدينة في عهده أربعة أبواب . كما يؤكد في هذه الأسطر ما وصفها به ابن حوقل من خصوبة وازدهار زراعى ووفرة الثروة الحيوانية التي تبدو لنا من كثرة الألبان والأصواف . ولم يتحدث المقدسي عن مركزها البحرى ، ولكن وصفه بأنها مدينة كبيرة تقع على البحر يوحي بما كانت عليه من أهمية ضمن المدن البحرية الإسلامية .

كما خصّ البكرى أيضا المتوفى سنة ٤٨٧ هـ مدينة طرابلس بوصف هام . ضمن ما وصف من المدن في كتابه (المسالك والممالك) فقال في وصف أهل طرابلس (إن اهل طرابلس من احسن خلق الله معاشرة واجودهم معاملة وابرهم بغريب) . ثم وصف المدينة فقال (مدينة طرابلس ، ويذكر ان تفسير طرابلس بالاعجمية الاغريقية (ثلاث مدن) . وسماها اليونانيون (طربليطة) وذلك بلغتهم ايضا ثلاث مدن . لان طر معناها ثلاث . وبليطة يعني مدينة . ويذكر أن اشفاروس قيصر هو الذى بناها . وتسمى ايضا مدينة طرابلس مدينة (اناس) . وعلى مدينة طرابلس سور ضخم ، جليل البنيان . وهى على شاطىء البحر ، ومبنى جامعها احسن مبنى ، ولها اسواق حافلة جامعة ،

وحمامات كثيرة فاضلة . وبطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود . وفيها رباطات كثيرة ياوى اليها الصالحون ، اعمرها واشهرها مسجد الشعاب . ومرساها مامون من اكثر الرياح) .

(ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات ، لها بساتين جليلة إلى شرقيها ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير ، وداخل مدينتها بئر يعرف ببئر ابي الكنود ، يعيرون به ، ويحمق من شرب منه) .

ولمدينة طرابلس فحص يسمى سوفجين يصاب فيه بعض السنين للحبة مئة حبة . وهم يقولون فحص سوفجين يصيب سنة من سنين) .

وسيعتمد كثير من المؤرخين والرحالة على هذه الشهادة فيكررونها فيا سوف يكتبونه عن مدينة طرابلس ، خاصة أولئك المؤرخين الذين اعتمدوا في تاريخهم على النقل والرواية .

أما الجغرافي العربي الشهير الادريسي (من القرن السادس الهجرى) فقد وصف طرابلس في كتابه (نزهة المشتاق) فقال (ومدينة طرابلس مدينة حصينة ، عليها سور حجارة ، وهى في نحر البحر ، بيضاء حسنة الشوارع ، متقنة الاسواق ، وبها صناع وامتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات . وكانت قبل هذا مفضلة العمارات من جميع جهاتها ، كثيرة شجرة التين والزيتون وبها فواكه جمة ونخل ، الا أن العرب اضرت بها وبما حولها ، واجلت اهلها واخلت بواديها وغيرت احوالها ، وابادت اشجارها وغورت مياهها) .

وتنقل إلينا الفقرة الأخيرة من وصف الادريسي ما كان من أثر لهجرة بني هلال وبني سليم . ومع ذلك فقد ظلت تتمتع بشوارعها الحسنة ، وأسواقها الحافلة ، ووفرة صناعاتها التي تقوم بتصديرها إلى كثير من الجهات .

ويؤكد لنا هذا الوصف الوضع المزدهر الذى كانت تنعم به المدينة في القرن السادس الهجرى . وفي الفترة التي قام فيها روجير ملك صقلية بمهاجمتها .

فلم تكن من المدن المهملة على الساحل الأفريقي الإسلامى ، ولكنها كانت قاعدة هامة استهدفها روجير نفسه بغزواته التي كانت ترمى إلى رد الموجة العربية عن صقلية .

كانت مدينة زاهرة ، كثيرة الخيرات معروفة بمنتوجاتها ومصنوعاتها ، ويقول (وارض طرابلس عديمة المثال في اصابة الزرع ، ولا يدرى ان على معمور الارض مثلها في ذلك . وهذا مشهور معلوم) .

إن هذه المدينة قد تعرضت خلال هذه الفترات التي يصفها الادريسي إلى هزات عنيفة ، لعل أبرزها الهجرة الهلالية ثم الغزوات والحروب النورمانية . وما كان لها من أثر واضح على مركزها الاقتصادى .

أما المؤرخ عبد الواحد المراكشي فيصف طرابلس في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) بقوله (أما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة إلى هذا الوقت) وأشار إلى أهميتها الدفاعية كثغر من الثغور الإسلامية الهامة على الساحل الأفريقي وقال (وكانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشي فيها القوافل ليلا ونهارا . وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس الغرب ، حصون متقاربة جدا ، فإذا ظهر على البحر عدو نوّر كل حصن للحصن الذى يليه ، واتصل التنوير ، فينتهى خبر العدو من طرابلس إلى الاسكندرية أو من الاسكندرية إلى طرابلس في ثلاث ساعات أو اربع ساعات من الليل ، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم . ولم يزل هذا معروفا في أمر البلاد إلى أن خربت الاعراب تلك الحصون ، ونفت عنها أهلها إبان خلّى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب) .

وقد ولد عبد الواحد المراكشي ، بمراكش سنة ٥٨١ وتعلم بها وبفاس ، ثم رحل إلى الأندلس سنة ٦٠٣ ومنها خرج حاجا فطاف ببلدان الشمال الأفريقي والمشرق العربي ثم توفي ببغداد . فهو من المؤرخين الرحالة .

أما الرحالة العظيم العبدرى ، فله شأن مع مدينة طرابلس يختلف عن بقية

الرحالين . إذ مثل النشاز في هذه المعزوفة من المدح والإطراء التي صاغها الرحالة والمؤرخون العرب في وصف مدينة طرابلس ، سواء في ذلك من سبقوه أو من تأخروا عنه ، ممن خصوا مدينة طرابلس وأهلها بأوصاف طيبة حسنة . وهو يكاد يقتصر في وصفه على التنديد بضعف الحياة الفكرية . وكان العبدرى شديد الاهتمام بهذا الجانب في رحلته .

قال :

(ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس ، وهى للجهل مأتم ، وما للعلم بها غرس . اقفرت ظاهرا وباطنا ، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخُلّب ، وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطب . اكتنفها البحر والقفر ، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر ، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر ، لا ترى شجرا ولا ثمرا ، ولا تحوى في أرجائها حوضا ولا نهرا ، ولا تجتلى روضا يحوى نورا ولا زهرا ، بل هى أقفر من جوف حمار ، وأهلها سواسية كأسنان الحمار . ليس على ناشىء فيهم فضل لذى شيبة ولا لذى الفضل بينهم هيبة ، ترى أجساما حاضرة والعقول في غيابات الغيبة . وملابس يلبسها ليلبس بها من ملأ العيون العيبة . إلى بخل لو مازج ماء البحر جمد ، وخالط الهواء سكن في اذار وركد . وخلق يضيق به متسع الفضاء ، ونزق يحق له في ذمه كشف الغطاء ، وأذهان اربت في الضيق على الخاتم ، سواء لديها من حارب أو من سالم ، كأنهم من ضيق افهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم ، فسبحان من خلقهم وأهل تونس طرفي نقيض ، أولئك في الأوج واولاء في الحضيض ، ولم أر بها ما يروق العيون ، وسما عن أن يقوم بالدون ، سوى جامعها ومدرستها فإن لهما من حسن الصورة نصيبا ، ومن إتقان الصنعة سهما مصيبا . وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة ، لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة ، فما يشب بها للعلم طفل ولا يشب صرورة) .

ولم تقتصر نقمة الرحالة على أهل طرابلس ، بل شملت المدينة بأسرها فلم

يستوقفه شيء منها ، ولم يعن بوصفها ، ولم يهتم بغير جامعها ومدرستها والأثر الروماني المعروف باسم قوس ماركوس اوريليوس الذى أعجب به ووصفه وصفا دقيقا . وهو فيما نعلم أول رحالة عربي يقف أمام هذا الأثر التاريخى الجليل فيصفه هذا الوصف الذى يدل على عمق الحس الفني والأثرى في نفس هذا الرحالة ولوصف العبدرى قيمة تاريخية في الدلالة على وضع هذا الأثر في ذلك العهد .

يقول العبدرى :

(ولم ار بطرابلس أثر عناية سوى ما تقدم ذكره ، إلا قبة بباب البحر من بناء الأوائل في غاية الاتقان ، ونهاية الإحكام ، مبنية من صخور منحوتة في نهاية العظم ، منقوشة بأحسن النقش ، مرصوفة بأعجب الرصف . متماثلة المقدار علويها وسفليها ، ولا ملاط بين الصخور من طين وغيره . ومن العجيب ترتيب تلك الصخور ورصفها في الأساس فضلا عن رفعها إلى السقف ووصولها إلى هناك مع افراط عظمتها وفي مقعد القبة صخرة مستديرة منقوشة يحار الناظر في حسن وصفها ، وعلى القبة قبة أخرى عالية ومبان مرتفعة ، ورأيت للقبة السفلى بابا مسدودا ، وعليه من خارجها صورة أسدين قد اكتنفاه مصورين من تلك الصخور بأبدع صنعة وأغربها ، وهما متقابلان على الباب ، وفي كل واحد منهما صورة لجام أمسك بعنانه شخص واقف وراءه وقد منعه أشد المنع ، ولعل ذلك كان لمعنى تعطل وجهل سره والله أعلم) .

لقد كان العبدرى رجلا قوى الشخصية ، وقوة شخصيته تبدو بوضوح من خلال رحلته الهامة التي تعبر عن أصالة ذاتية واستقلال في الرأى وفي الحكم على الأشياء ، فهو لا ينقل آراء المتقدمين عليه وإنما يسجل انطباعاته الشخصية ، وبذلك أعطى لرحلته الهامة مذاقا شخصيا نفتقده لدى كثير من الرحالة الذين أخذوا في بعض الحالات بالآراء الجاهزة أو اكتفوا برصد الأوضاع الدينية والفقهية . ويبدو أن العبدرى كان رجلا مشاكسا ، شرس

الطبع سريع الإثارة والاستفزاز والغضب ، كما يبدو أنه كان سيء الحظ فلم يقع على الذين يقدرون لشخصيته قيمتها ، ويحلونها منزلتها من التقدير والإكرام . وكان من الممكن أن تتغير أحكامه لو وجد من يحسن استقباله ويخصه بالترحيب الذى يستحقه . ولقد كانت مواقف الرحالة القدامى تتكيف بظروف الرعاية والإكرام شأن بعض الصحفيين المعاصرين . ومع ذلك فإني أعجب بهذا الموقف المستقل الذى التزمه الرحالة العبدرى وخرج به على إجماع الرحالة السابقين له والمتأخرين . ولا ريب في أن أحكامه — رغم قسوتها — تتفق مع الواقع التاريخى للحياة العلمية في تلك الفترة ، فلم تكن طرابلس في تلك الفترة من المراكز الثقافية الكبرى التي تضارع المراكز الثقافية الهامة في الشمال الأفريقي مثل تونس وفاس .

والغريب حقا ، أن يزور مدينة طرابلس ، بعد العبدرى ، بفترة قليلة ، رحالة مغربي عربي آخر ، هو ابن رشيد السبتي فيقول عنها في رحلته : (رأينا بلدا حسنا وناسا فضلاء) ويقول عن المدينة : (وبها مدينة حسنة الوضع ، رائقة الصنع ، والمدينة بجملتها حسنة البناء ، متسعة الشوارع حتى كأنها تحاكي شيئا ما من وضع الاسكندرية) وكان ابن رشيد السبتي قد قام برحلته سنة ٦٨٥ هـ ، وقدم إلى طرابلس عن طريق البحر ، بعد زيارته للاسكندرية وما يزال الناس حتى يومنا هذا يجدون شيئا من التشابه بين مدينة طرابلس ومدينة الاسكندرية .

ووقف ابن رشيد أيضا معجبا بمدرسة المدينة . ويبدو أنها المدرسة التي ذكرها العبدرى في رحلته . قال ابن رشيد (واجتزت تلك الليلة التي أقمنا بها ، بعد المغرب ، بشارعها الأكبر ، ولم أكن عرفت المدينة ، فنفحني نسيم عاطر ، كأنه باكرة ماطر ، فخلت نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل ، فالتفت نحو تضوعه متنشقا ذلك النسيم ، وعهدى بتنسّم العطر عهد قديم ، فألفيت عن يسار المار بابا شارعا . ولما حوله من الأبواب فارعا . فتوقفت أتنشق ذلك العرف إلى أن تعرفت أنها مدرسة ، فاقدمت على الدخول تحكما في الاذن للعرف ، فوافيت

وسطها روضة مخضلة من خيريّ احمر ، قد استوى على سوقه ، وناصى بعضه بعضا بسوقه ، وقد علل بالسقي شجره فأينع ، وتفتح زهره فاستكمل واستجمع ، فاقمت بها ساعة أتعلل بذلك النسيم ، وكأني حللت بجنة النعيم ، وكلما انسحب الظلام ، ذلك النمام ، ولد ذلك الابتسام) .

أما الرحالة التجاني الذى قام برحلته في البلاد التونسية والقطر الطرابلسي عامى ٧٠٦ — ٧٠٨ فيقدم لنا أوسع صورة قدمها رحالة عربي عن مدينة طرابلس وضواحيها . وتعتبر رحلة التجاني أوفى مرجع وأشمله عن هذه الفترة التاريخية ، كما تعتبر من أهم المصادر في التأريخ لليبيا وأحوالها العامة في ذلك الزمن . وقد اعتمد معلوماتها وأوصافها كثير من الدارسين والمؤرخين في طليعتهم المؤرخ الكبير ابن خلدون . كما نالت هذه الرحلة أهمية كبيرة في الدراسات التاريخية الحديثة لدى الدارسين العرب والأجانب .

ولقد أتيح للتجاني ما لم يتح لغيره . إذ كانت رحلته هينة لينة وإقامته طويلة، مكنته من الاتصال بمختلف الفئات والاطلاع على كافة الأحوال والأوضاع مع علم بالتاريخ ورجوع دائم إليه ، وتقص شامل لكافة الأحداث والظروف التي تقلبت بالبلاد . ومن هنا كان اتساع اللوحة التي يقدمها الينا التجاني وشمولها ويدل وصف التجاني دلالة واضحة على ما كانت تنعم به من رخاء وازدهار وما كان بها من معالم تدل على أمجادها القديمة ، وما كانت لها من منزلة ضمن المدن الإسلامية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط .

وسنورد هنا أهم النقاط التي تدل على أوضاع المدينة وأحوالها والوصف العام لمعالمها ومرافقها .

يقول التجاني في الوصف العام للمدينة كما تبدو للقادم إليها من بعيد .

(ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار ، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء وخرج جميع أهلها

مظهرين للاستبشار رافعين أصواتهم بالدعاء) ولا ننسى أن التجاني كان في صحبة الأمير أبي زكريا اللحياني .

شوارع المدينة :

(فلم أر أكثر منها نظافة ، ولا أحسن اتساعا واستقامة ، ذلك أن أكثرها يخترق المدينة طولا وعرضا من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية فالماشي يمشي بها مشي الرخ خلالها) .

المرسى وباب البحر :

(وبخارج باب البحر منها منظر من أنزه المناظر ، مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة . وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هناك اصطفاف الجياد في اواذيها) .

القلعة :

(إن آثار الضخامة بادية على هذه القصبة غير أن الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاة أكثرها ، فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن إنما استخرجت منها ، ولها رحبتان متسعتان) .

الرياض :

(وكان فيما يقابل هذه القصبة موضع يعرف بالرياض مخصوص بوالى البلد وأصله من مباني بني مطروح ، رؤساء طرابلس في القديم ، ويذكر من حسنه كان — وثمار ، وضخامة مبانيه ، وهو الآن خرب غير أن به اثارا دالة على ما يذكر عنه) .

مسجد العشرة :

(وفي الخارج منها — أى القصبة — المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة ، لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة ، فيدبرون أمرهم وذلك قبل تملك الموحدين لها ، فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم) .

حمام البلد :

(صغير الساحة ، إلا أنه قد بلغ من الحسن غايته ، وتجاوز من الظرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة ، فبيع من جملة ما بيع منها ، وبالبلد حمامان آخران غيره إلا أنهما في الحسن دونه) .

الأسوار :

(ورأيتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع ، يرومون أن يصلوه بالبحر ، من كلا جانبي البلد ، وابتداء حفره من الركن الذى بين القبلة والمشرق ، وعارضهم في حفره هناك موضع يعرفونه بالرملة ، وهو حقف رمل متسع لاصق إلى جانب السور ولا يزالون أبدا يتكلفون نقله من ذلك الموضع فإذا جهدوا جهدهم في حمله ورميه إلى البحر اعادته الريح كما كان ، لا تقدمه عن موضعه ولا تؤخّره) .

(ويحيط بهذا السور الآن فصيل أقصر منه على العادة في ذلك ، يسمونه الستارة ، ولم يكن في القديم وإنما أمر ببنيانه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص أيام وصوله إلى طرابلس) .

الأبواب :

ذكر منها الرحالة الباب الأخضر وباب الستارة وباب هوارة وباب البحر

(وبداخل المدينة ، خلف باب هوارة بطحاء متسعة يعرفونها بموقف الغنم يبيعون بها أغنامهم ومواشيهم) .

المساجد :

مسجد عمرو بن العاص (ينسب بناؤه إلى عمرو بن العاص) وهو قرب موقف الغنم ، في المكان الذى يقوم عليه حاليا مسجد أحمد باشا القرمانللى .

مسجد العشرة ، مقابل القصبة .

مسجد يقع بين الباب المعروف بالباب الأخضر وباب البحر ، وقد اشتهر بنزول ابن تومرت به عند مروره باطرابلس وإلى جانبه ميضاة جعلت للمتوضين والمغتسلين .

المسجد الأعظم الذى شيده أبو عبيد ، وقد وصفه التجاني (وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة وسقفه حديث التجديد ، وبه منار متسع قائم من الأرض على أعمدة مستديرة فلما تم نصفه سدس . وكان بناؤه في العام المكمل للمئة الثالثة على يد خليل بن اسحاق) .

مسجد الشعاب (وأثنى البكرى على المسجد المعروف منها بمسجد الشعاب ، وذكر أنه أعمرها ، وأما الآن فهو خال لا عمارة فيه) .

مسجد خطاب (وهو بخارج المدينة من جهة شرقيها على البحر ينسب للشيخ خطاب البرقي الرجل الصالح) .

ومنها المسجد المعروف بالجدود ، ويعرف أيضا بمسجد الجدة لأن إحدى جدات بني الأغلب ، ولاة أفريقية ، قد بنته . وهكذا كان يعرف في القديم ، ثم يعرف بمسجد البارزى لسكنى أبي الحسن البارزى به ، وهو بخارج طرابلس من جهة جوفيها مشرف على المقابر) .

مسجد المجاز (ومنها المسجد المعروف بمسجد المجاز . وكان معروفا بسكنى

على بن أحمد بن الخصيب . أقام ساكنا فيه أربعين سنة . وكان فقيها صالحا عالما زاهدا) .

المصلى :

(مصلى البلد بجانب مرسى البلد وباب البحر ، بين جنوب وشرق منه ، وهو محدث الوضع هناك ، وانما كان المصلى القديم في الجهة الغربية هنالك بناه عبد الله بن أبي مسلم وخليل بن اسحاق سنة ثلاثمئة كما تقدم ، وموضع المصلى القديم يعرف الآن بالعيون ، سمى بذلك لأن هناك عيون ماء عذبه ، وهو بشاطىء البحر وماؤها ينصرف اليه) .

والشجرة الوحيدة :

ولم يغفل التجاني وصف شجرة الجميز الوحيدة بمدينة طرابلس فقال : (وبمقربة من هذا المصلى الآن بئر قد نبتت بها شجرة واحدة من شجر الجميز المخصوص نباته بأرض المشرق ، وهو شجر عظام على شكل التين وورقه أصغر من ورق التين وحمله كحمل التين ، إلا أنه ليس للواحدة منه علاقة ، وانما تنبت ملاصقة للعود ، وفي طعمه حلاوة شديدة تصحبه غثاثة . وأهل طرابلس يقولون إن بلدهم في حكم أهل المشرق لنبات هذه الشجرة الواحدة به . وليس بخارج البلد في وقتنا هذا شجرة سواها) .

الكرم والنخل وبيوت المدينة :

(وأما داخل المدينة فلا تكاد دار تخلو من نخلة أو كرمة على اصطلاحهم ، فإنهم يسمون شجرة التين الكرمة ، والكرمة في اللغة إنما هى شجرة العنب) .

المدارس :

(وبداخل المدينة مدارس كثيرة وأحسنها المدرسة المنتصرية التي كان

بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا رحمه الله ، وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين . وهذه المدرسة من احسن المدارس وضعا واظرفها صنعا) .

القوس الرومانية (قوس ماركوس اوريليوس) :

(وبين هذه المدرسة وباب البحر مبنى من المباني القديمة العجيبة ، وهو شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسق الأعالى والتحوت التي لا تستطيع المئة نقل القطعة الواحدة منها . قامت مربعة فلما وصلت إلى السقف ثمنت على إحكام بديع ، وإتقان عجيب صنيع ، وهى مصورة بأنواع التصاوير العجيبة نقشا في الحجر ، وقد بني عليها الآن مسجد يصلى فيه . وأخبرت أن ذلك كان لأن بعض الكبراء حاول هدمها وأخذ رخامها . وعلى بعض قطعها من الجهة الشمالية أسطر مكتوبة بخط رومى) .

المقابر :

(ورأيت مقابر أصل طرابلس كلها فوجدتها قد امتلأت من بني آدم ، وغلبت عظامهم على تراب الأرض ، فلا ترى منها ملء كف من تراب إلا وعليها جمجمة أو عظم ولا سيما الجهة الشمالية منها ، وكثيراً ما يدفنون هناك الغرباء الذين ليسوا من أهل البلد) .

أعلام طرابلس :

تحدث التجاني عن أعلام طرابلس ممن لقيهم أو سمع عنهم ، وسجل أخبارهم وانطباعاته عنهم ولكنه لم يقدم لنا حكما صريحا عاما على الوضع الثقافي

بها على نحو ما فعل العبدرى في رحلته . إلا أن تلك السلسلة من الأعلام الذين ذكرهم تشهد للمدينة بنوع من الازدهار الثقافي .

تشكل رحلة التجاني مصدرا رئيسيا هاما من المصادر التاريخية التي اهتمت بالجزء الغربي من ليبيا في تلك الفترة . وقد احتلت هذه الرحلة وما تزال تحتل مكان الصدارة بين المراجع التي عول عليها كثير من الباحثين والمؤرخين القدامى والمحدثين . يقول العلامة الروسي كراتشكوفسكى في كتابه القيم (الأدب الجغرافي عند العرب عن رحلة التجاني) : (ولما كان سير الرحالة بطيئا ومجالها محدودا فقد كان ذلك في مصلحة الوصف إلى حد كبير ، إذ تمكن المؤلف من الوقوف عند كل ما يمكن ملاحظته في طريق سيره القصير . وقد برهنت رحلته على أهميتها الكبرى ، وذلك بتزويدها بمعلومات وافيه عن جميع المناطق التي زارها وعن الأصقاع المجاورة لها . وهى تتناول مسائل الجغرافيا ، كما تتناول مسائل التاريخ الطبيعى وبوجه خاص التاريخ البشرى . وكما جرت العادة فإنه يستشهد بمختلف المؤلفين ، وبقتبس أحيانا من الوثائق . أما أسلوبه في العرض فأدبي صرف ، ولكنّه لا يثقله بالانطباعات الشخصية أو بمحاولة التدليل على سعة معارفه ومهارته ككاتب ، فهو في هذا الصدد أفضل بكثير من غيره من الكتاب الذين عالجوا التأليف في هذا النمط . وبعد قرن من الزمان قدره ابن خلدون تقديرا كبيرا وأفاد من مصنفه مرارا عديدة في تلك الأجزاء من تاريخه التي أفردها لشمال أفريقيا . وقد دللت أبحاث (امارى) أن التجاني يقدم معلومات تاريخية وجغرافية ذات قيمة كبرى) .

أما الرحالة الكبير ابن بطوطة ، فقد مر بطرابلس ضمن رحلته الكبرى التي قام بها سنة ٧٢٥ هـ ، فلم يصفها لنا ، ولم يستوقفه شيء من معالمها لأنه كان

مشغولا بزواجه من بنت لأحد أمناء تونس ، عقد عليها بصفاقس وبنى عليها في مدينة طرابلس التي وصلها في اليوم الرابع من عيد الأضحى . ويبدو أن أيام العسل قد أنسته المدينة التي أقام بها مدة .

هذا على مستوى انطباعات الرحالة وأوصاف الجغرافيين . أما على مستوى الاحداث والوقائع التاريخية ، فقد توالت على المدينة منذ الفتح العربي حتى الاحتلال الاسباني ، أحداث هامة ، ووقائع تاريخية مشهورة في اطار الحركة العامة التي شملت العالم الاسلامى عامة ، والشمال الافريقي والبحر الابيض المتوسط خاصة ، نحاول أن نجملها في هذا العرض السريع الذى يقصد من ورائه التأكيد على الدور الذى أدته في هذه الاحداث ، وانها بحكم موقعها لم تكن منعزلة عن هذه الاحداث ، بل كانت قاعدة انطلاق لها في بعض الاحوال ، وخط رجعة ودفاع في أحوال أخرى .

وقد سبق القول ، ان قيمة هذه المدينة ، من كل الوجوه ، قد ارتفعت بالفتح الاسلامى ، وأصبحت أكثر حضورا وبروزا في أحداث هذه المنطقة وجعلها موقعها المتوسط ، نقطة التقاء وتفاعل مع كافة التيارات والصراعات التي عصفت بالمنطقتين الشرقية والغربية من البحر الابيض المتوسط على النحو الذى أوضحته انطباعات الرحالة وما يمكن أن يستخلص من الوقائع التاريخية التالية :

شهدت المدينة ، عند المرحلة الاولى من الفتح الاسلامى ، أول أفواج المسلمين بقيادة القائد العربي الكبير عمرو بن العاص الذى حاصرها شهرا حتى وجد جنوده منفذا اليها من الجهة الغربية . وما تبع هذه المرحلة الاولى ؛ من الغزوات والاستطلاعات نحو المناطق الداخلية والساحلية الغربية ، من أجل تثبيت الوجود الاسلامى . كما شهدت المحاولات الاولى لاستردادها ، واثارة أهلها للانتفاض على الفاتحين الجدد ، ثم ترسيخ السيادة الاسلامية بها على يد القادة الذين حملوا راية الفتح بعد عمرو بن العاص . وقد كان لهذه القيادات الكبرى شأن عظيم في مسيرة الفتح الاسلامى للشمال الافريقي ، ونعني بهم عقبة

بن نافع ، وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان ، أصحاب الفضل في نشر الاسلام ، وترسيخ دعائمه في هذه البقاع التي شهدت في عهودهم أو تحت لوائهم بدايات الازدهار والاستقرار والاعمال التنظيمية التي بدأت بتأسيس القيروان على يد عقبة بن نافع ، وتنظيم الادارة ووضع نواة الاسطول الاسلامى بأفريقية على يد حسان بن النعمان .

وقد كان لهذين الحدثين تأثير كبير على وضعها الثقافي ومركزها البحرى الذى أفاد منه المسلمون كثيرا في استراتيجيتهم البحرية ، ومكنها من أن تؤدى دورا رئيسيا هاما في تاريخ البحرية الاسلامية في البحر الابيض المتوسط . تعرض في بعض الحالات إلى الاغفال والطمس ، ولم تقف عنده المصادر التاريخية القديمة لتلقي ضوءاً كافيا عليه، كما لم يعمل القدامى من أبنائها ومتساكنيها على اظهاره والتوثيق له . ولم تبق لنا الا بعض الاشارات المتفرقة ، المنتشرة هنا وهناك ، نجمع خيوطها المتفرقة لنلتمس ملامح هذا الدور الذى كان في جميع الاحوال فعالا وحاسما على نحو ما توضحه للقارئ هذه الحكاية الطويلة لتاريخ هذه المدينة .

ويتسم الطابع العام لمرحلة العهدين الاموى والعباسي ، في هذه المنطقة الغربية ، بالقلق والاضطرابات وكثرة الثورات والانتفاضات . وما من شك في أن المدينة قد تأثرت بهذه الاوضاع التي يعود بعض أسبابها إلى سؤ تصرف بعض الولاة الذين لم يلتزموا العدل ، ولم يسيروا في الناس سيرة حسنة ، كما يرجع بعضها إلى النزعات الاستقلالية والصراع بين أتباع وأشياع بعض المذاهب الدينية ولا يدخل في اهتمامنا استعراض تفاصيل الوقائع التي جدت بطرابلس منذ الفتح حتى الاحتلال الاسباني ، ولكننا نشير فقط إلى الجو العام الذى كان سائدا خلال هذه المرحلة والذى كان له تأثير واضح على أوضاعها الفكرية والاجتماعية وهى في بداية الطور الاول من حكايتها التاريخية .

وترسم هذه المرحلة خطوط وملامح الدور الذى ستقوم به في سلسلة الاحداث المتعاقبة في هذه المنطقة ، وهو دور ارتبط بالمعارضة والانتفاض

الثورة والنزوع إلى الاستقلال والشعور بالكيان الخاص . وثوراتها في هذه المرحلة كانت تتجاوز الرغبة في مجرد تغيير الولاة إلى الانصهار في التيارات السياسية والمذهبية التي اجتاحت المنطقة .

ويكفي أن نشير هنا إلى تأثير الثورات الاولى التي قامت بها ، وخاصة ثورة أبي الخطاب عبد الاعلى السمح المعافرى الذى استولى على طرابلس سنة ١٤٠ هـ ، وأمر الوالى العباسي بمغادرتها ، ثم اتخذ منها قاعدة للزحف على القيروان سنة ١٤٠ هـ للقضاء على ثورة قبيلة ورفجومة بها . وقد استطاع أن يهزمها ويستولى على القيروان ويجعل على ولايتها عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية فيما بعد ، كما واجه ابو الخطاب المحاولات العباسية لاخماد ثورته التي قدرت الخلافة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور خطورتها ولم يهزم الا بعد أن انقسم القوم من حوله . وتتوالى الثورات ، وتجد لها المصادر التاريخية تفسيرات مختلفة تقتصر على طبيعة المنطقة ذاتها وخلفياتها التاريخية ، دون ربطها بالتيارات الفكرية السياسية التي بلغت قمة ازدهارها في هذه المرحلة من العهد العباسي .

ولم يتغير هذا الوضع حتى عند دخول هذه المدينة ضمن الدولة الاغلبية التي تأسست سنة ١٨٤ هـ ، وأصبحت طرابلس تابعة لها . وقد حاول مؤسس هذه الدولة أن يترضى أهل طرابلس بعزل الولاة الذين يرفضونهم ويتبرمون بهم . ولكن ذلك لم يؤد إلى معالجة الاوضاع أو تحسينها ، فلعل مدينة من المدن الساحلية الشرقية لم تتعب الاغالبة وترهقهم وتشاغب عليهم ، كما كانت هذه المدينة بثوراتها وانتفاضاتها المتكررة الامر الذى جعل الاغالبة ينظرون اليها نظرة خاصة ، ويخلعون عليها أهمية كبيرة تمثلت في اصرارهم على الدفاع عنها والمحافظة عليها ، وحرصهم على أن يتولى أمرها أعضاء بارزون من الاسرة الاغلبية . ويكفي أن نذكر أن عبد الله بن الاغلب الذى خلف والده ابراهيم مؤسس

الدولة الاغلبية كان موجودا بطرابلس يتولى حكمها ، واخماد ثوراتها حين بلغه نبأ وفاة والده وأخذ المبايعة له .

لقد تكررت الثورات في هذه المرحلة ، بعضها ناشئ عن ضيق بالحكم الاغلبي ونفور منه ، وبعضها ناشئ عن تفاعل مع الدولة الرستمية الخصم الغربي لدولة الاغالبة . ولعل أهم هذه الثورات حسب تسلسلها الزمني ، ثورة أهل طرابلس ، في الاعوام الاولى من قيام السيطرة الاغلبية ، ضد والي طرابلس سفيان بن المضاء الذى اتفقوا على عزله وأخراجه من المدينة ، واعادته إلى القيروان وقد حاول الوالى أن يتصدى لهذه المحاولة ويقاومها ، ولكنه لم يلبث أن أدرك استحالة الوقوف في وجه تلك الثورة ، فاحتمى هو ورجاله بالمسجد ، ولكن الثائرين لم يتورعوا عن مهاجمته ، وقتلوا أصحابه ثم اعطوه الامان شريطة أن ينفذ قرارهم بمغادرة البلاد . وقد قام الجند بتولية ابراهيم بن سفيان التميمى غير أن الاضطرابات استمرت في المدينة ، وبلغت أخبارها ابراهيم بن الاغلب الذى جرد جيشا ضد طرابلس ، قام باخماد هذه الثورة ، وأقر الوالى ابراهيم بن سفيان تألفا لأهل طرابلس وترضية لهم .

ومن أشهر هذه الثورات أيضا ثورة الجند ، عند تولية عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب على طرابلس سنة ١٩٦ هـ ، إذ حاصروه في داره ، وطالبوه بالخروج من المدينة ، فتظاهر بالاذعان لمطالبهم ، ولكنه لم يتعد الضواحى حتى أخذ يجند الناس ويغريهم بالانضمام اليه ، مقابل أربعة دراهم في اليوم للفارس ، ودرهمان للراجل ، فاحتشد حوله من الناس عدد كبير ، سار بهم إلى طرابلس حيث دار قتال عند مشارف المدينة بينه وبين الجند الثائر . وقد انتصر عليهم عبد الله ، ودخل مدينة طرابلس وأعلن الامان بها .

ثورة هوارة ، بعد عزل عبد الله ، وتولية سفيان بن المضاء . وقد اتفقت مع وجود عبد الوهاب بن رستم في الجبل . وخرج الجند الاغلبي للقاء جموع هوارة . ولكنها استطاعت أن تقتحم المدينة وأن تخربها وتهدم بعض أسوارها بعد أن هرب جندها ذاهبين إلى ابراهيم بن الاغلب .

ومن هنا كان اهتمام ابراهيم بن الاغلب بهذه الثورة الخطيرة فحشد جيشا كبيرا قوامة ثلاثة عشر ألف فارس ، تحت قيادة ابنه عبد الله لانقاذ المدينة واستخلاصها . وقد تغلب على حشود هوارة ، وانتزع المدينة منها ، وجدد ما تهدم من سورها . ولكن هوارة لم ترض بالهزيمة فاتجهت إلى عبد الوهاب بن رستم تستنجده فخف لنجدتها . وقد بذل عبد الله جهدا كبيرا هذه المرة في الدفاع عنها . فأغلق باب زناتة ، وركز القتال عند باب هوارة الذى عرف ايضا فيما بعد باسم باب عبد الله ، بهذه المناسبة . وفي أثناء هذا الحصار وصلت الاخبار إلى عبد الله بان ابراهيم قد توفي ، وانه عهد اليه بالولاية ،- فتقدم إلى مصالحة هوارة على أن تكون المدينة داخل السور والساحل البحرى الغربي للاغالبة وأن يكون ما خارجه تأبعاً لعبد الوهاب بن رستم . وقد مثلت هذه المصالحة تقديرا واضحا من جانب الاغالبة لاهمية الساحل الذى سيلعب دورا هاما في خططهم البحرية لغزو صقلية الذى ساعدهم فيما بعد على احتواء قبيلة هوارة ذاتها ، فدفعوا بها إلى فتح صقلية . وقد كانت منازل هذه القبيلة — كما يقول — ابن خلدون بنواحى طرابلس وما يليها من برقة .

وهكذا يبدو بوضوح الدور الذى لعبته طرابلس كمدينة واهل نواحيها الداخلية في عملية فتح صقلية . وتكاد تغفل المصادر الحديثة هذا الدور ولا تتحدث عنه ، وقد ذكر صاحب رياض النفوس ان أحد زعماء هوارة وهو زواوة بن نعم الخلف قد انضم إلى المحاربين المتجهين إلى صقلية . مؤكدا بذلك مشاركة مدينة طرابلس وأهلها في هذه العملية الحربية الكبرى ، وسنرى من ردود الفعل الصقلية والمسيحية نحوها في المراحل التالية ما يؤكد هذا الدور .

وقد تولى أفراد بارزون من الاسرة الاغلبية ولاية هذه المدينة . نذكر منهم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن الاغلب ، ابو العباس . ولى طرابلس ثم نقله

ابو الغرانيق وجعله واليا على صقلية ، ثم أعاده إلى ولاية طرابلس مرة أخرى . وكان اديبا شاعرًا ، طالبا للحديث والفقه .

ومنهم أيضا محمد بن زيادة الله بن الاغلب بن ابراهيم بن الاغلب ، ولى طرابلس وكان حسن السيرة شاعرا ، خطيبا ، ولكن ابن عمه ابراهيم بن احمد القائم على الامارة الاغلبية حينذاك حقد عليه وغار من سمعته الطيبة لدى البلاط العباسي كمرشح بدلا منه . فخرج ابراهيم بن احمد خفية إلى طرابلس فقتل محمد وصلبه .

وقد كان آخر الولاة الاغالبة احمد بن عبد الله بن الاغلب ، وهو أخو زيادة الله آخر الاغالبة . وكان مسئولا عن الاهمال والتهاون في أمر عبيد الله المهدى الذى مر بطرابلس في طريقه إلى المغرب وهو مؤسس الدولة العبيدية (الفاطمية) .

وعلى الجملة ، يمكن القول بان العهد الاغلبي بطرابلس ، لم يكن عهدا مستقرا كل الاستقرار ، وان تميزت الامور فيه وخاصة في عهد بعض الولاة الصالحين بشئ من الهدؤ النسبي .

وما من شك في أن بعض الولاة البارزين من الاغالبة الذين تولوا أمر المدينة كان لهم تأثير في حياتها الثقافية والدينية .

وشهدت طرابلس في أواخر العهد الاغلبي بها حملة عباس بن احمد بن طولون الذى خرج على حكم والده ، وحاول في سنة ٢٦٥ هـ تسيير حملة إلى طرابلس . ولهذه الحملة أهمية خاصة من حيث أنها كانت تمثل محاولة لاستعادة هذه المنطقة إلى الفلك المشرقي ، بعد أن ظلت طوال العهد الاغلبي مشدودة إلى أحداث المغرب . وقد سار العباس في الاف من رجاله وزحف على طرابلس التي كان يتولاها محمد بن قرهب ، ولكن هذه الحملة فشلت في تحقيق أغراضها

حيث اجتمع عليه الحاكم الاغلبي ونجدة الياس بن منصور الذى كان يحكم جبل نفوسة باسم الرستميين . وقد فر العباس بن طولون إلى برقة ، وفشلت هذه المحاولة التي كانت تستهدف اقامة حكم مستقل عن تونس ومصر.

وشهدت مدينة طرابلس ايضا الستار يسدل على نهاية الحكم الاغلبي الذى ارتبطت به منذ تأسيسه ، وذلك حين حل بها آخر الامراء الاغالبة زيادة الله بن عبد الله ، هاربا من رقادة ، متوجها إلى مصر ، بعد أن أخذت الجيوش العبيدية تزحف عليه من المغرب . وفي مدينة طرابلس التقى بصاحبه بريده عبد الله بن الصائغ الذى تنكر له حين رأى افول نجمه وادبار دولته . وكان ابن الصائغ قد ركب البحر يريد المشرق ، فاضطرته الريح إلى النزول بميناء طرابلس . وقد أجرى الغريمان تصفية حسابية انتهت بقتل ابن الصائغ ، ورحيل زيادة الله إلى مصر.

كان من الطبيعى أن تسعى القوة الجديدة الكاسحة في المغرب والمتمثلة في الدولة العبيدية إلى بسط سيادتها على كافة البلدان التي تصلها لتحقيق حلمها الكبير في العودة إلى الشرق ، مركز الخلافة . ونتيجة لخطتهم الكبرى الرامية إلى الاستيلاء على مصر ، فقد حرصوا على التمكين لأنفسهم في هذه البقعة الهامة التي ادركت نفس الخلافة أهميتها فاستعدت للتصدى للزحف العبيدى في برقة بجيش كان يقوده احمد بن صالح أبي النمر ، أما جيش العبيديين فقد كان بقيادة حباسة بن يوسف من قبيلة كتامة . وقد التقى الجيشان عند سرت ، دون أن يحرز أحد هما نصرا على الآخر. وتحين الجيش العبيدى فرصة استدعاء احمد بن صالح أبي النمر وتراجعه إلى برقة ، فأخذ يسير في اثره ويستولى على كل بلد يتخلى عنه فاستولى على سرت ثم اجدابيا ثم بقية برقة .

وقد حرصت هذه الدعوة أن تؤسس لنفسها تأسيسا جيدا في طرابلس فاعتمدت على عناصر من أكابر الدعاة من أمثال أبي العباس المخطوم أخى عبد الله الشيعى وأبي جعفر الخزرى ، الا أن هذه المدينة لم تتوان أو تتأخر عن ابداء الضيق بهذا النظام الجديد الذى يعتمد مذهب الشيعة ويحارب أهل السنة .

وعادت هوارة إلى دورها القديم في الثورة على هذا النظام الذى لم تتآلف معه . فقامت في وجه والي طرابلس ماقنون بن دبارة الاجابي الذى عينه عبيد الله الشيعى منذ عام ٢٩٨ هـ . وكانت هوارة بقيادة أبي هارون الهوارى ، وزحف معه جماعة من زناتة والمايه وغيرهما من القبائل على مدينة طرابلس محاصرين لأهلها . فأرسل اليهم عبيد الله الشيعى جيشا بقيادة أبي زاكى تمام فهزمهم .

وضاق أهل طرابلس بسياسة ماقنون التي اعتمدت على التسلط الذى مارسته قبيلة كتامة التي قام على أكتافها الحكم العبيدى ، فثاروا ثورة جديدة سنة ٢٩٩ — ٣٠٠هـ وفتكوا برجال كتامة ، وهرب الوالى ماقنون ، وأغلق الطرابلسيون مدينتهم ، وولوا عليهم محمد بن اسحاق المعروف بابن القرلين .

فقرر الشيعى الانتقام من أهل طرابلس ، وجرد حملة كبيرة لمحاربة طرابلس ، بقيادة ابنه أبي القاسم تتكون من اسطول بحرى يتألف من خمسة عشر مركبا قامت بالقضاء على اسطول طرابلس ، ومن جيش برى دفع في طريقه بهوارة ، وضرب الحضار حول طرابلس حتى ساءت حال المحاصرين ، وأكلوا الميتة ، فطلبوا الأمان فأمنهم سوى بعض الأفراد وأغرمهم مبلغا من المال ، ثم دخل المدينة ، وتحكم فيها وقتل من كان فيها من بني الأغلب وقوادهم .

وقد جرت خلال هذه الفترة محاولة قام بها احمد بن قرهب والي صقلية ، الثائر على العبيديين لاستخلاص طرابلس منهم ، فأعد اسطولا من مسلمى صقلية الموالين للخلافة العباسية ، وتوجه به إلى موانئ أفريقية التابعة للعبيديين لمقاومتهم ودعوة الأهالى إلى التزام السنة . ولما علم ابن قرهب بوجود أبي القاسم بطرابلس بقواته البرية والبحرية عاد باسطوله دون أن يهاجم طرابلس . وتؤكد هذه الحادثة الصلة التاريخية التي قامت بين هذه المدينة وجزيرة صقلية ، وامكان اتخاذها قاعدة للمقاومة السنية للحكم العبيدى ، والوقوف في وجه تغلغله إلى الشرق . كما يؤكد وجودها في قلب الأحداث الكبيرة التي عصفت بالمنطقة بصراعاتها المذهبية والقبلية . ولم تكد تستقر

الأوضاع للعبيديين في المدينة والساحل حتى قامت نفوسة بثورة ضد هذا الحكم العبيدى الذى تمكن من القضاء عليها ، فضمن بذلك لنفسه السيطرة على أكثر أجزاء البلاد التي أخلدت ، منذ ذلك ، إلى الهدؤ والسكينة . وقد كان لزوال الدولة الرستمية في تاهرت ٢٩٦ ھ أثر ظاهر في هذا الوضع المريح للعبيديين . فلما فتح جوهر الصقلى مصر ، وأزمع المعز لدين الله الانتقال اليها ، كان يتنقل في مناطق قد استسلمت له أو لم تعد قادرة على أن تظهر له شعور العداء أو الثورة .

وقد شهدت طرابلس المعز لدين الله ، وشاركت في استقباله والترحيب به وأقام بها أياما . يقول ابن أبي دينار (وصل المعز من قابس يوم الأربعاء عاشر ربيع الاول من السنة المذكورة — أى ٣٦١ ھ — ودخل طرابلس يوم الاربعاء الرابع والعشرين من الشهر ، ورحل عنها يوم السبت لثلاث عشرة بقين من ربيع الثاني فوصل إلى سرت في الرابع من جمادى الأولى ، ثم رحل عنها ونزل بقصره الذى بني له باجدابية ، ورحل من اجدابية فنزل بقصره المعروف بالمعزية في برقة) . وكان المعز قد أخذ يستعد لهذه الرحلة منذ سنة ٣٥٥ ھ وأمر بحفر الأبار في طريق مصر لتزويد جيش جوهر الصقلى بالماء ، وأن يبنى له في كل موضع قصر يصلح لنزوله . وكان في موكبه الحافل الاف من الناس قد حشدوا واحتشدوا للسير في ركابه .

وممن ولى قضاء طرابلس ، في العهد العبيدى ، القاضي النعمان صاحب المؤلفات المشهورة في الدعوة الاسماعيلية والتأريخ لرجالها . وقد كانت له مكانة مرموقة في البلاط الفاطمى كما كان مرجع الرأى في كثير من شئونه الدينية والدنيوية ، ويسجل القاضي النعمان مكانته لدى المنصور بالله وسيرته في قضاء طرابلس في هذه العبارة من كتابه (المجالس والمسايرات) قال : (ولما أرحلني المنصور بالله عن مدينة طرابلس إلى الحضرة المرضية ، وافق وصولى اليها يوم جمعة ، فخلع على يوم وصولى وقلدني وأمرني بالسير من يومى إلى المسجد الجامع بالقيروان واقامة صلاة الجمعة فيه والخطبة ، إذ لم يكن بالمنصورية جامع وأمر جماعة من خاصة بوابي القصر الأعظم بالمشي بين يدى بالسلاح إلى أن

صلّيت فانصرفت، ثم خرج توقيعه من غد إلى ديوان الرسائل بأن يكتب لى عهد بالقضاء بمدن المنصورية والمهدية والقيروان وسائر مدن افريقية وأعمالها ، فذكر ذلك وانتشر في الناس ، وعلموا امتثالى ايام كنت بطرابلس أمره فيما عهده إلى في عهد القضاء عليها من اقامة الحق على الشريف والمشروف والعدل بين القوى والضعيف) .

ومن شخصيات طرابلس البارزة ورجالات العهد العبيدى بها ، أبو العباس خليل ابن اسحاق بن ورد ، وهو من مواليد مدينة طرابلس ومن أبناء الجند بها ، تولى مناصب مختلفة في طرابلس ومصر وأفريقية كما تولى أمور صقلية . وكان جبارا عسوفا ، قام بتعذيب أهل طرابلس لاستخراج الأموال منهم . وقد كان رجل المهمات الصعبة . عند العبيديين الذين وجهوه ، بعد صقلية ، إلى المشاركة في اخماد ثورة أبي يزيد الخارجى صاحب الحمار . فقبض عليه ابو يزيد في القيروان فقتله وصلبه . وقد كان خليل ابن اسحاق في بداية أمره رجل علم وثقافة وصحبة للصوفية ، وعكوف بالمساجد ثم انضوى إلى العبيديين فصار من اركانهم التي يعتمدون عليها . وقد كان صاحب مطامح كبيرة ، وله شعر يتميز بالرقة والجزالة وقوة السبك ، صرفه كله إلى مدح المهدى وابنه القائم ، تحقيقا لطموحاته السياسية البعيدة .

ومن أعماله العمرانية التي ينسبها اليه التجاني في رحلته بناء مئذنة الجامع الأعظم بطرابلس .

وعند ما ارتحل المعز لدين الله الفاطمى عن أفريقية ، متوجها إلى العاصمة الجديدة للخلافة الفاطمية بمصر ، ترك على بلاد افريقية يوسف بن بلقين بن زيرى . وألحق الأراضي الليبية بمركز الخلافة ، وعين عليها واليين يتبعانه مباشرة . وفي ذلك اشارة إلى الأهمية التي كان يوليها لهذه البقاع باعتبارها جسرا يصله ببقية البلدان التابعة له في المغرب . وعين لولاية طرابلس واجدابيا وسرت عبد الله بن يخلف الكتامى . . ولكن يوسف بن بلقين ظل يحمل في نفسه طموح التوسع إلى الشرق ، واستطاع فيما بعد ، أن يقنع الخليفة الفاطمى باعادة إلحاق

طرابلس ودواخلها إلى مناطق حكمه . وكان بذلك يضع الحجر الأساسي له ولأسرته في الاستقلال بافريقية . ولكن لم تكد تأخذ الاسرة الزيرية في السير في هذا الطريق حتى ووجهت بطموحات جديدة في الاستقلال بحكم هذه المنطقة تمثلت في اسرة بني خزرون التي ارتبطت بالزيريين بعلاقات مصاهرة ومصالح متبادلة وكانت سندا لهم ، ثم اختلفت معهم وانقلبت عليهم ، واشتبكت في معارك مع باديس ، وفي سنة ٣٩٠هـ تغلب فلفل على المناطق الواقعة بين قابس وطرابلس . دخل طرابلس بمساعدة زناتة ويحتمل أن تكون نفوسة قد ساعدته .

وكانت طرابلس قد دخلت في هذه المرحلة في دائرة الصراع بين الزيريين والفاطميين ، وقد حاولت اسرة بني خزرون توجيهه لمصلحتها ، فأخفقت في بعض الحالات ونجحت في حالات أخرى. ومن ذلك أن طرابلس كانت تحكم من قبل حاكم من الزيريين يعرف باسم عسيلة بن بكار الذى خان الزيريين وقام بتسليم المدينة إلى يانس الصقلى حاكم برقة من قبل الخليفة الفاطمى ٣٩٠هـ فأرسل باديس أحد قواده الذى انتصر على يانس الصقلى وحاصر المدينة التي صمدت لهذا الحصار حتي جاء فلفل بن سعيد بن خزرون الذى أفلت من القائد الزيرى وسلم المدينة إلى ممثل الفاطميين .

وقد شغل فلفل في هذه الفترة بهموم التأسيس لدولته، فأعلن اعترافه وتبعيته في البداية لسلطة الفاطميين وسيطر على الوضع سيطرة تامة ، بل عمد إلى الزحف على قابس وظل في حالة حرب دائمة مع باديس ، وطلب النجدة من الخليفة الفاطمى ، وحين يئس منه اتجه إلى الخليفة بقرطبة يطلب منه العون في مواجهة الزيريين ، وأرسل وفدا في هذا الخصوص ولكنه توفي قبل عودة الوفد فقررت زناتة بالاجماع أن تبايع أخاه (ورو بن سعيد) .

وانتهز باديس هذا الظرف فزحف بجيوشه ضد طرابلس ، فاضطر ورو امام هذا الهجوم إلى الخروج من المدينة . وقد خرج ما بها من الجند لاستقبال باديس في الطريق والترحيب به ، ورافقوه إلى المدينة حيث استقر بقصر فلفل . ويذكر ابن عذارى ، ان باديس قد نزل تحت أسوار المدينة واستقبله الأهالى

بجفاوة كبيرة . وقد نصب خياما فاخرة أقام بها . ولكن عاصفة عنيفة هبت فاقتلعت الخيام ، وعند ذاك نزل الأمير بقصر فلفل .

وحاول ورو ان يستميل باديس ويظهر الخضوع له ، وذلك بالاعلان عن رغبته في التخلي عن العودة إلى طرابلس ، والاكتفاء بحكم نفزاوة من الجنوب التونسي . ولكنه لم يلبث أن نقض هذا العهد وعاد في سنة ٤٠١ هـ إلى محاولة الاستيلاء على طرابلس ، ولكنه فشل في هذه المحاولة وظلت طرابلس تحت حكم بني زيرى .

ولما مات ورّو ، انقسمت زناتة بين مؤيد لأخيه خزرون ، ومؤيد لابنه خليفة . وظل بطرابلس ابو عبد الله محمد بن الحسن ثم أخوه عبد الله بن الحسن يحكمان طرابلس باسم الزيريين . وعندما قام الأمير الزيرى بقتل محمد بن الحسن سنة ٤١٣ هـ بادر أخوه بالانتقام من الزيريين بتسليم مدينة طرابلس إلى خليفة بن ورو الذى قاوم الحامية الصنهاجية ، ودخل القصر ، وطرد الحاكم الزيرى ، ووضع نفسه تحت حماية الخليفة الفاطمى في القاهرة . وأمكنه أن يستفيد من هذه اللعبة الخالدة لتمكين اسرته التي ابتليت هى الاخرى بالانشقاق العائلى والصراع بين أفرادها .

وتبرز اعتبارا من هذه المرحلة ملامح (الدولة المدينة) التي نجدها منتشرة في كثير من بلدان البحر الأبيض المتوسط وسنرى كيف تزداد هذه الملامح رسوخا ووضوحا عبر المراحل التاريخية ، وحتى في الفترات التي خضعت فيها دواخل البلاد لسلطة مركزية واحدة ، بحيث يصبح تاريخ المدينة تاريخا للبلاد بأسرها .

وكانت المدينة تحكم في ذلك الوقت بواسطة أمير يساعده مجلس شورى وقد كان من أبرز الشخصيات الدينية في ذلك الوقت أبو الحسن على بن محمد بن المنمر الذى كان يرأس مجلس الشورى . وقد قام بتسليم المدينة إلى خزرون بن خليفة ، ولكن أخا لسعيد اسمه المنتصر جاء إلى طرابلس واستولى على السلطة ، ونفي أبا الحسن على بن محمد بن المنمر وقد كان لهذا العالم دور هام في القضاء

على أثار المذهب الشيعي وهو الذى عمل على اعادة ترسيخ المذهب المالكى وألغى العبارات الشيعية من الآذان .

وعندما صار المنتصر حاكما على طرابلس ، كانت المنطقة بأسرها تستعد لاستقبال هجرة بني هلال وبني سليم التي كان لها أثر واضح على المدينة وضواحيها سواء في أوضاعها الاقتصادية أو تركيبها الاجتماعى . وقد توزعت كثير من عناصر الهجرة حول المدينة كما يبدو من التقصي لأخبار استقرار العائلات العربية الوافدة . وقد ذكر الادريسي في وصفه لطرابلس ، ان الاعراب قد أضرت بها . وهو يعني بذلك الهجرة الهلالية التي كان لها أثر حاسم على الاوضاع العامة بمنطقة الشمال الافريقي بأسرها .

يلف الغموض المرحلة الاخيرة من حكم اسرة بني خزرون . ويذكر أن خليفة بن خزرون كان صاحب طرابلس حتى سنة ٤٨٨ هـ وانه قد اشتد ظلمه للناس ، فضاقوا به وتبرموا من حكمه ، فما كاد يظهر لهم مغامر غزّي قادم من المشرق حتى رحبوا به ، وسلموه البلد ، وأخرجوا خليفة منها . وهذا الغزي المغامر هو المعروف باسم شاهملك التركى الذى حل بمصر في أيام الأفضل بن أمير الجيوش ، فأكرمه وأقطعه اقطاعا ثم توجس منه ، فأبعده عن مصر ، ثم هرب هو وأصحابه نحو المغرب . فلما وصل طرابلس بايعه أهلها أميرا عليها . فلما سمع تميم بن المعز الصنهاجى بما وقع في طرابلس أرسل جيشا استولى عليها ، وقبض على شاهملك . ثم ان محمد بن خزرون بن خليفة تولاها بعده ، وقرب اليه شيوخ بني مطروح من رؤسائها . وبمحمد هذا ختمت أسرة بني خزرون ولمع اسم اسرة بني مطروح في الوقت الذى أخذ الاسطول الصقلى يهاجم طرابلس .

وبزوال السيادة العربية عن صقلية ، وسقوطها في أيدي النورمان سنة ٤٨٤ هـ برز في الأفق خطر جديد ، تمثل في الرغبة التوسعية التي حملها رجار الثاني وخليفته غليالم من بعده ، وذلك با ستغلال الظروف العامة التي كانت قائمة في الشمال الافريقي والتي تمثلت في ضعف أحوال دولة بني زيرى وانهيار الاوضاع الاقتصادية ، وتألب القوى الصليبية على العالم الاسلامى في الشرق .

وعلى الرغم من العلاقة المتوترة الفاترة بين رجار الثاني والبابوية ، وعدم انخراط رجار الثاني في الحملات الصليبية إلا ان البابوية كانت تنظر إلى أعماله في الشمال الافريقي بعين الرضا لانها تلتقي في أهدافها مع غايات وأهداف الحروب الصليبية .

وقد كان من الطبيعي أن يتجه رجار الثاني ببصره إلى الشمال الافريقي الذي شكل نقطة الانطلاف العربي نحو جزيرة صقلية . فبادر بانشاء أسطول كبير وأخذ يتعقب العرب في جزيرة مالطا أولا ، ثم الشمال الافريقي فاستولى على جربة وصفاقس والمهدية ثم حاصر طرابلس سنة ٥٣٧ هـ ونقب سورها . ولكن ابن مطروح ، استنجد بالاعراب ، من سكان الدواخل الذين هبوا على الفور لنجدته ، وهزموا النورمان في حملتهم الأولى ، وغنموا أسلحتهم ، وبذلك فشلت الحملة الصقلية الاولى . وكان الفضل الاول في فشلها واحباطها إلى عرب الدواخل . ولكن المدينة تتعرض في سنة ٥٤٠ هـ إلى مجاعة كبرى وانقسام سياسي بين الرافضين لبني مطروح والمتشيعين لهم . وقد تمكن الرافضون من الانتصار على الفريق الثاني فأخرجوا بني مطروح من البلد . ولجأوا إلى تولية شخص محايد غريب هو أمير لمتوني كان مارا بها في طريقه إلى الحج . فلما ضرب جرجى الانطاكى الحصار باسطوله ، وشغل أهل المدينة بقتاله ، قام الفريق المشايع لبني مطروح باستقدامهم وارجاعهم إلى البلد ، فلما علم الفريق المعارض بهذه الحركة ، تخلوا عن محاربة الصقليين ، ودارت المعركة بين الفريقين من جديد ، فتهيأت بذلك الفرصة المريحة للغزاة ، فنصبوا السلالم ، وتسلقوا الاسوار ، ودخلوا البلد ، وأفحشوا في القتل والنهب والسبي ، وهرب كثير من سكان المدينة إلى البوادى . ثم اعلن الصقليون الأمان فرجع بعض الجالين وقد أنفق النورمان الأشهر الستة الأولى من احتلالهم في اصلاح أسوار المدينة وفنادقها . ثم ولّوا عليها ابا يحى بن مطروح ، على أن يؤدى الجزية ، لحكومة صقلية . وأخذوا معهم رهائن ، من أعيان البلاد ، ضمانا للولاء . وشجعوا الهجرة من صقلية اليها ، وقد هاجر اليها فعلا عدد من المستثمرين وفي ذلك ما

يفسر عناية النورمان باصلاح الاسوار والفنادق عند أول احتلالهم لها . وكانت هذه الحركة الاستيطانية الأولى من صقلية ، وستتكرر في عهد الأسبان ثم في الغزو الايطالى الحديث .

ولابد هنا أن نضع شهادة الادريسي حول عملية احتلالها موضع الاعتبار ، فقد ذكر « ان رجار استفتحها سنة ٥٤٠ هـ فسبى حرمها وأفنى رجالها ، وهى الآن في طاعته ومعدودة في جملة بلاده » . . خلافا لما يذكره بعض المؤرخين من رفقه واحسانه بأهلها عند وقوع عملية الغزو ، على الأقل .

ولما عهد جرجى الانطاكى بولايتها إلى ابن مطروح التميمى ، ولّى على قضائها أبا الحجاج يوسف بن زيرى من أهلها ، وترك في المدينة حامية من الصقليين والمسلمين . ويذكر انه لم يتدخل في شئ من أحكام المسلمين ، وترك أمرها إلى الوالى والقاضي . وقد أقام ابن مطروح حكما ذاتيا شوريا في طرابلس ، ولم يستأثر بحكم البلد ، وانما اعتمد على مجلس مكون من عشرة شيوخ ، كانوا يجتمعون للتشاور ، وتدبير أمر المدينة ، ويعقدون اجتماعاتهم في مسجد خارج المدينة ، عرف بمسجد العشرة . ويقول المؤرخون ان هذه الظاهرة الديموقراطية ظلت قائمة في طرابلس ، حتى دخلت في دائرة نفوذ الموحدين وطاعتهم ، فألغوا المجلس المذكور على الرغم من استمرار ابن مطروح على رأس ولايتها حتى في العهد الموحدى .

واستمرت تبعية طرابلس لصقلية حوالى اثني عشر عاما ، يبدو أن مطروح قد استطاع أن يؤمن خلالها نوعًا من الحكم الذاتي السليم الذى يقوم على الواقعية ومراعاة الظروف العامة . فما كادت تلوح لابن مطروح ولأهل طرابلس الفرصة بظهور الموحدين كقوة عظمى كاسحة على مسرح الاحداث في الشمال الافريقي حتى تحينوها للتخلص من التبعية النورمانية . ويذكر التجاني من أسباب ثورة أهل طرابلس على النورمان ، ان الصقليين لما رأوا بدأ تغلب الموحدين على أقطار المغرب ، طلبوا إلى أئمة المساجد في طرابلس أن يقوموا على المنابر ، فيذموا الموحدين للناس ويستثيروا كراهيتهم لهم . فاجتمع أهل طرابلس إلى القاضي أبي

الحجاج وأوضحوا له ان هذا الأمر خطير لا يستطيعون تحمله ، فذهب القاضي إلى رئيس الحامية وأفهمه أن ذلك أمر يخالف شروط العقد بين الفريقين ، اذ ينص العقد على أن لا يكلف المسلمون بشئ يخالف دينهم . وذم الموحدين وهم أهل دين أمر يخالف الدين . وأنهى القاضي حديثه بان هذا هو صريح رأى أهل البلد ، فاذا رضي به الصقليون والا فانهم سيجلون عن مدينتهم .

وتتضح من ذلك الروح الاسلامية التي تحكمت على الدوام في مشاعر أهل المدينة وتفاعلها مع الاحداث العربية الاسلامية الكبرى ، ويقظة الشعور الديني الذى انبعث في المغرب مع ظهور هذه القوة العظيمة للموحدين التي مثلت الامل في توحيد شمله ووقوفه في وجه الحملات المسيحية . كما يتضح منها حسن تقدير القوم للظرف السياسي المناسب الذى تجمعت فيه كراهية المحتل إلى حسن تقديرهم لقوة الحامية الموجودة، إلى الأمل في الدعم الموحدى عند الثورة والانتفاض . وفي الليل قام أهل طرابلس ، بنصب الخشب والاناشيط في الطرقات ، لتمنع الخيل من الجرى ، ثم تنادوا بالثورة ، فبادر رجال الحامية إلى خيولهم فركضوها ، فتعثرت بالحبال والخشب ، فاخذوا قبضاً بالايدى وذبحوا وأحرقت بيوتهم بالنار سنة ٥٥٣هـ . وما كاد عبد المؤمن بن على يدخل المهدية ويستقر بها ، حتى وفد عليه ابن مطروح ، على رأس وفد من وجوه طرابلس ، فتلقاهم بالبر والاكرام ، وابقى ابن مطروح على حكم المدينة ورئيسا لقومه ، فظل في الحكم حتى أدركته الشيخوخة في أيام يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠هـ) وكانت مدة حكمه في طرابلس حوالى أربعين عاما . وهى أطول مدة تولى حكمها حاكم واحد . وقد استأذن ابن مطروح والى تونس الموحدى ابا زيد بن أبي حفص بالتوجه إلى الحج عام ٥٨٦هـ ، فاذن له وتوجه بجميع أهله في البحر ، ووصل الاسكندرية ، وتوفي بها في العام نفسه . . وهكذا انطوت صفحة شخصية هامة من شخصيات التاريخ الوطني ، عرفت بالسداد والحكمة والصلاح ، واستطاعت أن تحقق للبلاد فترة طويلة من الأمن والاستقرار والإزدهار الاقتصادى الذى كان له تأثيره على الحياة العامة بالمدينة .

ويتضح من ذلك أن سيادة الموحدين على هذه المدينة ودواخلها لم تكن سيطرة مباشرة . وانما ظلت تحكم حكما ذاتيًا مشمولا بحماية الموحدين كما كان حالها تحت النورمان . وقد تأثرت المدينة حتمًا بما ساد هذه الفترة وبالجو الثقافي العام الذى بعثه الموحدون في الشمال الافريقي كما ازدهرت علاقاتها الاقتصادية مع الموانئ الاوربية .

ولم تكد طرابلس تستريح إلى هذا الحكم الذاتي ، وتنعم في ظله بشئ من الاستقرار ، حتى ظهر مغامر جديد ، هو بهاء الدين قرقوش . وكان من جند صلاح الدين الأيوبي ، حاول بمبادرة شخصية أو باتفاق مع صلاح الدين ، أن يجرب حظه في الاستيلاء على أفريقية ، وإلحاقها بدولة صلاح الدين . فزحف على المناطق الداخلية ، عبر سيوه وأوجلة ثم زويلة التي قضى بها على دولة بني الخطاب . وأعلن سيادة صلاح الدين على جميع الأماكن التي احتلها ودعا باسمه في المساجد وعاونه عرب بني رياح وبني دباب في الزحف على طرابلس التي وجدها مسالمة خالية من كل حامية ، فاستولى عليها سنة ٥٧٩ ﻫ . واحتل قابس وبعض الأماكن الأخرى من أفريقية . في الوقت الذى ظهر فيه اسحاق الميورقي من أسرة بني غانية ، المطالب بملك المرابطين . وقد أدت حركة قرقوش وابن غانية بسلطان الموحدين لان ينهض بنفسه للقضاء عليهما ، وقد أفلح في ذلك وهزمهما عند الحامّة بتونس ، وعادت قابس وقفصة وتوزر وطرابلس إلى سلطان الموحدين . ولكن قرقوش يعود بمعاونة يحى الميورقي إلى الاستيلاء على طرابلس . ولكنهما لم يلبثا أن تخاصما وتقاتلا وهزم قرقوش الذى كان قد ترك عبده المعتوق (ياقوت) بطرابلس . وقاوم ياقوت ببسالة الحصار الذى ضربه يحى الميورقي على المدينة التي لم تستسلم الا بعد أن حاصرتها سفن ميورقية من البحر ، وحصل سكانها على الأمان . ونفي ياقوت إلى ما يورقه . وقد ترك يحى الميورقي على ولاية طرابلس ، تاشفين بن غازى .

وكانت هذه فترة من القلاقل والاضطرابات عاشتها المدينة ، واحتفظت حتى الآن ببعض ذكرياتها . ويبدو أن المنطقة الواقعة غربي المدينة التي تعرف

بقرقارش ، انما تستمد اسمها من الحصن الذى بناه المغامر بها . وقد استطاع يحى الميورقي أن يسيطر على أفريقية وطرابلس الغرب مدة تبلغ حوالى عشر سنوات . وحين علمت المدينة بزحف الناصر الموحدى استغلت فرصة انسحاب يحى الميورقي إلى الجبل ، وخلعت الحاكم الذى تركه عليها . فزحف يحى على طرابلس ، ودمرها تدميرا . ويتفق المؤرخون على أن الدمار الذى حل بالمدينة انما يعود إلى هذه الفترة بعد العمران والازدهار الاقتصادى في ظل بني مطروح .

وحين عادت طرابلس إلى سيادة الموحدين ، عين عليها عبد الله بن ابراهيم بن جامع . وهو من أبناء الأسر المخلصة للموحدين . وقد ظل يحى على اصراره في البحث عن قاعدة ينطلق منها ليسترد ملك أسرته . وقد أخذ يجوب المناطق الداخلية حتى توفي فانتهت بموته اسرة المرابطين . وسنرى هذه الظاهرة في اتخاذ طرابلس والمناطق المجاورة قاعدة لاسترداد الملك أو منازعة المالكين الجدد تتكرر مع آخر افراد الأسرة الموحدية أيضا .

حين أفضت الخلافة إلى الناصر الموحدى ، وتمكن من اخماد ثورة الميورقي والقضاء عليها ، نصب لولاية أفريقية ، أبا محمد عبد الواحد الحفصي نائبا عنه . وقد ظلت هذه الأسرة تحكم هذه المنطقة باسم الموحدين حتى تحركت في نفسها بواعث الطموح والانفصال فأعلنت استقلالها عن الموحدين في عهد أبي زكريا ٧٢٥ ﻫ الذى ألغى اسم الموحدين من الخطبة وخلع على نفسه لقب أمير المؤمنين . ويعتبر عهده من أبرز عهود الحفصيين ، وخلفه ابو عبد الله المستنصر الذى بلغ بالحفصيين أقصى درجات القوة . وكانت مملكتهم تمتد من طرابلس حتى تلمسان .

وقد دخلت طرابلس في اطار السيادة الحفصية . وكان لها دور بارز في الاحداث التاريخية التي جرت بها . ويذكر التجاني انه كان يعيش بطرابلس في سنة ٦٣٩ ﻫ المدعو يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن محمد الهرغي الذى نقم على الأمير الحفصي، لقيامة بقتل وزيره الجوهري الذي كان صديقا له. فأثار ثورة بطرابلس ولكن أغلبية أهل طرابلس لم تقتنع بهذه الثورة وخشيت العاقبة،

فأبلغت الامارة الحفصية التي أرسلت الامر بقتله . ونفذ فيه الحكم وعلقت جثته وجثث أعوانه بباب هوارة . وارسلت الرؤوس إلى تونس .

وبيدو من ذلك أن المدينة قد داخلها شيء من السأم من الثورات والانتفاضات ، ، بعد أن أخذت تسترد قواها ، وتحاول أن تعوض ما فاتها من جراء ثورة الميورقي وثورة قرقوش . وقد أخذت تشعر في مطالع العهد الحفصي بشيء من الاستقرار، فنشطت الحركة البحرية التجارية بها كما عرفت ازدهارًا علميًا تمثل في بروز بعض الأعلام بها من أمثال القاضي أبو موسى عمران بن موسي بن معمر الهوارى الطرابلسي . وقد استقر في قضاء طرابلس حتى سنة ٦٥٨ هـ حين استدعاه السلطان الحفصي لتولى قضاء تونس وظل به حتى توفي سنة . ٦٦ هـ فكانت مدة قيامه بقضاء طرابلس تزيد على ثلاثين سنة .

وقد اكتفى سكان المدينة في مجال الدفاع عنها ، وتحصينها بالاتفاق مع حاكمهم على صرف جزء من الدخل الذى يدفعونه في ترميم السور وتجنيد فرق مستأجرة تشكل حامية قائمة في طرابلس والضواحـي ، وكان أكثر تلك الحامية من محريس وهم فرع من هوارة . وكانت بأرضهم كما يقول التجاني جنزور « أجناد مرسومون في ديوان العطاء ، كلهم من أهلها ، عدوا هنالك جندا لمن يلي طرابلس ، ورسم لهم عطاء يقبضونه من خراج طرابلس فكانوا يذيقون الأعراب شرا ، ويكفون عنهم فسادا كثيرًا وضرًا » . .

وظهرت من جديد نزعات واتجاهات استقلالية لدى عرب الضواحى القريبة الذين ضاقوا بسطوة محريس ، وحظوتها لدى الحاكم الحفصي فسعى مرغم بن صابر الدبابي من قبيلة المراغمة من قبيلة الجواري لدى الدولة الحفصية ، حتى استطاع أن يحصل على ظهير لمنحه ملك قرية جنزور ، حيث اتخذ منها قاعدة فيما بعد للانطلاق في ثورة مشتركة مع مغامر آخر جرى المؤرخون على تلقيبه بالدعي وكان قد ثار في جهات طرابلس . واتجه مرغم إلى السلطان المملوكي منصور قلاوون للحصول على اعترافه ودعمه ، فأرسل اليه وفدا يطلب

اسباغ الشرعية على ثورته ومنحه السنجق . وقد بارك السلطان المملوكى هذه الثورة ولكنه اعتذر عن دعمها بانشغاله بحرب التتر. وقد اجتمع الحليفان الثائران على حصار طرابلس ، وكان واليها محمد بن عيسى الهنتاتي الملقب (عنق الفضة) ولكنهما انهزما امام أسوار طرابلس فانقضا على القبائل الداخلية مثل الماية زواوة ونفوسة ونفزة ثم استوليا على قابس ثم على تونس بعد أن هرب سلطانها ورفض جيشها مقاومته بل انحاز إلى جانبه . وقد اشتد الدعي على الناس وطغى . وقد عين حليفه الكبير مرغم بن صابر واليا على طرابلس . وكتب له منشورا مؤرخا في السابع والعشرين من ذى القعدة ٦٨١ ﻫ وكناه بأبي الوفاء تقديرا لوفائه واخلاصه ولا يبدو أنه نعم بهذه الولاية طويلاً ، اذ استعاد السلطان الحفصي أبو حفص عمر بن أبي زكريا في ٦٨٣ﻫ ملك أجداده وهزم الدعي وحينئذ ارسل اليه والى طرابلس محمد بن عيسى الهنتاتي مقرا بالولاء والطاعة .

ومغامرة اخرى شبيهة بمغامرة آخر المرابطين . يقودها هذه المرة عثمان بن أبي دبوس . وهو ابن أبي دبوس آخر سلاطين الموحدين ، وقد تفرق أبناؤه بعد زوال دولتهم في مختلف البقاع ونزل ابنه عثمان على ملك الاراغون ببرشلونة فرحب به . وكان يحلم باستعادة ملك أجداده ، فركب البحر بنية النزول بطرابلس . وقدم له ملك الاراغون سفنًا وجنودًا ، وأطلق سراح الزعيم العربي مرغم بن صابر الذى كان قد أسره الصقليون سنة ٦٨٢ﻫ وبيع لملك اراغون البرشلوني الذى بيدو انه احتفظ به للوقت المناسب، وبعثه رفقة عثمان الذى وصل إلى طرابلس وحاول الاستيلاء على المدينة بواسطة الجنود المسلمين والعرب الذين جمعهم مرغم بن صابر ٦٨٨ ﻫ . ولكنهما فشلا في هذه المحاولة التي قصد بها عثمان التحرك لاسترداد ملك والده وقصد بها ملك الاراغون ادخال هذه المناطق تحت نفوذه . وقد فشل الحليفان عثمان ومرغم في حصار طرابلس ، ورجعت السفن بعد أن أنزلت عثمان ومرغما بسواحل طرابلس حيث أخذا يجوبان المنطقة ويجمعان المال من الأهالى لتسديد أجرة الجنود المسيحيين ، وبقي عثمان بن دبوس بضواحى طرابلس أميرا على عرب الجواري ، حيث دعاه احمد بن

الليل للانضمام إلى ثورة جديدة ضد تونس ، ولكنها منيت بالفشل وعاد عثمان بن دبوس الموحدى إلى طرابلس ومنها إلى المغرب .

كانت طرابلس تمثل موقعا له أهميته الكبيرة بالنسبة للحفصيين باعتبارها معقلا شرقيا للاقليم الخاضع لسيادتهم . وعندما جاء عبد الواحد الحفصي إلى طرابلس سنة ٦١٤ هـ أمر بتحصين المدينة ورفع سورا باسم الستارة أمام الأسوار الشرقية . واهتم أيضا السلطان ابو عبد الله بتجميل المدينة .

وتوفر لنا رحلة التجاني انطباعات كاملة عن أسوارها وأوضاعها الدفاعية وحرص السكان عند زيارته لها على تحصينها « ورأيتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع يرومون أن يصلوة بالبحر من كلا جانبي البلد ، وابتداء حفرة من الركن الذى بين القبلة والمشرق وعارضهم في حفره هنالك موضع يعرفونه بالرملة وهو حقف رمل متسع لاصق إلى جانب السور ولا يزالون أبدا يتكلفون نقله من ذلك الموضع فاذا جهدوا جهدهم في حمله ورميه في البحر أعادته الريح كما كان » . .

ومن طرابلس أيضا تنطلق محاولة جديدة لانقاذ السلطنة الحفصية من النزاع والانشقاق العائلي ، فقد حل بها أبو يحى زكريا بن احمد اللحياني بعد عودته من الحج سنة ٧٠٩ هـ . وكان قد أقام بها أثناء توجهه إلى الحج سنة (٧٠٧ — ٧٠٨ هـ) كسب خلالها احترام أهل طرابلس . وقد بايعه في عودته ، أهل طرابلس وشجعوه على أمر الدعوة لنفسه والتفوا حوله وقدم عليه العرب من رجالات الكعوب وأبناء أبي الليل ، وقد نجحت الخطة واحتل اللحياني تونس ٧١١ هـ وأخذت له البيعة . ولكن عهده لم يطل بها ولم يبد مقدرة في ادارة دفة الحكم ، اذ داهمته الشيخوخة وتخلى عنه المناصرون ونهض لمقاومته أمير قسنطينة ، فداخله اليأس من ذلك ، فجمع خزائنه ، ولجأ إلى طرابلس ، وأقام بها في محاولة للاحتفاظ بها كقاعدة للعودة ، بعد أن ترك ابنه يقاوم أمير قسنطينة الذى تمكن من احتلال تونس وطرد اللحياني . وحينئذ فكر ابو يحى زكريا بن احمد اللحياني ان وضعه بطرابلس لم يعد آمنا ، فاستجلب ست سفن مسيحية

وشحن ثروته وأركب أسرته وابنه عبد الواحد وترك حكم طرابلس إلى صهره أبي عبد الله محمد بن عمران . ونشر أشرعة سفنه نحو الاسكندرية حيث حل ضيفا على السلطان قلاوون . وظل بها إلى أن مات .

وحين تمكن الأمير أبو بكر الحفصي من التغلب على منافسيه ، واستولى على تونس . ظلت طرابلس مستقلة عن تونس ، تحت حكم محمد بن عمران الذى لم يرض بالخضوع بل تحالف مع أبي ضربة في محاولة لا سترجاع تونس ، واستطاعا فعلا بمعاونة القبائل العربية من بني كعب الاستيلاء عليها . ولكن سرعان ماعاد اليها الامير أبو بكر وطرد هما منها فأنهى أبو ضربة أيامه الأخيرة في تلمسان. وظل إبن أبي عمران حاكما على طرابلس حتى اضطر إلى مغادرتها سنة ٨٢٤هـ . .

وقد طحنت الفتن والاغتيالات ولاة المدينة خلال هذه الفترة حتى نهض أهل طرابلس إلى مبايعة محمد بن ثابت بن عمار وهو مؤسس دولة بني ثابت التي ظلت تتوارث الحكم مدة تقرب من ثمانين سنة . واستمر حكم محمد بن ثابت مدة ثمانية عشرة عاما ، سار في الناس سيرة حسنة ، وأظهر التواضع والزهد في الحكم ، ودعا ممثلا عن السلطان الحفصي لادارة شئون البلاد ، وترك لنفسه مظهر السيادة .

وفي هذا الوقت ظهرت قوة من المغرب جديدة هى قوة المرينيين الذين استولوا على تونس ، فاضطر محمد بن ثابت إلى أن يعلن ولاءه لها . وحين استعاد الحفصيون تونس ، عادت طرابلس إلى استقلالها ، وخلف محمد بن ثابت الذى قتلته احدى القبائل ، ابنه ثابت فسار سيرة تختلف عن والده ، وحولها إلى مايشبه الملك وأخذ يتصرف تصرف الملوك وأحاط نفسه بحاشية رائعة . وفي عهده فكر الاميرال فيليب دوريا المشهور في مهاجمة طرابلس بعد أن فشل في حملته ضد سردينيا . وقد تبرأت جنوا من هذه الخطوة وقاطعت دوريا .

ويذكر ابن خلدون أن تجارا من جنوة كانوا يترددون على طرابلس فلاحظوا ضعف تحصيناتها ، فأغراهم ذلك بالهجوم عليها ، وفي عام ٧٥٥هـ تجمعوا في الميناء، ثم انتشروا في الأسواق لممارسة أعمالهم التجارية، ثم قاموا اثناء الليل بتسلق الاسوار واستولوا على المدينة . فاعلنت حالة الفزع وارتاع الناس الذين خرجوا من بيوتهم للمقاومة . فلما رأوا الاعداء قد تمكنوا من الاسوار لم يفكروا في غير النجاة بأنفسهم ولجأ ثابت بن محمد إلى أولاد مرغم من عرب قبيلة الجوارى فقتلوة وأخاه عمار أخذا بثأر سابق . وكانت مدة حكمه ستة أعوام . وكانت غنائم الجنويين وفيرة ، وأسروا عددا كبيرا من سكان المدينة سبعة الاف نسمة — على ما يقال — واحتفظوا بالمدينة عدة أشهر (خمسة أشهر) ويذكر الزركشي أن إبن مكى صاحب قابس فاوضهم في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفا من الذهب العين ، فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان ولكنهم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد فوهبوها له رغبة في الخير. ثم بعث اليه السلطان المريني المال المطلوب وأمره بان يرد على الناس ما أعطوه فامتنعوا ووضع المال عند إبن مكى . وعقد السلطان أبو عنان على طرابلس لاحمد بن مكى . حتى سنة ٧٦٦هـ وهو العام الذى خلفه عليها ابنه عبد الرحمن بن مكى فسار في الناس سيرة سيئة فكرهه أهل طرابلس ، واستعدوا للانقضاض عليه عند أول فرصة

ويقول الزركشي (وكان خروجهم منها ثاني عشر شعبان من العام المذكور بعد أن نقلوا جميع ما فيها إلى بلادهم جنوة وتركوها خالية خاوية) .

ويقدم ابن حجر العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة) هذا الوصف الهام للطريقة التي تمت بها عملية الاحتلال .

« ثابت بن محمد بن ثابت الطرابلسي أمير طرابلس الغرب ، ولى الامرة بعد أبيه ، وكان شابا غرا ، فاحتال عليه الفرنج بان قدم منهم طائفة في عدة مراكب في صورة التجار ، وهم مقاتلة ، فراسلوا من بها من الفرنج وأطلعوهم

على سرهم ، وأرسلوا من عندهم ترجمانا شيخا مجربا فرأى في البلد غلاء لقلة الحب عندهم اذ ذاك ، فتمت له الحيلة وأشار على ثابت أن يجمع الأسلحة التي مع جند البلد ، ويجعلها عنده في القلعة ليطمئن اليه تجار الفرنج وينزلوا من مراكبهم ويبيعوا ما معهم من البضائع ، وذكر له أن الخمس الذى يخصه من البضائع يجتمع منه مال كثير وينتفع الناس مما معهم من مأكولات ، ففعل فلما تحقق الفرنج ذلك انزلوا من مراكبهم بعض البضائع التي معهم ، وكان معهم عدة أعدال من التين ، ففرح أهل البلد بها وتسارعوا إلى شرائها منهم ، فلما اطمأنوا اليهم تسور الفرنج السور ليلا وهجموا على البلد دفعة واحدة سحرا وأهلها غافلون ، فقتلوا منهم كيف شاءوا ، وحاصروا القلعة ، فهرب ثابت ، وتدلى بعمامته من القصر ، ففطن بعض العرب ممن يعاديه فقتله ، واستولى الفرنج على البلد ، وكان ذلك في سنة ٧٥٦ أو ٧٥٧هـ ولم تزل في يد الفرنج حتى اشتراها صاحب جربة » .

ولكن أسرة بني ثابت ظلت على طموحها في العودة إلى حكم المدينة ، فلم تكد تنتشر الانباء بعودة السيادة الحفصية إلى تونس حتى بادر أبوبكر محمد بن ثابت الذى كان مقيما بمصر ، واستأجر بالاسكندرية سفنا مسيحية أبحر بها إلى طرابلس ، فحاصروها بحرا ثم استمال اليه البدو من الدواخل ، فوقفوا معه ، ثم هاجم المدينة واستولى عليها ، واعترف بالسيادة الحفصية ، وبعث اليهم الهدايا ودعا باسمهم في الخطبة . ٧٧١هـ وبعد سنة من ذلك توفي أبوبكر فانتهى الحكم إلى ابن أخيه على بن عمار الذى داخلته ريبة من قائد الجيش قاسم بن خلف الله ، فبادر إلى ابعادة عن طرابلس ، بحجة جمع الضريبة من مصراته . وقد خاف هذا من غدر الحاكم به ، فتحايل على الاستئذان للسفر إلى الحج فاذن له . وفي الاسكندرية التقى بأحد أعوان سلطان تونس ، وتمكن بمساعدته وحمايته من التحول إلى تونس ، حيث حرض سلطانها على احتلال طرابلس ، فأرسله على رأس جيش صحبة ابنه أبي حفص عمر .

وقد استمر حصار طرابلس عاما كاملا . وصمد ابن عمار بعناد واصرار في وجه الجيوش الحفصية ، وفي وجه العرب (الذين أغرتهم الأموال التونسية) واضطر جيش الحفصيين إلى العودة إلى تونس في ٧٩٣هـ واستطاع على بن عمار أن يحتفظ باستقلاله عن تونس عدة أعوام. ولكنه اضطر إلى البحث عن سند خارجي فجاءه العون من مملكة صقلية المسيحية . وكان ملوك صقلية قد عادوا في نهاية القرن الرابع عشر إلى الاهتمام بشئون افريقيا الشمالية وعاودتهم الرغبة في احتلال جربة التي خرجت من أيديهم سنة ١٣٣٤ م .

وقد نهض السلطان الحفصي أبو فارس عبد العزيز بنفسه إلى طرابلس وأزاح عنها على بن عمار ، وولى بدلا منه ابن عمه يحى بن ابي بكر بن ثابت ثم عاد في خريف ٨٠٣هـ واستولى على المدينة بعد حصار طويل وعين (قائدا) حاكما يتولى شئونها باسمه مباشرة وبذلك انتهى حكم اسرة بني ثابت .

وظلت طرابلس طوال العشر الأوائل من القرن الخامس عشر ، أى خلال عهد الأمير القوى أبي فارس عبد العزيز الذى اعتاد ان يقود حملاته العسكرية بنفسه تابعة للدولة الحفصية ثم أخذت هذه السلطة تخف وتتابعت الثورات بها وساهم فيها عنصر جديد هو عنصر المرابطية ، الأولياء الذى أخذ في هذا القرن بالذات يؤثر على الحياة العامة في افريقيا الشمالية بأسرها . ولهذا العنصر دور كبير في حياة هذه المدينة وتاريخها الديني والاجتماعى والثقافي ، لم ينل حقه من الدراسة العلمية حتى الآن . .

وتتحدث المصادر عن حملات تالية قام بها السلاطين الحفصيون ضد طرابلس أما لتغيير حاكم ، أو جباية ضرائب ، ومحاولة يائسة للاحتفاظ بها . وكانت أخرها حملة السلطان الحفصي على طرابلس عام ٨٦٣هـ التي بلغ فيها تاورغاء . وقد ولى أبا النصر جاء الخير قائدا على طرابلس .

وبانهيار مملكة الحفصيين شكلت طرابلس حكما ذاتيا قريب الشبه بالحكم الجمهورى ، وكان لطرابلس مجلس شورى يرأسه شيخ وأول شيوخ طرابلس

الذين حكموها حكما مستقلا الشيخ منصور الذى قتل سنة ١٤٧٢ م خلفه الشيخ يوسف الذى قتله الطاعون سنة ١٤٨٠ م وأخرهم الشيخ عبد الله ١٤٩٢ م الذى ظل يحكم المدينة حتى هاجمها الأسبان سنة ١٥١٠ م حيث نفوه وأهله إلى بالرمو ، ثم أعادوه بعد استقرارهم في محاولة لاسترضاء الأهالى وكان رجلاً تقيا ورعا صالحا . وكانت له علاقات تجارية حسنة مع بعض موانىء البحر الأبيض المتوسط . وعلى كل حال فان الأخبار المتضاربة عن شخصية عبد الله ، وعن هذه الفترة بصفة عامة تدل في مجموعها على الاضطرابات التي عانتها المدينة وثوراتها المتوالية من أجل الاستقلال بحكمها ، فنجحت حينا حتى كادت تشكل خطرا على الممالك التي كانت تتبعها ، وفشلت حينا آخر مما أضعف في النهاية أوضاعها الدفاعية وجعلها عرضة للاطماع البرية والبحرية وعلى كل حال فقد كانت (حاضرة) حضورا تاما في أحداث هذه المنطقة الهامة . .

طرابلس قبل العهد الاسباني :

تذكر الروايات العربية التي نقلها الرحالة العياشي (أن أهل هذه المدينة فيما ما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال ، وليس بهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة . فبينا هم كذلك ، قدمت سفن للنصارى تجارا بسلع كثيرة ، فنزلت بالمرسى ، فخرج إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ، ونقد لهم ثمنها ، ثم استضافهم رجل آخر ، فصنع لهم طعاما فاخرا ، فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم ، فبهتوا من ذلك ، فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين ، ولا عند جاره إلى أن خرجوا للسوق فأتوا بسكين ، فلما رجعوا إلى بلدهم سألهم ملكهم عن حال البلدة التي قدموا منها فقالوا : ما رأينا بلدة أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة عدو . فحكوا له الحكايتين فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب البحر فدخلها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة واستولى عليها ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا . وانحاز المسلمون إلى تاجوراء

وجبال غريان ومسلاتة ، وصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور) .

ويمكن أن نستخلص من هذه الرواية الخيالية الأسطورية أن المدينة كانت تنعم برخاء عام وازدهار كبير خلال الفترة التي سبقت الاحتلال الاسباني . وإن هذا الازدهار قد أغرق أهلها في الترف فأهملوا وسائل الدفاع وتناسوا أساليب الحرب .

وأن الحركة التجارية كانت نشطة مزدهرة مع السواحل الأوربية . وأن سفن النصارى كانت تتردد عليها بالسلع التي ينقد التجار ثمنها .

مفاخرة الطرابلسيين القدامى بثرواتهم وتبجحهم على نحو ما فعل هذا التاجر الذى صنع لهم طعاما فاخرا ، فما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم فبهتوا ، فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره إلى أن خرجوا إلى السوق فأتوا بسكين .

واعتمد بعض الباحثين هذه الرواية ، لتصوير الواقع القائم لمدينة طرابلس قبيل الغزو الاسباني ، ولكننا نشعر أن هذه الصورة اكثر مطابقة لواقع الحال عند هجوم الجنويين عليها . ذلك أن ما أوردته هذه القصة من إستيلاء النصارى عليها في ليلة واحدة بلا كبير مشقة لا تتفق مع واقع المقاومة العنيدة التي أبداها سكان المدينة للغزو الاسباني على نحو ما أكدته روايات القادة الاسبانيين أنفسهم الذين أشرفوا على قيادة الحملة ضد هذه المدينة . وهو ما يؤكد يقيننا بأن هذه القصة إنما تصور المدينة عند هجوم الجنويين عليها الذين استولوا عليها بالحيلة والغدر كما سبق أن فصلنا .

طرابلس أثناء الاحتلال الاسباني :

تبرز مدينة طرابلس اعتبارا من هذه الفترة بروزا واضحا في أحداث البحر الأبيض المتوسط ، وتبدو من جديد ، كقاعدة من القواعد الرئيسية الهامة التي

كان يجرى الصراع حولها في تلك الفترة الهامة من تاريخ البحر الأبيض المتوسط . والواقع أن هذا الاحتلال قد أظهر ما كانت تتمتع به طرابلس من أهمية في سلسلة المدن الإسلامية بالشمال الأفريقي وما كان لها من مركز في نشاط البحرية الإسلامية في تلك المنطقة . الأمر الذى جعل الاسبان يضعونها ضمن أهدافهم الرئيسية في خطتهم الرامية لإقامة ما يعرف حينذاك بنظام الحاميات (برسيديوس) التي كان من أهم وظائفها القيام بتعطيل نشاط الحملات البحرية المضادة للاسبان وللقوى المسيحية بصفة عامة .

دخلت مدينة طرابلس في ٢٥ يوليو ١٥١٠ ضمن الاحتلال الاسباني واستمرت تحت هذا الاحتلال عشرين عاما ثم سلَّمها الاسبان إلى فرسان مالطا لتخضع لحكمهم مدة أخرى تقرب من عشرين عاما أيضا . وقد بدأت الفرق البحرية الاسبانية باحتلال المرسى الكبير في سبتمبر ١٥٠٥ ثم استولت في مارس على وهران ، وفي ٥ يناير ١٥١٠ م احتلت بلدة بجاية ، ثم شملت الحماية الاسبانية تونس . وفي يونيو ١٥١٠ م اتجهت الحملة بقيادة الكونت بدرو دى نفارو إلى ايطاليا ومنها إلى طرابلس . ويتبين من هذا السير المرحلى ، أن الاسبان كانوا إزاء خطة تقضي بالاستيلاء على المراكز البحرية الرئيسية على الساحل الشمالى لأفريقيا . وقد غادر الكونت بدرو ايطاليا في ١٥ يوليو ١٥١٠ م وتوقف بمالطا ، لتجنيد بعض العناصر الخبيرة . وتحرك بأسطول يتكون من ستين سفينة وعدد كبير من المراكب والزوارق . وحين غادرت الحملة مالطا كانت تتكون من مئة وعشرين قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة ، وعلى ظهرها خمسة عشر ألف جندى اسباني وثلاثة آلاف جندى إيطالى . وعدد من المرتزقة والمغامرين .

هاجم هذا الأسطول مدينة طرابلس صباح يوم الخميس ٢٥ يوليو ١٥١٠ ، وتمكـن من الاستيلاء على المدينة بعد مقاومة بطولية يائسة أبداها السكان الذين كانوا يحاربون من شارع إلى آخر ، واستشهد منهم خلق كثير . طبقا لما تنقله الروايات الاسبانية . (كان هناك عدد كبير من الموتى بين العرب .

وهم من الكثرة بحيث لا تجد موطئا لقدمك إلا فوق الجثث . ويقدر عدد القتلى بين العرب بحوالى خمسة آلاف أما الأسرى فهم أكثر من ستة آلاف) .

وتعطى هذه الأرقام صورة تقريبية عن عدد سكان المدينة في تلك الفترة . إن قوة الحملة التي تحرك بها الكونت بدرو دى نفارو توحي أيضا بتوقعاته عن القوة العربية في المدينة . فما كان له أن يتحرك بمثل هذا العدد الكبير من القطع البحرية والرجال لو لم يكن على علم بأوضاعها الدفاعية الحصينة واستعداد أهلها للحرب والنضال . خاصة وأنه يعتمد في حملته على عناصر قيادية من الايطاليين والمالطيين . وفي ذهن الايطاليين الجنوبيين من سكان صقلية تجربتان سابقتان مع هذه المدينة في العهد النورماني .

ويهمنا من أخبار هذه الحملة تلك الشهادات التي تصور واقع المدينة وأوضاعها خلال هذا العهد . ولعل أبرزها تلك الشهادة التي وردت في الرسالة التاريخية التي بعث بها قائد الحملة الكونت بدرو دى نافارو إلى نائب الملك بصقلية ، ينقل إليه خبر احتلال المدينة ووصفها . قال (سيدى ، إن هذه المدينة لهى أكبر في واقعها مما كنت أتصور . ورغم أن الذين يشيدون بها ويطرونها يتحدثون عنها حديثا حسنا ، إلا أني أرى أنهم لم يقولوا إلا نصف الحقيقة . وبين المدن التي رأيتها في هذا العالم لم أجد مدينة تضاهيها سواء في نظافتها أو تحصيناتها حتى لتبدو معها مدينة امبراطور أكثر منها مدينة لا تنتمى لأى ملك خاص) . وعلينا أن نذكر ، أن هذه الشهادة التي سجلها دون بدرو ، إنما كانت بعد احتلاله للمواقع التي ذكرنا من الشمال الأفريقي وفي ذلك دلالة على المكانة التي كانت لها بين المواقع الساحلية المذكورة .

ويقدم لنا أحد رجال الحملة الاسبانية وهو باتستينو دى تونسيس وصفا لمدينة طرابلس في تلك الفترة :

(تقع مدينة طرابلس في سهل . وهى مربعة الشكل . ويحيط بها سور يمتد أكثر من ميل . ولها سوران مزدوجان تحف بهما خنادق منخفضة ضيقة .

السور الأول صغير ومنخفض (وهو ماعبر عنه التجاني بالفصيل) . أما السور الثاني فهو مرتفع جدا وضخامته متناسبة مع الأبراج . وهى ذات مواقع دفاعية قوية ضخمة . ومحاطة بالبحر من جهاتها الثلاث . ولها ميناء ممتاز قادر على أن يستوعب أربعمائة سفينة . ومن أجل ذلك كان فقدان تلك المدينة قضية مؤسفة . يقال إنه يسكنها أكثر من عشرة آلاف نسمة من العرب . وبعض اليهود) .

نستطيع أن نستخلص من هذه الأوصاف الاسبانية لمدينة طرابلس في تلك الفترة الوقائع المحددة التالية :

أن مدينة طرابلس كانت مدينة مزدهرة شاعت لها سمعة الرفاهية والرخاء لدى الأوربيين مما يعكس بصورة واضحة في تلك الفرحة التي عمت الأوساط المسيحية لوقوع هذه المدينة في قبضة الاسبان وما كان لها من صدى كبير تجلى في المظاهرات التي نظمت في بعض مدن ايطاليا وتبادل التهاني بين مرشد رودس ودوج البندقية وبين شارل الخامس الاسباني الأمر الذى يؤكد الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي كانت تتمتع بها المدينة يقول روسي (كانت طرابلس في ذلك الوقت مدينة تجارية . وتعتبر أغنى من تونس ويتردد عليها تجار العرب والشمال الافريقي والأتراك والجنويز والصقليين والمالطيين) .

إنّ المدينة كانت تتميز بالنظافة التي نوّه بها كثير من الرحالين العرب والأجانب عبر مختلف الفترات والمراحل التاريخية على نحو ما نرى من أقوالهم.

أن المدينة كانت محصنة تحصينا جيدا قويا منيعا في أسوارها التي تحيط بها وأبراجها العالية .

أنها كانت تتوفر على ميناء ممتاز قادر على أن يستوعب أربعمائة قطعة بحرية من مختلف الأحجام . وذلك كله يؤكد الأهمية البحرية والصلات التي قامت بينها وبين الموانئ العربية في الشرق والغرب والموانئ الأوربية في الشمال .

ولا بد أن نلاحظ هنا أن الإحتلال الاسباني قد اقتصر على مدينة طرابلس

وقلعتها . ولم يستطع أن يتعدى إلى أبعد من ذلك . وإلى الشرق كانت بلدة تاجوراء تشكل قاعدة حربية هامة تتجمع فيها ، وتنطلق منها حركة المقاومة للوجود الاسباني .

وقد تأثرت مدينة طرابلس من هذا الاحتلال الذى حد من نشاطها وقضى على حركتها التجارية وقطع صلاتها بين الشرق والغرب والبر والبحر ، إذ عاشت الحامية الاسبانية طوال هذه المدة في وضع حربي قلق ، متعرض على الدوام لهجمات العرب اللذين كانوا يبذلون الجهد لاسترداد المدينة وطرد المحتل الدخيل . كما أن الاسبان لم يكونوا مشغولين بالمدينة وتطورها خلال هذه الفترة قدر انشغالهم بالدفاع عن هذه البقعة ، فصرفوا الوقت في الأعمال الدفاعية وحصنوا قلاع المدينة وأسوارها القديمة .

وقد عمل الاسبان على ضمان احتكار الحركة التجارية ففرضوا الضرائب الفادحة على البضائع المنافسة الواردة من مواقع أخرى . وأخذ الوضع التجارى ينهار بسرعة وقلّ عدد السفن الوافدة على الميناء وتحول القسم الأكبر إلى الموانى الفرعية الأخرى ، وزادت من هذه الأزمة هجرة السكان وعزلة المدينة حيث كان المقاومون يمنعون أية حركة منتظمة تتجاوز أسوارها للاتصال بالدواخل والمراكز الساحلية الأخرى بينما انتعشت حركة تجارية في الموانى الصغيرة على الساحل الطرابلسي التي كانت بعيدة عن السيطرة الاسبانية .

وحاول الاسبان تشجيع الهجرة الاستيطانية إلى مدينة طرابلس فأصدر هوجو دى مونكادا نائب الملك بصقلية في ١٦ أكتوبر ١٥١١ م منشورا يعلن فيه عن تقديم تسهيلات لمن يرغب في السفر والإقامة بطرابلس وتقضي هذه التسهيلات بتقديم المساكن الملائمة والأراضي المناسبة والإعفاء من الضرائب والرسوم لمدة عشرة أعوام وتبرئة المهاجر من كل إدانة مدنية أو جنائية سابقة .

وذلك يكشف عن الأهمية التي كانت للمدينة في مخططاتهم الحربية بحيث عملوا على تشجيع الهجرة اقتناعا منهم باستحالة الدفاع عنها دون سياسة

استيطانية . ولقد كان الطابع الذى سيطر على هذه المدينة في هذه الفترة طابعاً حربيا عسكريا . وحين فشلت المخططات الاستيطانية ، عمل الاسبان على استمالة السكان بإطلاق سراح حاكم المدينة السابق وإرجاعه من منفاه لاستخدامه في تهدئة الحالة وتوطيد العلاقة بين المحتلين والأهالى . وقد زار طرابلس في هذه الفترة الرحالة المغربي الكبير أبو الحسن الوزان المعروف باسم ليون الافريقي . وذلك في سنة ١٥١٨ وقدم لنا صورة عن الدمار الذى لحق بها من جراء العمليات الحربية الاسبانية . وذكر أنها كانت تستعيد سكانها وأن القلعة كانت مجهزة بأسوار ضخمة ومزودة بمدفعية . وقد وصف الوزان طرابلس في كتابه الهام عن وصف أفريقيا بما يلى : (لقد بناها الأفارقة بعد خراب طرابلس القديمة وهى مسورة بأسوار عالية وجميلة ولكنها ليست قوية جدا . وهى تقع في سهل منبسط تنتشر فيه أشجار النخيل وبيوتها جميلة إذا قورنت ببيوت تونس كما أن ساحاتها منظمة وتتميز بصناعات مختلفة تقوم على جوانبها أغلبها وأكثرها انتشارا حياكة النسيج) . كما تحدث عن اهتمام سكانها بالتجارة وأهمية موقعها الذى يجعلها تتوسط نوميديا وتونس والاسكندرية (وليس ثمة مدينة غيرها حتى الاسكندرية) كما أشار إلى اهمية قربها من صقلية ومالطا وحركة التبادل التجارى بينها وبين البندقية .

قلنا إن المدينة قد انهارت في ظل الاحتلال الاسباني وضعف مركزها التجارى ، وهجرها سكانها إلى الضواحى كما قتل عدد منهم وأسر البعض الآخر . ويؤكد لنا هذه الصورة عن المدينة التقرير الذى قدمته البعثة الفنية التي أوفدتها هيئة فرسان مالطا للاطلاع على أحوال المدينة وتكوين فكرة عنها قبل تقرير الموقف من عرض الامبراطور شارل الخامس بالتنازل عنها للمنظمة المذكورة مع جزيرة مالطا .

وقد تركز تقريرهم على أحوال المدينة والسور وميناء طرابلس فذكروا أن المدينة تقع في مكان صحى ، ويحيط البحر بثلثيها ، أما الثلث الباقي فيحيط به

سور دائرى طوله ٣٧٢٨ خطوة . وقد دمرت مسافة من السور تبلغ مئتي خطوة بقصد الاستفادة من موادها في تدعيم تحصينات القلعة. أما الأسوار فيبلغ ارتفاعها قصبتين ونصف القصبة وأنها مهددة في أكثر من مكان بالانهيار والخراب ، وقد جرت حمايتها بواسطة أسوار إضافية لا تصمد للمدفعية ، وهى بلا أبراج وخنادقها ضيقة وليست عميقة أما المنازل والمنشآت فقد لحقها الخراب والدمار نتيجة الهجوم الواقع سنة ١٥١٠ م أما القلعة فهى تكاد تكون مربعة الشكل ، وذات برجين أو ركنين حادين يواجهان المدينة . وهى في حاجة إلى الترميم والإصلاح سواء فيما يتصل بالأساسات التي تآكلت بتأثير البحر أو بما يتصل بتلبيس الأسوار المكونة من تربة رملية . ويعتقد أنها لن تصمد للمدفعية العنيفة . يضاف إلى ذلك أن القلعة والمدينة تتحكم فيهما هضبة أو جبل صغير يقع إلى الجانب الجنوبي الشرقي . أما الميناء فهو صغير وليس مضمونا ، تهدده الرياح الشرقية ، وتقيه بعض الجزر الصغيرة من الجهة الغربية . وطرابلس مزودة بالمياه وأن هناك بئرا قرب القلعة من الجهة الشرقية ، وأن السكان قد انخفضوا إلى ستين عائلة عربية وهم يملكون خمسة وعشرين حصانا للدفاع عن المدينة والقيام بهجمات ضد الأعداء . وهم موالون للاسبان . ويتمثل الدخل في نسبة العشرة بالمئة التي تجبيها الجمارك على البضائع والرقيق .

ويتضح لنا أثر هذا الاحتلال الاسباني على المدينة من المقارنة بين هذا التقرير الذى قدمته بعثة فرسان مالطا ، وبين التقرير الذى كتبه باتستينودى تونسيس عقب احتلال الاسبان للمدينة مباشرة . خاصة فيما يتصل بالأوضاع الدفاعية للقلعة وانخفاض عدد السكان وسوء أحوالهم الاقتصادية والدمار الذى لحق المدينة . فقد ذكر دى تونسيس أن عدد سكان المدينة في بداية الاحتلال الاسباني كان يقرب من عشرة آلاف نسمة ثم انخفض هذا العدد إلى ستين عائلة عربية كما جاء في تقرير فرسان مالطا .

وقد كان اهتمام الاسبان بأمر تدعيم القلعة وتحصينها أكثر من اهتمامهم بتحصين المدينة ، بدليل قيامهم بتدمير مسافة من السور للاستفادة من مواده

في تدعيمها وفي ذلك دلالة أخرى على انهيار المدينة وهوان شأنها لديهم . وقد كان الجهد المعمارى الوحيد الذى بذله الاسبان خلال هذه الفترة هو إعادة بناء القلعة وتحصينها وإنشاء بعض الحصون والأبراج الأمامية للدفاع عن الميناء .

يمثل الاحتلال الاسباني مرحلة انهيار ، وضعف في تطور المدينة الذى كان قد بلغ أقصى مداه خلال الفترة التي ازدهرت فيها العلاقات بمواني البحر الأبيض المتوسط خلال الفترات الأولى من المد الإسلامى نحو اسبانيا وصقلية وجزر البحر الأبيـض الأخرى حيث كانت المدينة تمثل محطة متوسطة لحركة الملاحة البحرية التجارية بشبكاتها المختلفة التي تربط بين الشرق والغرب الإسلاميين . بالإضافة إلى الأثر الذى ساد هذه المواني عقب الحروب الصليبية وبداية مطالع عصر النهضة في ايطاليا حيث تأثرت المدينة بالازدهار الواسع الذى شمل الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط .

طرابلس في عهد فرسان مالطا :

لعل الصورة التي توفرت لنا عن المدينة في عهد فرسان مالطا هى أوسع وأشمل منها عن الفترة التي تقدمتها ، وإن لم تختلف عنها بشكل حاسم ، إذ أن الوضع السياسي والاقتصادى للمدينة قد ظل على حاله ، والتزم السكان نفس الموقف من الاسبان ، بل لعلهم لم يكونوا يفرقون بين الجنسين والاحتلالين ، فقد كانوا في شرعتهم جميعا (نصارى) لا فرق عندهم أن يكونوا من الاسبان أو من الفرسان . والواقع أن أغلبهم في العهدين والحالين كانوا من سكان ايطاليا الجنوبية ، صقلية وكالابريا ، ومن هنا فإن الصورة لم تتغير كثيرا . وقد ترددت المنظمة في قبول ضم طرابلس إليها . ذلك القبول الذى جعل منه شارل الخامس شرطا ضروريا للتنازل عن مالطا . واستندت المنظمة في هذا الامتناع إلى عوامل كثيرة صور بعضها التقرير الذى سبق أن أشرنا إليه . وقد كانت صعوبة الدفاع عن المدينة وأوضاعها العامة المنهارة من الأسباب التي دفعت المنظمة إلى هذا التردد .

وقد ظلت المدينة في عهد فرسان مالطا على انعزالها عن بقية أجزاء البلاد ، وأستمر النقص في عدد سكانها الذين نزحوا إلى المناطق الداخلية المجاورة . وقد ذكرت الوثائق أن عدد سكانها في هذه الفترة لم يكن يزيد على ستين أو ثمالين عائلة . وكان القلق مسيطرا على الفرسان من تزايد النفوذ العثمانى على السواحل الأفريقية وتجمع الثوار في مناطق تاجوراء . وكانوا يرقبون الأحداث بحذر وخوف بالغ تعبر عنه وثائقهم ورسائلهـم إلى المرشد الأكبر وأستنجادهم بالبابا للحصول على المساعدة في حماية قلعة طرابلس والاحتفاظ بها حتى لا تتحول إلى وكر للقراصنة على حد تعبيرهم .

لقد كان تاريخ المدينة في هذا الفترة هو تاريخ القلعة . وتتوفر لدينا بعض المعلومات من وثائق وتقارير فرسان مالطا عن الحياة التي كانت تعيشها القلعة والمدينة في تلك الفترة .

وتتخذ الحياة في القلعة شكل الحياة الذى التزمه الفرسان ، وهو طابع يجمع بين الناحية الدينية والعسكرية . ولذا فإن الحاكم يحرص عند استلامه لمهام الحكم على الحصول على قسم الولاء له وللمنظمة من جميع الضباط والجنود والعاملين في خدمتها . كما يتفقد أسلحتهم ويحاول سد النقص فيها . والتأكد من تأدية مراسم العبادة في كنيسة القلعة . وكان يجرى دفع مرتبات الجند مرة كل أربعة أشهر . ويبدو من بعض الوثائق أن بعض العرب واليهود كانوا يقيمون بالقلعة وكانت تصرف لهم حصة غذائية أوصى المرشد الأكبر بالنظر في الغاية التي قررت من أجلها والعمل على إلغائها إذا تبين للحاكم أنها قد استخدمت إستخداماً سيئا .

وكان المرشد الأكبر ينبه إلى وجوب العناية بحرس القلعة ، ويدعو إلى التشديد في الحراسة الليلية على الأسوار ، والحراسة النهارية عند الأبواب وعدم التسامح إزاء المخلين بالواجب كما يأمر بعدم فتح بابي المدينة (الباب البحرى والباب البرى) في وقت واحد . كما يأمر المرشد الأكبر بعدم السماح بدخول

الأتراك والعرب واليهود إلى القلعة ، باستثناء الذين يراجعون من أجل أمور هامة ، فيسمح لهم بالدخول نهارا على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم عند المدخل .

ويحظر المرشد الأكبر على أصحاب الرقيق إبقاء أكثر من أربعين أسيرا اللازمين للطحن والقيام بالخدمات الأخرى في القلعة ، على أن ينقل بقية الأسرى خارجها حتى يمكن الاطمئنان إلى سلامتها وعدم تعرضها للأخطار . وقد اهتم المرشد بإصلاح وترميم السوق ، رغبة في إنعاش الحركة التجارية على أن لا تقام هذه السوق عند الخندق القريب من القلعة . وكانت المنظمة تحتكر البيع والشراء في القلعة وكذلك المتاجرة مع القراصنة التي يتولاها الحاكم وأمين الخزينة . وقد نتج عن هذا الاحتكار قيام سكان المدينة بشراء حاجياتهم من القلعة . ونصح المرشد بالعمل على فتح متجر خارج القلعة أو حانة يباع فيها النبيذ والخبز والزيت والجبن والبقول والعسل وغيرها من المواد التموينية لحساب الخزانة العامة . ولا يحق لغير هذا المتجر أو الحانة بيع مواد التموين . بحيث يضمن الربح للمنظمة ، والحيلولة دون دخول عدد كبير من العرب إلى القلعة .

ويتضح من ذلك أن القلعة كانت في حالة طوارىء دائمة . وكانت تعيش حياة مضطربة ، مشوبة بالخوف من المفاجآت والاحتمالات ، وتوقع هجوم المواطنين والأتراك عليها ، بين حين وآخر . وتبدو لنا حالة الخوف هذه من حظر الإبقاء على عدد كبير من الأسرى بالقلعة ، ومنع دخول العرب والأتراك إليها إلا لضرورة لازمة على أن يتركوا أسلحتهم وخيولهم خارجها ، وإنشاء متجر خارج القلعة لبيع المواد الغذائية لسكان المدينة ، وتشديد الحراسة على الأبواب نهارا والأسوار ليلا ، وعدم فتح بابي المدينة (البحرى والبرى) في وقت واحد وحظر خروج الجند من القلعة بغير سلاح .

تلك هى بعض ملامح الصورة التي كانت تعيشها القلعة والمدينة في عهد فرسان مالطا . وهى صورة لا تختلف كثيرا عن الوضع الذى كان سائدا بها

خلال فترة السيادة الاسبانية عليها . ولم يترك فرسان مالطا أى أثر معمارى بمدينة طرابلس سوى بعض التحصينات بالقلعة ، وخاصة البرج الذى كان يعرف في عهدهم باسم القديس يعقوب . الذى دمرته القنابل فيما بعد ، وأعيد ترميمه ببعض التعديلات .

طرابلس في العهد العثماني الأول :

يبدأ هذا العهد بوقوع طرابلس في أيدى العثمانين واجلاء فرسان مالطا عنها عقب الحصار البرى والبحرى الذى ضرب حولها في أغسطس ١٥٥١ م وقد بدأ الهجوم على قلعة طرابلس ، وهى معقل فرسان مالطا ، في الثامن من أغسطس ، بعد أن تم تنسيق كافة العمليات الحربية بين سنان باشا قائد الأسطول العثماني ومراد آغا حاكم تاجوراء . واستمر الحصار عدة أيام قصفت القلعة خلالها قصفا شديدا ألحق بها أضراراً فادحة ، واضطر فرسان مالطا إلى الاستسلام ، وتمكن الأتراك أثر ذلك من دخول المدينة والقلعة في يوم ١٤ أغسطس ١٥٥١ ، وأقاموا احتفالا كبيرا بانتصارهم في الخندق المقابل لخرائب القلعة .

وقد كان مراد آغا أول من شغل منصب الوالى التركى على البلاد وواجه في مستهل عهده ، مشاكل عديدة ، كان أبرزها العمل على إعادة تعمير المدينة وترميم القلعة ، وتنشيط الحياة العامة في البلاد ، بعد ما تعرضت له من أضرار فادحة خلال العهد الاسباني وعهد فرسان مالطا .

وعادت مدينة طرابلس ، بعودة السيادة الإسلامية إليها ، إلى احتلال مركزها كقاعدة هامة من قواعد البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط ، وبرزت مشاركتها في كافة الأحداث التي وقعت في هذه الفترة سواء في استرداد المواقع المحتلة من التراب التونسي أو في الإغارة على المواقع المعادية على السواحل الأوربية أو رد الهجمات المضادة أو في المعارك الكبرى التي جرت حول مالطا ومعركة لبانتو .

وقد اهتم مراد آغا بالناحية الدفاعية للمدينة والقلعة . فقام بترميم القلعة ، وحول الكنيسة التي خصّصها فرسان مالطا في القلعة باسم القديس ليوناردو إلى مسجد .

واستمر مراد آغا في حكم طرابلس إلى سنة ١٥٥٦ حيث أدركته الشيخوخة ، وأخذ منه العجز كل مأخذ فانسحب إلى تاجوراء ، وأنشأ مسجده المشهور بها . ويقال إنه قد استعان في بنائه بالأسرى الذين كانوا لديه ، ثم أحسن إليهم وأطلق سراحهم وقام بتسفيرهم إلى بلدانهم الأوربية ، بعد إتمام المسجد الذى أقامه على ٤٨ عمودا . وقد أقامه على شكل حصن . ومات مراد آغا بتاجوراء وقبره مشهور بها . وقد برز اسم مراد آغا في مجال الإنشاءات المعمارية وتاريخها بطرابلس ، بهذا المسجد الذى ما يزال من أهم المعالم الأثرية الإسلامية بالبلاد .

وقد خلفه درغوث باشا . وقد كان أكثر اهتماما بالناحية المعمارية في المدينة التي أحبها ، وجعل منها عاصمته في الشمال الأفريقي ، والقاعدة الكبرى لعملياته البحرية الموجهة إلى المنطقتين الوسطى والغربية من البحر الأبيض المتوسط وقد مثلت عهود الولاة العثمانيين الأوائل الأقوياء فترة نمو وازدهار في المدينة . وأخذ مركز هذه المدينة يعظم بقوة هذه الشخصية البحرية الهامة التي كانت قد سيطرت سيطرة تامة على البحر الأبيض المتوسط وتاريخه خلال هذه الحقبة ، أعادت إلى الأذهان سيرة رجال البحر العظام ، من أمثال خير الدين بربروس . وإذا كانت قوة خير الدين قد خلعت أهمية كبيرة على مدينة الجزائر وأدخلتها التاريخ ، فإن قوة شخصية درغوث قد خلعت نفس الأهمية على مدينة طرابلس التي اتخذ منها قاعدة لعمله الموجه إلى مهاجمة الدول المسيحية ورد الخطر عن ديار الإسلام واستخلاص المواقع الإسلامية الرازحة تحت الاحتلال الأجنبي .

وما من شك في أن المدينة قد شهدت انتعاشا ، بعودة السيادة الإسلامية

إليها . فقد عاد إليها سكانها الذين كانوا قد هجروها ونزحوا منها إلى الضواحى ، أثناء الاحتلال الاسباني وفرسان مالطا . وعادت إليها الحياة نتيجة ازدهار الحركة الحربية البحرية بها ، وانتقال بعض الجنود المشارقة إليها ، ضمن القوات العثمانية . وحرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم وانصبت فيها الغنائم والأسرى والسبايا . وعادت من جديد إلى الاتصال بالمدن الإسلامية . وإن كان الاضطراب قد لحق علاقاتها مع الدول المسيحية إلا أن حركة التبادل والاتصال لم تتعطل تعطلا تاما .

واهتم العثمانيون اهتماما خاصا بتحصين المدينة ، احتياطا لاحتمالات الغزو المسيحى والعودة إلى احتلالها . وقد حاول فرسان مالطا أن يعودوا فعلا إلى احتلال المدينة التي طردوا منها ، كما عملوا طوال الفترات التالية على إثارة المتاعب والمضايقات في وجه العثمانيين والتنغيص عليهم بتشجيع القلاقل والثورات الداخلية .

وانصرف اهتمام درغوث منذ اللحظة الأولى لولايته إلى تحصين المدينة فعمل على تدعيم الأبراج وإنشاء برج عرف باسم برج درغوت يشرف على الميناء وعلى الجانب البحرى من المدينة . كما أنشأ درغوث مسجده المعروف الذى ما يزال قائما حتى الآن وذلك في سنة ١٥٥٤ . وكان من أكبر مساجد المدينة في تلك الفترة . وهو يضم رفاته ويقال إنه أنشأه بموضع قريب من المسجد الأعظم . كما بنى لنفسه قصرا كبيرا مؤلفًا من دورين تزينه الشرفات والأروقة وتحيط به الحدائق الجميلة . وقد عفى عليه الزمن ولم يبق منه أثر . كما أنشأ دار البارود . وما تزال آثارها قائمة حتى الآن في الزاوية الواقعة بين سوق المشير وميدان الشهداء . وقد استغلت ساحتها حالياً لإقامة بعض الأسواق للصناعات المحلية . كما قام درغوث بإنشاء برج التراب في المرتفع المعروف باسم القبّة وأذن أيضا للأسرى المسيحيين في إنشاء مقبرة خاصة بهم وهي أول مقبرة مسيحية وقد ظلت بمكانها حتى نقلها الايطاليون سنة ١٩٢٢ وأنشأوا بدلا منها النصب التذكارى لقتلاهم في الحرب الايطالية الليبية والطريق المزدوجة الصاعدة

نحوها . كما قام درغوث أيضا بتعديل أوضاع السور الغربي للمدينة . وبذلك ضمن لها صد الهجمات البحرية .

ورغم الظروف الحربية التي كانت تواجه درغوث وتوزع جهوده بين إخماد الفتـن والثورات الداخلية ومواجهة التحديات المسيحية الخارجية فقد استطاع أن يجد من الوقت ما يساعده فعلا على العمل على تجميل المدينة وتطويرها مستعينا في ذلك بالعدد الكبير من الأسرى المسيحيين الذين أسرهم في حملاته وغزواته البحرية حتى ليمكن القول في شيء كثير من الاطمئنان إلى أن المدينة القديمة بطرابلس كما تبدو في شكلها الباقي إنما هى إنشاء تركى كان لمراد آغا ودرغوث الفضل الأول في وضع الحجر الأساسي فيه ، بعد أن دمرت المدينة السابقة تدميرا تاما في العهد الاسباني كما تشهد بذلك الوثائق التركية . ويسند هذا الرأى أن المعالم الباقية بها إنما ترجع إلى تلك العهود والفترات التالية التي كانت تقوم فيها بين الحين والآخر شخصية قوية تخلف أثرها في المعمار كما هو الحال في عهد محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى ومحمد باشا الإمام وغيرهم .

وقد كان من الحظ التاريخى لهذه المدينة أن توفرت عنها في مختلف الفترات تقارير عربية تضمنتها أقوال المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب وانطباعات الأسرى والبعثات والرحالة الأجانب بحيث تشكل في مجموعها صورا متعاقبة متلاحقة لمختلف الفترات التي مر بها تطور المدينة .

وفي عهد درغوث وقع أسقف مدينة كاتانيا في الأسر ونقل إلى مدينة طرابلس التي أقام بها فترة من الزمن . وقد كتب هذا الأسقف تقريرا يعتبر من أهم الوثائق التاريخية عن مدينة طرابلس في تلك الفترة قدمه إلى نائب الملك بصقلية ، وهو يصور الأوضاع العامة بمدينة طرابلس في سنة ١٥٦١ فيقول عن برج التراب الذى أقامه درغوث (أنه في حالة إنجاز هذا التحصين سيتطلب الأمر قوة مسيحية كبيرة للاستيلاء على المدينة وقد استغرق العمل في برج التراب سنتين وتمت عملية إنشائه بدقة وعناية لم يدخر فيها الجهد والوسائل كما أحيط

بسور مرتفع) وقد ظل هذا البرج قائما إلى حين مغادرة الأتراك لطرابلس في سنة ١٩١٢ ويبلغ ارتفاعه ٢٧ مترا فوق سطح البحر . وكانوا قد قاموا بتجديده في سنة ١٨٨٠ وأطلقوا عليه برج المنار . وكان يقوم في الموضع الذى كان يعرف سابقا بالقبة في المكان الذى يقوم عليه حاليا خزان المياه بوسعاية البولاقي بباب البحر .

ويبدو أن درغوث قد اهتم بتحصين المناطق الشمالية من المدينة تحصينا قويا مما أدى بالأسقف كراتشولو المذكور إلى أن ينصح نائب الملك بإنزال قوة في المناطق الشرقية منها ، والزحف بعد ذلك على المدينة . وكان يرى أن هذه الحملة ضرورية وعاجلة ، وإن إغفالها والتجاوز عنها لا يمكن أن يتم (دون تعريض ممالك صقلية ونابولى للخراب الدائم ، وتعريض جميع المسيحيين للإذلال الكبير المهين) .

وأدرك فرسان مالطا هذه القوة الجديدة في تحصينات المدينة ، فلم يعودوا إلى الهجوم عليها ، أو التفكير في الغزو المباشر لها . وحين فكروا في العودة إلى طرابلس ، اختاروا لنزولهم بقعة ساحلية عند زوارة ، واكتفوا في المراحل التالية بتشجيع الحركات الثورية والأعمال التخريبية سواء بطرابلس أو جربة .

وخلفه علج علي ، كما تقول بعض المصادر ، ويتشكك بعضها الآخر في ذلك ولا يبدو أنه قد اهتم بالمدينة أو أقام بها مدة طويلة ، فقد كان مرصودا بحكم بروزه ونبوغه في القيادة البحرية ، إلى خلافة درغوث في قيادة الأسطول العثماني . وقد استغرقته الاهتمامات البحرية ، فكان أحد الكبار من القادة العثمانيين المعدودين وكان له فضل إنقاذ الأسطول العثماني من الكارثة التي حلت به في معركة لبانتو الشهيرة .

وقد قام علج علي بإتمام دار البارود التي بدأها درغوث . ولا يظهر له أى أثر آخر في التاريخ المعمارى للمدينة .

وقد كان لحصار مالطا وهزيمة لبانتو وحملة تونس أثر قوى على الامكانيات العامة إذ حدث من النشاط العمراني الذى كان يبذله بعض القادة والولاة وانصرف الجهد إلى إعادة بناء الأسطول الذى كان يشكل المورد الرئيسي للمال .

وقد قام جعفر باشا الذى جاء إلى الحكم بعد علج علي ، بترميم باب المنشية وإصلاحه . وقد تعاقب على أمر البلاد في هذه المرحلة ولاة ودايات كانوا أقل وزناً وأضعف شأناً من الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم . كما واجه الحكام المتعاقبون سلسلة من الاضطرابات والثورات المستمرة التي كان يثيرها الأهالى الذين كانوا يرفضون الحكم العثماني ودفع الضريبة الأمر الذى استوجب توجيه حملات عسكرية في كثير من المرات ضد الدواخل كما أدى في بعض الحالات إلى الزحف على المدينة ومحاصرتها . وقد اهتم الولاة في هذه المرحلة بجمع الثروات ونقلها معهم إلى بلدانهم عقب رحيلهم عن البلاد وانتهاء مهامهم بها .

وتعرضت مدينة طرابلس في عهد مصطفى باشا ١٥٨٤ إلى حصار فرضه عليها الثائر يحيى الجبالى ، فاضطرت في الاعتماد على تموينها على البحر . وما يجلب إليها من جربة التي كانت تابعة لها في ذلك الوقت . واستمرت حالة الحصار هذه حتى سنة ١٥٨٨ حين استدعى الوالى إلى الاستانة ، على أمل في تهدئة غضب الثائرين الذين كانوا قد أجروا اتصالات مع فرسان مالطا ، وتلقوا وعودا بالمساعدة ، إلا أن سفن السلطان كانت أسبق في الوصول إلى طرابلس ، حيث بادرت فور دخولها إلى الميناء إلى رفع الحصار عن القلعة والمدينة . وقد قتل الثائر وأرسل جلده إلى القسطنطينية وقد وصف لنا هذه الأحداث الرحالة المغربي التمجروتي (أبو الحسن على بن محمد الجزولى البكر الدرعى التمجروتي) في رحلته المعروفة باسم (النفحة المسكية في السفارة التركية) .

قال :

(. . فأرسينا بميناء طرابلس ضحوة يوم السبت السادس والعشرين من ذى القعدة ، من العام المذكور . ووجدنا بذلك المرسى نحوستين سفينة ، وردت من القسطنطينية ، وفيها قبطان العمارة بنفسه ، وهو الباشا المتولى أمر البحر والسفن كلها وأمر أفريقية كلها بيده ، يولى فيها ما يشاء لمن شاء بمشورة الوزير الأعظم والوزير يشاور الشاهان السلطان . ورد هذا الباشا بما معه من الجند بسبب قائم قام في بلاد طرابلس ، وعاث فيها وأفسد أوطانها ، وأضرم فيها نار الحرب ، واجتمعت عليه العرب وحشدها ، واستولى على ما سوى المدينة من القرى والبادية والأوطان كلها وجبى خراجها وجمع أموالها وزحف إلى المدينة وحاصرها ، وقاتلهم ، فقتل كل من خرج إليه وأفناهم . قتل منهم يوما واحدا ثمانية عشر مئة نفس . حتى قتل اليهود الذين يجرون الانفاط ، سوى ما قتله في غير ذلك اليوم في وقائعه منهم وغاراته . وصار له صيت عظيم ومهابة في قلوب أهل تلك البلاد ودانوا له ونكح المنعمات منهم وبنات أشرافهم ، وأقام له ملكاً في ديارهم ، وهو فظ غليظ القلب ، متهاون بالشرع وبحدود الله سفاك للدماء فأوجب ذلك نفور عقول الناس منه لما ناقض فعله قوله إذ كان زعم أولا أنه يقوم بتغيير مناكر الترك وقمعهم وبسط العدل بدل جورهم وغير ذلك من أكاذيبه التي حاول التوصل بها إلى غرضه من الرياسة والجاه . والترك جاروا على أهل البلاد كثيرا وأفسدوها وضيقوا على أهلها في أرضهم وديارهم وأموالهم حتى استباحوا حريم المسلمين وحتى أن بنت الإنسان من الأعيان والأكابر إذا كان لهم فيها غرض لا يقدر أحد أن يمنعها منهم ، أعني بالنكاح ، ولا أن ينكحها لغيرهم ، إلى غير ذلك من الذل والإهانة التي هم فيها معهم ، وكذا أهل أفريقية كلهم ، فأوجب ذلك استباعهم إلى كل ناعق واتباعهم لكل قائم رجاء أن يجدوا الفرج معه . .) .

(. . ثم إن هذا القبطان خرج بما معه من جيش اسطنبول وما اجتمع

عليه من جند الجزاء جاء معنا في عدة سفن وجند تونس جاء في البر ، فتبعوا القائم في الصحراء أياماً فواقفهم يوما وقاتلهم ساعة ثم انهزم وفر وتوغل في الصحراء مع العرب ، ورجع القبطان بالجيش إلى المدينة وقد زاحمهم الشتاء على ركوب البحر ، وضاق الوقت ، بعد أن قتل من ظفر به من أتباعه وقتل من أهل تاجوراء نحو مائتين . ثم إن العرب اختلفوا على القائم بعد ذلك اختلافا كان سبب قتله وسلخ جلده وحشوه بالتبن وبعثه إلى اسطنبول مع قاتليه في فصل الربيع في سفينة كادت أن تغرق في البحر ، فوصلت ونحن هنالك بعد ما يئست من الوصول ، فنصب للناس في أسواق المدينة وكافأ السلطان قاتليه بمال جزيل وهبات عظيمة وجراية وأقطاع في بلادهم . وطرابلس مدينة مسوّرة حصينة وجدناها ضعيفة جداً بتوالى الفتن عليها وهى في بسيط من أرض لينة مسترملة شبيهة بأرض الصحراء، منشرحة الأوطان واسعة الأقطار، في قراها نخيل كثير وفواكه كتاجوراء وجنزور وغيرها . لقينا فيها من ينتسب إلى العلم والدين والصلاح فقيهها وخطيبها السيد أبا عبد الله المكى اسمه وكنيته . كان فقيها عالما متفننا مشاركا ذا سمت حسن وهدى ووقار وحسن معاشرة . كان أهله من صفاقس فنقل إلى طرابلس فاستوطنها وصار مفتيها لقيناه بمسجدها فتلقانا بالبشر والترحاب وسرّ بنا وحدثنا وأفادنا رضي الله عنه . .) وقد أقام الرحالة بطرابلس شهرا واثنى عشر يوماً بسبب سوء الأحوال الجوية وصعوبة ركوب البحر وهو يصف لنا حالة الميناء في تلك الفترة بقوله (وقد كان البحر وموجه تلك المدة التي أقمناها بطرابلس يضطرب اضطرابا عظيما حتى ربما يمنعنا النوم في الديار ، وتفرقت المراكب في المراسي وبعد بعضها من بعض خوفا من أن يضطرب الموج فيصيب بعضها ببعض فتنكسر . ومرسى طرابلس لا يمنع إلا من الريح الغربية تكسر فيه السفن وتفسد كثيرا وقد كنا نشرف على البحر في تلك الأيام فنشاهد فيه من قدرة الله آيات عظيمة باهرة . .) .

ووصف التمجروتي لهذه الفترة يعتبر وثيقة من اندر الوثائق عن هذه المرحلة الغامضة من تاريخ طرابلس . ولم تشر إليها المراجع العربية فيما نعلم . .

أخذت عند نهاية القرن السادس عشر تظهر بوادر الضيق والاستياء من الحكم العثماني المباشر ، وأخذت تبرز نزعة قوية واضحة للاستقلال بالحكم . وقد بدأت هذه الحركة في صفوف الانكشارية الذين كانوا يميلون إلى عدم الخضوع للولاة الذين ترسلهم القسطنطينية ويفضلون الانصياع لعناصر منهم ينتخبونها أو يتحكمون فيها . وأخذوا يجربون الشكل الجديد للحكم الذى ظهر في تونس ثم الجزائر وتمثل فيما عرف بنظام الداى والديوان . ويبدو أن المدينة قد نعمت خلال هذه الفترة التي تمتد من عمر الديوان من ١٥٩٥ إلى ١٦١٢ بشيء من الهدوء النسبي وازدهرت فيها الحركة التجارية مع المناطق الجنوبية والموانى الأوربية . ولكن لم يلبث أن تدخل عامل الطموح الشخصي فأفسد هذا النظام ، وابتلاه بالانشقاق والفتن وعادت البلاد إلى الانقسامات والاضطرابات . وتعرضت المدينة لهزات عنيفة متوالية . .

وتتحدث المصادر التاريخية عن بعض الاهتمامات العمرانية في عهد صفر داى الذى كان أول داى بطرابلس ١٦١١ يتولى الأمر ويتصرف فيه تصرف الحاكم الفرد . وقد شجع الغزوات البحرية ، رغم أن البحرية الطرابلسية لم تكن قد بلغت مرحلة قوية . وقد تطلب العدد المتزايد للأسرى تشييد معتقل خاص لإيوائهم . وقد شيده صفر داى حوالى سخة ١٦١٣ قرب قصر درغوث ، ويستوعب هذا المأوى أو السجن حوالى ستمائة نسمة وقد عرف باسم الحمام القديم كما عرفه الأسرى المسيحيون باسم (مدونًا دل روزاريو) كما قام صفر داى بترميم وإصلاح المسجد الأعظم (جامع الناقة) وما تزال تشاهد حتى اليوم نقيشة فوق مدخل الجامع تخلد هذا العمل وتنوه به . كما قام أيضا بإصلاح باب البحر . وقد انتهى هذا الداى نهاية سيئة إذ اشتكاه الأهالى إلى سلطان القسطنطينية الذى أرسل أسطولا لطرابلس ، قام قادته باعتقال صفرداى وإعدامه . بعد أن طافوا به شوارع المدينة .

وعادت الحالة إلى الهدوء والانتعاش في عهد سليمان باشا . وكانت فترة

زاهرة بالنسبة للبحرية الطرابلسية التي استطاعت بسفن محدودة أن تأسر عددا كبيرا من المسيحيين .

وقد استقبلت المدينة في هذه الفترة بعض فئات الانكشارية الذين قاموا بالثورة ضد السلطان عثمان سنة ١٦٢٢ . وتسربت هذه العناصر إلى الديوان وكانت مبعث قلق وشغب . وقد استغل هذا الظرف الداى الثاني مصطفى الشريف ١٦٢٤ الذى كان يغذى الاضطرابات والقلاقل تحقيقا لطموحه في الحكم — فاستطاع أن يصبح مستشارا بالديوان ثم أجمع الجيش والشعب على بيعته والمناداة به (دايا) على طرابلس .

(وقد بدأ مصطفى الشريف بداية حسنة ، ولكنه سرعان ما انحرف بعد أن أنفق أموالا طائلة لبلوغ منصب الداى . وكان لابد أن يرهق الشعب ويستغله ويضغط عليه حتى يحتفظ بأصدقائه وجيشه ويوسع لهم في الرزق) .

قام شريف داى بزيادة تحصين القلعة ، كما عمل على تحسين حصن المنارة وإصلاحه (١٦٢٧ — ١٦٢٨) . وهو حصن منيع يسيطر على المدينة والقلعة ومزود بصهريج خاص ويحتوى على عدد كبير من المدافع . وكان له جسر يرفع عند المدخل وهو يتصل ببرج درغوث بواسطة السور الذى يحمى طرابلس من الشمال . وبعد أربعة أعوام من الفراغ من عمليات التحصين بهذا البرج الذى عرف باسم حصن الشريف اتخذه الثوار والمنشقون قاعدة لإطلاق مدافعهم على القلعة التي تحصن بها الداى . وقد وقع نفس الصنيع لعثمان باشا سنة ١٦٧٢ . ولذا عمل الولاة فيما بعد على تجريد ذلك الحصن من المدفعية ، حتى لا تستغلها العناصر الثائرة .

ومن المشاهد المعتادة في تاريخ المدينة أن تقوم الحرب بين القلعة والحصون . إذ يكفي أن تستغل العناصر الثائرة بعض الحصون فتقذف القلعة بوابل من نيرانها وتلزم الداى بالتخلى عن الحكم . كما حدث في عهد الداى مصطفى الشريف الذى تحصن بالقلعة ووفر لنفسه التموين والحراسة الكافية . .

ومن حصن درغوث وحصن المنارة كانت المدفعية تقصف القلعة طوال أربعين يوما حتى اضطر الداى إلى الاستلام . ولقي نفس مصير سلفه .

وتؤكد المصادر التاريخية أن البحرية قد نشطت في عهد الداى مصطفى الشريف وأخذت تبرز إلى جانب تونس والجزائر وسلا ، بعد أن أنهكتها سنوات الضعف والفتن والانحلال .

ولا يتحدث التاريخ بشيء عن أى أثر معمارى لمدينة طرابلس في عهد الداى رمضان الذى كان ضعيف الشخصية ، لم يلبث أن تخلى عن الحكم إلى صهره محمد الساقزلى الذى كان مغامرا من المغامرين الكبار . ولد في جزيرة ساكس (كيوس) من أبوين يونانيين مسيحيين ، واستهل حياته بالاشتغال بالتجارة ، وأخذ يجوب البحار بعد أن امتلك مركبا تجارياً خاصا به . ويروى أنه شحن مركبه هذا بالبضائع وسافر لبيعها في الجزائر ، وهناك تشاجر مع أحد الأتراك فقتله ، وحكم عليه بالإعدام ثم خير قبل التنفيذ بين الإعدام أو اعتناق الإسلام ، فاختار الدين الإسلامى ثم انطلق يجرب حظه في طرابلس ، فوجد من يعجب به لمواهبه البحرية الفائقة وقد كانت البحرية آنذاك تمثل أقصى سلم المجد والظهور . وكان لرجال البحر مكان ممتاز في مناصب الدولة . ولم يلبث محمد الساقزلى الذى احتضنه الشريف مصطفى داى أن اكتسب شهرة عظيمة ومكانا بارزا بين (قراصنة) البحر الأبيض المتوسط ، مكنته من الظفر بثقة رمضان داى الذى زوجه من ابنته ثم تخلى له عن الحكم . والواقع أن النظر في أسلوب الحكم وطريقة الوصول إليه ، وشكل الديوان ، وأشخاص الدايات ، تثبت أنه لم يكن لأهل البلاد شيء من الأمر الذى كان بيد فئة متسلطة مستبدة من الانكشارية والعناصر الطارئة على الإسلام . فكان يكفي لأى مغامر أن يظهر نبوغه في أساليب الوصول والانتهاز ، أو يبرز في مجال الحروب البرية أو البحرية حتى يصل إلى التحكم في مصير البلاد والعباد . ولعل خير مثال على ذلك تلك الفئة من الدايات والباشوات الطارئين المغامرين من أمثال محمد باشا الساقزلى وعثمان باشا الساقزلى .

فقد تقلد محمد باشا الساقزلى حكم الولاية وهو في الرابعة والعشرين ، وقد أظهر من المزايا الفائقة في هذه السن المبكرة ، ما جعل المؤرخين يشهدون له بأنه كان من أقوى الشخصيات التي عرفها الحكم في العهد العثماني الثاني رغم ما اتسم به عهده من ظلم وجور وتضييق على الناس بالجبايات والضرائب الفادحة . وقد استطاع ، خلال فترة حكمه التي امتدت ما يقرب من ست عشرة سنة أن يبسط سيطرته على أطراف واسعة من البلاد ، وقد نمت موارد الولاية في عهده نموا كبيرا بسبب تنشيطه لحركة الجهاد البحرى واهتمامه بالناحية التجارية سواء مع المناطق الجنوبية أو مع السواحل الأوربية وقد زادت إمكانيات الولاية في عهده إلى الدرجة التي دفعته إلى التطلع إلى بسط نفوذه على تونس والجزائر . (في سنة ١٦٣٥ ارتفع دخل الولاية إلى مئة وثمانين ألف دوكاتو وارتفع رقم الأسرى من أربعمائة إلى خمسمائة ، وكان تحت تصرف الداى ألف وأربعمائة انكشارى) .

وقد نشطت حركة العمران في المدينة في عهد محمد باشا الساقزلى ، ويذكر المؤرخون أنه قد عمل على تجميل المدينة وشجع بناء المنازل في بساتين المنشية وأقام هو نفسه ، بعض المنازل الخاصة ، في تلك الواحة الجميلة التي كانت تحتضن مدينة طرابلس . ومن الانشاءات التي ذكرت في عهده إقامته للحمام الجديد وهو مكان مخصص لإيواء الأسرى يتسع لإيواء ما يقرب من أربعمائة وخمسين أسيرا . ويعرف لدى الأسرى باسم حمام سانت انطونيو .

وقد مات محمد الساقزلى في الثانية والأربعين ، وخلف لعثمان باشا الساقزلى حكومة قوية ذات مركز مهاب في الداخل والخارج ، عمل عثمان باشا على تدعيمه وترسيخه بما تهيأ له من قوة في الشخصية ومن خبرة بأوضاع البلاد وممارسة سابقة لشئون الحكم الذى تقلد منه عدة مناصب في العهود السابقة حتى انتهى إلى مركز الولاية التي تولى تصريف شئونها مدة بلغت ثلاثة وعشرين عاما . وقد أرهق الرعية وضايقها وتسلط عليها . وكان طماعاً محبا للمال ، لم يذخر أى سبيل في زيادة دخله . يقول ابن غلبون (ومن عظيم ظلمه الفاحش

أنه إذا باع أحد الشركاء عقارا ولو جزءا لا يتجزأ أغرم البائع وغير البائع مكس العقار كله ، ممن باع ومن لم يبع) ونزح بعض الأهالي إلى بلدان أخرى فراراً من ظلمه وجوره ، ففرض على الباقين ما لزم البلدة كلها قبل النزوح . وكان يجبر الناس على شراء غنائمه البحرية بأسعار عالية . كان عثمان باشا من أقوى الولاة الذين عرفتهم البلاد بعد مراد آغا ودرغوث ومحمد الساقزلي . وقد ترك طابعه الخاص في النظام العمراني في المدينة . وما تزال مدرسته القائمة قرب باب البحر تشهد له بالاهتمامات العمرانية التي عمل على تشجيعها .

وتتوفر لنا عن هذا العهد وثيقتان هامتان ، تؤثر الرجوع إليهما لتكوين الصورة الصحيحة لأوضاع مدينة طرابلس . والوثيقة الأولى هي رحلة الرحالة المغربي العياشي . والوثيقة الثانية هي المخطوطة الفرنسية للجراح البرنفسالي جيرارد الذي كان أسيرا بمدينة طرابلس والذي لا نعرف منه سوى اسمه الأول . وما يمكن أن نستخلصه من ملامح شخصيته واهتماماته من هذه المخطوطة الهامة التي أفاد منها كثير من الباحثين والدارسين والمهتمين بتاريخ البلاد وفي مقدمتهم المؤلف الفرنسي فيرود صاحب الحوليات الطرابلسية ، والأستاذ البحاثة أوريجما صاحب الدراسات التاريخية والأثرية عن مدينة طرابلس والقسيس برنيا صاحب كتاب طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٣٥ وكذلك البروفسور باولو توسكي الذي كان من الأوائل الذين نبهوا إلى هذه المخطوطة ، وحاول نشرها في الايطالية فعطلت الحرب مشروعه .

مر الرحالة العياشي الذي عاش خلال (١٠٣٧ — ١٠٩٠هـ ١٦٢٧ — ١٦٧٩ م) بطرابلس في رحلته إلى الحج . تلك الرحلة التي قام بها في ربيع الأول من سنة ١٠٥٩ هـ . ويتفق مروره بها مع وجود عثمان باشا على رأس الولاية .

وصف العياشي مدينة طرابلس في هذه الفترة ، فقال :

(كان دخولنا لمدينة طرابلس ، قرب الظهر ، يوم الأربعاء سابع عشر رجب الفرد . وهي مدينة مساحتها صغيرة ، وخيراتها كثيرة ، ونكايتها للعدو

شهيرة ، ومآثرها جليلة ومعايبها قليلة . أنيقة البناء ، فسيحة الفناء ، عالية الأسوار ، متناسبة الأدوار واسعة طرقها ، سهل طروقها ، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف وجميل الإنصاف ، وسماحة على المعتاد زائدة ، وعلى المتعافين بأنواع المبرة عائدة ، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما ، ولو لمن استحق ملاما . سيما مع الحجاج الواردين ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين ، فإنهم يبالغون في إكرامهم ، ولا يألون جهدا في إفضالهم عليهم وإنعامهم . ولهذه المدينة بابان : باب إلى البر وباب إلى البحر ، لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها . والحصن الذى فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية البر ، بينه وبين البحر .

ولأمير هذه المدينة نكاية في العدو دمرهم الله . وله مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر قلما تسافر وترجع بغير غنيمة . وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد . فجزاهم الله خيرا وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين .

وكانت عادة الركب إذا دخل هذه المدينة سيما في الذهاب ، أن يقيموا بها نحوا من شهر يستعدون فيه لدخول المفازة التي قل نظيرها ، وهى مفازة برقة . ومن هذه المدينة يشترى الحجاج ما يحتاجون من الابل والقرب ويتخذون زاد نحو من ثلاثة أشهر إلى مصر إن كان الوقت شتاء ، وإن كان صيفا فنحو من شهرين . وابل عمالة طرابلس غاية في الجودة ، قل أن يوجد لها نظير شبيهة بابل بلدنا بل تزيد عليها بكثرة الخدمة فإنهم يستعملونها في سائر الأشياء حتى الحراثة والدراس ويسنون عليها ويديرون الرحى فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هواء البلدة ، ونقاء مرعاها ، فيقل فيها الغش ، وتندر أمراضها ، ولذا قيل في أمثال الحجاج : جمل طرابلسي وقربة مصراتية (وفي النسخة المطبوعة مصرية) لأن قرب هذه البلدة ردية الدباغ ، وماءها خبيث المساغ ، ومع ذلك لا تمسك من الشراب إلا كما يمسك الماء الغرابيل . من اتكل عليها أوسعت عليه الرى أول مسافة ، وأوردته آخرها موارد التلف والمخافة .

وهذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين في أمر معاشهم فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآتين خمسة أو ستة ، ويصادف ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد . ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم بل ربما نقص في البلد ، مع أن البلد في كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله ، إلا أن أهلها مستكفون بها غاية ، وراضون بها إلى النهاية ، وهى جديرة بذلك .

وإذا اجتمع الأركاب فيها كثر الزحام على الاراحى غاية ، فيلاقي الحجاج من ذلك مشقة ، ولولا ما جبل عليه أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين سيما من لم تطل إقامته كركبنا في هذه السنة) .

ثم يتحدث العياشي عمن لقيه من علمائها فيذكر الفقيه محمد بن أحمد بن عيسى اليربوعى ثم مفتي البلد محمد بن مساهل الذى (طالت ولايته للفتوى نحو الأربعين سنة وحمدت سيرته فيها) كما لقي أيضا شعبان بن مساهل ابن عم الشيخ المذكور ، وكذلك محمد المكى (وبيته بيت علم من لدن أسلافه الكرام) (وله خزانة كتب ليس مثلها لأحد من أهل بلده) .

وكان رحيل العياشي من مدينة طرابلس يوم السبت السادس والعشرين من رجب (وصادف ذلك خروج سفن الأمير بقصد جهاد أعداء الدين ، وهى ست سفن فيها نحو من ألفي مقاتل خرجت مجتمعة ، وذلك شأنهم إذا خرجوا للجهاد إرهابا للعدو وكان يوم خروجها وخروج الحجاج يوما مشهودا ، وتفاءل الناس بذلك لحصول الغنيمة وكان الأمر كذلك ، والحمد لله حق حمده) .

لقد أقام العياشي ما يقرب من تسعة أيام في مدينة طرابلس ، وصور لنا انطباعاته عنها فيما تقدم من عبارات . وهى انطباعات ذاتية خلت من التأثر بأحكام الرحالة والجغرافيين السابقين ، وبرئت من ترديد ما سبق أن رددته المصادر السابقة . ومن هنا كانت لها هذه القيمة التاريخية العلمية .

أما الأسير الجراح البروفنسالى فقد ترك لنا وصفا هاما لمدينة طرابلس التي قضى بها فترة في الأسر تزيد على ثماني سنوات . وقد سجل انطباعاته ودراسته الذكية في عمل علمى جليل خلفه في مخطوطة محفوظة بالمكتبة الوطنية الفرنسية .

ويقدم إلينا هذا الأسير المثقف وصفا شاملا لمدينة طرابلس وأوضاعها العامة العمرانية والسياسية والإدارية والاقتصادية والبحرية . ويغطى وصفه للمعالم العمرانية إلفترات السابقة لوجوده بالمدينة . ويبدو بشكل واضح أن هذا الأسير قد لقي معاملة كريمة خاصة مكنته من الاطلاع على الأوضاع العامة والكتابة عنها بصفة تتسم بدقة الملاحظة . وليس في إمكان أى باحث في تاريخ المدينة أن يتجاهل هذا الأثر العلمى الهام الذى خلفه لنا هذا الأسير المجهول . وهو يقدم لنا وصفا عاما للمدينة وتحصيناتها وأسوارها وأبوابها ومعالمها العمرانية البارزة . ونقف من هذا الوصف على التأثير الهام الذى طبع به درغوث ومحمد باشا الساقزلى وعثمان باشا الساقزلى الوضع العمراني بالمدينة .

فيقول :

(إنه على الرغم من الصفة الإسلامية التي تكتسي بها مدينة طرابلس منذ أحقاب بعيدة إلا أنه لا يوجد بها مسجد من المساجد المعتبرة ، وذلك ما دفع درغوث إلى أن يشيد المسجد الذى ما يزال حتى الآن يحمل اسمه ، قرب البحر . ولا يكتسي هذا المسجد أيضا بأى طابع غير عادى سوى الشهرة التي خلعها عليه مؤسسه ويؤدى الضباط الأتراك والانكشارية صلواتهم في هذا المسجد مما جعل الناس يعتبرونه المسجد الرئيسي بالمدينة . ويقيم الإمام بهذا المسجد وهو الذى يعطى الأمر لبقية المساجد ويحدد أوقات الاذان بواسطة علم أحمر يرفع عند حلول الوقت ، فوق المئذنة . وقد أوقف درغوث أوقافاً يستفيد منها الفقهاء القائمون على أمر المسجد) ويذكر أنه كان يوجد بالمدينة في الفترة التي أقام بها

هذا الأسير ما يقرب من عشرين مسجدا ، منها مسجد سيدى سالم (المشاط) ومسجد الخروبة . ويضعها في المرتبة الثانية من حيث الضخامة . وتعتبر هذه المساجد الثلاثة في رأى الأسير هى المساجد الرئيسية في المدينة بحكم قدمها وعراقتها . وبما توفر لها من مآذن عالية . أما بقية المساجد فلا تتميز في بنائها بأى شيء غير عادٍ سوى قبابها وبياض لونها ، ومصابيحها المتقدة والعدد الكبير من الفقهاء الذين يقومون عليها ويعيشون من أوقافها ، وقد ألحقت ببعضها مدارس لتعليم الأطفال والشبان .

ويتحدث أيضا عن مسجد مولاى محمد ويسميه مولاى حميدة . وهو من أقدم مساجد المدينة ، وقد امتدت إليه شهوة التجديد فأقيم في مكانه المسجد الجديد ، ولم يبق له من ماضيه سوى اسمه التاريخى القديم .

يقول الجراح الأسير :

(لقد أمر السلطان مراد ، علج علي باشا بالزحف على بربريا (الشمال الأفريقي) الأمر الذى باشره على الفور فتمكن من استرداد تونس وإرجاعها إلى السيادة العثمانية . وقد استدعى العرب مولاى حميدة الذى كان مقيما بمالطة وأعادوه إلى العرش . ولكن لم يلبث علج على أن سلب منه من جديد أبهة الملك وعظمته ولا نعرف ما إذا كان مولاى حميدة قد مر بطرابلس في هذا الوقت أو غيره من الأوقات فثمة رواية قديمة راسخة أن الأمير قد أنشأ مسجدا جميلا بالمنشية ، غير بعيد عن المدينة ويعرف حتى اليوم باسم مولاى حميدة . وتؤكد الروايات أنه قد اعتكف بهذا المسجد مدة متفرغا للعبادة والتأمل .) . .

وتؤكد هذه الفقرات الأهمية التاريخية لهذا المسجد .

ويتحدث عن مسجد آخر أقامه الداى مصطفى البهلوان فيقول (بدأت

منذ أعوام حركة انشاءات إلى الغرب من المدينة فأقيمت بعض المنازل وانشئت بعض البساتين . وتعرف هذه المدينة الجديدة أو الضاحية باسم (البازار) . وقد أقام مصطفى البهلوان داى ١٥٧٥ مسجدا صغيرا على نفقته الخاصة) .

ونتابع هذا الأسير في وصفه للمدينة وشوارعها ومنازلها ومعالمها البارزة في تلك الفترة .

يقول :

(أما داخل المدينة فإن الشوارع تتسم في أغلبها نسبياً بالضيق . والمنازل تتألف كلها تقريبا من دورين . وتتوفر جميعها على فناء داخلي لتحقيق راحة النساء اللواتي يتنشقن الهواء الطلق عبره بالنظر إلى العادات الشائعة التي تمنع خروج النساء إلى الشارع في أغلب الحالات . وجميع المنازل مغطاة بسطوح . كما لا يوجد بيت بلا صهريج تتجمع فيه مياه الأمطار التي تسقط على السطوح وتنساب عبر الموازيب . كما توجد آبار في كثير من البيوت التي طليت جميعها من الخارج بالجير الأبيض . وتقل النوافذ في هذه المنازل ، كما أن أبوابها تفتح على سقائف جانبية تمنع الكشف على داخل البيت) .

ويعزو المؤلف المجهول أغلب المعالم الحديثة في المدينة إلى الفترة التي غلبت فيها على شئون الحكم العناصر الطارئة على الإسلام وخاصة من اليونانيين الذين شجعوا الحركة المعمارية ، وعملوا على إعادة بناء المدينة التي دمرت في العهدين الاسباني وفرسان مالطا ، وقد أنشأ هؤلاء الحكام مساكن جميلة رحيبة ذات شرفات مقامة على أعمدة رخامية ، وتتميز الغرف بضيقها وطولها ، وقد زخرفت بعض أسقفها بالألوان الذهبية والزرقاء كما فرشت أرضها بالزليج المشكل الملون . وعلى جانبي الغرفة تقوم السدّة التي تشبه المسرح) (وفي البيوت الكبيرة غرف أو عليات للاستقبال) .

ويستمر المؤلف المجهول في وصف معالم المدينة ، فيقدم لنا نبذة هامة عن

القصر أو السراى التي أقامها درغوت باشا ، وما آلت إليه فيما بعد نتيجة تقلب الأحداث والظروف بأوضاع المدينة . ولقد كان درغوث أول وال تركى يقيم لنفسه قصرا خاصا ، فقد فضل مراد آغا الإقامة بالقلعة طوال فترة ولايته كما سلك هذا المسلك أيضا بعض الولاة والدايات المتعاقبين . وإنشاء درغوث لهذا القصر أو المبنى الخاص يدل دلالة واضحة على ارتباط بالمدينة ورغبة في الاستقرار بها ، والعمل على تشجيع المبادرات المعمارية لتطويرها وتجميلها . وهو ما تكشف عنه وقائع حياة درغوث الذى أحب مدينة طرابلس . وقد كان درغوت يتوفر في تلك الفترة على أكثر من ثلاثة آلاف أسير عمل على الاستفادة منهم في تجميل المدينة وتعميرها بعد الدمار الشامل الذى لحق بها من أثر حكم فرسان مالطا . وقد كان قصر درغوث عملا معماريا بارزا ، ظهر في الرسوم التي رسمت للمدينة في ذلك العصر ، وهو يتكون من دورين وتتخلله الشرفات والردهات والرياض الجميلة التي تحف به وتمنحه منظرا مبهجاً وقد لفت نظر المؤلف المجهول أنه على الرغم من أن جميع أسطح منازل طرابلس مسطحة إلا أن سطح قصر درغوت كان مغطى بطبقة من القرميد كانت تزيد من قيمته بالنظر لندرته وعدم شيوعه في البيئة الطرابلسية ويبدو أن درغوت كان متأثرا في ذلك بالبيئات التي كان يعيش بها في الأناضول .

وقد ظل قصر درغوت قائما حتى العهود التالية . ويعتقد العالم الايطالى البروفسور اوريجما أن هذا القصر كان يقع في الجزيرة التي تحدها من الجنوب الوسعاية ومن الشرق الزنقة الضيقة ، أى بين الكنيسة اليونانية وجامع قرجى .

وقد بدأ تدمير قصر درغوت أثناء الصراع الذى نشأ بين الداى مصطفى الشريف وبين قاسم باشا الموفد من القسطنطينية لتولى شئون البلاد وإزاحة الداى عن الحكم. ولم يستطع الداى أن يجد سبيلا للانتقام إلا بقصف القصر الذى كان ينزل به قاسم باشا . وهو قصر درغوت . ويقول المؤلف المجهول : إن هذا القصف قد جعل القصر غير صالح للسكنى . ولكن يفهم من فقرات أخرى من

مؤلف جيرارد أن القصر كان في سنة ١٦٣١ ما يزال قائما صالحا للسكنى بدليل نزول الباشا الذى خلف قاسم بكل حاشيته واتباعه في هذا القصر الذى خصصه له محمد باشا الساقزلى .

ويذكر جيرارد أن القصر قد أهمل بعد ذلك خلال عهد محمد باشا الساقزلى (١٦٣١ — ١٦٤٩) وعهد عثمان باشا الساقزلى (١٦٤٩ — ١٦٧٢) اللذين أخذا يصرفان شئون الدولة بالقلعة . وفي سنة ١٦٤٤ بنى عثمان باشا في موقع القصر المنهار ، الحمام الجديد المخصص للأسرى المسيحيين . وكان عثمان باشا قد استعمل بعض قاعات هذا القصر كمستشفى خاص بهؤلاء الأسرى حيث كان يقوم على رعايتهم أطباء مكلفون بذلك ، وقد خصص لهم حصة يومية من اللحم كما كان يصرف لهم الأدوية من صيدلية القلعة .

ويتحدث المؤلف عن مشروع مسجد كبير كان ينوى أن يقيمه إبراهيم داى (لعله إبراهيم داى مصروغلو) في نفس الموقع الذى يقوم عليه قصر درغوت ، لو طال به عهد الحكم . كما أشار في موضع آخر إلى القصر الذى أقامه عثمان باشا الساقزلى في الفترة التي سبقت توليه للولاية ، أى عندما كان قائما على أمر الجيش . وقد عادت عليه غزوته لأوجلة وحروبه الداخلية ، بغنائم وافرة ، ساعدته ولاشك في ذلك الوقت على إنشاء هذا القصر الذى كان يقوم بالقرب من مسجد درغوت . ويميل العالم الايطالى اوريجما إلى الاعتقاد بأنه كان يقوم في الأرض المتاخمة لمدرسته وتربته بين الوسعاية وزنقة الخمرى وشارع سيدى درغوت . ويقول جيرارد أن قصر عثمان باشا كان أجمل القصور بطرابلس . وقد أنشأ عثمان باشا أيضا المدرسة المعروفة باسمه والتي ما تزال قائمة حتى الآن . أما قصره فلم يعد يبقى منه أثر .

ويتحدث عن المنشية التي يقول إنها تقع إلى الشرق من طرابلس وهى أرض زراعية تمتد من الشرق إلى الغرب وتحيط بالمدينة . وكان بها في عهد

المؤلف عدد من المنازل التي أقامها الأهالى والأتراك والعناصر الطارئة على الإسلام . ويشير إلى أن محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى قد عملا على إقامة منازل خاصة للاستجمام والترويح عن النفس تتميز بجمالها وروعة بساتينها . ويسجل ظاهرة امتلاك سكان المدينة لبساتين في المنشية فيقول : (إنه ليس هناك أحد ممن حسنت أحواله إلا وله بستان بالمنشية) ويصف هذه المنشية ونخيلها والمنظر الذى توحيه للوافد إلى طرابلس حتى ليخيل اليه انها تقوم وسط غابة من الخضرة والنخيل .

وتحدث الجراح جيرارد عن الفنادق التي أقامها الأتراك في مختلف مواقعهم الدفاعية وخصصوها للجند الانكشارية . وقد أنشأوا بطرابلس أيضا مثل هذه المنشآت المعروفة بالفنادق وهى تشبه بغرفها الصغيرة وزنزاناتها أديرة الرهبان الأوربية . ويسكن بها الانكشارية المتزوجون والعزاب، وهى تعتبر من أملاك الباشا أو الداى ويقوم الجنود بتسديد ايجار الغرف . كما يقوم على حفظ الأمن والنظام بها بعض الضباط الانكشارية أنفسهم . وهو يشير إلى أنه كان يوجد بطرابلس عدد كبير منها ، أشهرها الفندق الكبير والفندق الجديد وقد أنشأ عثمان باشا الفندق الأول في ١٦٥٤ في شارع البازار وكان يحتوى على أكثر من مئة غرفة وبه بئر في ساحته . أما الفندق الجديد فقد أقامه سليمان كاهية ١٦٧١ قرب مسجد درغوت وتعتبر غرفه أكثر تحقيقا للراحة . كما يشير إلى فندق الديوان الذى يجتمع فيه الديوان وقد ورد ذكره في الأحداث التي صاحبت تنحية مصطفى الشريف داى وكذلك في حركة التمرد ضد محمد الساقزلى وكان موقعه أمام القلعة . وربما عرف أيضا بفندق الخبز . ثم يشير إلى فندق الجمرك حيث يتولى قائد الحرس توزيع الأطعمة على الانكشارية وسفن القرصنة ويستخلص من آراء اوريجا أن الأول كان يقع في مواجهة القلعة من جهة المدينة والثاني من جهة البر .

والواقع أن الطابع المعمارى الذى خلفه عثمان باشا يبدو أقوى من أى طابع خلفه أى من الدايات والولاة الذين سبقوه أو جاءوا بعده . ويرجع إلى استقرار

الحكم في عهده ، وطول مدة ولايته ، وازدهار النشاط البحرى والتجارة مما أحدث انتعاشا شاملا انعكست آثاره على الانشاءات العامة والخاصة في المدينة وضواحيها . وما تزال المدينة تحتفظ بأثر هام من آثار هذه العناية التي أولاها عثمان باشا للحركة التجارية ونعني به السوق المعروفة باسم سوق الربع والتي عرفت أيضا في بعض الفترات باسم سوق العرب في مقابل السوق التي عرفت باسم سوق الترك .

كما كان لوجود الأسرى المسيحيين الأثر في قيام بعض المنشآت الخاصة بايوائهم والتي كانت تعرف باسم الحمامات . وهذه الكلمة من الاصطلاحات التي جاء بها الأسرى أنفسهم ، وشاعت في أوساطهم ، ولم تكن تعرف بهذا الاسم فالعرب كانوا يطلقون عليها الزنزانة . وهى نوع من المعتقل الخاص بالأسرى وكان أول من أنشأ هذا الضرب من المعتقلات الأوربيون أنفسهم. ونقلها عنهم بحارة سلا والجزائر وتونس وطرابلس . ويقول المؤلف إنه لم يكن في القرن السابق له أى حمام بطرابلس رغم ضخامة عدد الأسرى . وقد كان صفر داى أول من أقام حماما للأسرى عرف بالحمام القديم وذلك في سنة ١٦١٥ قرب قصر درغوت . ويستوعب حوالى سبعمائة شخص . أما الحمام الجديد فقد أنشأه محمد باشا الساقزلى حوالى سنة ١٦٤٠ ويقع قرب باب المنشية ويعرف لدى الأسرى أيضا باسم حمام سانت انطونيو . ويبلغ طوله ٣٦ خطوة . وهو طويل وضيق ، ويتألف من غرفات صغيرة يسميها الأسرى (مانجى) وهى من كلمة (منقداش) ومعناها الزميل أو الرفيق . ويردها المؤلف خطأ إلى اللغة العربية . وتضم كل غرفة من ستة إلى سبعة أفراد . ويستوعب الحمام حوالى أربعمائة وخمسين أسيرا أو نزيلا .

أما الحمام الحديث ، وهو الحمام الثالث ، فقد أنشأه عثمان باشا في ١٦٦٤ فوق الأرض التي كان يقوم عليها قصر درغوت ، بالقرب من الحمام القديم ويقول عنه إنه يبلغ أربعا وأربعين خطوة طولا وخمس خطوات عرضا ويتكون

من ٩٦ غرفة أو زنزانة تستوعب حوالى ٦٧٢ شخصا . وهذا الحمام مريح أكثر من الحمامين الآخرين كما يوجد أيضا حمام في القلعة يعرف باسم حمام القلعة وهو صغير وخاص بإيواء الأسرى الذين يعملون في خدمة الباشا والضباط حيث يأوون إليه ليلا .

وثمة حمام آخر يعرف باسم حمام الفخ (أو ربما المنداف عند العامة) وقد أقامه محمد باشا في أحد بساتين المنشية على غرار الحمامات التي كانت موجودة بصفاقس . وقد عرف هذا الحمام بهذا الاسم لقيام الأسرى فيه بصناعة الحبال الخاصة بالسفن كما يقومون أيضا بالأعمال الزراعية وقطع الصخور وهم يعتبرون أسوأ حالا من نزلاء حمامات المدينة . ويقول إنه كان يوجد بكل حمام من هذه الحمامات ما لا يقل عن ستمائة شخص في سنة ١٦٧٥ . وذلك يوضح المستوى الذى بلغته البحرية في ذلك الوقت . كما يتحدث المؤلف المجهول عن المعاملة الخاصة التي كان ينعم بها الممتازون من الأسرى والمعروفون بمراكزهم الكبيرة في بلدانهم بحيث كانوا يعفون من القيام بأى عمل من الأعمال المقررة على الأسرى العاديين ويذكر بعض الأسرى من فرسان مالطا الذين عاملهم عثمان باشا وبالى داى معاملة تتسم باللين والتسامح .

كما تبدو هذه المعاملة الحسنة في التسامح مع الأسرى في ممارسة طقوسهم الدينية وإقامة الكنائس الخاصة بهم في الحمامات . ويقوم هذا المسلك على أساس المعاملة بالمثل . وكثيراً ما ، كانت تتأثر بأسلوب معاملة أسرى المسلمين في حمامات ليفورنو ومالطا .

ويتحدث المؤلف عن الطريقة التي تدار بها هذه المعابد واختيار القساوسة ومكافآتهم التي يتبرع بها الأسرى وطريقة تأدية العبادات اليومية ومن المعروف أن الإرسالية الفرنشيسكانية كانت قد استقرت منذ ذلك الوقت بطرابلس وكان من مهامها الرئيسية العناية بالأسرى والحيلولة دون تحولهم عن الدين المسيحى والعمل على افتدائهم .

ويذكر المؤلف المجهول أنه لم تكن ثمة حمامات في عهد درغوث أو سجون خاصة بالأسرى ، ولكنهم كانوا يوضعون فيما يعرف (بالمطامير) وعلى الرغم من عدد الأسرى ، في عهد درغوت ، كان أكبر مما هو في عصر الكاتب ، فلم تتم أية عملية افتداء ، كما يقول جيرارد .

وقد بلغ الأسرى في ١٦٣٥ عدداً يتراوح بين أربعمائة إلى خمسمائة .

ويقول المؤلف ، إن الأسرى الذين لا يحسنون صناعات مفيدة ، كانوا يوجهون إلى قرقارش والهنشير لقطع الصخور ، والأغلال في أرجلهم . وينبغى أن يقوموا بعملية السير هذه يوميا مرة في الصباح وأخرى في المساء ويجب أن يقطعوا في اليوم ما لا يقل عن عشر صخرات يتكون حجم الواحدة من قدمين مربعين . ويعتبر المسئولون عن الحمامات مسئولين أيضا عن المدينة وأبوابها وقد كان الاغا المكلف بحمام سانت انطونيو مكلفا أيضا بمفتاح باب البحر . كما لا توجد سجون أخرى خاصة بغير الأسرى . ويسجن المخالفون والمجرمون في نفس الحمامات .

يقول المؤلف : إنه في العهود التي تولى فيها أمر الولاية العناصر اليونانية الأصل من أمثال محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى رخصا فيها لمواطنيهما بإنشاء كنيسة خاصة بهم قرب باب البحر . سميت باسم القديس جورج تابعة لبطريق الاسكندرية الذى كان يوفد قسيسا اغريقيا للعناية بها ويقوم الأسرى والصناع والتجار بتوفير مخصصاته . وقد ظلت هذه الكنيسة مدة أكثر من خمسين سنة متواصلة ، قائمة تؤدى وظيفتها حتى استبد بأمر الحكم كما يقول جيرارد — إبراهيم داى فأمر في سنة ١٦٧٥ الجالية اليونانية بتدميرها ، ضمن حملته العدائية ضد المسيحيين . وقد ظل اليونانيون بلا كنيسة مدة من الزمن ، ثم سمح لهم بإعادة إنشائها ، فقاموا بذلك بسرعة عجيبة . وجدير بالذكر أن إبراهيم داى قد اتخذ هذا الموقف بعد ما بلغه من سوء المعاملة التي يلقاها الأسرى المسلمون في البلدان المسيحية .

ثم ينتقل المؤلف بنا إلى الحديث عن الجالية اليهودية فيشير إلى أنها قد استقرت بطرابلس منذ عصور سحيقة تعود إلى عهد البطالسة ويقول الربيون : إنهم قد أقاموا بها منذ ذلك الوقت حتى العصر الحاضر — عصر المؤلف — دون انقطاع . وهم يشكلون جزءا من سكان طرابلس . وهم يقيمون بركن من المدينة قرب السور (يعني الحارة) حيث يعيشون عيشة بائسة . ولهم معبد خاص ويبلغ عددهم حوالى (١٢٠٠) في ذلك الوقت .

ويتحدث المؤلف أيضا عن مقابر المدينة فيذكر أنها تقع خارج السور ويذكر منها مقبرة سيدى حمودة التي كان يدفن بها رجال البحر . أما الدايات والباشوات فقد كانوا يدفنون في تربة درغوث ثم أنشأ عثمان باشا تربة خاصة به وبأسرته . وتقع مقبرة المسيحيين خلف برج الطابية وقد أقيمت بناء على رجاء أسقف شيفالونيا وكاتانيا .

وينقل إلينا المؤلف انطباعا هاما وأخبارا قيمة تسجل إضافة للمعنيين بتقصي الظروف التاريخية التي مر بها قوس ماركوس اوريليوس هذا الاثر الهام القائم عند باب البحر والمعروف عند العامة حتي هذا اليوم باسم مخزن الرخام .

فيقول :

(إن المخزن مسدود اليوم من جميع جوانبه بجدران سميكة وتحفظ فيه أشرعة السفن وحبالها . ويسميه الأسرى المسيحيون بطريقة عامية (مخزن الرخام) وقد فكر محمد باشا الساقزلى (١٦٣١ — ١٦٤٩) وكذلك إبراهيم داى (٧٦ — ١٦٧٥) في تهديم هذا القوس للاستفادة من مواده في إنشاءات أخرى ولكن الفقهاء (رجال الدين) وسكان المدينة قد عارضوا في ذلك معارضة شديدة قائلين بأن تدمير هذا الأثر الرائع سيكون نذير شؤم كما أنه من الإجرام تهديم مثل هذا المبنى الجميل العريق الذى حملوا له تقديرا واحتراما على مدى الأحقاب المتعاقبة) . ويعقب المؤلف جيرارد على ذلك بقوله فعلا ،

بالرغم من أن الوندال والمسلمين الذين تولوا شئون طرابلس قد كانوا من أشد الناس عداء للاسم الروماني إلا أنهم قد اقتصروا — فيما يخص القوس — على قطع رؤوس التماثيل المنحوتة في واجهة القوس وتتجه بنظراتها إلى الغرب والشرق ، ولم يمسوا أى جزء آخر بأى حال من الأحوال) . .

وموقف سكان المدينة من الاتجاه إلى تهديم هذا الأثر موقف محمود ، يدل على الحس الحضارى والألفة التي قامت بينهم وبين هذا الأثر الهام الذى اعتبروا العمل على إزالته أو تهديمه نذير شؤم للمدينة التي استطاعت بهذا الشعور أن تحافظ عليه وتسلمه للأجيال المتعاقبة جيلا بعد جيل ، رغم الظروف التي أحاطت به في مختلف المراحل . ولو توفر مثل هذا الحس الحضارى التاريخى إزاء منشآت أخرى لأمكن أن يصون للبلاد كثيرا من معالمها الدالة على عراقتها الحضارية .

إن مخطوطة هذا الجراح الفرنسي تقدم لنا أوفى لوحة وأشملها عن مدينة طرابلس بمعالمها البارزة الماثلة في مساجدها وقصورها ومدارسها وفنادقها وحماماتها وأسواقها ودار صناعتها ونظام الحكم فيها وتسلسل المناصب ، ثم الأبواب والحصون والأبراج . ولقد كان هذا المؤلف يتوفر على دقة في الملاحظة وحس تاريخى جعلاه يفيد إفادة كبرى من إقامته بطرابلس فيقدم هذا العمل الممتاز الذى يقدم لنا به صورة للحياة العامة كما يراها أسير مسيحى . ولابد أن نتصور المدينة في تلك الفترة وقد غلبت عليها فئات ثلاث ، فئة الحكام والبحارة والطارئين على الإسلام ، وفئة الانكشارية ، ثم فئة الأسرى المسيحيين الذين كانت أعدادهم ترتفع في بعض الحالات إلى نسبة عالية بين سكان المدينة . وكان لابد أن تحمل المدينة في هذه الفترة سمات الحياة التي تحياها هذه الفئات . فالحكام ورجال البحر بطموحهم ومغامرتهم ، والانكشارية بمشاكلهم ومنازعاتهم ، والأسرى بمتاعبهم ولا يجوز أن ننهى الحديث عن هذه المخطوطة الهامة دون الإشارة إلى الصورة التي تقدمها لنا عن الجهاد البحرى ودار بناء

السفن التي كانت من المعالم البارزة في المدينة في ذلك الوقت : يقول جيرارد : (إن الداى وحده هو الذى يختص بإصدار القرار الخاص بتجهيز السفن وتسليحها . وهو يصدر هذا الأمر بمبادرته الشخصية أو بناء على نصيحة الرياس . فإذا تم صدور القرار أمر الداى مجهز السفن الذى يعرف باسم (معلم الخندق) بتجهيز السفن وإعدادها للإبحار بعد أن يكون قد تولى النجارون وبناة السفن كافة الإصلاحات اللازمة الخاصة بالسفن المقرر خروجها إلى البحر ثم تشحن المدافع والذخيرة والمياه العذبة اللازمة لكل سفينة) .

ويقول أيضا : إن محمد باشا الساقزلى (١٦٣٠ — ١٦٤٩) كان أول من بنى المراكب بطرابلس ، بعد سنة ١٦٤٠ وكان القراصنة قد أسروا أثناء ولايته البناء (بيير بلنج) وهو خبير بصناعة السفن . فبنى له مركبين رائعين . وأسر في سنة ١٦٥٤ (باترون اوجر) وهو أيضا خبير بروفنسالى فبني للوالى أربع سفن ، مما كان مبعث سرور وارتياح لدى الوالى الذى أعاده إلى بلاده دون فدية وقدم له هدايا ثمينة عند السفر . وقد ترك الخبيران تلاميذ لهما بطرابلس . ومنذ ذلك التاريخ أنشئت عدة سفن بطرابلس . ولم يعد الأمر بتلك الصعوبة نظرا لتوفر الخبرة الطرابلسية) .

ربما لا حظ القارئ أننا أطلنا الوقوف أمام هذه الوثيقة الهامة . والواقع أننا قد قصدنا أن ننبه إلى هذا العمل التاريخى الهام ، الذى لم تسبق الإشارة اليه في اللغة العربية . ثم إن عهد محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى يقدم إلينا أوسع صورة عن المجهود العمراني الذى ما نزال نشهد بعض آثاره وبصماته على الطابع المعمارى العام في المدينة .

وقد اتسم عهد محمد الساقزلى وعثمان الساقزلى بالقوة والتوسع والهجوم فعمل الأول على توسيع رقعة ولايته في الداخل فشملت برقة ومناطق الجنوب وتطلع بطموحه إلى السيطرة على البلدان المجاورة كما اهتم بتطوير بحريته ، وضاعف من نشاطها البحرى . وقد سار خلفه نفس السيرة واتيح له من طول

فترة الحكم ما مكنه فعلا من أن يقوى من مركز مدينة طرابلس وهيبتها في البحر الأبيض المتوسط كما تمكن من أن يمسك بزمام الأمر في الداخل بقوة وحزم فحافظ بذلك على قوة دولته وتماسكها . ولكن الهيبة البحرية التي تحققت لمدينة طرابلس في عهود مراد آغا ودرغوث ومحمد الساقزلى وعثمان الساقزلى ، قد أخذت في الضعف ، في عهد الدايات الذين جاءوا بعد عثمان الساقزلى ، إذ انعدمت بين صفوفهم الشخصية التي تسيطر على الموقف ، وانشغلوا بانقساماتهم وصراعهم ، من أجل الحكم والكسب ، فتفتت الوضع الداخلى ، وثارت المقاطعات الداخلية ، كما ضعف وزن البحرية في الخارج ، وأخذت تواجه تحديا من القوى المعادية . وقد بدأت ملامح هذا التحدى تظهر منذ أواخر عهد عثمان باشا الساقزلى ، وظهرت الأساطيل الأجنبية أكثر من مرة أمام طرابلس ، ولكن ظهورها كان في تلك الفترة مقتصرا على التهديد والتفاوض وتوقيع الاتفاقيات . (ففي سنة ١٦٥٨ أرسلت انجلترا الأميرال ستوكس الذى ألزم عثمان باشا بالقبول بمعاهدة صلح وفي ١٥ يوليو من نفس السنة ظهر الفرنسي (الكفالبير بول) بأسطوله أمام طرابلس . وأفلح في الحصول على قائمة بأربعمائة أسير فرنسي ، والتأكيد بإطلاق سراحهم مقابل مئة وخمسين سكودو عن كل شخص . وقام عثمان باشا بتحسين وسائل الدفاع البحرى وأقام مدفعية جديدة بين حصني المندريك ودرغوث ، احتياطا لأية هجمات محتملة . وفي أغسطس ١٦٦٢ جاء إلى طرابلس الأميرال الهولندى رويتر ليبرم اتفاقيات مماثلة للاتفاقيات التي أبرمت مع الجزائر وتونس فاستقبل استقبالا حسنا ، ولكنه لم يتمكن من إبرام الاتفاقية . في حين حصل الانجليزى السير جون لاوسون في أكتوبر ١٦٦٢ على موافقة عثمان باشا بتجديد الاتفاقية التي عقدت في عهد كرومويل سنة ١٦٥٨) .

(كانت الحرب في ذلك الوقت مشتعلة في كريت ، بين الأتراك والبندقيين (١٦٤٥ — ١٦٦٩) وكانت القسطنطينية تحث دول الشمال الأفريقي على المساهمة في هذه الحرب . ولكنهم كانوا يرفضون ويعتذرون أو

يرسلون بعض سفنهم إلى بحر ايجة لمضايقة أساطيل البندقية وحلفائها . وفي سنة ١٦٦٧ بعث عثمان باشا بسبع سفن للالتحاق بالأسطول العثماني . وقد أتاحت أعوام الحرب في كريت ، وانشغال القوى المسيحية بالجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط ، ومساعدة الجزيرة المحاصرة ، فرصة كبيرة لبحّارة الشمال الأفريقي لزيادة نشاطهم حتي أصبحوا في النصف الثاني من القرن السابع عشر أخطر مما كانوا عليه في الماضي وأكثر إرهابا وإرعابا) .

(وفي سنة ١٦٦٩ قام أسطول فرنسي بقيادة (دالميراس) بالظهور أمام طرابلس . واستطاع أن يفرض على الباشا في تلك المناسبة ، تمكين الأخوة المخلصين من إنقاذ خمسة وعشرين أسيرا فرنسيا . وكان بطرابلس في ذلك الوقت ١٥٥٩ أسيرا مسيحيا) .

ومنذ ذلك الحين بدأت التحرشات الأجنبية تستهدف مدينة طرابلس وميناءها وحصونها ، في كل مرة من المرات التي يرغبون في فرض شروطهم . فقام الأسطول الانجليزى بقيادة السير جون ناربرو بقصف الأعمال الدفاعية يوم ٢٦ مارس ١٦٧٥ . ثم عادت الأساطيل الانجليزية أيضا إلى قصف المدينة واقتحام الميناء ليلة ٢٤ يناير ١٦٧٦ وإحراق أربعة مراكب للداى كما ضربت المدينة يوم ٢٦ يناير وفرضت عليها حصاراً بحريا طوال شهرى يناير وفبراير حتّى اضطر الداى إبراهيم في ١٥ مارس ١٦٧٦ إلى توقيع اتفاقية صلح تم بموجبها إرجاع جميع الأسرى الانجليز ورعايا الانجليز دون فدية .

وتتوالى بعد ذلك أحداث القصف والتهديد ، وتزداد عنفا وتصاعدا . ولا تكتفي بمجرد الملاحقة البحرية للقطع الطرابلسية ولكنها تتجه إلى المدينة . وقد قام الأميرال الفرنسي دوكنسيه في سنة ١٦٨٣ والمارشال دى استريز في سنة ١٦٨٥ بضرب مدينة طرابلس . وقد كان لهذه الغارة الفرنسية أثرها القوى على المدينة ومنشآتها العامة والدفاعية ، كما كان لها تأثيرها السيىء على النفوس والمعنويات ، فمالت إلى المهادنة والانصياع للشروط المفروضة ويصور ابن غلبون

هذا الوضع تصويرا دقيقا بقوله (فمن يومئذ تقوى أمر الافرنج في البلد ، وعلا شأنهم ، واشترطوا في صلحهم ذلك أمورا لا يلتزمها مؤمن يوقن بلقاء الله ووعده . منها دخول طاغيتهم كائنا من كان بنعله على ملكها ، يطأ بساط ملك خليفة الله ورسوله في الأرض ، ومشى كبيرهم شاهرا سلاحه بين يدى الملك . وأن لا يحاكموا مسلما في خصومة إلى الشريعة المطهرة ، وإنما تكون الحكومة بدار كبيرهم أيقظ الله لهم ملك الإسلام وأعانه حتي يردهم إلى الصغار) .

وقد استطاع محمد باشا الإمام أن يقيم في هذه الفترة علاقات حسنة مع بعض الدول الأوربية وخاصة فرنسا تعتمد على احترام المواثيق المبرمة ، وضمن بذلك للمدينة فترة من الهدوء . كما استطاع بما توفر له من حنكة ودهاء أن يمسك بخيوط الحكم والإدارة بقوة وحزم . جعلت منه فعلا أحد الولاة البارزين بمسلكه الحازم الصارم ، وبسيرته الحسنة وورعه وتوقيره للعلماء . وقد خلف أثرا معماريا متمثلا في مسجده الذى بناه بسوق الترك في ١١١٠هـ (١٦٩٨ — ١٦٩٩ م) على يد ثقته التونسي مصطفى قاربطاق . كما جدد بناء السوقين المجاورين بمسجده وهما سوق الترك وسوق الحرير .

ونلتقي في هذه الفترة بوثيقة هامة تحمل لنا انطباعات وتسجيلات شاهد عيان هو الرحالة المغربي أبو العباس سيدى أحمد بن محمد بن ناصر الدرعى فى رحلته التي قام بها إلى الحج سنة ١١١٩ هـ . وقد صادف وصوله إلى طرابلس في حجته الأولى سنة ١٠٩٦ هـ مهاجمة الأسطول الفرنسي لها وقصفه لمواقعها وقد سجل الرحالة حالة الذعر التي انتابت الأهالى من هذه الغارة العنيفة وأثرها المادى والمعنوى على المدينة ومنشآتها :

(وفي رحلتنا إلى الحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف ، حاصرها الكفار دمرهم الله تدميرا ، وذلك أنا يوم نزولنا بمنزل الركب بسور البحر ، إذ بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسها إلى أن كملت اثنين وعشرين سفينة ، فأقاموا عليها دمرهم الله بقية الثلثاء والأربعاء

والخميس والجمعة . وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم ، وعناء شديد وليس فيهم مدبر ولا ذو رأى جميل أو نظر سديد ، بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها ، وحريمهم إلى سوانيهم بالمنشية . ولما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم غير اللائق فيما يبدو لنا من إظهار الجزع والجبن لأعداء الله الكفرة اللئام الفجرة ، وقلنا لهم إن هذا الصنع الذميم مما يغريهم عليكم ، فاصبروا ولا تظهروا لهم الوهن والجبن . فقالوا هذا والله ليس منا بجبن ، وإنما حملنا على ما رأيت ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البنبة يضربون بها ، ولا تقع على شيء كائن ما كان إلا وهدته ودكته . والمسلمون في هذه الليالى كلها لا ينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ، ونحن ركبنا معهم في ذلك ، مستهلين بالشهادة رافعين أصواتنا بالتكبير ، معلنين الصلاة على البشير النذير ، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحية من الملك القدير وعلى آله وصحبته في المنهاج الواضح المنير . فلما كان بعد العشاء ليلة السبت ضرب الكفرة دمرهم الله بمدافعهم ، فرأينا من ذلك ما لم نره قط ولا سمعنا به. ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محمرة تحكى الشهب خرجت منه وصعدت . ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصم منه الآذان ، فتتصدع في الموضع الذى وقعت فيه وتتفرق ، لا تقع على بناء إلا وهدمته ولا على بسيط مستوٍ إلا وحفرته ولا علية أو اسطوانة إلّا وهدتها ولا على شجرة إلا وأحرقتها أو قلعتها فتمكث في أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول ، ونحن في ذلك كله رافعو الأكف بالافتقار والخضوع والتضرع إلى الله تعالى ، الليل كله ولا نكتحل بنوم قط ، وما خرج مدفع من مدافعهم إلا وظننا أنه يقع علينا ، فتارة يقع حذاءنا وتارة تمر علينا ، وأكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة أو خارجها . وفي بعض الليالى وهى من الليالى الهائلة أخذوا في الضرب الليل كله إلى الصباح ، بل إلى الضحى لا يفترون عنه ساعة ، وضربوا فيما أخبرنا به بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كورة ، فما رأينا هولهم العظيم

ومعنا النساء والصبيان ، وفيهن الحوامل خشينا عليهم أن يقذفن ما في أرحامهن مما يعاين فتحولنا لبعض البساتين المسورة ، فنزل الركب بها وأدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم أمسكوا عن الضرب إلى أن صلى العشاء فضربوا أيضا دفعة واحدة ، فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسدت كورهم بإخماد ما تعلق بها من نار . وعند الفيء عادوا للرمى إلى الضحى ولما قرب الزوال زحفوا للمرسى فعاقهم قرب البرجين اللذين على البحر من المرابطين بها البائعين أنفسهم من الله . وقط لا يخلوان من حارس في السلم والحرب . وردوهم على أعقابهم وولوا أدبارهم وعانقوا أدبارهم والحمد لله رب العالمين ، فكثر اللغط والعويل بالبلد فجاء أهل الاسلام ، من كل وجهة ، وركبنا بعدد وعدد كل بحسب وسعه ، فاكفهرت وجوه الأبطال وتجلت سفارة الرجال وشمروا للنزال وتهيأوا للدفاع والقتال. واحمرت الحدق فكسا الكفرة الفرق، فارتحلوا إلى أبعد مكان فأبعدهم الله وأسحقهم وأذلهم وأقلقهم فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم . وأشد الناس حنقا عليهم الحجيج فعملوا على التجهاز والنضال والبراز ولولا البحر لأراهم الله في أهل الإسلام ما يسيئهم ، فكتب كل وصيته وأعد الشهادة مغنما وفواتها مغرما . كل يرجو أن تخرج الكفرة للبر ، اجتمع آلاف مؤلفة من أهل الإسلام الأبطال ، من أهل الدفاع والقتال وما رد الكفرة من الخروج إلا ما رأوا من شدة الحزم وقوة العزم وأبلغ الغيظ من أهل الكفر والظلم . ثم جرى بيننا صلح على أن يرجع لهم المسلمون جميع ما عندهم من أسراهم، وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك ، والكفار على المسلمين أن يردوا لهم ما أخذوا لهم قبل ذلك الزمان في البحر في معركة بينهم وقبل المسلمون ذلك وقدره والله أعلم مائتا ونيف ريالة قرميلية فحينئذ دخل الكفرة المدينة للتسوق ، وربما أغلظوا على بعض المسلمين في القول لتوعد أمير البلد من العثماني على من أساء على كافر ولو بكلمة بعقاب شديد. وهو علج فأغرى ذلك الكفار على أهل الإسلام، فصبر أهل المدينة لذلك . وأما المغاربة وجميع الحجيج فأغلظوا على الكفرة وأخشنوا لهم في القول ، وربما ضربوهم ولا القوا إليه بالا إعزازا لدين الله ،

واعلاء لكلمة الله . فرفع الكفرة ذلك إلى أمير البلد العلج المذكور . فقال إن المغاربة شداد على النصارى فاتركوهم لئلا يقع فيكم القتل ولا يد لى عليهم ، فدعوهم عنكم وتحملوا منهم ما واجهوكم به وأخذوا في دفع ما شرط عليهم فصاروا يدفعون لهم الخيل والزرع والابل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فكلمنا علماءهم المالكية فقالوا إن هذا والله هو الصغار بعينه ، ولا قدرة لنا على ما فعله فينا هؤلاء الأتراك ، وخرجوا تلك الأيام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم . . . . ثم أجلى الله الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد إتمام المهادنة وامضاء شروطهم وفرح المسلمون بانتقالهم عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح اخزى الله الكافرين وأذلهم وأعز الإسلام وأحاطهم . .) .

وتتفق هده الصورة التاريخية تمام الاتفاق مع الواقع التاريخي الذى ضبطته وقائع العصر سواء من الجانب الوطني أو الجانب الأجنبي .

وكان ذلك في عهد الحاج عبد الله داى . كما يتفق الموقف الذى سجله الرحالة للعلماء الطرابلسيين مع ما سجله العالم ابن غلبون في كلامه الذى تقدمت الإشارة إليه .

أما حجته الثانية سنة ١١١٩ هـ (وهى الحجة التي ألف فيها الرحلة) فتتفق مع أحداث أخرى هامة جرت في مدينة طرابلس في عهد خليل باشا الذى خلف محمد باشا الامام على الحكم . وخرج في نهاية ١٧٠٩ لمحاربة عبد الله بن عبد النبي الصنهاجى الذى استولى على القافلة التي كانت تحمل خراج فزان . فقام الرايس إبراهيم اليلى بخلع بيعته وعين حسين آغا بـدلا منه ، فعاد خليل على الفور وعسكر بجيشه في المنشية وقد خرج سكان المدينة لمحاربته .

يقول :

(كان وصولنا طرابلس ظهر يوم الأحد الثاني والعشرين من شعبان ستة عشر من أكتوبر . ونزلنا بازاء الهنشير لأجل فتنة وقعت واختلاف بين أهل

طرابلس وباشاها خليل ، كان ظلوما فجورا يقدم الكفرة من الروم على أهل الاسلام واتخذ بطانته من النصارى ويوليهم على المسلمين ، وكاد يخلع ربقة الإسلام من عنقه وأضر بالمساكين ولا لأحد عنده حرمة من أئمة المسلمين وسادتهم بل يعمد إلى الاساءة بالأعيان من المرابطين والعلماء العاملين فلا يرقب في أحد إلاً ولا ذمة حتى لاتجد الرعية ملتجأ ولا منجأ إلا إلى الله ، فلذلك قيض الله له من نفاه من أهله وقبيله ، وقامت معه العامة واستعدوا على نفيه ورموه عن قوس واحدة وخرج عن البلد لغرض أراده فسدوا المدينة في وجهه والشوارع بين يديه ولم يجد مسلكا لما أراد وخيم بطرق محاصر للبلد مع جنده المفلول وحزبه المخذول ولما حاذيناه بعث لملاقاتنا أعيان دولته ورؤساء محلته . فلقيناه ورغب في النزول بإزائه والبيات تلك الليلة بحذائه ، وامتنعنا وسرنا وتعرض لنا أهل الساحل والمنشية أفواجا أفواجا فرادى وأزواجا بقضهم وقضيضهم وعددهم وعديدهم آخذين أهبتهم ومبدين شوكتهم ، ولما عاينونا وأيقنوا أنا لهم سلم وأنا وفد الله وزوار نبيه وحجاج بيته ضجوا باكين وجاروا داعين وكشفوا رؤوسهم وأذلوا نفوسهم وأعلنوا عقيرتهم وكشفوا سريرتهم قائلين بصوت عال ودوى متوال يالوفد الكبير المتعال من للأسير العاني المضيم المتفاني . . .) .

أما وصفه لمدينة طرابلس فهو منقول عمن تقدمه وخاصة العياشي ، ولا يشكل أى إضافة سوى ما يعنيه النقل من الموافقة والتأييد .

وتمضي الأعوام التالية في جملة من الأحداث والصراعات والانقسامات والثورات المتعاقبة بين الدايات ورجال الحكم . ولا تعرف المدينة خلال هذه الفترة أى نوع من أنواع الهدوء والاطمئنان والاستقرار الذى يجعلنا نبحث عن الآثار المعمارية التي برزت ، وقد استمرت هذه الدوامة حتى انتهت بوصول احمد القرمانللى رأس الأسرة القرمانللية إلى الحكم .

وقد كان أحمد باشا شخصيةً قوية متوفرة على طاقات كبيرة ، ساعدته على أن يتغلب على كثير من المصاعب التي واجهت إقامة حكمه الذاتي المستقل .

وقد استطاعت شخصية أحمد باشا القرمانللى أن تخلف أثرا على الحركة العمرانية تتجلى آثارها الباقية في المسجد الجميل الذى يحمل اسمه وفي بعض الأعمال الأخرى التي سجلها مؤرخ العهد ابن غلبون بقوله : (وأما تأييده للإسلام فأمر يشهد به عمله ، من ذلك وقفه على سور البلد أوقافاً كثيرة يفوق ريعها في العام على ألف وخمسمائة أو أقل بقليل . واجراؤه الماء للمدينة لنفع أهلها على حنايا لم يسبق بها ، وايقافه عليها ما يقوم بها . ومن ذلك السوق الجديد الذى بإزاء خندق القصبة من جهة الشمال ، وهو سوق فسيح الفناء ، والمنظر والمبنى ، وكان بناؤه سنة ست وثلاثين ومائة وألف . وبنى بالقلعة بيوتاً ومقاصير انيقة ، وجدد ما وهى منها ، وقد كانت قبله خرابا . وهو الذى جدّد الباب للخندق الغربي الكائن بين سوق الخضرة والحدادين . وبنى المخازن التي على يمين وشمال الداخل منه إلى القلعة . وبنى الحاجز بين القلعة ومجلس قائد الخندق ، حتى منع الداخل لغير حاجة . وبنى الفسقية لسقي أهل السفن على البحر التي لحق نفعها المسلم وغيره من غير تعب . وبنى الحوامل التي على يمين داخل القلعة من الباب الموصوف الملصقة بسور المدينة المفتوحة تجاه القلعه وغير ذلك من مهام المسلمين . وكان هذا مع ضيق يده وكثرة شكاة الفقراء إليه فتجده في مراعاة المصالح يشتد في جباية الخراج وربما استعجله ، فرماه من لم يدر حاله بالجور . . .) .

ومن الأمور الطبيعية أن يتجه اهتمام أحمد باشا القرمانللى في الفترات الأولى لحكمه إلى تدعيم كيانه وترسيخ سلطته وإعداد وسائل الدفاع في المدينة لمواجهة كافة الاحتمالات وتهديدات الدول البحرية . ولذا فقد انصرف بجد إلى تحسين وتجديد وإنشاء الوسائل الدفاعية ، وبدأ بتجديد أسوار المدينة وتقويتها وقام بإصلاح برج المندريك وشرع أيضا في إنشاء برج جديد فوق صخرة بحرية

تقع أمام السور الشمالى للمدينة وتحت برج التراب ، وهو الحصن المعروف باسم برج أبي ليلى أو البرج الفرنساوى (برج الفرنسيس) وقد جاءت هذه التسمية من قيام الأميرال دى ستري. بنصب بطاريات مدافعه في هذا الموقع أثناء الغارة البحرية الفرنسية المعروفة ضد مدينة طرابلس سنة ١٦٨٥. وعني أحمد باشا بتزويد الحصون بمدافع من عيارات كبيرة ، وأرسل أموالا إلى القسطنطينية لشراء هذه الأنواع الجيدة من الأسلحة التي كان يستعد بها لمواقعه الحربية هجوما ودفاعا . ولم يتأخر الخطر البحرى كثيرا إذ قام الأسطول الفرنسي بقيادة القبطان نيقولا دى جراند بريه بالتوجه إلى طرابلس التي وصلها يوم ١٦ يوليو بعد أن قام بمظاهرة بحرية بأسطوله الذى يتكون من ثلاث عشرة قطعة بحرية بين صغيرة وكبيرة وأرغم باى تونس بقبول الشروط التي فرضها عليه . وكانت الشروط التي جاء الأسطول الفرنسي لتطبيقها تقضي برد الغنائم التي أخذت من القبطان اوليه وإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين ودفع تعويض عن الإهانات التي ألحقها البحارة الطرابلسيون بالعلم الفرنسي وإبرام معاهدة صلح جديدة . ولم يرضخ الباشا ولا ديوانه لهذه الشروط المهينة وفضل التعرض لخطر العداوة والحرب وتدمير المدينة . وأخد الأسطول الفرنسي في مساء اليوم نفسه (الساعة الثامنة والربع) في قصف المدينة واستمر على هذا القصف حتى الساعة الرابعة من أليوم التالى فاصابت القنابل القلعة والقنصلية الفرنسية والحمامات التي يعتقل فيها الأسرى واستمر قذف المدينة بعنف وشدة في مساء أيام ٢٢ — ٢٣ — ٢٤ وفي صباح يوم ٢٥ يوليو أرسل قائد الأسطول الفرنسي خطابا إلى أحمد باشا يحثه على الصلح وكرر هذا الطلب أيضا أكثر من مرة يوم ٢٦ . فجمع الباشا الديوان وتداولوا في الأمر ورفضت الأغلبية المفاوضة . (ولذلك رد الباشا رسائل قائد الأسطول الفرنسي إليه دون فتحها وذكر أنه باستطاعتهم الاستمرار في ضرب

المدينة بالقنابل ولكنهم لن يضطروه إلى مقاومتهم . وكان قد تم تدمير أكثر من ثلث المدينة التي ألقي عليها ما يزيد على ١٨٠٠ قنبلة ، وحتى مسكن الباشا لم يسلم من هذه القنابل إذ أصابه أكثر من أربعين قنبلة . وإذا كانت الضحايا في الأرواح قليلة ، فإن الخسائر والأضرار الأخرى كانت كبيرة ، ومع هذا فإن الباشا لم يكن يشير أية إشارة إلى الخضوع وعندما فشل الأسطول الفرنسي في مهمته ونفد ما لديه من ذخائر أطلق أشرعته للريح وغاب عن الانظار . يقول ميكاكى : (ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، لم تكن السفن الفرنسية لتجرؤ على الاقتراب من جنوب مالطا ، وكانت تسعى إلى ضمان سلامتها بسيرها جماعات ، وفي بعض الأحيان كانت تستطيع النجاة بنفسها بفضل ما تبديه من جرأة يائسة) .

لقد أردنا بهذه الوقفة الطويلة نوعا أن نبين ما تعرضت له المدينة خلال هذه الأحداث من خراب وتدمير ضاعفا من المشاكل التي واجهت هذه الشخصية في بداية تأسيسها للحكم . وقد عمل أحمد باشا بعد أن استقر له الحكم وهدأت الأوضاع ، وازدهرت الحركة الاقتصاذية على تجميل المدينة وازالة الآثار التي نشأت عن القصف الفرنسي سنة ١٧٢٨ وإنشاء المرافق والمنشآت التي ورد ذكرها فيما تقدم من كلام منقول عن ابن غلبون . ولعل أبرز هذه المنشآت التي ما تزال قائمة مسجده الذى بدأ في بنائه سنة ١٧٣١ وانتهى منه سنة ١٧٣٧ في المكان الذى تقوم عليه مساكن الانكشارية ومسجد الديوان . وألحق به مقبرة ومدرسة كانت ذات أثر ملموس في إنعاش الحياة العلمية في البلاد . والحق أن أحمد باشا القرمانلى من الولاة القلائل الذين خلفوا طابعهم المعمارى في هذه المدينة . ولقد كان بحق واحدا من خمسة ولاة كبار تعاقبوا على حكمها في فترات مختلفة وحفظ لهم التاريخ مآثر حسنة في

تاريخها وهم مراد آغا ودرغوث ومحمد الساقزلى وعثمان الساقزلى ومحمد الإمام المعروف بشايب العين .

وقد مرت بطرابلس في عهده زوجة المولى إسماعيل سلطان المغرب فأكرمها واحتفى بها وبحاشيتها . وقد رافقها في هذه الرحلة إلى الحج أحد أعيان الدولة العلوية أبو محمد عبد القادر المعروف بالجيلاني الاسحاقي وألف رحلة تحدث فيها عن طرابلس لم يزد فيها على ترديد أقوال الرحالة العبدرى الذى نقل عنه رأيه فيها فوقع في ذلك العيب الذى وقع فيه أغلب الرحالة في الاعتماد على أقوال السابقين دون مراعاة لاختلاف الظروف وتعاقب الأزمان . فقال معقبا على نقوله عن العبدرى : (فلو رآها لهذا العهد لزاد لومه لأهلها وايلامه) فليته إذ أخذ عن العبدرى ، أخذ عنه قوة شخصيته ، واستقلاله بالرأى وانطباعه الفردى الخاص الذى جعل من رحلة العبدرى — رغم تحاملها — من أرفع النماذج التي يقدمها أدب الرحلات في اللغة العربية .

ومر بطرابلس ابن عبد السلام الناصرى في رحلته إلى الحج سنة ١٢١١ هـ وألف رحلته الحجازية الكبرى التي فند فيها آراء الاسحاقي فقال : (وقد مربهذه البلدة بعض الأدباء من أرباب الدولة العلوية في الأيام الاسماعيلية الماضية فاقتفى في وصفها العبدرى ، وهو في ذلك جاهل أو مفتر إلا في انكار عدم التدريس وهو فيه برّ) وكان الناصرى قد لاحظ تقصير الائمة والعلماء في التدريس فقال :

(غير أن أئمتها مع لطافتهم وديانتهم وحسن أخلاقهم لا يقيمون بها مجالس العلم والتدريس، غافلين عن المنافسة في هذا الأمر النفيس، وكأنها عليهم تعذرت أوعـادة عندهم قد تقررت سوى فرد من الناس ، بدا في جنح ليلها كالنبراس) . كما حاول هذا الرحالة أن يدافع عن طرابلس ضد تحامل العبدرى ملتمسا لها الأعذار في الظروق التاريخية (وغاية ما يجاب به عن

العبدرى أنه اثر بعض الفتوحات دخلها قبل أن يقوى ساعد أهل الاسلام فيها ، فكانت إذ ذاك ما به وصفها على أن الرجل قد يرد البلد على جناح طائر على ما أعلم من حال الركاب فلا يشتفي من خبرها) .

وقد تحمس الناصرى لمدينة طرابلس ودافع عنها، ونقل قطوفا من أشعار المغاربة في وصفها ومدحها وقال (لوتتبعنا ما وقفنا عليه من مدح طرابلس وأهلها لخرجنا بكم عن المقصود) (والحاصل مدح البلد وأهلها وحسن أخلاقهم وجودهم سارت به الركبان ، وعلم علمائها ملأ الخافقان ، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح وما زالت الأشراف تهجى وتمدح) . وقد وصف الناصرى المدينة في عهده بالحسن والأناقة فقال (وبالجملة فهذه البلدة أنيقة في بحار الجمال والحسن غريقة ، أعطى ساكنها الشجاعة والنهاية في الحزم والبراعة ، أشربت قلوب من بها مهابة وما أرادهم أحد بسوء إلا والله تعالى كالملح أذابه ، أمطر الله عليها سحائب الرحمة ودمر أعداءهم من سائر الكفرة . . . وزاد البلد حسنا ما بساحتها من المنشية ، ذات النخيل البهية ، والثمار الرائقة والفواكه الفائقة ، يكل عنها نطاق البيان ، ولا يضبطها لسان ولا بنان لا سيما اللاقوج الذى لا يوجد له مناظر والليمون الذى يتخذ من أنواع الأزاهر لتنظيف الثياب والأبدان) .

وقد أمضى الناصرى سبعة أيام بمدينة طرابلس قابل فيها علماءها واطلع على أحوالها وزار محارسها ومزاراتها وتحدث عن صلحائها حديثا طويلا يصلح أن يكون من المراجع التاريخية في سمات الحركة العلمية في تلك الفترة بالبلاد . وتلك هى الأهمية الكبرى التي تعود على الباحث من قراءة الرحلات العربية التي اهتم أصحابها اهتماماً خاصا بتسجيل الأوضاع والملامح العامة للحركة العلمية في البلاد التي يزورونها على غير الحال بالنسبة للرحالين الأجانب من غير العرب إذ ينصرف اهتمامهم إلى النواحى التاريخية الأثرية أو الاقتصادية ، والعادات والتقاليد الظاهرة البارزة التي يمكنهم الوقوف عليها .

ومامن شك في أن الرحالين المغاربة قد شكلوا برحلاتهم الحجازية مصدرا هاما من مصادر التاريخ للبلدان التي زاروها ومروا بها في رحلتهم . ومن هنا كان الشعور بوجوب تضافر الجهود على نشر هذه الرحلات وتحقيقها تحقيقا علميا يضبط المواقع والوقائع والأحداث والأشخاص ضمن إطار التطور التاريخى لكل بلد من البلدان التي شملتها الرحلة . ولقد كان المغاربة بحق سادة هذا الفن في الأدب العربي . ولعل اسمهم لا يبرز ضمن ألوانه كما يبرز من خلال (أدب الرحلات) .

وتتوفر لنا صور عديدة وألوان مختلفة عن الحياة في مدينة طرابلس في العهد القرمانللى قام برصدها وتسجيلها بعض الرحالة والدارسين الأجانب الذين أتيح لهم أن يزوروا المدينة أو يقيموا بها فترة من الوقت ، كانت كافية لتسجيل انطباعاتهم عن الحياة العامة ولكن لا بد لنا هنا من وقفة قصيرة نشير فيها إلى الحياة العلمية في العهد العثماني الاول الذى سبق العهد القرمانللى .

ومن العبث أن نتحدث عن حياة علمية ثقافية حية مزدهرة في المرحلة المعروفة باسم العهد العثماني الأول. وهى المرحلة التي تمتد من استرداد طرابلس من الاسبان سنة ١٥٥١ حتى قيام الأسرة القرمانللية سنة ١٧١١ . فلا تحدثنا كتب التاريخ عن هذه الفترة بما يؤكد قيام أى نوع من أنواع النشاط الثقافي العلمى بالمدينة . وقد كان ذلك هو الطابع العام المميز للسيادة التركية في كافة البلدان التي وقعت تحت حكمها . ولقد كان الحكام أنفسهم طبقة لا صلة لها بالعلم ، وإنما كانوا فئة من المغامرين والبحارة الممتازين الذين أدركوا بمهارتهم البحرية مكانة عالية في مراكز السلطة . ولم يكن ينتظر في مثل هذه البيئة أن تزدهر الثقافة وأن تعلوا راية العلم . ومع ذلك فقد بقي أثر واضح من الثقافة الاسلامية في المعاهد والزوايا . وقد أدى إهمال شأن العلم والعلماء إلى انحدار المستوى الفكرى بين سكان المدينة الذين سيطرت عليهم العقليات الخرافية ، ومالوا إلى الاعتقاد في كل من ادعى الولاية أو التصوف بحق وبغير حق .

وقد بلغ بعضهم من النفوذ والقوة حتى أصبح يشكل في بعض الحالات نوعا من القوة المضادة أو المعارضة وكثيرا ما كان يلجأ إليهم الناس للتخفيف من وطأة الحكام وظلمهم وهذا سر ما نلحظه من كثرة الأولياء الذين ينتسبون إلى هذه الفترة ، حتى كاد يصبح لكل قبيلة أو أسرة ولى يحميها ويشملها ببركته ويرد عنها كيد الكائدين وجور الطغاة . ومهما كان الرأى حول هذه الظاهرة والمنتسبين إليها ، فمن الحق أن يقال إنه كان لبعض البارزين المتمكنين الصادقين من رجالها دور تاريخي هام في كبح جموح الحكام وكسر شوكة طغيانهم حتى اضطر هؤلاء الحكام أن يعترفوا لهم بشيء من الحصانة وحق الحماية .

* * *

تتوفر لنا عن هذا العهد عدة وثائق وتقارير هامة كتبها المبعوثون والقناصل والجواسيس والرحالة وبعض العناصر التي أتيحت لها الإقامة في المدينة . وسنسير في عرضها وفق التتابع الزمني لتأليفها . وأول هذه الوثائق الهامة ذلك التقرير الذى كتبه (الفيسي ميلانوفيتش ١٧٦٥ م عن الوضع الحالى لمدينة طرابلس وتحصيناتها وحكومتها وسلاحها وإنتاجها وكل التفاصيل المتصلة بهذه الولاية) .

وقد تحدث هذا التقرير ، نعتمد على الترجمة التي قدمها الاستاذ محمد بازامة في كتابه (الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر) نشر مكتبة قورينا . ر الملحق رقم ١٠ ص ٢٠٥) تحدث عن موقع مدينة طرابلس الجغرافي ، ذات الشكل الخماسي غير المتوازى الأضلاع . وقال إن (محيطها يبلغ ألفا وخمسمائة خطوة هندسية بالتقريب) وترتفع في أركانها حصون غير عالية توفر لها حماية سيئة . وبين الأهمية التي كان يوليها السكان للجانب البحرى من هذه المدينة (حيث استخدموا كل براعتهم الفنية في تدعيمه وتوفير الدفاع له وأقاموا عددا من البطاريات لحماية هذا الجانب والدفاع عن الميناء) .

والملاحظ في تاريخ هذه المدينة أن العناية بتحصينها في فترات الحكم الإسلامى تتجه إلى الجوانب البحرية . أما في فترات الحكم الأجنبي فتتجه إلى

الجوانب البرية كما حدث في العهود الرومانية والبيزنطية وحكم الاسبان وفرسان مالطا ، بل تحقق ذلك حتى في العصر الحديث حين أقام الايطاليون سورا أحاطوا به المواقع المحتلة من مدينة طرابلس والتي ظلوا محاصرين فيها طوال الفترة التي تمتد من ١٩١٥ إلى سنة ١٩٢٢ .

وقد وصف لنا السور المطل على البحر وقال إن طوله يبلغ ٤١٠ خطوات وبه ثلاثة أبراج وتقع خلفه بعض المصاطب المستخدمة قواعد للمدفعية . وتتركز التحصينات في القلعة على الجانب الشرقي المطل على الميناء ، أما الجانب الآخر فيتخذ منه الباشا وحاشيته سكنا وإدارة .

ويذكر من حصونها حصن (الفرارة) الذى شيده الاسبان ، وبه ثمانية عشر مدفعا موجهة للدفاع عن مدخل الميناء . وكان هذا الحصن هو الذى استولى عليه الارناؤوط الانكشاريون الذين تمردوا ضد على باشا القرمانلى وقد وجهوا كامل مدفعيته نحو القلعة . ثم يشير إلى (برج البحر) وهو مخصص للدفاع عن المرفأ (وهو يتألف من سور دائرى مرتفع يحتوى على اثني عشر مدفعا معظمها يحيط به من خارجه سور آخر نصف دائرى وأقل ارتفاعا منه وقد زود بأربعة عشر مدفعا نحاسيا .

(وفي هذا الجانب من أسوار المدينة أيضا ثلاثة أبراج بها بطاريات ، البرج الأول يقع قرب حصن (الفرارة) ويتكون من ستة مدافع حديدية والبرج الثاني على شكل مخروطى ويتكون من أحد عشر مدفعا ، أما البرج الثالث فيقع معها على خط مستقيم ويتكون من ثلاثة عشر مدفعا . ومعظم مدفعية البرجين الأخيرين من النحاس . وقد خصص الأول والثاني منهما لحماية المدينة من الغارات البحرية . أما البرج الثالث الأوسط فمخصص للدفاع عن الشاطىء .

أما الجانب الثاني من السور فيقع في منتصفه الحصن الاسباني الذى يسيطر على القلعة والحصون وسائر الأبراج . وهو مزود ببطارية ممتازة . والاسوار عن ذلك توسع تلك الظاهرة المعروفة باسم (المرابطين) وسيطرتهم على عقول

رملية بصفة عامة . ثم قبالة الحصن الاسباني من جانب البحر يقع (برج الفرنسيس) وهو برج مستدير ويقع فوق جزيرة صغيرة ، ويوصل إليه بواسطة معبر صخرى . به اثنا عشر مدفعا . ويتولى هذا البرج الدفاع عن الجانب الشمالى من المدينة ، وهو بالتضامن مع حصن الميناء يتحكمان في تلك المناطق التي تبدو فيها السفن المعادية في الأفق .

ويتضح الإهمال والضعف في الجوانب البرية ، إذ لم تكن المدينة تخشى أخطارا كبيرة من هذه الناحية (وهو أضعف أسوار الثغر ويعتمد هذا الجانب على بعض الخنادق التي فقدت فعاليتها بسبب الإهمال) والواقع أن أسلوب الخنادق قد أهمل منذ استيلاء الأتراك على القلعة وانتزاعها من فرسان مالطا أما في العهد الاسباني وفرسان مالطا فقد كانت لهذه الخنادق أهمية في الدفاع عن القلعة والمدينة .

ثم تحدث عن الترسانة والمخازن . (وفي هذه الترسانة يصنعون الشواني وبعض السفن الكبيرة الأخرى . اما بالنسبة للمراكب والألواح الصغيرة الحجم فيوجد في داخل الميناء ساحل ممتد مخصّص لعملها . وبه عدد من مصانع السفن . والأسلوب المتبع لديهم في صناعة السفن يتفق ومطالبهم البحرية . فهم يفضلون أن تكون من النوع السريع . ولذا فإنهم يستخدمون كل براعتهم وأساليبهم الفنية لجعلها محققة لهذا الغرض ، فيصنعونها من أخشاب المورة ولا يهتمون كثيرا بمتانتها اعتمادا على قوة الرجال) .

ويقدم إلينا صورة عن المدينة في سنة ١٦٧٥ بقوله :

(أما المدينة فهى غير مستقيمة الطرق ولكنها صالحة للسير . والشوارع الرئيسية فيها تعتبر مريحة جدا . منازلهم هى في معظمها ذات شكل مربع أو مستطيل وتستمد الضوء من فناء داخلى تحيط به بواكى وممرات مسقوفة تنفتح عليها الحجرات المحيطة بالفناء . أما من الخارج فهم لا يستغلون الشرفات الضيقة

الصغيرة المحمية بمشربيات وسقوفهم مسطحة مغطاة بالطين الذى يمنع عنها تسرب المياه التي يستفيدون منها هى الأخرى بتخزينها في الصهاريج .

بالمدينة كنيستان واحدة لاتينية كاثوليكية وأخرى أغريقية ارتوذكسية . والقساوسة القائمون عليهما يحصون بكل احترام من جانب الأتراك . وتحظى بيوت القناصل بالرعاية الواجبة وتتمتع بميزة التجاء بعض المذنبين إليها ، غير أن ذلك يتوقف على مدى الجرم ولهذا السبب فهى دائما محروسة .

أما مساجدهم فذات هندسة بسيطة ، عدا مسجد الباشا الذى زينت جدرانه الخارجية والداخلية بالقيشاني وبثلاث قباب جميلة جدا .

ويقدم لنا هذا التقرير صورة عن وضع قوس (ماركوس اوريليوس) في ذلك الوقت (والحنايا) التي أقامها أحمد باشا القرمانللى لجلب الماء إلى المدينة .

(لم اكتشف شيئا آخر نادرا عدا إيوان وساقية مياه جميلة جدا . الرواق في شكل مربع يرتفع على أربعة أقواس قائمة على أعمدة ضخمة من الرخام ، مزخرفة بنقوش بديعة محفوفة بأوراق الشجر . ويقولون إن داخله أجمل عملا ، ولكن بما أنّه مستغل الآن مخزنا للباشا فليس من السهل دخوله . ومما يردده الجميع أن الرومان هم الذين بنوه ليستخدموه معبدا ، وان الاسبان قد اخلوه لتقيم به هيئة قيادتهم . وعلى كل فيبدو أنه من عهد قديم .

(أما ساقية المياه والتي تمتد نصف ميل فتجلب المياه من البر إلى قصر الباشا ، وهى مقامة على أقواس بديعة ذات منظر خلاب ، يبلغ ارتفاعها عن الأرض اثني عشر قدما) .

أما الميناء (فيكفي لايواء عدد كبير من السفن ، ولكنه لا يصلح إلا للقطع الصغيرة . أما السفن الكبيرة التي كثيرا ما أرسلت بها بعض الدول الصديقة ، فإنها ترمى مراسيها على بعد ثلاثة أميال خارج الميناء ، شمالى الحصن

حيث القاع ملائم جدا ، غير أن هذا يتوقف على الفصل والمهمة التي جيء من أجلها وقبالة المدخل العادى للمرفأ ، يوجد (البرج الانجليزى) بشكله الهلالى الذى يرسو فوق قاعدته مستطيلا قائم الزوايا . وبهذا فهو يمنع الدخول إلى المرفأ إذا اقتضت الظرورف ذلك . وبه بطارية من أربعة وأربعين مدفعا في صفين . الأول على مستوى سطح البحر والثاني أعلى منه فوق ربوة ذات شكل دائرى ، ولها سور واق حصين جدا .

وتتقصى الوثيقة بعد ذلك أنظمة الحكم وتتحدث عن الحاشية التي تغلب عليها عنصر الأتراك والمستجدين في الإسلام ممن يستخدمهم الوالى ويرفع من مكانتهم حسبما يقدمون من دلائل الوفاء (وهو بهذا يحفظ نوعا من التنافس والتسابق لخدمته بإخلاص ، مكتفيا بمراقبة الجميع) .

(والمدينة كثيرة السكان وتعد من اليهود فقط ألف أسرة أو أكثر ، علاوة على عدد غير محدد من الأتراك والجنسيات الأخرى ، وقد اضطروا في سبيل توفر السكن لأنفسهم إلى تكوين أحياء جديدة خارج أسوار المدينة وعلى مقربة منها وهى أيضا مكتظة بالسكان) ويذكر الكاتب أن التجارة كانت محدودة النطاق وتقتصر على تجارة القوافل والتعامل مع السفن التي تتردد على الميناء .

ومن المهم هنا أن نقف طويلا عند هذه الشهادة التي يسجلها حول السكان وسلوكهم ومعاملتهم :

(الشعب إنساني المسلك وليس له من البربرية سوى الاسم ، وهو يحسن استقبال الأجنبي الذى يتمتع لديهم بكل حرية ، ولا تلحقة إهانة أو احتقار واذا حدث أن تعرض لذلك في وسعه أن يلجأ إلى القضاء حيث يلقى العدل والإنصاف . والقناصل محترمون جدا وخاصة قنصل انجلترا الذى يحظى بتقدير أكبر من غيره) .

أما الوثيقة الثانية فهى الرسالة التي كتبها اغسطينو بلاتو بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٧٧٧ والمحفوظة بمحفوظات مدينة فينيسيا ، وقد نشرها جورجيو كابوفين في

كتابه (طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر) ضمن الوثائق التي ألحقها بهذا الكتاب الهام . كما نشر صورا لمخطوطة هذه الوثيقة (الوثيقة رقم ٢٦ ص ٥٢٣) .

شغل بلاتو منصب قنصل البندقية بطرابلس . وقد كتب هذه الرسالة إلى اخوته يصف المدينة والحياة العامة بالقطر . وسنقتصر على تلخيص ما يتصل بموضوعنا مع التنبيه إلى أهمية هذه الوثيقة بالنسبة للمهتمين بتاريخ العهد القرمانللي .

(تقع طرابلس عاصمة الايالة ، في الساحل الأفريقي ، عند أقصى طرف من ساحل فسيح ينتهي إلى ضفاف البحر الأبيض المتوسط الذى يلتف بها على هيئة خليج فيشكل ميناء رحبا ، ولكنه غير قادر إلا على إيواء السفن المتوسطة . ولما كانت وجهة نظر الحكومة تتجه بها إلى الاحتياط ضد مفاجآت المسيحيين لقد ركزت كل اهتمامها ودراستها لتزويد مدخل الميناء ببعض الحصون المحمية ببطاريات حسنة ، ولكنها صارت في هذه السنوات الأخيرة غير صالحة — بسبب الإهمال — لتحقيق دفاع فعال ومواجهة أبسط أنواع الهجوم . وتكفي فرقاطتان لإثارة الرعب في المدينة التي تبدو بحكم موقعها غير مهيأة تقريبا للاقتحام . والمدينة خماسية الشكل .ضلعان منها يطلان على البحر ، اما البقية فتطل على اليابسة . وتبدو المدينة من بعيد بمنظر ساحر جذاب ، وتشكل بساتينها أجمل مشهد عام ، ولكنك حين تقترب منها تبدو لك بما يشبه المدينة المنهارة ، إذ لا ترى في شوارعها سوى الركام والانقاض بسبب تدمير الأسوار وتداعى البيوت المغطاة بأسطح مسطحة . وبيوتها مبنية على هيئة أديرة ، وتفتح على صحن فسيح تستقبل منه النور ، وقليلا ما تتوفر بها نوافذ خارجية . والمدينة آهلة بالسكان ويتوفر اليهود على وضع ممتاز ويشكلون نسبة طيبة من سكانها .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الغذاء اليومى والملابس وأكل

السكان الذى يعزوه إلى (خصوبة الأرض التي لا يمكن أن تكون بسبب حرارة الجو أكثر جودا بخيراتها . والدليل على ذلك تلك الكمية الوافرة من التمور وأنواع الفواكه والحمضيات اللذيذة التي تنتجها البساتين التي تشكل طوال العام أو أغلب العام أجمل المناظر وألطفها ، وليست أقل من ذلك وفرة كمية حصاد القمح في سنوات الخصب التي بالإضافة إلى سدها الوافر الفائض لحاجات السكان الكثيرين تصدر منه شحنات هائلة عن طريق البحر إلى مواني اسبانيا) . ويتحدث بعد ذلك ، عن الأساليب الزراعية وغيبة سلطة.الحكومة في المناطق الداخلية ، وانعدام الصناعات وانهيار الوضع الاقتصادى نتيجة عدم استقرار العملة ، ويعزو سوء هذه الأوضاع والمسلك الشائن إلى الحكام والعناصر المحيطة بهم من المستجدين في الإسلام فيقول (لا يمكن للمرء أن يتوقع المشاعر الشريفة من فئة دنيئة نذلة ، التي تهجر أوطانها بسبب ما اقترفته من آثام وجرائم للبحث هنا عن ملجأ يحميها بعد أن تتحول عن دينها . تلك هى الفئة التي تحتل في طرابلس أعلى المناصب وتقبل ضمن قرابة الباشا الذى لا يستنكف عن أن يصهر إليهم فيزوجهم بناته وأخواته . .) .

والواقع أن هذه الوثيقة والوثيقة السابقة تشكلان مصدرا هاما من المصادر التاريخية عن العهد القرمانلى وتقدمان لنا صورة عنه وعن أوضاعه العامة من خلال وجهة النظر الأجنبية .

ترتبط الوثائق التي أشرنا إليها ، خاصة الأخيرة منها بعهد على باشا القرمانلى وهو الحاكم الثالث من أفراد الأسرة القرمانلية الذى ظل متربعا على كرسي الحكم مدة تقارب الأربعين عاما (١٧٥٤ — ١٧٩٣) اتسم خلالها عهده في البداية بشيء من الهدوء النسبي في المدينة وتجنب الاصطدام بالدول البحرية الكبيرة وإن ظهرت في أفق المدينة سفن البندقية بقيادة جاكوموناني صيف ١٧٦٦ فأقنعت الباشا بالتفاهم وتأكيد الاتفاقيات السابقة . وكانت فرنسا قد بعثت قبل شهر من ذلك بأسطولها لتهديد المدينة ، وانتهت إلى تأكيد

الاتفاقيات السابقة على أن.أهم الأحداث التي عصفت بالمدينة في هذه الفترة من عهد على باشا القرمانللى إنما تتمثل في تلك المجاعة التي انتشرت في ١٧٨٤ — ١٧٨٦ والطاعون الذى تفشى وانتشر في إقليم طرابلس الغرب . ويعزو كثير من الدارسين والمؤرخين الانهيار الذى لحق الحياة الاقتصادية في المدينة والذى تتابع أثره حتى الفترات التالية من العهد القرمانللى إلى هذه الكارثة الكبيرة التي تمثلت في القحط وانتشار وباء الطاعون فيلاحظ نائب قنصل فرنسا أن الحالة الاقتصادية كانت في انهيار تام حوالى سنة ١٧٨٦ بسبب القحط والطاعون .

كما كان للأحداث التي ارتبطت بالانشقاق العائلى في الأسرة القرمانللية والخلاف بين حسن القرمانللى ويوسف الذى انتهى إلى مقتل الأول على يد أخيه يوسف ثم غزو على برغل لمدينة طرابلس واحتلالها وطرد الأسرة القرمانللية وما صحب ذلك من صراع من أجل عودة هذه الأسرة إلى الحكم ، وإجلاء المغامر الغازى . قد كان لها كلها انعكاس على الحياة الاقتصادية والتجارية ظهر أثره فيما لاحظه الرحالة الأجانب بصفة خاصة من بؤس وفقر وانهيار اقتصادى عام . زاد من مضاعفته النذر التي كانت تبدو حتى ذلك الوقت في تضامن وتألب الدول البحرية الكبرى والصغرى على الحد من النشاط البحرى لدول الشمال الأفريقي والعمل على تدمير أسطولها والقضاء عليه .

وتتوفر لنا عن هذا العهد وثائق هامة ، لعل أبرزها وأهمها كتاب المس توللى المعروف (عشر سنوات في بلاط طرابلس) والذى صورت فيه هذه الفترة والحياة العامة في المدينة تصويرا تاريخيا حيا يعتمد على المشاهدة والمعاينة . وسنفيد من هذا المرجع الهام في تصوير الحياة العامة في المدينة خلال هذه الفترة . ولكن لابد من إشارة عابرة تتصل بحياة هذه المؤلفة الذكية التي أقامت بطرابلس فترة من الزمن وسجلت انطباعاتها في كتاب يعتبر من أهم المصادر عن العهد القرمانللى وعن الفترة الأخيرة من عهد على باشا القرمانللى ، والمس توللى

سيدة انجليزية ربطتها صلة قرابة بالقنصل الانجليزي حينذاك (هناك تضارب في تحديد هذه القرابة فبعضهم يرى أنها كانت أخت القنصل ويرى آخرون أنها شقيقة زوجته) ويهمنا نحن من ذلك كله أن نتابع انطباعاتها عن المدينة كما سجلتها عين أجنبية ذكية واعية في رسائلها التي بعثت بها إلى أقاربها بلندن وتحدثت فيها عن مشاهداتها وانطباعاتها التي سنكتفي منها بما يتصل بالحياة العامة في المدينة والتقاليد والعادات السائدة حينذاك . . ولابد أن نلاحظ هنا أن العين الأجنبية كثيرا ما تكتشف الأشياء التي طمستها ألفتنا لها واعتيادنا عليها .

وتستهل الكاتبة وصفها للمدينة بالمنظر الذى تبدو عليه للقادم عليها من البحر أو البر وهو المنظر الذى أشاد به كثير من الرحالين والوافدين ، وسوف نلاحظ تشابها في الانطباع الأول الذى تسجله هذه الكاتبة عن المدينة ، وبين الوصف الذى أورده قنصل فينسيا (بلا تو) في الوثيقة المشار إليها سابقا .

اعتمدنا على ترجمة الاستاذ عمر الديراوي أبو حجلة نشر مكتبة الفرجاني (قبل دخولنا خليج طرابلس ، وحين كنا على بضعة أميال من اليابسة بدت لنا الأرض جميلة المناظر ، تزينها رقع متناثرة من الخضرة المحببة ، ولم يبد هناك ما يشوه استواء الأرض المنبسطة الشهباء اللون ، بل البيضاء تقريبا والتي تتناثر فيها صفوف طويلة من الأشجار . هذا هو المنظر الذى ترسمه أشجار النخيل الوافرة التي نسقت زراعتها في صفوف طويلة ، وصينت على أجمل صورة ونظام . كانت أغصانها الفارعة الخشنة المظهر عن قرب ، لطيفة وواضحة متميزة من بعيد . ولما كانت الأرض مستوية تحتها فلم يكن من الممكن رؤية سوق تلك الأشجار إلا بمشقة ، وإن لاحت بساتين النخيل ممتدة عدة أميال في أجمات وافرة النماء وغابات صغيرة . ولقد تبدت عن قرب في صورة مضللة . فلم تكن لتوفر ملاذا أو تضفي ظلا في ذلك الوسط الحارق الذي يحيط بها .

كانت المدينة بأسرها تلوح في نصف دائرة ، ونحن على بضعة أميال من الفرضة لما نبلغ الميناء بعد ، والحق أن البياض الناصع الذى عكسته المنازل المربعة المرشوقة بالكلس ، علة يصد حدة الشمس عنها ، كان مدهشا جدا .

وعند دخولنا الميناء تتكشف المدينة عن انقاض خلفتها يد الزمان المخربة هى آكام من الحطام بادية في عدة أماكن من المدينة .

(وتقوم القلعة أو القصر الملكى ، حيث يقيم الباشا ، في أقصي الناحية الشرقية من المدينة ، وضمن أسوارها ، وعلى سيف البحر هناك أرصفة صغيرة يبني فيها (البك) أكبر أبناء الباشا وولى عهده ، أسطوله وسفنه الحربية . إن هذا القصر قديم جدا ، يحوطه سور قوى عال يبدو منيعا لا يمكن اختراقه ، لكنه قد فقد كل انسجام داخله من جراء الإضافات والملاحق العديدة التي تم بناؤها ضمن حدوده كما يتسع لأفراد العائلة المالكة الكثيرين ، ولا نكاد نجد أيا من أفراد العائلة المالكة يعيش خارج ذلك القصر . . وهكذا فقد تحول القصر إلى مدينة صغيرة غير منتظمة) .

(كانت مدينة طرابلس ، ولا تزال محاطة بسور ضخم منيع وأبراج هى الآن في حالة خربة ، وإن كان العارفون بهذه الشئون يرون أنها لا تحتاج إلى أكثر من ترميمات بسيطة حتى تغدو تحصينات بالغة المنعة . ويغسل البحر أقدام المدينة من ثلاث جهات ، أما في الجهة الرابعة فيوجد سهل رملى يطلقون عليه اسم المنشية يربط المدينة ببقية القطر . .) .

(ومدينة طرابلس غير مستوية السطح نتيجة لركام المزابل والنفايات . وكثيرا ما يبني المواطنون دورهم فوقه دون إزالته ، حتى إن عتبات الأبواب المؤدية إلى الشارع من بعض المنازل قد تكون أعلى من سقوف منازل أخرى قريبة منها ومن أسطحتها . والشوارع في المدينة ضيقة ، لكنها ضعف عرض مثيلاتها في الجزائر أو تونس على وجه التقريب . .) .

(ويتم نقل البضائع والحاجيات في العادة على ظهور الجمال والبغال . ولما كانت الطرق هنا غير ممهدة فإن الغبار الذى تثيره أخفافها وحوافرها في شوارع المدينة الرملية والجلبة التي تنشأ عن حركة الدواب ، لهى شيء لا يطاق . وتقوم

المدينة عند حضيض صخرة ضخمة ، وهنا وهناك توجد بقايا طرق مرصوفة بعضها قديم جدا ، يبين بوضوح أنه من عمارة الرومان) .

(والتجار هنا لا يعرضون بضائعهم في مخازن كبيرة ، وإنما هي حوانيت وسقائف ، مع أن محتوياتها كثيرا ما تكون بضاعة ثمينة تتألف من اللالىء والذهب والجواهر والعطور النادرة . وهناك بازاران أو سوقان مسقفان أحدهما كبير جدا ومبني على شكل أربع صفوف متصالبة عند التقائها . وعلى كل جانب من هذه الصفوف أقيمت دكاكين وبسطات متراصة تحوى مختلف أصناف السلع والبضائع . ولها في الوسط طريق يمر منه الناس ويتفرجون . وهناك أجزاء كثيرة من هذا المكان معتمة تقريبا ، تعبق برائحة البخور القوية النفوذ فتجعل من غير السار للمرء ان يجتاز بها). وتعني المؤلفة بهذا الوصف السوق المعروفة باسم سوق الربع والتي ما تزال قائمة حتى الآن في مدينة طرابلس تؤدى وظيفتها بالشكل التقليدى المتوارث .

(أما البازار الثاني فأصغر من الأول بكثير ، ولا دكاكين فيه . ولا يباع في هذه البازار سوى العبيد السود والاماء الرقيقات . إنه سوق النخاسة) وتصف لنا المؤلفة مسجد أحمد باشا القرمانلى والباب الخارجى ، من جهة السوق الترك لمسجد محمد باشا الإمام (شائب العين) فتقول :

(إن الجانب الخارجى من المسجد الجامع ، حيث يدفن موتى العائلة الحاكمة لهو جانب لطيف وجميل للغاية ، فهو يقوم على الطريق الرئيسي من بوابة المدينة التي تؤدى إلى الخلاء ، قبالة القصر تقريبا . وأمام باب هذا المسجد هنالك مدخل ثان من الخشب المتشابك المشغول محفور على شكل مدهش ، مع بابين ردادين من نفس النوع من أشغال الخشب ، وعدد كبير من العوارض الخشبية التي يستقيم عليها الجزء الأسفل من الشعارى وتكون خلفية جميلة له ، فتهبه منظراً للأناقة الرقيقة وتجعله مبهجا لعين الناظر إليه) .

(وفوق جميع أبواب المساجد في هذه المدينة يرى الناظر آيات من القرآن

منقوشة مدهونة . أما الآيات التي فوق هذا الباب فهى مذهبة ومطلية بسخاء ، كما أن خط النقش هنا أجمل بكثير من مثيلاته في المدينة .

وهناك مسجد آخر (تعني مسجد شائب العين) على مسافة ليست بالبعيدة من هنا ، له باب هو آية في الغرابة من حيث صناعة الحفر على الخشب عند المغاربة وقد توقفنا لنتفرج عليه ، لكننا لم تستطع دخول المسجد نفسه ، إذ كان الوقت وقت صلاة .

ثم تتحدث المؤلفة عن سوق أخرى وتسميها بازار البن ، وربما عنت بها سوق الترك وتقدم لنا هذه الصورة الوصفية لهذه السوق كما كانت تبدو في ذلك العصر .

(وبازار البن هو المكان الذى يقصده الأتراك ليتحدثوا عن الأخبار اليومية والشئون العامة ويرشفوا بعض فناجين القهوة أثناء ذلك . وهذا البازار مليء بالمقاهى . والجدران الداخلية لهذه المقاهى شديدة السواد من أثر الدخان ، ولا يقدم فيها شيء غير شراب القهوة . ولا يدخل هذه المقاهى أى مغربي وجيه ، وإنما يرسلون خدمهم ليحضروا لهم القهوة من الداخل بينما يقفون عند أبوابها ، حيث توجد مقاعد رخامية ، تظللها عرائش خضراء وهذه المقاعد الرخامية مزودة بسجادات أو حصر ثمينة جميلة . . . هنا يجتمع في ساعات معينة من النهار ، جميع أكابر المغاربة ، فتراهم جالسين قد ضموا أرجلهم وبأيديهم فناجين القهوة المحضرة بحيث تجعل المشروب قويا وكأنه خلاصة القهوة (روح القهوة) . وحين يكون المغاربة في هذه القهاوى يخدمهم عبيدهم الخاصون الذين يظلون واقفين قريبا من أسيادهم ، واحدهم بغليون السيد وآخر بفنجانه وثالث بمنديله ، بينما السيد يتكلم . ذلك لأن يديه ضروريتان حتما للاستعمال أثناء حديثه ، فهو يؤشر بابهام يده اليمنى على راحة اليسرى بنفس الدقة التي نستعمل بها نحن الاوربيين القلم ، يعلم الفاصلة وعلامة الاقتباس أو العبارة الرائعة . وهذا ما يجعل ذلك النوع من التحادث نوعا فريدا . والأوربي

الذى لم يتعود هذا النوع من التخاطب ، يضل تماما ويتوه عن فهم ما يعنيه مخاطبه) .

وكان لابد أن يسترعى نظر الأجنبية الذكية أثر من الآثار الفخمة البارزة التي تعتبر من أبرز المعالم الأثرية في مدينة طرابلس والتي وقف عندها كثير من الرحالين العرب السابقين والأجانب ووصفوا أحوالها والظروف التي تقلبت بها في مختلف العهود . وهى هنا تقدم لنا وصفا لقوس ماركوس اوريليوس كما رأته في ذلك الوقت وتطلعنا على وضعه حينذاك وتذكر لنا الاسم الذى كان يعرف به .

(هناك أحد أفخم الأقواس التي خلفتها الأيام الغابرة ينتصب في قلب مياه البحر وهى القوس الأحمر كما يسميها الطرابلسيون .

وهى قوس شامخة جدا ، لكنها لا تبدو كذلك في الوقت الحاضر ، بفعل أكداس الرمال المتجمعة خلفها بعد أن سفتها الرياح ، فجعلت مقدار غورها عن مستوى الأرض قدر ما يظهر فوقها الآن . إن نصف علوها هو الذى يبدو فقط . وهو يتألف من أحجار بالغة الضخامة ، حتى ليعجب المرء كيف استطاع بُنَاتُهَا نقل تلك الصخور ووضعها في أماكنها . وبخاصة إذا علمنا أن الصخور والمحاجر لا تتوفر في هذه البقعة من القطر . وأنه لأمر لا يقل مدعاة للاندهال أنه في قطر كطرابلس استطاع البناؤون إقامة مثل هذا القوس الهائل . إنهم لم يستعملوا أى نوع من الملاط لتثبيت الأحجار إلى بعضها ، ومع هذا فالأحجار متراصة حتى إن يد الزمن الدائمة الإغارة على كل عمار ، قد تركت نصب الزمن العابر هذا على حاله دون أن تشوهه بالعدوان .

وسقف هذه القوس من أجمل روائع النحت ، وإن كان لا يمكن رؤية أكثر من جزء يسير من ذلك السقف ، إذ أن المسلمين ، غفلة منهم عن تقدير روعته وجماله ، قد ملأوا تجاويف النحت فيه بالطين ، كيما يصطنعون دكاكين صغيرة لهم في داخل القوس . أما في الواجهة الخارجية من القوس فهنالك مجموعات ضخمة من تماثيل الرجال والنساء الكاملة ، يستطيع الملمون بالتاريخ

القديم أن يتعرفوا على شخصيات أصحابها وما أوحت به في زمانها . أما الناس العاديون فإن البلى الظاهر على التماثيل لن ييسر عليهم فهمها . .) .

وتعود المؤلفة إلى وصف سوق الترك ليلة عيد الفطر فتقدمه إلينا في هذه الصورة :

وفي كل ليلة من ليالى رمضان تضاء جميع المساجد في المدينة ولما كانت طرابلس لا تضاء بشكل آخر ، وإنما تبقى سابحة في الظلام ، فإن هذا يزيد من تألق صفوف المصابيح المحيطة بأعلى كل مسجد ولألأتها . وكذلك يضاء بازار القهوة الذى أتيت على ذكره من قبل ، من طرفه الواحد إلى الطرف الآخر طوال كل ليلة من ليالى العيد ، وحتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا) .

(لقد سرنا في إحدى ليالى العيد هذه في ذلك البازار حتى ما بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً ، فوجدناه يغص من كل ناحية منه ، بعلية القوم في أزهى حللهم . كان أرج العنبر ، وفوح أزهار البرتقال ، وشذا الياسمين نفاذا إلى درجة مثيرة للضيق . وكان البازار بفضل العدد الضخم من المصابيح المشكوكة بين طرفيه مشرقا وكأنه في وضح النهار . لقد تناول المسلمون إفطارهم ليلة العيد ثم يمموا جميعا نحو هذا البازار طلبا للمتعة . وهاهم يتجاذبون الحديث في شئون اليوم أثناء ما يرشفون أقداح القهوة) .

وتصف لنا المس توللى بيوت طرابلس . وهى تهتم بالطبع بوصف بيوت الكبراء فيها ، بحكم صلاتها الدبلوماسية . وإن كان وصفها ينطبق على اللون الشائع العام من هذه المساكن . فتقول في رسالتها المؤرخة في تشرين الأول ١٧٨٣ :

(تختلف بيوت طرابلس اختلافا ظاهرا عن مثيلاتها في مصر ، فهناك يشيدها المصريون حسب الأعراف الشرقية بعلو ثلاثة أو أربعة طوابق . أما في طرابلس فهى لا تتعدى طابقا واحدا . فأنت تجتاز ضربا من الردهة يسميها

الطرابلسيون سقيفة ، وعلى جانبيها مقاعد حجرية . وبعد هذهِ السقيفة يقود سلم إلى حجرة مفردة فخمة ، يسمونها الغرفة أو العلية ، وهى ذات شبابيك وطاقات تطل على الشارع ، ويقصر استعمال هذه العلية على رب العائلة ، فهى غرفة مقدسة بهذا المعنى ، فيها يحتفظ السيد بخزينته ، ويصرف شئون عمله ويتمتع بعقد مجالس لهوه وسمره . ولا يجرؤ أى من أفراد الأسرة على دخول هذه العلية دون إذن من سيدها . ومع أن هذا قد يبدو سلطة تحكمية في يده فإن السيدة الطرابلسية مساوية لرب عائلتها من هذا الخصوص ، فهو بدوره لا يستطيع أن يدخل حجرتها الخاصة إذا وجد زوجا من البابوج خارج عتبة الباب ، وإنما يكون عليه أن ينتظر حتى يزاح الحذاء .

وإلى وراء هذا المأوى يقع الإيوان ، وهو فناء أو ساحة مبلطة حسب قدرة صاحب المنزل المالية ، فبعضها مصبوب بالاسمنت الأسمر الشبيه بالرخام الجيد الصقل وبعضها مبلط برخام أبيض أو أسود ، وفي الدور الأدنى منزلة تجدها مبلطة بالحجارة أو مفروشة من التراب الممهد) .

(وسواء كان المنزل صغيرا أو كبيرا ، وفي القرية أو المدينة ، فإن تصميم بنائه لا يختلف ، ويستخدم الفناء لعقد اجتماعات النساء اللاتي تدعوهن ربة البيت ، حين تقع مناسبة زواج أو عيد كبير ، وفي مناسبات الموت أو حلقات ندب الميت قبل نقل جثمانه إلى الجبانة . وفي مثل هذه المناسبات تفرش الأرضية بالحصر ، والبسط ، وتظل من حرارة الشمس المؤذية بواسطة شادر يستر سماء الفناء بكامله ويكلف أصحابه ثمنا باهظا . ومن العادة أن توضع وسائد حريرية ثمينة حول الفناء كيما تتخذ كمقاعد بينما تجلل الجدران بالسجاجيد والطنافس فتتحول تلك الساحة إلى بهو رائع) .

(ويحيط بهذا الفناء ساباط يرتكز على أعمدة ، فوقها ردهة بنفس الأبعاد وتحفها شعاريات جميلة من الخشب المنحوت . ومن أروقة الساباط والردهة تفتح الأبواب إلى حجرات واسعة منفصلة الواحدة منها عن الأخرى ،

ولا منور لها جميعا إلا الرواق . وليس للشبابيك زجاج ، بل خشب متداخل جميل التشبيك ، يسمح بدخول نور ضئيل ينفذ عبر فجوات لا تتعدى الواحدة منها بوصة في أقطارها . ومن وراء الخشب تنتصب قضبان غليظة متصالبة من الحديد ، ينظر إليها رب المنزل من الداخل فتوقع الاطمئنان في نفسه وتشعره بالارتياح من الغيرة على حريمه) .

(وسطوح البيوت مستوية ومقصورة بالجص أو الملاط ، كما أنها مسورة بتصوينة ترتفع قدما واحدا تقريبا ، لتمنع أى شىء من السقوط إلى الشارع . على هذه الأسطح يجفف السكان التين والزبيب والتمر ومعجون التمر . وهنا يتمتعون بعشيات السمر ، حين يهب نسيم البحر العليل فيكون لهم خير رفه ودعة بعد نهارهم القائظ المرهق وهم يشاهدون فوق هذه السطوح يؤدون صلاة المغرب . ومن على هذه السطوح يسيل ما يتجمع من ماء المطر إلى آبار محفورة في أرض الفناء حيث يختزن إلى موسم سقوط الأمطار في السنة التالية . .) .

وتتحدث المؤلفة بعد ذلك عن بعض الإنشاءات المعمارية التي تمت في ذلك العهد فتشير إلى الخان الذى بنته زوجة الباشا أى زوجة على باشا القرمانللى على نفقتها الخاصة وتصفه على هذا النحو :

(ولقد تم بناء واحد من ألطف فنادق البلدة منذ بضعة أيام . أقامته زوجة الباشا على حسابها . وبهذا حظيت السيدة بتقدير كبير من أهل البلد على كرمها ففي هذا الخان أو الفندق يجد جميع المسافرين ملجأ مجانيا . وبناية الفندق ضخمة جدا وعلى شكل مربع . فيها بئر وجابية أو سبيل يجد فيه المسلمون ماء يتوضأون منه لتأدية فرائض صلواتهم . ويغسلون أيديهم قبل تناول طعامهم . وفي وسط الفندق ساحة كبيرة مكشوفة يحيط بها عدد من الغرف الصغيرة يضع فيها المسافرون أمتعتهم وينامون على سطوحها . أما الجمال والبغال والماشية العائدة إلى أولئك المسافرين فيمكن ربطها حول الساحة . وحين يصل المسافر الغريب

ينفض رجل من أهل البلد الغبار عن أرض الغرفة ، ثم يفرد حصيرة هى الأثاث الوحيد المسموح بوجوده في الغرفة .

ثم ينصرف وتصبح الغرفة تحت تصرف ذلك القادم الغريب . وينتظر ممن ينزلون في هذه الغرفات أن يترك القادرون منهم بعض النقود منحة للبواب . ولا يسمح بالدخول إلى الفندق قبل أذان المغرب ، كما لا يسمح بالخروج منه قبل أذان الفجر حين يفتح البواب أقفال بوابته) .

كما تقدم لنا المس توللى صورة أخرى عن الحمامات في مدينة طرابلس فتقول :

(والحمامات في طرابلس واسعة في العادة ومبنية من الرخام . وهى تظل غاصة بالسيدات طوال ساعات النهار وحتى غروب الشمس . إذ يذهبن هناك للتزين والتجميل ، وهن يصطحبن جواريهن وخدمهن معهن إلى هناك . ذلك أن الواحدة منهن تحتاج الكثير من الخدم بعد أن تستحم ، فجارية تغسل شعرها ، بماء زهر البرتقال ، وثانية تقوم بتجفيفه بذرور خاص حضرته من العطور القوية ، يتألف من العنبر المحروق والقرنفل والمسك وجوزة الطيب . وهى تصفف شعرها على هيئة ضفائر ، صغيرة تبلغ خمسين ضفيرة ، وهذه عملية تستغرق وقتا طويلا كما أنها مضنية فعلا يزيد من إزعاجها آلام نتف الشعر النابت على نحو غير سوى ، ثم صبغ الرموش ، وتزجية الحواجب الدقيق ، والتكحل بمسحوق أسود على مرواد من الفضة أو الذهب) .

وتعود المؤلفة مرة أخرى إلى الحديث عن القلعة ووصفها على نحو أدق وتطلعنا على أوضاعها المعمارية خلال فترة على باشا القرمانللى فتقول :

(حين تقصد نحو قصر الباشا تطالعك خنادقه أول الأمر ، وهى الخنادق التي يتمركز فيها حرس الباشا الخاص . ويحيط بالقصر سور سامق يبلغ ارتفاعه . أربعين قدما ، فيه أبراج وكوى . على طراز التحصينات في الزمن القديم .

وهندسة القصر من فن عمارة الطراز القديم ، لكنه مشوه الآن بفعل الملاحق الإضافية الجديدة غير المنتظرة التي بناها الباشا الحالى ليتخذها أفراد أسرته وأقاربه منازل لهم . وبعد أن تجتاز البوابة الرئيسية تجد نفسك في ساحة القلعة فتراها مزدحمة بأفراد الحرس المنتظرين على الدوام في السقيفة أو الردهة حيث يجلس الكيخيا طول النهار . .) .

(وفي وسط هذه الساحة منصة مربعة مبلطة تقوم على أعمدة من الرخام يعقد فيها الباشا مجلسه ويستقبل ندماءه وحاشية بلاطه في أيام الأعياد والمهرجانات . وتنتهى في طرفها الخارجي بعوارض مزخرفة يشكل عدد منها لوحة كبيرة كاملة . وهناك سلم درجاته رخامية يؤدى إلى هذه المقصورة . .) .

(وهناك بنايات كثيرة سبق أن أضيفت إلى القلعة تشكل شوارع متعددة يقع خلفها مأوى الأرقاء المسيحيين) .

ونفهم أن الباشا وأعوانه كانوا يستجلبون الرخام المعرق من إيطاليا والقرميد الصيني من مالطا كما كانوا يستجلبون البنائين المالطيين للصق هذا الرخام والقرميد (وهو عمل يقومون به بفن خاص بهم) . .

وتتحدث المؤلفة عن الطريقة التي كانت تنظم بها مسئولية حفظ مفاتيح المدينة والقلعة (وعلى الرغم من أن المدينة يحكمها كيخيا خاص ، فإن مفاتيح البوابات تسلم في الليل إلى الكيخيا الكبير . أما مفاتيح القلعة ذاتها فتحمل كل ليلة إلى الباشا نفسه ، كيا يحتفظ بها في حجرته الخاصة . لذا يتعذر دخول القلعة قبل الصباح ، إلا عن طريق التسلق بالحبال ، وهو أمر يجعل ارتفاع الأسوار خطرا وعسيرا معا ، ولم تجر محاولته إلا في الحالات الطارئة القصوى . وحتى عند ذلك فإنه يسمح به بعد إذن شخصي من الكيخيا الكبير نفسه . .) .

ومن المعالم البارزة في ذلك الوقت القصر أو الدار التي تعرف باسم قصر

للازينوبا الذى نفذ فيه أحمد باشا القرمانللى مذبحة الانكشارية (على مقربة من بساتين السفير رأينا خرائب بناء قديم يدعى (حصن للازنوبا) لأنه ظل بحوزتها بعد وفاة والدها أحمد الكبير . ولقد كانت هذه الخرائب في العقود الأولى من القرن الحالى قصرا فخما يعقد فيه ذلك الحاكم مجلسه وبلاطه . وفي إحدى زوايا البساتين الملحقة به ظهر كثيب هائل الحجم من التراب الذى يوارى جثث مئات ذبحهم والدها حين قهر الحامية الانكشارية هناك هذا هو القصر الذى دعى إليه الأتراك في عهد أحمد باشا حيث اغتالتهم كمائنه في سقيفة القصرودهـاليزه المعتمة ولا تزال السقيفة التي ساروا فيها والخلوات التي جرت أجسادهم إليها فيما كانوا يعبرون إلى فناء القصر قائمة حتى الآن) .

(ولقد ماتت للازنوبة منذ عدة سنوات ، فأهملت البناية ثم تحولت إلى خرائب يقال إن أرواح قتلى الأتراك تظهر فيها عند منتصف الليل وتتحدث . ويقول المواطنون الطرابلسيون : إن القصر ملىء بأشباح هؤلاء حتى إنه لامتسع فيه لأشباح جديدة) .

(ولا يقف من القصر الآن إلا بعض الغرف الثانوية وحجرة رئيسية واحدة ، يقال إن الباشا كان يستقبل الناس فيها. ولم أر لهذه الحجرة أرضية ولا سقفا ، أما الجدران المتهدمة فعليها بقايا صور لا تزال ألوانها حية ، وتزاويق كثيرة يمكن تبينها وقد انهار السقف ، فسقط قسم منه داخل الواجهات حيث نما عليه العشب ويبس مرات عديدة . أما بقايا بوابات القصر فتدل على أنها كانت فخمة بل صامدة في سالف الأيام) .

وتعود المؤلفة مرة أخرى إلى الحديث عن المنشية الجميلة ومنازلها الريفية : (وقد بدت لنا حدائق العرب الكثيرة في هذا المكان ، فإذا هى بساتين من أشجار البرتقال وكروم من نصب الزيتون ومغارس النخل ، ومن شأن هذه جميعا أن تخلع على المدينة منظرا مغايرا لما يجده المشاهد حين يقترب من عاصمة أوربية (ويلطف جو اللواوين والحجرات المفصلة في المنازل الريفية أحيانا

بطريقة طريفة هى إسالة الماء في قناة رخامية تكون في وسط الحجرة . وتكون أرضية الحجرة مكسوة بالعوارض الخشبية الملونة وسقفها منقوشا ومزينا بالفسيفساء . أما في الفناء الداخلى للمنزل فيجعلون جابية أو بركة تظل مملوءة بالماء العذب الذى يسيل إليها من الآبار القريبة ، ثم يخرج منها إلى سواقي البساتين . وهي محفوفة ببروزار من الرخام ، كما أن لها درجا عريضا من الرخام يهبط إلى قاعها . وليس حولها إلا ممشى عريضا يكون إما مرصوفا أو مبلطا ، تنفتح عليه أبواب غرف المنزل . ومن شأن هذا الترتيب أن يهب المنزل بأجمعه نوعا من البرودة المنعشة ، ما أجملها وقت اشتداد الحرارة في الخارج) .

ولكن الوباء لا يلبث أن يكدر صفو هذه الحياة الوادعة الهادئة . وتسبقه المجاعة نذير شؤم وبؤس . ولقد وقفت المؤلفة على أحداث هامة من حياة المدينة ومن بين الشهادات والأوصاف التاريخية التي تقدمها إلينا وصفها للأثر الذى خلفته المجاعة والطاعون بمدينة طرابلس .

(إن الولاية في هذه الأيام تعاني حالة من القحط والمجاعة حتى إنه ليروع المرء أن يمشي راجلا أو على حصانه ، بسبب المخلوقات الميتة التي كثيرا ما تقع هالكة في عرض الشارع . .) .

(لقد هاجم الوباء المدينة منذ شهرين ، فكم نفسا ترى أزهق خلال هذه المدة القصيرة ؟ ثلاثة آلاف مخلوق . نعم ثلاثة آلاف وارتهم جبانات طرابلس وخسرتهم البلاد إلى الأبد . إنهم يبلغون حوالى ربع سكان المدينة ، ومع ذلك فإن نقمة الوباء على طرابلس تزيد وتزيد ، والوفيات ترتفع أعدادا وترتفع) .

وتقدم لنا هذه الصورة البليغة الكئيبة الموحشة للأثر الذى خلفه الوباء في مدينة طرابلس :

(تتكشف مدينة طرابلس ، بعد الوباء عن منظر مخيف جدا ، ففي بعض

بيوتها لا تزال جثث الضحايا التي هلكت أخيرا ولم تجد من يدفنها بل من يساعدها أو يذرف عليها دمعة الرحمة ، فبقيت في أماكنها ودفنت هناك . بينا يقع المرء في منازل أخرى على أطفال ينتقلون هنا وهناك ، قد هجروا اهلهم وهجرهم أهلوهم ، وظلوا دون ما امرىء يرعاهم . لقد بدت المدينة مقفرة تماما من السكان ، ولا يكاد يقع المرء على شخصين يمشيان سوية . إن شخصا متفردا كان يجوس شوارع المدينة لا يشغل تفكيره أى ضرب من النشاط والعمل وإنما يغرق في ذكرياته الحزينة فإذا ما رفع عينيه طالعته منازل خاوية من كل جانب حوله ، وشوارع كاملة يجتازها دون أن يلقى مخلوقا . ذلك أنه قبل إخلاء الوباء للمدينة كان الكثير من سكانها قد هجروا بيوتهم وهربوا إلى تونس رجاء أن يتجنبوا الموت جوعا أثناء المجاعة التي سبقت الطاعون . .) .

وقد أثر هذا الطاعون تأثيرا مدمرا على المدينة وتلاحق أثره على أوضاعها الاقتصادية حتى شمل الفترات التالية له ، وكان من جملة الأسباب البارزة التي ساهمت في تدمير الوضع الاقتصادى في العهد القرامانللى والتعجيل بإرباكه وانهياره . كما كان من الأسباب البارزة في غيبة التطور العمراني في المدينة في الفترات التالية التي ظلت تعاني عجزا في أداء الضريبة لخزينة الدولة ، وبالتالى عجز الدولة عن القيام بأى مشروع عمراني بارز .

وسيقدم لنا الرحالة شهادات أخرى عن أوضاع المدينة ، تكمل هذه الصورة وتؤكد الاقتناع بأن المدينة لم تشهد في العهد القرمانللى تطورا مشهودا بسبب المجاعة والطاعون وانهيار القرصنة وبداية ضمور تجارة القوافل ولم تكن الفتن العائلية التي توالت بعد ذلك وتمثلت في ذلك الصراع الذى شهد على باشا أولى فصوله في المأساة التي انتهت بقتل يوسف لاخيه الحسن ولى العهد ثم في مهاجمة على برغل لطرابلس واستيلائه عليها ، ثم عودة الصراع بين الأخوين أحمد ويوسف ، وأيلولة الحكم إلى يوسف الذى حاول بكل الطرق أن يصون حكم أسرته من الضياع ، ولكن الظروف التي أحاطت به ووصوله إلى الحكم

في الوقت الذى تضافرت فيه القوى الأوربية على القضاء على عمليات الغزو البحرى ، قد أدى إلى أن تضيع منه أهم المصادر المالية التي كان يعتمد عليها دخل الدولة ، ويقوم عليها ازدهار المدينة وأخذت الأحوال الاقتصادية تزداد سوءا عاما بعد عام وبنقص التجارة وهبوط العملة وعدم استقرارها ، والضغط على السكان في الجباية ، دون محاولة لإيجاد الوسائل لاستثمار إمكانيات البلاد وأخذت التجارة الداخلية تفقد أهميتها بسبب القلاقل والثورات الداخلية وتحولت إلى تونس . . . وبالجملة فلم يكن ينتظر في ظل هذه الأوضاع المؤذنة بالنهاية أن تتطور مدينة طرابلس تطورا عمرانيا كبيرا ، وقد اقتصرت الانشاءات البارزة والباقية على عهد أحمد باشا ، أما أبناؤه وأحفاده فقد ووجهوا بظروف المجاعات والأوبئة والقلاقل والحروب الداخلية مما أضعف إمكانيات تطوير المدينة وإنشاء المنشآت . وقد اقتصر على باشا القرمانللى على إجراء بعض الإضافات والملاحق بالقلعة التي كان يسكنها هو وأفراد اسرته وحاشيته .

وتشهد مدينة طرابلس خلال هذه المرحلة نوعا جديدا من النشاط الكشفي وحركة الرحلات الأجنبية . إذ اقتضى المد الاستعمارى الأوربي ونمو حركة التصنيع أن تتجه الأطماع نحو الساحل الشمالى لأفريقيا والأسواق الأفريقية التي تقع خلفه ، والمواد الخام التي تكمن فيها — . وقد اكتست هذه الحركة برداء تحرير رقيق وتسترت وراء زى إنساني متمثل في ما يسمى بحركة إلغاء الرقيق والعمل على إلغاء المتاجرة بالأفراد لتستبدل بالمتاجرة بالشعوب جملة وابتزاز خيراتها واستغلالها .

وقد كانت مدينة طرابلس تمثل أحسن نقطة انطلاق نحو هذه الآفاق الجديدة وقد توفرت لنا من هذه الرحلات صورة أخرى جديدة لمدينة طرابلس وأهميتها وأوضاعها العامة ، وسنحاول أن نسير في عرضها والحديث عنها حسب الترتيب الزمني لوقوعها .

ومن أوائل الرحالين الذين نلتقي بهم الرحالة لوكاس الذى اتخذ من

طرابلس سنة ١٧٨٨ نقطة انطلاق نحو أواسط أفريقيا ، ولكنه أخفق في مهمته ورجع من مصراتة واكتفى بتقديم تقرير بالمعلومات التي تواترت إليه عن إقليم فزان . ولم يهتم هذا الرحالة بوصف مدينة طرابلس التي أقام بها في الذهاب والإياب . كما لم يهتم بها أيضا الرحالة فدريك هورنمان الذى أقام بطرابلس لكتابة تقريره عن الرحلة التي قام بها من القاهرة إلى فزان ومنها إلى طرابلس في سنة ١٨٠٠ إلى بورنو حيث لقي حتفه . ولا يبدو لنا مما نشر من مذكراته ويومياته أنه قد اهتم بمدينة طرابلس التي أقام بها فترة طويلة من الوقت وإنما انصرف همه إلى الهدف الأساسي للرحلة ووصف المناطق الداخلية من مسالكها بالأراضي الليبية .

وقد قام في سنة ١٨١١ الرحالة الطبيب الايطالى اغسطيني شرفللى بمرافقة حملة عسكرية جردها باشا طرابلس ضد برقة وقد سجل يوميات كاملة للرحلة التي قام بها . ولكنها ضاعت ولم يبق منها سوى نتف قليلة متفرقة متصلة برحلته في برقة والجبل الأخضر .

وجاء بعده رحالة إيطالى آخر هو الدكتور باولو دلاشلا الذى كان أحسن حظا حيث حفظ لنا التاريخ رحلته الهامة التي وصف فيها مرافقته للحملة التي جردها يوسف باشا ضد أحد أبنائه الخارجين عليه . ويدعى هذا الرحالة أن الغرض الأساسي من رحلته كان البحث عن الآثار التي قامت على شواطئ ليبيا في العهود اليونانية والرومانية وكذلك دراسة النباتات وهى الحيلة المعروفة التي تذرع بها كثير من الرحالين للتوغل في المناطق الداخلية في العهدين القرمانللى والعهد العثماني الثاني .

وقد أقام دلاشلا كما يقول في رحلته شهرا كاملا بمدينة طرابلس في ضيافة قريبه قنصل ساردينيا . ومن الملفت للنظر حقا في هذه الرحلة أنه رغم هذه الإقامة الطويلة لم يتعرض لها بالوصف ولم يستوقفه شيء من آثارها التاريخية بما في ذلك القوس الرومانية التي لم يغفلها أحد من الرحالين القدامى والمحدثين .

ويزداد العجب إذا علمنا ما يبديه هذا الرحالة من اهتمام بالآثار جعل منه هدفا رئيسيا لرحلته على حد قوله .

ويبدو أن الرحالة دلاشلا لم يباشر كتابة انطباعاته إلا بعد سيره في الحملة العسكرية مما جعله يهمل إهمالا تاما وصف مدينة طرابلس . ولم يتعرض إلا إلى بعض العادات والتقاليد المتبعة في توديع الحملة وقيام قائدها بزيارة الأولياء والفقهاء للتبرك والحصول على الدعوات الصالحة . كما وصف أوضاع الجند وطريقة التجنيد وإقامة المعسكر ونصب الأعلام الدالة على حشد الحملة وسفرها مما تصلح أن تكون مادة للدارس المهتم برصد ووصف الحياة العسكرية في تلك الفترة ، وتسجيل العادات والتقاليد السائدة في العهد القرمانللى .

ومر دلاشلا مرورا عابرا على مدينة طرابلس فلا يستوقفه شيء منها ويكتفي بالقول (ان طرابلس تقع على ساحل لا يعثر فيه الباحث على المعادن الا على الرمال يجرى عليها فحوصه واختباراته ، حيث لا تنمو النباتات الا بمشقة بسبب الجفاف واهمال الفلاحة . وان البلد كله مهدد بالغزوات المستمرة من قبل القبائل البدوية وان السلب لهو أقل الاخطار التي يمكن أن يتعرض لها المرء الذى يقع في فخ هؤلاء) .

وقد كان دلاشلا ناكراً للفضل جاحدا للنعم التي سجلها هو نفسه في تلك الحماية والحراسة التي وفرت له مالم يتوفر لغيره من الرحالين إذ كان يسير ضمن حملة عسكرية ، مشمولا برعاية الباشا الحاكم ، وابنه قائد الحملة . وقد ظل مقيما بطرابلس مدة شهرين متمنيا هذه الفرصة النادرة ولكن لا بد من الصعوبات حتى تبدو شخصية الرحالة بمظهر المغامر المقتحم للأخطار .

ولعل الصورة الوحيدة التي تستلفت اهتمامنا فيما يتصل بالحياة الاجتماعية والحربية ، تلك الصورة التي يقدمها عن الكيفية التي كان يتم بها تجريد الحملات الحربية .

(لعلك تتطلع إلى أن تعرف كيف يجمع هؤلاء القوم جيشا . وما هو

نظامه ، وما هى الوسائل التي تهيأ لتموينه ، وهو يقطع هذه المفازات الصحراوية التي تقطنها القبائل البدوية .

لا يبدو أن ذلك أمر يمكن تدبيره في هذه الاماكن المتأخرة ولكن هؤلاء القوم لهم امكانياتهم التي تفيد معرفتها فما كاد الباشا يقرر عقاب ابنه المتمرد حتى أرسل إلى جميع شيوخ القبائل البدوية في ولايته ، يطلب اليهم تجنيد العدد المناسب لتعدادهم ، وان يوجه المجندون إلى أقرب طريق تمر به الحملة . وهم في العادة يقدمون إلى طرابلس ليتزودوا بالخيام وليستلموا الاعلام من يدى الباشا . وهى أعلام متشابهة عدا اعلام (المرابطين) (أى الأولياء ورجال الدين) والاشراف الذين يتمتعون بامتياز خاص يخولهم رفع علم النبي ، وهو أخضر اللون وهؤلاء الأولياء يكونون طبقة ممتازة بسبب ما يحيط بها من قداسة . أما الاشراف فامتيازهم ناشىء عن الاعتقاد بانهم من سلالة النبي .

ويقدم لنا هذه الصورة الطريفة عن العادات والمراسم الحربية في ذلك العصر .

(قبل أن نسافر، بخمسة أيام، نشرت اعلام الباشا ونصبت الخيام تحت السراى ، في السهل المعروف بالمنشية ويفهم من هذه الاشارة أن الحرب قد اعلنت رسميا ويستعد الجميع للرحيل . أما البك احمد الذى عين قائدا لهذه الحملة ، فانه ينفق الأيام الاخيرة في زيارة الأولياء والتشاور معهم والحصول على توجيهاتهم ودعواتهم واعجابهم .

. (لم يتجاوز عددنا حين خرجنا من طرابلس عن خمسمائة فرد، يتكونون من الموظفين الكبار التابعين للبك ومماليكه وعبيده السود واتباعه الاخيرين) .

ويصف الميدان الذى تجمعت فيه القوات بتاجوراء قائلا (ان هذا الميدان أو المعسكر لا يمكن أن يوحى للرجل الاوروبي الا بأقصى درجات الاشمئزاز ، فليس لهؤلاء القوم نظام ، ولا تنسيق في الحركات ولا وحدة في الزى

والسلاح ، باستثناء مسحة عامة من البؤس والعوز والعجز يمكن أن يقال انها الزى الوحيد الذى يشتركون فيه) .

(ان الجندى مزود ببندقية رديئة ، وبمسدس أسوأ حالا من هذه البندقية ، وهو يكتف برداء بال ، رث الهيئة. أما الاحذية فهى عبارة عن قطعتين من جلد الجمل المجفف في الشمس وقد شدت إلى القدم بخيوط جلدية . وتتدلى من حزامه ثلاث مخلات صغيرة من الجلد ، واحدة للبارود واخرى للرصاص وثالثة خاصة بأدوات أخرى ولاشيء غير ذلك . وعلى الجندى أن يدبر أمر تموينه ومتاعه على نفقته الخاصة . وهو سعيد جدا بارتداء هذا الزى والانخراط في جيش الباشا الأمر الذى يعطيه حق الحياة عندما تتاح الفرص على نفقة السكان الذين يمر بهم) .

(وعندما يستوجب الامر أن يغامر الجيش من أجل حملة صحراوية ، فان الجنود يكونون مجموعات تتراوح من خمسة إلى ستة أشخاص ويشترون جملا يحملونه بأمتعتهم ومؤنهم . وهى في العادة تكون من شعير للخيل ودقيق الشعير الذى يطبخونه على هيئة عصيدة (بازين) يحيلونها إلى لقمات كروية يأكلونها . أما أمتعتهم فهى تقتصر على حصير مصنوع من سعف النخيل ينامون عليها وقربة خاصة بالماء ومن اناء خشبي يسمى قصعة يستعملونها في الواقع استعمالا موسوعيا متعدد الوجوه والاختصاصات فهى تستخدم لعجن العصيدة وغسل الملابس وللأكل وسقي الخيل والابل . ويقضي النظام المتبع أن يقدم أهالى كل بلدة يحل بها الجيش التموين اللازم للبك وجنوده) .

ويصف لنا الدكتور دلاشلا الليلة الأولى التي قضاها في هذا المعسكر والنظام المتبع في ترتيب المخيمات وتناوب الحراسة الليلية ، فيقدم هذه الصورة التاريخية :

(ان المخيم يرتب على هيئة هلال. وهم يهتمون بصفة خاصة بان يفتح هذا المعسكر على الاتجاه الذى تسلكه الحملة . وتحتل خيمة البك وسط

الهلال ، وتقع بالقرب منها خيمة الخزندار أو ناظر الخاصة ، ثم خيمتي وخيمة حرسه المكون من المماليك والعبيد . وخلف هذه كلها ، وعلى هئية هلال ايضا بقية خيم الجيش . أما الفاصل القائم طرفي الهلال فتحتله خيول البك واعلام الباشا وقطع المدفعية المكونة من ثمانية مدافع برونزية، فوق عربات ثقيلة وبطئية . وسط اعلام الباشا نشر علمان كبيران هما علما النبي يحرسها اثنان من الاشراف وقد غرس بينهما صولجان الحكم . وهو رمز إلى السلطة والسيادة المنقولة من السلطان الاكبر إلى الباشا) .

أما الحراسة الليلية بالمعسكر فيصفها الدكتور دلاشلا في هذه الفقرة التي يختم بها رسالته الأولى :

(ان حرس المعسكر يعمل بطريقة مزعجة ومثيرة . ذلك أن أحد الضباط ويسمى (الشاوش) وتقع خيمته عند أحد طرفي الهلال ، وبعد أن يقصف المدفع يأخذ في الصراخ (بالك، أه) أى احذر وانتبه ويتكرر هذا الصباح في الخيمة المجاورة ثم إلى الخيمة التي تليها حتى تتم دورة المعسكر وتنتهى عند الشاوش الآخر في الطرف الاقصى المقابل الذى يرددها بدوره ، وهكذا دواليك تستمر هذه الصيحات المزعجة طوال الليل ، بلا انقطاع) .

أما الكابتن وليام هنرى سميت الذى كان مهتما بجملة من الدراسات الأثرية والبحرية والخرائطية ، فقد ترك لنا وصفا مقتضبا لمدينة طرابلس كما بدت له في عهد يوسف القرمانللى . وقد سجل في هذا الوصف الوضع البائس الذى كانت عليه المدينة وأسوارها .

وزار طرابلس في سنة ١٨١٨ الرحالة الانجليزى الكابتن فرانسيس ليون وأقام بها فترة من الزمن مع رفيقه في الرحلة الدكتور جوزيف ريتشي . أمضياها معا في التمهيد للرحلة وتأمينها وزيادة التمكن في معرفة اللغة العربية والتقاليد والعادات السائدة . ولم يهتم ليون كثيرا بوصف مدينة طرابلس قائلا : إنه من العبث محاولة تقديم وصف لمدينة طرابلس ، فقد قامت بتقديم مثل هذا الوصف

أقلام أقدر منه وقد اهتم بصفة خاصة بوصف بعض العادات المتبعة في مواكب الزوايا الدينية وخروج الحضرة كما وصف ملابس العرب واليهود وتحدث حديثا عابرا عن بعض الأسواق وأشار بصفة خاصة إلى سوق الترك وبعض الحمامات التي قال عنها إنها صورة مصغرة من الحمامات التركية وتحدث عن حارة اليهود والفنادق الكبيرة والمدارس القرآنية كما أشار إلى القوس الرومانية ونقل لنا صورة عنها وقال إن اقواسها قد أغلقت واستعملت مخزنا .

والحق أن هذه الرحلة على أهميتها لا توفر لنا شيئا من المستوى الرائع الدقيق في الوصف الذى بلغته رسائل المس توللي. وهى لا تزيد على أنها انطباعات سريعة عابرة شغل فيها الرحالة بدراسة العادات والتقاليد أكثر من انشغاله بدراسة الآثار والمعمار. وقد كان في حاجة إلى مثل هذه الدراسة التي تساعده على تقمص الشخصية العربية الوطنية تحقيقا للتستر على أهدافه التي جاء من أجلها وتسهيلا لنفسها .

والواقع أن حظ هذه المدينة من الازدهار في العهد القرمانللى قد تفاوت بتفاوت حظوظ الولاة من القوة والسعة والضيق والضنك . فقد شهدت في الفترات الأولى من عهد أحمد باشا القرمانللى استقرارا ساعدها على الازدهار واستعادة حيويتها الماضية ، وجعلها تنهض بشىء من التثاقل من أثر تلك التركة المرهقة من الخراب والدمار ، واضطراب الأمن ، خلال الفترات الأخيرة من حكم خليل باشا وأبي ميس وبطانته .

وعلى الرغم من أنّ التجارة في هذه الفترة كانت نوعا ما محدودة ، فقد ظلت المدينة على صلتها البحرية بالمدن الأوربية وخاصة الايطالية ، كما ظلت لها أيضا صلتها بالمناطق الجنوبية . كما ظلت أيضا محطة رئيسية لقوافل الحجيج الكبيرة الوافدة من الغرب إلى الشرق والعائدة من الغرب إلى الشرق . وقد كان وصول هذه القوافل الكبرى إلى طرابلس من المشاهد الرائعة السنوية ، كما كانت إقامتها عدة أيام بها فرصة لنشاط علمى وتجارى كبير حيث كانت تشترى الحرير

الدمسقي الايطالى والمصنوعات الزجاجية البندقية وغيرها من المستوردات المتوفرة في أسواق طرابلس وتبيع ما تحمله من خيوط القطن والبن والعقاقير والتوابل وغيرها من الأشياء المجلوبة من الشرق والغرب .

وقد استمر هذا الشأن أيضا في عهد محمد القرمانللى الذى خلف والده أحمد باشا وعاش على أمجاده التي خلفها له . وقد كان يميل إلى مهادنة الدول الأجنبية وعدم الاصطدام بها في المغامرات البحرية ، وقد أظهر محمد القرمانللي في أيام حكمه الأولى معارضة لأعمال الغزو البحرى . ولكن الديوان عارضه في ذلك . واستطاع الباشا بعد معارضة شديدة الحصول على استثناء بسفن فرنسا وانجلترا .

ويبدو أن هذه المواقف قد كانت من بين الأسباب التي أحنقت عليه الجند الألبانيين الذين قاموا في إحدى ليالى رمضان (٣٠ يوليو ١٧٥٢) بثورة دموية قتلوا فيها شيخ البلاد وثلاثة أو أربعة من أعيان المدينة ، واستولوا على أحد الحصون وحاولوا إعادة القصة التي تكررت كثيرا في أحداث طرابلس حيث أخذوا يقصفون القلعة ويطلقون النار على المدينة ، وحين تيقنوا من عدم تجاوب الناس معهم في هذه الحركة التمردية ، اقتحموا الميناء واستولوا على سفينة انجليزية ، وأقلعوا بها وكانوا حوالى مئتين من الجنود أما البقية التي لم تتمكن من الهرب وتبلغ حوالى الخمسين فقد قبض عليها الوالى وأعدمها .

لقد تضافر الطاعون ونتائجه المدمرة، وانهيار الأوضاع الاقتصادية، ونضوب الموارد المالية البحرية وفتور الهمة، والانقسامات العائلية، على الفترات الأخيرة من عهد على باشا القرمانللى فلم تظفر بأية عناية عمرانية ، ويؤكد المؤرخون (بأنه لم يكن يقيم المباني ولا يقوم بالإصلاحات ، بل كان يدع كل المباني تنهار) كما مرت المدينة بظروف عسيرة نتيجة الانقسامات والخلافات بين أبناء على القرمانللى وقيام يوسف بقتل أخيه حسن ثم الانشقاق على أخيه الثاني أحمد ، ومحاصرته للمدينة في يونيو ٧٩١

ومحاولته الاستيلاء عليها بالقوة ، وزاد من حالة الضيق هذه التي تذمر منها الناس ، فبعثوا إلى الاستانة يلتمسون وضع حد لهذه الأوضاع المنذرة بالخراب . . . الأمر الذى مهد لظهور المغامر على برغل يوم ٢٩ يوليو ١٧٩٣ بأسطوله الصغير الذى كان يتكون من ست سفن صغيرة مسلحة ومن سفينتي نقل تحمل فوق ظهرها مجموعة من المغامرين المرتزقة وترفع الراية العثمانية وقد عمت المدينة حالة من الذعر ووقعت بين حصارين ، حصار المتمردين بقيادة يوسف القرمانللى من البر ، وحصار أسطول برغل من البحر ، فاضطرت إلى الخضوع للقادم الجديد ، وخرج على باشا وأنصاره فارين إلى تونس . وفي اليوم التالى كان هذا المغامر يحتل مدينة طرابلس ويسيطر على حصونها دون مقاومة من الأهالى الذين أنهكتهم الظروف السابقة فوقفوا من هذه الأحداث موقفا سلبيا فاترا مما زاد في نقمته على المدينة وأهلها فاضطروا إلى الرحيل عنها (وأصبح منظر المدينة يدل على الكآبة والموت) ولكن لم يلبث هذا الوضع أن انهار ، بعد اصطدامه بباى تونس الذى أغضبته حملة على برغل على جربة ، وضايقته رغبة التوسع ، فجمع جيشا لاسترداد المواقع المحتلة من أراضيه ومساعدة القرمانللية للعودة إلى الحكم . وقد استطاع هذا الجيش والموالون للأسرة القرمانللية من سكان الدواخل محاصرة مدينة طرابلس بقوة قوامها حوالى ثلاثين ألف جندى في ١٦ يناير ١٧٩٥ . ولم يستطع على برغل أمام هذا الزحف إلا أن يشحن سفنه بالأسلاب ويرتكب آخر مذابحه الدموية ثم ينشر أشرعته للريح تاركا المدينة لأهلها الذين كانوا يخشون من فضائع الجند وقد أرغمت على أن تشترى الأمان بمبلغ مائة ألف محبوب .

ولابد أن نتصور الوضع العام الذى كانت عليه البلاد ومدينة طرابلس خاصة ، خلال هذه الفترة ، والأثر الذى خلفته الأحداث السابقة على أوضاعها الاقتصادية والبشرية والعمرانية . ويتفق المؤرخون على أن مدينة طرابلس قد كانت في أسوأ حال ، غداة استيلاء يوسف باشا القرمانللى على السلطة . وكان عليه أن يواجه كثيرا من المتاعب في سبيل تأكيد حكمه وتوفير

المال اللازم لمواجهة التزاماته العامة . ومهما كان الرأى حول الطرق التي سلكها هذا الرجل في الوصول إلى الحكم إلا أن هناك اتفاقا على أن البلاد قد نعمت بشيء من الاستقرار والانفتاح على المدنية ونشطت العلاقات بين مدينة طرابلس والشواطيء الأوربية . وقد اهتم يوسف باشا بالوضع العمراني وشيد بعض المباني كما عمل على إصلاح الأسوار مبتدئا بالسور المواجه للبحر ورمم بعض الحصون . وكان خليقا أن يكون أكثر اهتماما بهذا الجانب العمراني لولا أن الضيق المادى قد صرفه عن التوسع في هذا المجال او إقامة المعالم البارزة . إذ وجه اهتمامه الأكبر نحو تحسين وإعادة تنظيم البحرية التي كانت تشكل المورد الرئيسي سواء تلك التي تأتي عن طريق الغنائم أو تلك التي تأتي عن طريق اتفاقيات الحماية وعدم الاعتداء . وقد تمت فعلا الهيبة البحرية في الفترة الأولى من عهد يوسف باشا (حتى أصبحت تعتبر حكومة نيابة طرابلس الغرب منذ ذلك الوقت بفضل همة وحزم رئيسها، وزيادة سفن الغزو لديها في مرتبة لا تقل عن مرتبة تونس والجزائر) . وقد كان لذلك أثره على الأوضاع الاقتصادية والعمرانية بالمدينة التي أخذت تنتعش وتستعيد مركزها القديم . كما نشطت الحياة الدبلوماسية خلال هذه الفترة، وتتابع وصول الموفدين السياسيين والحربيين عليها بنية التفاوض والتصالح أو التهديد والحرب. والواقع أن عهد يوسف باشا القرمانللى هو أحفل عهود الحكم القرماننلى بالعلاقات والاتصالات السياسية والدبلومسيه والانغماس في أحداث البحر الأبيض المتوسط . التي أحسن استغلالها في زيادة النشاط البحرى ومهاجمة السفن الأجنبية . وقد كان الصراع حول البحر الأبيض المتوسط قد بلغ أشده وتمثل في ذلك الصراع الذى كان قائما بين الدولتين الكبيرتين فرنسا وانجلترا . وقد كان لكل هذا الصراع انعكاساته على الوضع العام في عهد يوسف باشا القرمانللى . ولكن لم يلبث أن تحول هذا الوضع لغير مصلحة الباشا بعد مؤتمر فينا وصدور قراراته بتفويض الدول الكبرى بوضع حد لاعمال القرصنة البحرية وإلغاء الرق . وقد أخذت مدينة طرابلس تتحول في هذه الفترة من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع . وشهدت خلال

هذه الفترة كثيرا من الاستعراضات الحربية البحرية التي قصد بها إرهاب السلطة الحاكمة وإذلالها وإرغامها على القبول بالشروط المفروضة والاستعداد لما يسمى بالضربة القاضية . وقد كان معنى هذين الموقفين أو القرارين ضرب الموردين الرئيسين اللذين تعتمد عليهما البلاد وهما البحرية وتجارة القوافل .

في يوم ٢٧ أبريل ١٨١٦ ظهر الأسطول الإنجليزى بقيادة اللورد اكسموت أمام مدينة طرابلس وأرغم يوسف باشا على عقد اتفاقيات وتحرير الأسرى المسيحيين كما أرغمه على عقد معاهدات مع مملكة ساردينيا ومملكة الصقليين .

وفي ٢٥ سبتمبر ١٨٢٥ قام الأسطول السارديني بقيادة فرانشسكو سيفورى بمهاجمة ميناء طرابلس والأسطول البحرى وتم بواسطة وارنجتون تجديد الاتفاقية التي عقدت مع ساردينيا في ١٨١٦ م .

وفي ٢٢ أغسطس ١٨٢٥ أيضا قام أسطول نابولى بمهاجمة مدينة طرابلس دون أن يلحق بها أضرارا فادحة واضطر في يوم ٢٨ منه إلى العودة دون أن يحقق شيئا مما يريد .

وقد تضافرت بعد ذلك العوامل الخارجية والداخلية للقضاء على حكم يوسف باشا القرمانللى والأسرة القرمانللية . ففي الخارج كان موقف الدول الكبرى والصغرى الأجنبية ، مما لها مصالح في البحر الأبيض المتوسط وضرباتها المتتالية للبحرية الطرابلسية . وفي الداخل كانت الانتفاضات الداخلية والانشقاق القائم بين أفراد الأسرة القرمانللية مما أوجد يوسف باشا في وضع عسير اضطره فيما بعد إلى التنازل لابنه على .

وقد عانت مدينة طرابلس من هذا الوضع الأخير متاعب كبيرة نشأت عن انهيار الوضع الاقتصادى والمضايقات البحرية الخارجية وإرهاق الناس

بالضرائب لمواجهة ديون الباشا والتزاماته ثم أثر الحصار الذى ضربه حولها المنشقون على يوسف القرمانللى بقيادة محمد بك القرمانللى الذى حاصر مدينة طرابلس ٢٦ لوليو ١٨٣٢ وقد خرجت له قوات يوسف باشا في اليوم التالى ولكنها ردت على أعقابها فأغلق القلعة على نفسه وسد أبواب المدينة . ولم ينته هذا الوضع المؤسف إلا بتدخل الحكومة التركية التي أنهت حكم الأسرة القرمانللية .

وحين شعر يوسف باشا بالخطر الذى يتهدده من الدول البحرية المسيحية التي أخذت وطأتها عليه تتعاظم ، إهتم بتحصين القلاع والأبراج وبدأ في سنة ١٨١٧ في تأسيس (البرج الجديد) بالقرب من برج المندريك الذى احتفل بتدشينه رسميا بحضور رجالات الدولة وأعيان البلاد في أوائل سنة ١٨٢٠ .

لقد أعطت شخصية يوسف باشا القرمانللى طابعا خاصا تميز ببروز شخصية الدولة في عهده على نحو أوضح وأرسخ من كل العهود السابقة وتمثل في تلك السلسلة من العلاقات العدائية والودية مع الدول الأجنبية كما خلع عهده على المدينة طابعا خاصا تميز بالتمدين والانفتاح على أنماط الحياة الحضارية التي كانت قائمة في بلدان البحر الأبيض .

وتتوفر لنا عن هذا العهد عدة وثائق تاريخية هامة سجلها شهود عيان من الرحالين الذين بدأت حركتهم الاكتشافية تنشط خلال هذه الفترة .

ويأتي في مقدمة هؤلاء الرحالة الاسباني باديا لبليك (المعروف باسم على بك العباسي) وقد قام في نوفمبر ١٨٠٥ بزيارة طرابلس ضمن رحلته الكبيرة في بعض البلدان الأفريقية والأسيوية . وهو يقدم لنا صورة مختصرة ولكنها هامة عن الحياة في المدينة خلال هذا العهد . ويقول عن مدينة طرابلس : (إنها مدينة أجمل جدا من أية مدينة بمملكة المغرب ، تقع على شاطىء البحر ، وطرقها مستقيمة وواسعة بدرجة كافية) . (وبيوتها منتظمة وحسنة وأكثرها تقريبا تتميز ببياضها الساطع الباهر . وتقترب هندستها جدا من الطراز الأوربي

أكثر من اقترابها من الطراز العربي ، أما أبوابها فهى بصفة عامة من النسق التوسكاني) .

وقد فطن هذا الرحالة إلى مالم يفطن إليه غيره من التشابه في الخصائص المعمارية بالأساليب الأوربية . كما سجل الأثر الذى خلفه الطاعون الذى أصاب المدينة في عهد على باشا وظل أثره باقيا على المدينة حتى السنة التي قام فيها على بك العباسي برحلته . يقول :

(لقد أنقص الطاعون كثيرا من عدد السكان بالمدينة إذ قضى في الغالب على أسر بكاملها وما يزال يشاهد المرء حتي الآن بعض المنازل المهجورة أو المنهارة بسبب هذا الوباء . ويبلغ السكان في هذا الوقت عددا يتراوح بين الثلاثة عشرة ألفا والخمسة عشرة ألفا .

(وبالنظر إلى الطابع التركى المطلق الغالب على الحكومة ، فإن المدنية هنا متقدمة جدا على المغرب) (والأغلبية العظمى من السكان تفهم وتمتلك عدة لغات أجنبية أوربية . والباشا نفسه يتكلم الايطالية) (كما أن المجتمع هنا أكثر انطلاقا وحرية من المغرب) وأشار إلى المعاملة الحسنة التي يلقاها الأسرى المسيحيون وذكر أن في إمكان المعتنقين منهم للإسلام أن يحتلوا مناصب عالية في الدولة . ويشير إلى ستة مساجد من الدرحة الأولى وستة مساجد أخرى أصغر منها ، وأكبر هذه المساجد في نظره مسجد أحمد باشا القرمانللى . وتلفت نظره المآذن المخروطية بطرابلس . وثمة ثلاثة سجون بالمدينة اثنان للأهالى والثالث خاص بالأتراك . كما أشار إلى وجود حانات ومقاه كثيرة يديرها مسلمون . الأسواق مجهزة بالبضائع والأسعار معتدلة . وعدد اليهود حوالى ألفين ويعاملون معاملة أحسن من المعاملة التي يلقاها يهود المغرب . وهم يحتكرون تقريبا التجارة مع أوربا .

وتحدث عن شخصية يوسف باشا القرمانللى فقال (إنه رجل في حدود الأربعين ، جميل المظهر . ولا يخلو من روح الدعابة ، ويجيد التحدث باللغة

الايطالية . يحب الأبهة والسلطة والجود ، ويتصرف باحترام دون مجافاة للطف والمجاملة . يشغل منصبه منذ عشرة أعوام تقريبا) . (يهوى الترف والفخامة في أثاثه وزوجاته وفي تجهيزات مساكنهن) . . .

ويقول : إن الميزان التجارى مع أوربا حسن ويميل لصالح طرابلس إذ أن قيمة الصادرات تتفوق بواقع الثلث على الواردات ولكن تجارة المدينة مع الشرق ودواخل أفريقيا تلغى الفوائد الحاصلة من تجارتها مع أوربا .

ويقول عن الموازين والمكاييل المستعملة أنها غير دقيقة ولا عادلة . ونلاحظ أن الرحالة يميل إلى المقارنة دائما ، بين الوضع في طرابلس والوضع في المغرب التي شكلت نقطة الانطلاق الأولى في رحلته نحو الشرق . وكان قد بارح بلدة العرائش فوق ظهر سفينة طرابلسية ووصل إلى طرابلس في اليوم التاسع من نوفمبر ١٨٠٥ . حيث تمكن من الإقامة بها مدة شهرين أتيح له خلالها أن يقابل الوالى وبعض رجال الحكومة ويسجل انطباعاته عن المدينة . ولعل أهم ما في هذه الانطباعات حديثه عن الحياة الاجتماعية في المدينة التي تتسم بالانطلاق والانفتاح على المظاهر الحضارية الأوربية الحديثة . وما كان يشيع فيها من جو متسامح إزاء الأجانب ومعتقداتهم (إن الأوربيين بطرابلس مقدرون ومراعون ، ويوجد بها بالإضافة إلى القناصل الممثلين لمختلف الدول الأوربية الكبيرة ، تاجر فرنسي ، وهو أخ القنصل وصانع سفن اسباني وطبيب مالطى وساعاتي سويسرى) ويقول : إن أجراس الكنيسة تتردد كل يوم في كل أركان المدينة) أما حديثه عن القوس الرومانية فلا جديد فيه. إذ اكتفى بوصفه ونقل بعض الكتابات والنقوش الموجودة به . ولم يخبرنا بشيء عن أوضاعه في تلك الفترة .

وهذه الصورة التي قدمها لنا هذا الرحالة عن يوسف باشا خلال السنوات الأولى من حكمه حين كانت آماله في العظمة كبيرة وأحلامه في حماية حكم

أسرته عريضة . أما في السنوات الأخيرة فقد تألبت عليه الظروف الداخلية والخارجية ، لتجعل من ذلك الحلم أمرا بعيد المنال . وعاشت المدينة مع أيامه الأخيرة في الحكم فترة من الضيق والاضطرابات والقلق بسبب انهيار الوضع الاقتصادى المعتمد على البحرية وتجارة القوافل وبسبب إفلاس خزينة الدولة وتراكم الديون على الباشا الذى حاول أن يسدّدها بزيادة الضرائب التي ضاعفت من تذمر السكان وزادت من حنقهم عليه مما اضطره في النهاية إلى أن يتنازل عن الحكم لابنه على الذى لم يطل به العهد ولم تفلح إجراءاته التي اتخذها لمحاصرة الثوار وسحب الأنصار من جانبهم .

وقد فوجىء سكان المدينة في اليوم السادس والعشرين من ١٨٣٥ بالأسطول العثماني يلقي مراسيه أمام طرابلس ، وخرج على باشا في حاشيته وموكب من أتباعه في نفس اليوم ، وعلى مشهد من الناس ، لزيارة قائد الأسطول وتحيته كما تقضي بذلك المراسم المعتادة . وكانت الاشاعات قد ترددت بقدوم هذا الأسطول لنجدة الباشا الذى رجع إلى قلعته بعد هذه الزيارة . وفي اليوم التالى نزل إلى البر أربعة آلاف وخمسمائة جندى واستولوا على الفور على كل القلاع والحصون والمواقع الاستراتيجية . وخرج على باشا في يوم ٢٨ من جديد لتحية القائد العسكرى للحملة ولكن الناس فوجئوا بالزورق الذى أقله ، يعود بمصطفى نجيب باشا إلى الشاطىء ، حيث يمتطى صهوة جواد ، ويستعرض حرس الشرف ويصل تحت قصف المدافع إلى القلعة ، ويتلو أمام أعضاء الديوان الذين جمعوا خصيصا مرسوم تعيينه مؤقتا على رأس الولاية ، ثم استقبل قناصل الدول المعتمدين بالولاية وأبلغهم بذلك . . . وبذلك أعلن الباب العالى نهاية الأسرة القرمانللية .

لم تشهد المدينة ، خلال الفترة الأولى من العهد العثماني الثاني ، أية حركة يمكن أن نطلق عليها حركة عمرانية ، أو تطور في إنشاءاتها ، وذلك لانصراف

الولاة المتعاقبين خلال السنوات الأولى ، من إعادة السيطرة العثمانية المباشرة على البلاد إلى تدعيم سلطة الحكومة في المدينة أولا ثم في الدواخل ، وتعقب شيعة الحكام السابقين والموالين لهم . وقد واجهت الحكومة العثمانية خلال هذه الفترة صعوبات جمة تمثلت في الموقف المعادى الذى التزمه ضدها زعماء الدواخل ، مما تطلب منها حشد طاقاتها لمقاومتهم والقضاء على ثورتهم وعصيانهم . وقد اهتم مصطفى نجيب خلال ولايته القصيرة ، بتصفية حكم الأسرة القرمانللية ، وشهد ميناء طرابلس يوم ٢ يونيو سفينة حربية تركية تقلع بعلى باشا القرمانللى الذى نفي ومجموعة من حاشيته وأنصاره إلى الاستانة . كما شهدت المدينة أيضا يوم ٥ يوليو من نفس السنة دخول غومة المحودى في موكب من رجاله ، ليعلن طاعته للحكومة الجديدة ، ويقدم ولاءه ويعرض خدماته على الحكومة العثمانية من أجل تأكيد سيادتها ، بعد أن أزاح حكم الأسرة القرمانللية التي كان قد ناصرها في البداية ، ثم خاصمها بعد أن اتهم يوسف باشا بقتل أخيه أبي القاسم وابنه . وكان غومة الوحيد بين الزعماء في الدواخل الذى بادر إلى إعلان هذا الموقف الموالى المساند للحكم الجديد . ولكن الوالى التركى لم يطمئن إلى هذا الموقف المتقلب ، فقبض عليه وأودعه السجن ، فأثار بذلك في نفسه رغبة الثورة والعصيان والخروج على سلطة الحكومة التي لم تثق في عروضه . وقد ظل بالسجن حتى أفرج الوالى التالى محمد رائف باشا الذى أدرك خطأ الإجراء المتخذ نحو غومة . كما قام هذا الوالى بتسفير كافة أعضاء الأسرة القرمانللية عدا يوسف باشا وولديه عمورة وإبراهيم وقد بدأت أولى حركات القمع وسياسة القوة تتجه إلى المناطق المجاورة لمدينة طرابلس وذلك حين رفض أهالى الساحل تسديد الضريبة ، وأظهروا الرغبة في التمسك بالحكم الذاتي الذى كان قائما قبل مجيء الأتراك ، مما أدى إلى تجريد حملة قوية ضد سكان تاجوراء الذين تعرضوا لأقسى أنواع القمع والإرهاب ، وأرغموا على الاستسلام ، ودفع مبالغ باهظة ، وقد كان لمذابح تاجوراء أثرها في إخضاع بقية المناطق المجاورة للمدينة .

وقد سيطر على المدينة خلال هذه الفترة جو عسكرى حربي صارم ، تمثل في سياسة القوة التي سلكتها الحكومة العثمانية التي قررت أن تمضي في هذا الضرب من السياسة إلى أبعد حد ممكن. معبرة عن تصميمها الثابث على بسط السيادة على كامل التراب الوطني وقد أكدت ذلك بتوجيه أسطول حربي بقيادة الكابودان طاهر باشا . وشهدت مدينة طرابلس يوم ٢٢ يونيو أسطولا يتألف من عشر سفن حربية وتسع عشرة سفينة نقل فوق ظهرها ثلاثة آلاف جندى ، وقد كان هدف الحملة احتلال مصراتة التي تحركت نحوها في اليوم العاشر من يوليو بعد أن رفع الكابودان باشا جيشه إلى ٧٥٠٠ جندى و١٢٠٠ غير نظامى أقلته عشرون سفينة نقل تحرسها اثنتا عشرة سفينة أخرى ، ثم عاد إلى طرابلس بعد احتلال تاورغاء ونحى الوالى السابق ، وأمسك بكافة خيوط السلطة . وخلال الأشهر القليلة التي تولى فيها الولاية شهدت المدينة عنفا زائدا عن الحد وقسوة في جباية الضرائب وقمع كل حركة عصيانية أو تمردية .

وقد زاد من سوء الأوضاع ، ذلك الوباء الذى اجتاح مدينة طرابلس وضواحيها في شتاء ١٨٣٦ — ١٨٣٧ ، وارتفع عدد الضحايا ، وكان يموت كل يوم من الأهالى ما يتراوح بين ٣٥ إلى ٤٠ شخصا . وهجر بعض السكان المدينة ، وخرج القناصل وبعض أفراد الجالية الأوربية إلى مالطا وإيطاليا . وبلغ الوباء أقصى عنفه في فبراير ١٨٣٧ ، وقد ذكر أحد القناصل في رسائله أن سكان المدينة قد هبطوا من سبعة آلاف نسمة إلى أربعة آلاف نسمة .

وقد اضطر طاهر باشا إزاء هذا الوباء إلى العمل على حماية جيشه ، فنقل في الثامن من فبراير ١٨٣٧ ما يقرب من ٥٧٠٠ مسلح إلى غريان متظاهرا بالعمل على إخضاع تلك المنطقة . وقد كانت علاقات هذا الوالى القائد بالهيئة القنصلية في المدينة سيئة جدا نتيجة المسلك الصارم الذى اتخذه نحو القناصل الذين اعتادوا في الماضي على نوع من المراعاة والمجاملة والضعف . وقد كان هذا الموقف منه من الأسباب التي عجلت برحيله نتيجة الضغط الذى مارسته فرنسا

في العاصمة التركية ، وغادر البلاد يوم ٥ يونيو يرافقه الوالى الأسبق محمد رائف . وخلفه على الحكم حسن باشا ، وهو رابع الولاة العثمانيين وقد سلك مسلكا يتسم باللين والتسامح والمهادنة والسعى لتخفيف وطأة الحكم الذى انتهجه طاهر باشا .

وقد شعرت المدينة بشيء من الراحة والاطمئنان النسبي ، وحاولت بشكل محدود تجاوز ظروف المجاعة والقمع والإرهاب .

كما حاول الوالى الجديد أن يخفف من النفقات العسكرية بتبني سياسة الحكم غير المباشر عن طريق الزعامات الداخلية ، ولكنه غادر الولاية في أغسطس ١٨٣٨ . وكان رابع الولاة العثمانيين خلال سنتين من عودة الحكم العثماني . ولم يكن هذا الوالى يجنح إلى السكون عن ضعف كما يقول النائب ولكنه كان ينفذ خطة عثمانية ترمى إلى استمالة الأهالى واسترضاء الزعماء وتحقيق السيطرة بالطرق السلمية ، ويتأكد ذلك من التزام الوالى التالى عشقر باشا بهذه الخطة في بداية عهده بالولاية ، حيث تابع سياسة المهادنة ، واتفق مع غومة وعبد الجليل ، وعمل على استغلال فرصة المهادنة بتوسيع رقعة الاحتلال والتوغل نحو القبلة ، حيث استولى على مزدة . ولكن عشقر باشا فشل في معالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية كما كان سيىء التصرف في الأموال العامة وتأثرت الحالة التجارية بالرسوم التي فرضها على البضائع مما زاد في سوء علاقته بالقناصل الأجانب ، وشملت المدينة حالة من الركود التجارى ولم يلبث عشقر باشا أن واجه ثورة جديدة تزعمها عبد الجليل بن غيث سيف النصر الذى اتفق مع غومة وأحمد المريض على تكوين جبهة موحدة ضد السلطة العثمانية . وبدأت تنشط عمليات الإغارة والغزو على المناطق المجاورة للمدينة ، وتعطلت حركة التجارة من الدواخل . وفي سنة ١٨٤٠ كانت طرابلس الغرب كلها في حالة ثورة شاملة ، حاول عشقر باشا إخمادها بالاستعانة بعثمان آغا خصم عبد

الجليل ، وقد استطاع فعلا أن يرده إلى الصحراء وتدخل غومة والمريض لصالح عبد الجليل . وقد تمكن غومة من الانتصار على القوات الحكومية التي جردت ضده وقتل منها ما يقرب من أربعمائة محارب .

وشهدت المدينة خلال هذه الفترة مقتل سبعة من شيعة سيف النصر وأقاربه انتقاما لمقتل عقيد تركى أسره سيف النصر مع آخرين أثناء زحفه على بني وليد ومصراتة .

وهكذا سجلت سياسة المهادنة فشلها ، ودخلت البلاد في فترة جديدة من الاضطرابات التي كان لها أسوأ الأثر على أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وقد سلك عشقر باشا سياسة عنيفة ضد الأهالى لفصلهم عن الزعماء وخلق الفراغ حولهم وأسند هذه المهمة إلى القائد أحمد باشا الذى لقبه الأهالى باسم الجزار والذى تولى في الجبل مهمة حربية تشبه إلى حد بعيد مهمة الجنرال الايطالى (غراتسياني) وقد عرف كلاهما باسم الجزار والسفاح . وقد تمكن أحمد باشا من دحر غومة وقتل عددا من أنصاره وأحضر عددا من الرؤوس إلى المدينة حيث عرضت عند أسوارها وأبوابها كدليل على النصر .

وليس من خطة هذا البحث أن ندخل في تفاصيل الظروف الثورية وعمليات القمع التي رافقتها ، ولم نرد على ذكر هذا العرض الموجز الا لبيان الاهتمامات العسكرية التي استغرقت المرحلة الأولى من إعادة السلطة العثمانية المباشرة وأثر ذلك على الأوضاع الاقتصادية والتجارية التي تأثرت بها المدينة تأثرا بالغا باعتبارها مركز النشاط ونقطة انطلاقه .

وتصدعت أثر ذلك جبهة المقاومة ، وقتل عدد آخر من الرؤساء والزعماء وأمكن للأتراك بعد سبع سنوات من حكمهم الجديد السيطرة على بعض المناطق الداخلية والاستيلاء على فزان . ولكن لم يظهر لهذا الاستقرار

النسبي أى أثر في تحقيق الرخاء الاقتصادى ، فلم يكن الولاة مشغولين بمثل هذه القضايا قدر اشتغالهم بتحقيق المصالح الذاتية . وقد اتهم عشقر باشا نفسه باستغلال الأموال العامة وألزم بإرجاع مبالغ ابتزها من مخصصات الولاية والجيش والجمارك كما اتهم أيضا بالاستيلاء على أموال الأسرة القرمانللية . ومع ذلك فيبدو أن عهد عشقر باشا قد شهد نوعا من النشاط العمراني إذ قام كما يقول النائب (وأصلح ما ثلم من القلاع وما خرب من الجوامع ، وأنشأ قصر الحكومة باورفلة ، ومحل حكومة بالموضع المعروف بأبي نجيم) .

وفي ١٥ يوليو ١٨٤٢ حل بطرابلس الوالى الجديد محمد أمين باشا . وقد أظهر تسامحا في مستهل عهده ، فأطلق سراح المعتقلين واستقدم غومة بواسطة مصطفى قورجى وأكرمه ومنحه لقب (قبوجى باشي) وولاه عضوا بمجلس الإدارة وأسنى جرايته وبالغ في إكرامه واستوطن طرابلس بأهله . وكان غومة قد قدم على طرابلس يوم ١٧ أغسطس ١٨٤٢ ، ولكنه لم يلبث أن اعتقل من جديد بناء على أوامر من الاستانة ، ليلة ٢٨ ستمبر ١٨٤٢ مع ثمانية من أقاربه وأعوانه ، وقد أقلته سفينة إلى الاستانة ، ومنها إلى طرابزون بالبحر الأسود . وفي نفس الليلة خرجت قوة مسلحة تتألف من حوالى أربعمائة جندى نحو الجبل لمواجهة الظروف الناشئة عن نبأ نفي غومة .

وفي منتصف مارس ١٨٤٣ ، وسيرا مع السياسة الصارمة التي خططتها الاستانة بإخضاع البلاد إخضاعا مباشرا والقضاء على العصيان والتمرد ، خرج أحمد باشا بقوة قوامها ستة آلاف جندى غير نظامى وثلاثة آلاف جندى نظامى من مشاة ومدفعية ، نحو الجبل الغربي الذى شهد خلال هذه الفترة عمليات قمع وإرهاب وتقتيل وسلب ، واسعة النطاق ، لم يعرف لها الجبل مثيلا من قبل . وتدفقت على المدينة قوافل الأسلاب والغنائم والأسرى والسبايا من الأرامل والأطفال .

وقد تمكن أحمد باشا من احتلال غدامس في يوليو من تلك السنة ،

وعاد مزهوا بالنصر إلى طرابلس يوم ٢٣ أغسطس ١٨٤٣ . ويقول النائب : (فاكتسب أحمد باشا بهذه المظفريات نفوذا بين الأهالى ، ولم يبق للوالى معه إلا الاسم ، فثقل ذلك عليه وأنهى بذلك إلى الباب العالى) الذى رأى بعد ذلك نقل الشخصيتين المتنازعتين .

وقد طالت مدة ولاية محمد أمين باشا واستطاع بمساعدة قائده أحمد باشا — قبل أن يتنازعا السلطة — أن يلزم الناس بالطاعة والإذعان ، ولكن بثمن فادح . وقد هيأت له مدة حكمه الطويل الفرصة لإجراء بعض التنظيمات الإدارية التي شملت القضاء والإدارة والشئون المالية . كما أنشأ المستشفى العسكرى الواقع بالمنشية . ولعل ذلك كان أبرز أعماله العمرانية بالمدينة .

وقد خلفه على الولاية محمد راغب باشا الذى لم يبق بها سوى سنة واحدة كانت حافلة بالقلاقل والاضطرابات التي نشأت عن سوء الإدارة وفرض الضرائب على القبائل التي كانت معفاة منها ، مما أدى إلى انتشار الثورة ، وقيام الوالى بتوجيه حملة بقيادة بكر باشا تتكون من اثني عشر ألف جندى غير نظامى وأربعة آلاف نظامى وثلاثة آلاف وخمسمائة مشاة وخمسمائة فارس تسندهم ثلاث بطاريات ، وتحركت هذه الحملة الكبيرة من مدينة طرابلس يوم ٢٢ ديسمبر نحو غريان والمناطق الجبلية ، وقد كانت الجولات الأولى في صالح الثوار مما زاد في غضب القوة العثمانية التي لجأت إلى التخريب والتدمير والسلب وإعادة تطبيق الأسلوب الذى نفذه في السابق أحمد باشا (الجزار) حتى اضطر الناس إلى النزوح إلى تونس هربا من بطش الجند وجوره .

وقد زار طرابلس خلال هذه الفترة الرحالة الألماني الشهير (بارث) وسجل عنها انطباعاته التالية ، وذلك ضمن رحلته الكبرى من المغرب حتى مصر .

وقد ركز فيها القول على أهمية مدينة طرابلس في تلك الفترة كنقطة انطلاق

لأقصر طريق نحو أواسط أفريقيا التي كانت موضع اهتمام الكشف الأوربي في ذلك الحين .

يقول بارث :

(اقمت بمدينة طرابلس الغرب ستة أيام . ويضاف الغرب إلى اسمها تمييزا لها عن طرابلس الشام ، وكانت إقامتي بها بسبب الاستعدادات الضرورية لمواصلة الرحلة التي ستتخذ من الآن فصاعدا طابعا مختلفا أكثر منها بسبب الانجذاب إلى جمال المدينة . إن إقامة بضعة ساعات بها قد بددت ذلك الانطباع الذى كونه في نفسي من بعيد مرأى المدنية البيضاء بأسوارها العالية التي تحميها الأبراج والمآذن التي تتخلل جذوع النخل الباسقة النحيفة وجريدها المائل فوقها . ومع ذلك كله فقد كانت لهذه المدينة على الدوام أهمية معينة .

موقعها جميل وموفق ، مرتفع صخرى صغير متغلغل في البحر . وهو يتصل بواسطة سهل رملى ، بواحة من النخيل الكثيف التي تحيط بها من كل الجهات ، ويعرف هذا السهل باسم (المنشية) . أما الميناء الذى يفتح على الجانب الشرقي فإنه رغم صغره محمى من جميع الرياح ، كما يحميه من هجمات الأعداء برجان كبيران . ويمكن تحسينه بقليل من الانفاق .

لا توجد هنا أعمال عمرانية بارزة ذات طابع شرقي ، عدا المسجد الذى بناه أحمد باشا جد الأسرة القرمانللية . إن المنظر الخارجى المغرى للقلعة التي تستعمل كقصر للحاكم لا يلبث أن يخيب الأمل بعد زيارة داخلها .

ومع ذلك فإنه بالنسبة للأوضاع الحالية ، لهذه المقاطعة الغربية ، فإن للموقع أهمية عظمى حيث تنطلق منها أقصر الطرق إلى قلب تكرور والسودان . ومن هنا ، وفي جميع الحالات ، وخاصة لتوفر دواعى الأمن ، ينبغى أن تنطلق أية بعثة إلى تلك البلدان . رغم إخفاق بعض المحاولات في الماضي . لقد تعرضت تجارة القوافل مع أفريقيا ، بسبب تعسف بعض حكام الشمال

الأفريقي إلى متاعب جمة في هذه الأعوام الأخيرة . ومع ذلك فإن طرابلس تظل دائما نقطة انطلاق هامة . وقد كان من حظى أثناء إقامتي بها ، أن شاهدت وصول قافلة من غدامس ، تتألف تقريبا من ألف جمل ، محملة بالتبر واللؤلؤ والزعفران والتوابل وريش النعام والعبيد — إذ أن تجارة الرقيق ما تزال قائمة هنا ، ولم تلغ — والعاج . وقد سدت هذه القافلة تقريبا كل طرق المدينة لبضع ساعات . وقد أبلغ بوصولها ، قبل ساعات من دخولها للمدينة ، رائد يتقدمها ويركب مهريا عاليا كأنه زرافة رائعة . ذلك المهرى ساكن الصحراء العجيب والذى يمثل هو والطارقي كل طبيعة هذه البلاد . كان ذلك هو الحيوان الوحيد من نوعه الذى تمكنت من رؤيته ، وما زلت حتى اليوم اعتبر أن رؤيتي له كانت حظا حقيقيا ، ذلك لأنه من الحالات النادرة أن يأتي هذا الساكن الصحراوى حتى الساحل الذى لا يطيق طقسه .

وهذا الحيوان العداء الكريم ليس صديقا للجمل العادى ، بل يضمر له عداء مريرا لا يمكن التغلب عليه إلا بعد فترة طويلة من الألفة والترويض . وربما كان هذا النوع الذى رأيته نموذجيا ، في ما تميز به من جمال خاص ، وعلو فائق ، ونحافة رشيقة زائدة ، كما كان وبره يلمع لمعان الحرير . وقد زاد من جماله الطبيعى تلك (الحوية) الرائعة الغنية بزخرفتها ووشيها الرفيع . وبعد أيام من ذلك وُصلت قافلة من فزان ، وقد مرت بي جانبيا بين مصراتة ولبدة ، فلم أتمكن من رؤيتها .

وبالنظر لهذا النشاط التجارى مع دواخل أفريقيا فإنه من الطبيعى أن نجد في متاجرها (بازاراتها) المجهزة بصفة عامة تجهيزاحسنا ، جميع المنتوجات التي تأتي من تومبكتو وبورنو ، وأهم المصنوعات اليدوية ، ومنها البسط والأحزمة الحمراء وأشياء أخرى مشابهة . وأعمال الصاغة . ويجرى هنا تصدير الصوف الممتاز والسنامكى وبعض التوابل الأخرى وعروق الروبية وجلود الماعز والضأن المدبوغة والفواكه المجففة كالتمور وغيرها . ومنتوجات البلدان الجنوبية . ولكن

التصدير الآن أضعف من الاستيراد ، وفعلا فإن المدينة والبلاد بأسرها ، تعيش منذ أعوام طويلة ، بصفة خاصة ، على القمح المستورد ، ذلك أنه بينما لايقل محصول التمر حتى في سنوات الجفاف ، فإن محصول الحبوب يعتمد كليا على غزارة المطر أو قلتها . وقد قلت الأمطار منذ مدة والبؤس منتشر بشكل كبير في المدينة . وتشاهد على طول الطرقات أناسا ينامون عراة ونصف أموات من الجوع . وهو مشهد مثير للاشمئزاز ، ويلاحظ بوضوح أثر البؤس على الروح المعنوية للسكان الذين يتدفقون أيضا من الدواخل . لم أشاهد مثل هذا في أية مدينة إسلامية أخرى . ولا مناص من أن تنهار طرابلس أيضا كما تنهار واحتها الساحرة التي تنتشر فيها المنازل ، تلك الواحة التي نجد لها سحرا غريبا نحن الاوربيين .

يبلغ عدد سكان المدينة ، بما في ذلك اليهود الذين يشغلون القسم الشرقي منها وينصرفون للتجارة وصناعة الذهب والفضة -- عددا يتراوح بين ثلاثة عشر إلى أربعة عشر ألف نسمة ولا ريب في أن ذلك ناشىء من أثر الحروب الداخلية بين أفراد الأسرة القرمانللية ، وإلى طغيان العثمانيين الذين استقروا بها كما هو معروف منذ سنة ١٨٣٥ والذين حملوا إليها — دون نكران — مزيدا من الأمن والسلم . ولكنهم لم يشغلوا كثيرا ولم يهتموا بأمر هذا الشعب الغريب عليهم بحيث يعملون بأى وجه من الوجوه على تحسين أوضاعه

تقوم طرابلس القديمة حسب اقتناعى الناشىء عن تقييم صحيح للوقائع ، في الموقع الذى قامت عليه المدينة الحالية . ولكن لم يبق من طرابلس القديمة إلا قوس مزينة بالنقوش شيدت تمجيدا وتخليدا للأمبراطور ماركوس اوريليوس من قبل القنصل كايو اورفيتو الذى كانت تتبعه تلك المقاطعة . ولا تخلو القوس من أهمية وهى مثمنة الشكل . ولكن فتحاتها الأربع مسدودة ، وتتميز واجهتها بالدقة الفنية وكذلك قمة المثمن . وقد قام أحد المالطيين — وذلك أمر مهين للامبراطور المخصصة هذه القوس لتمجيده — بإقامة حانة داخلها ، كما أفسد المنظر

الخارجى بما تراكم حولها من منازل شيدت حولها حتي ليتعذر قراءة الكتابات الموجودة بها كلها . . . أما الآثار الأخرى الباقية حسب علمى فتتألف من الجرار الزجاجية التي عثر عليها الكولونيل وارنجتون حين أنشأ حديقته على مسافة نصف ساعة من المدينة . وتتميز بأهمية خاصة ذلك أن الفينيقيين الذين مدنوا هذه السواحل كانوا أول من برز في صناعة الزجاج . . .) .

تلك هى انطباعات الرحالة الألماني الكبير وهى تقدم لنا صورة عامة عن أوضاع المدينة والحياة فيها خلال الفترة التي زارها ، تلك الفترة التي تدخل في المراحل الأولى من الاحتلال العثماني أو من إعادة بسط السيادة العثمانية . وهو يقدم لنا صورة واضحة عن عدد سكانها وأوضاعها التجارية والاقتصادية .

وقد وصل إلى طرابلس في نهاية عام ١٨٤٨ الوالى الجديد أحمد عزت باشا وقد تميزت الفترة الأولى من حكمه بالهدوء نتيجة عمليات القمع التي تولاها الولاة والقادة السابقون له وبخاصة العمليات التي استهدفت الجبل . وقد صرف جهده ووجه همه كله إلى تحقيق التقارب والتعاون مع ايالة تونس سعيا من القسطنطينية للوقوف في وجه السياسة الفرنسية الرامية في ذلك الوقت إلى توطيد أوضاعها في الشمال الأفريقي . وقد أخذت تتدفق على مدينة طرابلس خلال هذه الفترة أعداد كبيرة من القوات المسلحة العثمانية بعتادها مما أثار شكوك فرنسا في نوايا الحكومة العثمانية نحو تونس كما كان للإجراء المتخذ باعتبار التونسيين المقيمين بطرابلس من رعايا الدولة العلية أثره في إثارة الاحتجاج على الوالى الجديد من قبل القنصل الفرنسي الذى طالبه بتفسير لهذه الحشود العسكرية . وقد رفض أحمد عزت ذلك . وقد تميز عهد أحمد عزت باشا بمعارضة التغلغل الأوربي والوقوف في وجه المطامع الأوربية ولكنه نقل هو الآخر بعد هذه الاصطدامات المتتالية مع القناصل ممن كانت لهم مطامع في البلاد وخاصة قنصل فرنسادى بلليسيير .

يشير النائب إلى أنه في الثامن من شوال سنة ١٢٦٥ قدمت لمرسى طرابلس

باخرة فرنساوية وفي العشرين منه قدمت تسع بواخر حربية وأجاطوا بطرابلس بحرا من كل جهة ثم كتب أمير الأساطيل لوكيل الوالى في طلب تسليم شخصين فارين من عساكر الجزائر أو الحرب بعد مضي أربع وعشرين ساعة . فاستعد خالد باشا (القائد العسكرى ووكيل الوالى لقتالهم واحتفل بتأهب العساكر واحتشد أهالى المنشية والساحل ومن بجوارهم من القبائل وتهيأ للحرب وأحضر لديه أرباب الشورى من أمراء العساكر ومعتبرى الايالة لذلك . ثم إن خالد باشا لم يجوز المحاربة بوجه وأسعف النصارى بطلبهم بواسطة كاتب المال وإذ ذاك أمين أفندى وقفلت الأساطيل . .) .

وقد وصل هذا الأسطول إلى مدينة طرابلس في ٢٨ يوليو ١٨٥١ وكان بقيادة نائب الأميرال البارون دى لاسوس . وقد اضطر الباب العالى إلى ترضية فرنسا بعزل أحمد عزت باشا والدفتردار أمين أفندى .

وفي ٢٠ أكتوبر (كانت مدينة طرابلس مسرحا لمشهد في غاية الفظاعة ، فلقد داهمت عاصفة هوجاء إحدى وعشرين سفينة تجارية كانت راسية في مينائها حيث تحطم بعضها وجرفت الأمواج بعضها الآخر فوق رمال الشاطىء) وقد كثر خلال هذه الفترة تردد السفن الحربية الفرنسية بحجة الاطمئنان أو نقل القنصل الجديد . وقد كان في هذا التردد نوع من المظاهرة الحربية ضد السياسة التركية إزاء التغلغل الفرنسي في الشمال الأفريقي .

وقبل أن يرحل الباشا كانت بالمدينة في شهر ستمبر من تلك السنة أحداث بالغة الخطورة نشأت عن الضريبة المعروفة باسم (المعونة العمومية) التي فرضها الباب العالى ، وقد أجحف الوالى ودفترداره بحق الأهالى فرفعوا هذه الضريبة إلى ثلاثة أمثالها . وقد زاد من ثورة الأهالى إدراج القبائل التي كانت مُعفاة من أداء الضريبة في السابق . وقد قام أكثر من ألفين من العرب — كما يقص فيرو — باقتحام المدينة واقتحموا قنصليات فرنسا واسبانيا وانجلترا للاحتجاج

على تعسف السلطات التركية وكانت المدينة في حالة من التوتر والهيجان والخوف من تطور الحوادث إلى ما هو أسوأ مما دفع أعيان طرابلس للتدخل لدى المتظاهرين والقناصل وإقناعهم بتقديم عرائضهم إلى الباب العالى . وتعهد القناصل بتقديمها للباب العالى عن طريق سفرائهم في الاستانة . وقد سكت الوالى على مضض على هذه التصرفات ولم يكن بوسعه أن يعول على الحامية المكونة في أغلبها من الأهالى .

كما تعرضت المدينة في شهر سبتمبر من سنة ١٨٥٠ إلى وباء الكوليرا الذى فتك بالناس فتكا شديدا طيلة ثلاثة أشهر . فقد ذهب بأرواح ثمانمئة شخص في مدينة طرابلس وحدها وهو رقم مرتفع كما يقول فيرود بالنسبة لعدد سكانها الذى تقلص عددهم منذ الأسابيع الأولى لتفشي الوباء فلم يعد ليزيد عن خمسة آلاف نسمة ، وذلك لهرب قسم كبير منهم إلى مالطا وإلى تونس .

وعادت شخصية غومة إلى الظهور . فقد تمكن من الفرار من منفاه في طرابزون وعاد إلى الجبل الغربي عن طريق مالطا وتونس ، في ظروف محفوفة بالغموض بسبب الدقة في اختيار الوقت المناسب للهرب والعودة إلى الثورة على الحكم التركى حيث كان في منتصف مارس من عام ١٨٥٥ يقود الحشود التي استقبلته عند الحدود الطرابلسية التونسية في عمليات حربية جديدة ضد الأتراك .

وفي ١٤ يوليو من سنة ١٨٥٥ وصلت الأنباء إلى مدينة طرابلس بالهزيمة التي منيت بها القوات التركية في الرومية يوم ٥ يوليو على أيدى رجال غومة الذين باغتوها وهاجموها وجعلوها تولى الأدبار بعد أن غنم غومة جميع مدفعية الأتراك وذخائرهم وخزينة الحملة وأسر نفس قائد الحملة العقيد إسماعيل بك الذى نهض لهذه المهمة على رأس قوة تتألف من ثمانية آلاف رجل منهم خمسة

آلاف غير نظاميين . وقد عانت السلطات التركية في المدينة من ألم الهزيمة التي كان الموقف الحاسم فيها لورشفانة الذين كانوا في مؤخرة الحملة التركية وانقلبوا عليها . وقد عاد القناصل الأجانب إلى الاهتمام بحركة غومة ومتابعتها وتلقوا رسائل منه تؤكد ولاءه للسلطان ومحاربته لفساد الحكم المحلى وقد حاول أن يبرهن على شهامته فعمد إلى إطلاق سراح القائد التركى بعد أن أعاد إليه سيفه كما أعاد الأسرى الآخرين بعد أن جردوا من كل أسلحتهم . (وقدم غومة مركز متصرفية الجبل ، واقتحم القصر وضبط ما كان فيه من المهمات والمدافع والعسكر ثم أرسل جميع المهمات بتمامها إلى والى الولاية مع عريضة التمس فيها العفو والاستخدام فلم يقبل طلبه ، فاستمر غومة على شقاوته واستفحل أمره وضبط كافة الجبل وأتاه أهالى غريان بطاعتهم ثم قدم إلى بلدة الزاوية وانتهى إلى قريتي ورشفانة وجنزور وانضمت إليه أهالى تلك النواحى .) كما يقول النائب .

وقد عاشت المدينة فترة من القلق وانقسم القوم بين مؤيد للحكومة وبين مؤمل في انتصار غومة . ونشط القناصل وخاصة الذين تهمهم حركة غومة كوسيلة لإضعاف الامبراطورية العثمانية ، في رصدها ومتابعتها وكتابة التقارير عنها والتحريض بالاستمرار فيها وتزايد القلق ، حين أخذت قبائل الضواحى تهدد المدينة وتحترف الإغارة والغزو وخرجت سلطة هذه المناطق تقريبا من السيطرة العثمانية التي أصبحت شبه حبيسة في المدينة وبعض المواقع الساحلية ، مما اضطر الوالى مصطفى نورى باشا إلى أن يجرد حملة قوية ضد ورشفانة لمعاقبتها على غاراتها وغزواتها وموقفها من الحملة التركية في الرومية وقد خرجت الحملة من مدينة طرابلس صباح يوم ٢٢ ستمبر ١٨٥٥ وتتألف من أربعة آلاف نظامى وألف غير نظامى ووجهتها الأولى جنزور حيث جرت المعركة في مساء اليوم نفسه وانتصر فيها الأتراك وتمكنوا من استعادة السيطرة على الشريط الساحلى حتى زوارة ، ولم تفلح نجدة غومة في صد هذه الحملة .

وحين وصل عثمان باشا الوالى الجديد إلى طرابلس في ٢٢ أكتوبر ١٨٥٥ كانت الثورة قد شملت ورفلة ولم تعد في سيطرة الأتراك سوى المنطقة الساحلية الغربية وقسم من الجفارة . وقد كان وصول عثمان باشا في ظرف أحسن من الذين تقدموه حيث تم عقد الصلح في حرب الشرق إرسال بعض الدعم الحربي للولاية . وقد اعتمد هذا الوالى في القضاء على التمرد بانتهاج العمل السياسي الذى يقوم على الاحتواء وتفتيت الجبهات مستغلا في ذلك حالة الإعياء العام من الحروب المستمرة وما صاحبها من عمليات قمعية وجوع وأوبئة مما أدى فعلا إلى تخلى الكثير عن غومة ونفض اليد من ثورته والركون إلى الخضوع للحكومة . وقد سمح لغومة بالاقامة في تونس شريطة الامتناع عن التدخل في شئون طرابلس الغرب ولكن غومة لم يحافظ على عهوده ولجأ إلى الجنوب التونسي وأخذ يجند الأعوان لخلق المتاعب للحكومة التركية وقد ظل غومة طوال سنتي ١٨٥٦ ـــ ١٨٥٧ يجوب المناطق الصحراوية ويغزوها ويسبب المتاعب حتى اضطر باى تونس محمد الصادق إلى أن يصدر التعليمات بملاحقته وطرده من التراب التونسي فاتجه غومة من جديد إلى إثارة الجبل وظهر من جديد قرب نالوت سنة ١٨٥٨ بأربعمائة من رجاله ، ولكن الوالى التركى عثمان باشا قد قرر حسم موضوع غومة نهائيا بعد أن تأكد من الوضع العسير الذى يمر به فوجه يوم ٤ مارس ١٨٥٨ حملة تتكون من ثلاثة آلاف مسلح بين نظامى وغير نظامى بقيادة أحمد الأدغم آغا مصراته حيث استطاع أن يفاجئه ويقضي عليه .

وقد سجل موت غومة نهاية لمرحلة من الزمن استمرت أكثر من عشرين عاما قضاها الأتراك في محاولة السيطرة على الدواخل .

ونقل عثمان باشا ، بعد أن أهداه السلطان سيفا مرصعا من جانبيه بالجواهر يقدر ثمنه بعشرين ألف ليرة ، جزاء له على توفيقه في القضاء على غومة وثورتة . وقد حل محله الحاج أحمد عزت باشا الذى وصل إلى طرابلس في ١٢ ستمبر ١٨٥٨ . وقد كان معروفا بروحه الدينية ويصفه النائب بأنه كان

(عالما نبيها صافي السريرة متوشحا بالصبر) ولكن الوثائق القنصلية الأجنبية تصوره بصورة العقلية المتزمتة الجامدة ، وتذكر أنه كان سيىء الإدارة وأن التجارة قد أصيبت بالشلل كما كان للاجراءات القمعية التي اتخذها في برقة لاستيفاء الجبايات المتأخرة أثرها في إشعال الثورة وزيادة التذمر منه ولم يعد في وسع الاستانة أن تتجاهل ذلك فعملت على عزله وتعيين محمود نديم باشا الذى وصل إلى طرابلس في ٩ أغسطس ١٨٦٠ . ويذكر النائب من أعمال الحاج أحمد عزت إنشاءه للبريد .

وقد طالت مدة ولاية هذا الوالى فبلغت سبع سنوات شهدت البلاد خلالها فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة ، وقد أشاد الأهالى بسيرة هذا الوالى لما أظهره من اهتمام بتطوير الأوضاع العامة في البلاد وقد اهتم بالحدود الممكنة في تطوير مزروعاتها ومصنوعاتها (وجلب غرس الزيتون من منابتها ووزعه على أهالى قضاء ترهونة بواسطة مشايخهم وحملهم على غرسه في الأماكن الصالحة فغرس ونبت نباتا حسنا) كان إنشاء المحاكم المدنية والجنائية والتجارية وإنشاء مطبعة وصدرت في عهده أول جريدة بمدينة طرابلس (باسم طرابلس الغرب) وكانت تصدر بالتركية والعربية .

وقد شهدت المدينة في هذه الفترة (محرم ١٢٨٢ هـ) احتراق (مخزن البارود الكائن بالبرج الأحمر وطارت أنقاضه وصخوره الهائلة في الجو بمن كان فيه من العساكر وعددهم نحو الثلاثمئة ، ووقعت بعض تلك الصخور على البيوت المجاورة فهدمت منها نحو أربعين بيتا ومات فيها نحو المئة نسمة .

وفي هذه السنة أيضا فتح باب جديد للثغر من الجهة الغربية لعمران تلك الجهة وتسهيلا للمواصلة بين سكان المدينة وأهل المنشية والقرى المجاورة) .

كما اهتم هذا الوالى أيضا بمحاربة بعض التقاليد السيئة فأبطل ما كان يعمل في ليلة عاشوراء وذلك أن بعض الرعاع من العامة يحملون شبه رأس

جمل ويدورون به في أزقة البلد والحارات .) .

وما من شك في أن المدينة قد نعمت في عهد هذا الوالى بشيء كثير من الهدوء والاطمئنان ، وعاودت نشاطها العام وانتعشت فيها من جديد الحالة التجارية والاقتصادية بفضل ما أبداه من عناية ورغبة في تطويرها . وتتفق المصادر العربية والأجنبية التي تعتمد على تقارير القناصل في ذلك العهد على الإشادة بشخصية هذا الوالى الناجح الذى استدعته الاستانة ، بعد ذلك ليشغل عضوية المجلس الأعلى للامبراطورية فغادر طرابلس يوم ٣٠ يوليو ١٨٦٧ بين أسف الجميع وتقديرهم . وقد خلفه على الولاية الفريق على رضا باشا الذى جمع في شخصه بين الولاية وقيادة القوات العسكرية ، وقد سار سيرة سلفه في العناية بتطوير الولاية وتحسين أحوالها وقام بتنفيذ بعض المشاريع الهامة ، فاهتم بتسوية الطرق والمعابر في داخل المدينة وخارجها ونظم البريد ومد سلك التلغراف برا من مركز الولاية إلى الخمس مصمما على إيصاله إلى الحدود التونسية ، وشجع حفر الآبار الارتوازية (فأخرج عينا بخارج الثغر وجعل عليها سبيلا) وربط الأودية وجعل لها ترعا وسواقي وسلط مياهها على المزارع) وشجع البناء خارج المدينة القديمة (الثغر) وأسس سوق العزيزية والحديقة العمومية وأنشاء الساعة التي ما تزال قائمة حتى الآن بميدان الساعة وتعتبر من المعالم الأثرية الجميلة في مدينة طرابلس تذكر بهمة هذا الوالى وعنايته بتجميل المدينة وتحسين أحوالها وقد كان لهذا الوالى من الأثر على الحركة العمرانية في المدينة ما يفوق أثر الولاة الذين تقدموه والذين شغل بعضهم بالمشاكل العسكرية وشغل بعضهم الآخر بتحقيق المنافع الذاتية . ولو سار جميع الولاة سيرة هذين الواليين لكانت أحوال المدينة قد تطورت تطورا ملحوظا . وعلى كل حال فإننا سنشهد اعتباراً من هذه الفترة نوعا من العناية بأحوال الولاية والمدينة ، ومرده إلى فراغ الأتراك من إخماد الحركات الثورية التي استنفذت منهم الوقت والمال ، ومحاولة بعض الولاة الناجحين الاستجابة إلى رغبات السكان وحرص الحكومة

العثمانية على المحافظة على آخر ولايتها بالشمال الأفريقي .

وقد خص الرحالة الالماني نختجال ، في هذه الفترة مدينة طرابلس بشيء من الوصف ، في رحلته المشهورة إلى السودان . . وهي الرحلة المعروفة باسم الصحراء والسودان . ويتضمن وصفه بعض اللمحات والوقفات التاريخية الهامة وخاصة ما يتصل منها بوصف الحياة الاجتماعية والسياسية .

وقد استهل وصفه بالقول ، ان اهتمامه كان موجها كله نحو بورنو ، والمواقع الوسطى من أفريقيا التي كان يقصدها برحلته .

ومع ذلك لم يستطع أن يشذ عن هؤلاء الرحالين الذين أخذوا بالمنظر الجميل الجذاب الذى تبدو به مدينة طرابلس ، للقادم اليها من بعيد ، وهى تتألق في أشعة شمس الصباح التي تغمر قلعتها ومآذنها وقبابها وجدران منازلها البيضاء ، واشجار نخيلها الباسقة المنتشرة هنا وهناك .

وينبه نختجال الزائر الوافد على المدن الشرقية بان يعود نفسه على الخيبة ، فالنظافة التي تبدو بها هذه المدينة ، على البعد ، والبريق الذى يغمرها لا يتحققان لها من الداخل ، حيث القذارة والدمار والبؤس ، ولا تمثل مدينة طرابلس في رأيه استثناء من هذه القاعدة ، وان كانت في الواقع لا تعطى انطباعا بالانهيار الذى تقدمه كثير من اخواتها على ساحل الشمال الافريقي ، أى انها ما تزال أحسن حالا من هذه المدن .

ويصف الرحالة باب البحر والحياة النشطة التي تقوم حوله ، بمقاهيه المتعددة وألوانها المختلفة ، ويقول (ان انشط مظاهر الحياة في مدينة طرابلس ، انما تتجمع حول هذا الحى . فهناك المقاهى بروادها من مختلف الاجناس ، ودكاكين الحلاقين ، ومتاجر المالطيين الصاخبة ، ونشاط التجارة البحرية . ويتفرع من باب البحر شارعان كبيران احدهما يحاذى الشاطىء ، حيث تقع أجمل المباني الاوربية التي يسكنها التجار والقناصل ، ويعني به الشارع المعروف

باسم شارع درغوت . أما الشارع الاخر فيعبر وسط المدينة . ويقول أن الشوارع نظيفة، ومرصوفة، وخالية من الاوساخ والمهملات ويصف الشارع البحرى بانه يوفر لساكنيه والمتجولين فيه أجمل منظر ، مطل على البحر . كما يصف برج الساعة والميدان الذى يقع بجواره ، حيث يتخذ الاعيان والوجهاء مجالسهم ، لتمضية أوقات الفراغ والتطلع إلى حركة الاسواق والمتاجر القريبة ، ويؤدى هذا الميدان عبر طريقين متوازين إلى البابين الجنوبيين ، باب الخندق وباب المنشية ، ويشير إلى القلعة التي تقع بين باب الخندق والبحر ، ويصف هذه القلعة وجوانبها المختلفة ويقول ان العصور المتعاقبة قد خلفت اثرها المعمارى على هذا المبنى الفريد الذى يبدو من بعض جهاته ، كأنه حصن حصين معزول عن المدينة كما تقوم في ساحاته الداخلية بعض المباني المخصصة للوالى وحاشيته والقلعة رغم ضخامتها الا انها في حالة سيئة والشوارع التي تؤدى إلى باب المنشية مخصصة لبيع الخضروات والمصنوعات اليدوية التقليدية ، وبالقرب منها تباع المنسوجات الصوفية والاردية الوطنية والاغطية الملونة والبرانيس والحايك المستورد من تونس وبلد الجريد وجربة حيث استقر كثير من أبناء هذه الجزيرة بطرابلس واستوطنوها . ويصف سوق الترك بانه أنظف هذه الشوارع وأكثرها ترفا وأهمية حيث يقوم التجار العرب والاتراك ببيع بضائعهم في متاجرهم الصغيرة ، متحلين بجدية صارمة دون اكتراث باطراء بضائعهم أو الدعاية لها كما لا يقبلون بالمساومة أو تخفيض الاثمان . لا يبالون بالبيع والشراء ، وينفقون اليوم في الاحاديث مع جيرانهم أو زوارهم أو ينصرفون إلى القراءة أو يستغرقهم صمت الاحلام الخاملة منصرفين عن المكان أو المزاحمة التي تطبع الحياة وتغرق اسواقهم بالمنتوجات الاوربية . ويصف الفنادق التي يخزن بها التجار بضائعهم وينزلون بها ويتحدث عن سوق التارزية وسوق الحرارة حيث يقوم اليهود بخياطة وبيع الانسجة المختلفة . ويشير إلى أن الأغنياء والمترفين من سكان المدينة يسكنون في هذا القسم من المدينة في بيوت تشبه بيوت تونس من حيث التصميم وان كانت

تقل عنها روعة . ومن هذا الحى ، ينطلق إلى حومة غريان ومنها إلى الباب الجديد ، وهو الباب الوحيد الذى يؤدى إلى الدواخل وإلى الغرب منه يقع الحى اليهودى (الحارة) ويتفق هذا الرحالة مع أغلب الرحالين الذين زاروا المدينة في التنديد بهذا الحى وضبجيجه وقذارته ورائحته النتنة وشوارعه الضيقة . وإلى جانب الحارة يمتد الحى الاسلامى (باب البحر) حيث تسكن الجالية المالطية التي تركت طابعها واضحا على جيرانها وقد توفر هذا العنصر بكثرة في مدن الساحل الافريقي الشمالى ويقول بان هذه الجالية مشدودة بأوثق الروابط إلى السكان المسلمين وقد لعبت دوراً هاما في حياة وتطور هذه المنطقة. وأغلب المالطيين تجار يتاجرون في النبيذ والتبغ . وانه رغم ازدراء الاهالى المسلمين للعنصر المالطى ولكنهم محتملون لديهم وأن هناك نظرة شائعة في الشمال الافريقي ان المالطيين عرب أفسدهم الدم المسيحى وليس بالمدينة ميادين واسعة ، وبها أزقة عديدة وشوارع ذات اقواس . ويروى نقلا عن بعض المصادر الموثوق بها رقما يتفق مع تقديره لعدد السكان الذين كانوا يبلغون في تلك الفترة حوالى عشرين ألف نسمة . ويقول أن الاهالى قد فضلوا ازاء تزايد عدد السكان الاجانب الانسحاب إلى المنشية التي تشكل منطقة خاصة بهم . ويصف الملابس ويقول أن الطرابلسيين يقدمون مظهرا بدائيا إذا ماقورن بجيرانهم الغربيين الذين يرتدون نفس الملابس ، بأكثر رفاهة ولا يبدى اعجابا بالسروال الرجالى الليبي الذى يعرف في ذلك الاوان باسم (الفارسي) لصلاحيته في ركوب الخيل ويفضّل عليه السروال التونسي الواسع القصير الذى ينتهى عند الركبة . ويتحدث عن (الحولى) ويقول إن أحسن أنواعه في ذلك الوقت هو النوع الجريدى المستورد من بلاد الجريد بتونس الذى كان يتمتع بسمعة كبيرة في أسواق الشمال الافريقي ، بل ان شهرته قد بلغت بورنو . ويلاحظ الرحالة أن نسبة العنصر القولوغلى غالبة على سكان المدينة ، وعلى الرغم من انهم لا يتميزون عن بقية السكان بعد أن جردوا من أمجادهم القديمة التي كانت لهم في

الماضي والتي جعلت مراكز السلطة حكرا عليهم لا ينافسهم فيها أحد من الاهالى الا نادرا ، وعلى الرغم من ذلك فما يزال في نفوسهم اقتناع بالتفوق والامتياز . . لقد آلت السلطة الآن إلى أيدى الضباط الاتراك تحت قيادة الوالى الذى يحمل في العادة رتبة مشير . ويكون انطباعا جيدا عن العناصر التجارية الجربية الاصل التي يقول انها تكاد تشكل جالية تتميز بذكائها وعملها الدائب وجديتها وتمتلك قسما كبيرا من أحسن متاجر المدينة .

وتشكل الجالية اليهودية نسبة معتبرة ضمن السكان ، قد تبلغ في رأيه ربع العدد الاجمالى ، ويفضل أوضاع يهود تونس على يهود طرابلس ، وجمال اليهوديات التونسيات . وحارة طرابلس بقذارتها وروائحها الكريهة لا تقدم أى تعويض في عافية رجالها أو فتنة نسائها . . ويهود طرابلس لا يختلفون عن بني ملتهم من حيث تضامنهم ومساندتهم لبعضهم . . والعنصر الأسود ظاهر بشكل واضح في المدينة وتزيد نسبته على هذا العنصر بتونس ، ويفسر ذلك بالصلة القوية الوطيدة (ببر العبيد) كما يقال قديما وكانت تجارة العبيد قد توقفت في ذلك الاوان بتونس بينما ظلت تمارس في الخفاء بطرابلس على نحو ضيق محدود ، رغم المنع الصارم لها . وعلى الرغم من أن تجارة القوافل قد أخذت في الضعف الا أن العبيد الذين يحضرون ضمن هذه القوافل ، إلى منطقة المنشية بدلا من المدينة حيث يباعون واحدا اثر واحد . فاذا تمت عملية البيع هذه وضعت نهاية لالام هذه الفئة التعسة . حيث يعاملون بأقصى الانسانية ويعتقون . ويقفون بنفس المستوى الذى كان عليه الرق في العهد الروماني في علاقتهم بأسيادهم . وهم ينفصلون عنهم بعد تزويجهم وان كانت علاقتهم بهم لا تنقطع . . ويبحث عن أوضاع الجالية الأوربية أو المسيحية التي يتألف أغلبها من العنصر المالطي الذي يمثل أشد العناصر ايمانا وتعلقا وحماسا للبعثة الكاثوليكية . ومن المعروف أن المالطيين يفدون على بلدان الشمال الافريقي فقراء ولكنهم لا يلبثون الا سنوات قليلة حتى يفلحوا في جمع ثروات طائلة بسبب نشاطهم وجديتهم وذكائهم

وخبرتهم . وهم يختصون بمزاولة التجارة أو ان التجارة تمثل نشاطهم الرئيسي كما يمارسون الزراعة والملاحة والبحرية وتربية الماشية . ويشتهرون بكثرة انجاب الأطفال . وهم يشكلون الطبقة الاوربية الراقية .

ويلتقي في طرابلس بالرحالة الألماني الشهير رولف الذى كان مقيما بها في ذلك الوقت في أحد بساتين المنشية ، يحيط به عدد من الحمير التي كان يستعملها للركوب (فالخيول قليلة في طرابلس والعربات غير شائعة الاستعمال) وأن النوع الوحيد المستعمل في الاغراض الرسمية ، قد قامت بتوريده شركة مالطية وهو النوع المعروف باسم (الكاليص) . . وبيوت المنشية في رأى الرحالة فخمة تشبه تلك البيوت التي تزين ضواحى الجزائر أو منطقة منوبة والمرسى بتونس . .

ويلتقي بفردريك وارنجتن ايضا ، وهو القنصل الانجليزى والابن الثاني لوارنجتن الكبير صاحب الادوار السياسية الخطيرة في تاريخ الولاية في أواخر العهد القرمانللى وبداية العهد العثماني الثاني . وينوه الرحالة بخبرة فردريك وارنجتن بالشئون العربية وأهل السودان وفزان . .

ويقدم لنا الرحالة صورة تاريخية لشخصيتين بارزتين في الولاية في ذلك العهد . اولهما الوالى على رضا باشا الجزائرى الاصل الذى تلقى تعليمه العالى في فرنسا وتدرج في المناصب الادارية والعسكرية التركية حتى بلغ رتبة مشير ، ثم عين واليا على طرابلس وقد كان يحظى بتعاطف وإعجاب السكان بالنظر إلى أصله الجزائرى وقد كان أوثق صلة بهم من الولاة السابقين وكان مهتما بتحقيق التقدم والرقي الا أن الرحالة لا يثق في امكانية نجاحه وان هذه الامال ستتحطم على الصخرة التي واجهت أمثاله ممن تطلعوا إلى تحقيق النهضة حيث يبرز الخديوى اسماعيل مثالا على فشل المشروعات الاصلاحية والتمدينية .

« ان البيت لا يبنى مالم يكن قائما في أساسه على قاعدة صلبة متينة ولا يمكن أن يكمل هذا البناء الا إذا كان متوافقا مع الأعمال والوسائل المتوفرة وأمراء

الشرق وحكامه قليلا ما يهتمون بوجود الاسس ولا يقيمون اعتبارا للوقائع كما تبدو ويبنون قصورا في الهواء على غير أساس وبوسائل هزيلة وبلا تدبر وبلا عون من رجال أذكياء . وكثيرا ما ينهار قسم من البناء قبل تشييد الجانب الثاني منه ويحدث أن يتخلى في هذه الحالة عن المشروع بأكمله لقلة العمال والوسائل .

« ان أغلبهم يفهمون الحضارة على انها المام بسيط باللغة الفرنسية ورغبة في تقليد باريس وشوق إلى تحقيق المظهر الأوربي وفي أحسن الأحوال اقامة شبكة مياه أو اضاءة غازية وخط برقي أو خط من السكك الحديدية وبهذه الانجازات يلقون الرماد في أعين الاوربيين الذين يعيشون بين ظهرانيهم أو السواح الذين يزورونهم وعندما يقرأون في الصحف الاوربية التنويه بهم والمدح الذى دفعوا هم ثمنه إلى هذه الصحف يعتبرون أنفسهم من كبار المصلحين في الوقت الذى لم يكونوا في الواقع سوى مقلدين . ان التجديد الذى لا ينبع من حاجات الشعب وبعون المثقفين ليس سوى مظاهر زائفة لا طائل من ورائها . »

ويتحدث عن شخصية على القرقني ، شيخ البلاد وسيطرته على الحياة السياسية والاقتصادية وما يتحدث به الناس — حينذاك — عن استغلاله وابتزازه ونفوذه الواسع ، وخوف الناس منه وكراهيتهم له . وتشكل شهادة نختجال وثيقة هامة في ملف هذه الشخصية التي هيمنت على مصير المدينة ، وأحاط بها ما أحاط من تهم مختلفة . ويقول انه كان مشمولا بحماية الوالى ذاته على رضا باشا ، (لقد ظل لعدة أعوام أقوى شخصيات المدينة وأحد كبار الملاك بها ، كما كان يملك بواخر خاصة به تعمل بين مالطا وطرابلس وتحمل كل عام هداياه إلى كبار رجالات الاستانة ولم يحدث الا قليلا أن ابتز شعب بمثل الطريقة التي ابتزت بها هذه الشخصية ، تلك البلاد وشعبها وليست هناك وسيلة للتعبير عن الحقد العنيف الذى يحمله له السكان فالموظفون والقضاة كلهم صنائعه وعملاؤه) .

وتتفق المصادر الوطنية والاجنبية على الاشادة بولاية على رضا باشا ، في المرتين الاولى والثانية ، ومحاولاته الصادقة لتطوير البلاد وتحسين أوضاعها وجدير بالذكر أن على رضا باشا هو ابن حمدان خوجه الجزائرى صاحب كتاب (المرآة) وأحد رجال الفكر والاصلاح الجزائريين المعروفين .

وكان على باشا قد تولى ولاية طرابلس في سنة ١٨٦٧ خلفا للوالى محمود نديم . وقد جمع في يده السلطة العسكرية والمدنية . أدخل تعديلات هامة على النظم الادارية بالولاية ، وحاول تحسين الاوضاع الاقتصادية والادارية وبسط السلطة السياسية في المناطق النائية من الشرق . وأسس ناحيتي بومبا وطبرق. وفكر في اقامة مستوطنات في تلك المناطق الشرقية. حسن الاعمال البريدية وأسس سوق العزيزية لمدينة طرابلس وهي السوق التي غرف بها شارع العزيزية عاد من جديد في سنة ١٨٧٢ م إلى ولاية طرابلس ولكنه لم يلبث فيها سوى عام تقريبا ثم غادرها ليخلفه مصطفى عاصم باشا .

وتتحدث الوقائع الطرابلسية أنه في سنة (١٢٨٦ هـ قوى الريح الشرقي وهاج البحر وتراكمت فيه الأمواج فألقت على ساحل الهنشير حوتا عظيما لم ير الراءون مثله ، وكان طوله بحسب الحدس نحو ستين ذراعا وعرضه نحو عشرة أذرع ، فهرعت إليه الناس من كل مكان وقطعوه إربا وأخذ كل واحد ما قدر عليه ومست حاجته إليه . ثم إن الوالى أمر بجمع عظامه بتمامها فجمعت وأرسلها إلى (موزة خانة) بدار السعادة العلية) .

وقد جاء بعد ذلك إلى الولاية محمد حالت باشا فواجه على الفور ثورة الأهالى ضد شيخ البلد (على القرقني) . كما واجه في نهاية ٢٨٨ هـ حالة المجاعة والجذب (وفي أواخر سنة ثمان ومائتين وقع إمساك في الغيث وجدب شديد ومحل عظيم ونقص في الأموال والأنفس والثمرات، فارتفعت أسعار الحبوب وعجزت الناس على الأقوات وفشي فيهم المرض والموت من تناولهم المأكولات

الرديئة ، واشتد الخطب على الرعية ، وجزعت الناس وطاشت أفكارهم وباعت الأغنياء مواشيهم وآلات حرثهم لسد رمقهم فانتدب الوالى وأعان الفقراء بما لم يتقدم نظيره واتخذ مستشفى للمرضى واطعامه لعموم المحتاجين وسمت العرب عامهم هذا (عام الجزر) لأنه كان أكثر غذائهم منه) .

ومن التقاليد التي اتبعها الوالى محمد حالت باشا أنه أمر عند قدومه بنحر أربعة خرفان أمام أضرحة الأولياء الأربعة الواقعة على الطريق المؤدية من الميناء إلى القلعة ثم توجه إلى المسجد واضعا يده في يد أحد الدروايش . وتقول الوثائق القنصلية أنه قد عزل في شهر سبتمبر ١٨٧١ (بسبب سوء إدارته ، إذ أن كل ما فعله خلال توليه حكم طرابلس هو ابتزاز أموال الأهالى لحسابه الخاص) .

وخلفه محمد رشيد باشا الذى لم تطل مدة حكمه ولم يخلف في البلاد أثرا ظاهرا . ثم عاد إلى الولاية على رضا باشا الجزائرى الذى شهدت المدينة والبلاد في فترة حكمه الأول تطورا ونموا واهتماما رسميا بأوضاعها . ويقول عنه أحد القناصل اعتمادا على وثائق قنصليته أثناء ولايته الأولى : (قامت الحكومة العثمانية سنة ١٨٦٩ ، بناء على مقترحات تقدم بها إليها على رضا باشا ، باتخاذ إجراءات هامة رمت إلى تطوير موارد ولاية طرابلس وإحياء هذا الإقليم الواسع الذى طغى عليه التأخر والانحطاط ، ولو قدر لهذه الإصلاحات والتجديدات أن تنفذ على النحو الذى أريد لها ، لكانت كفيلة بإحداث تغير جذرى في حالة البلاد ولترتبت عليها نتائج حميدة) . أما في ولايته الثانية فقد اهتم بتطوير تجارة الحلفاء (واهتم بوضع المراسي في المواقع المقتضية تسهيلا لتناول تجارتها وجعل لها أسواقا ووضع عليها الضرائب) .

وقد تعاقب بعد ذلك عدد من الولاة ، تفاوتت مدد إقامتهم طولا وقصرا ، وقد كان القصر غالبا عليها ، ولذا فلم يخلفوا أى أثر في الحياة المعمارية للمدينة عدا ما قام به سامح باشا من تنظيم سوق الزنايدية وسوق الجبايرة (على

الأسلوب الحديث في غاية الاستقامة والحسن) .

ثم عاد إلى الولاية الحاج أحمد عزت باشا فعمل على تشجيع العمران في المدينة ، واهتم بتطويرها وأنشأ بعض المعالم البارزة بها مثل مكتب الفنون والصنايع ومستشفى الغرباء كما أصلح ما ثلم من الحصون والقلاع وأسس سوق الحميدية . أما خلفه محمد نظيف باشا فقد اهتم خلال هذه الفترة بالناحية الدفاعية في المدينة فأنشئت بعض الاستحكامات في الأماكن المهمة ورممت حصون (برج التراب) وسانية الباشا ووضعت بها مدافع كروب التي أحضرت من الاستانة ودعى الناس لمشاهدتها .

ونشير هنا إلى الرحلات التي قام بها عدد من الرحالين الأجانب الذين زاروا طرابلس ووصفوها واتخذوا منها نقطة انطلاق في مسيرتهم نحو أفريقيا الوسطى وهم حسب الترتيب الزمني .

وهى رحلة (س . هـ . ديكسون) في سنة ١٨٤٩ والتي اتخذ فيها من طرابلس نقطة انطلاق لرحلته نحو غدامس والمناطق الجنوبية . ثم الرحلة التي قام بها الرحالون الثلاثة (ريشارسون واورفييج وبارث في بداية عام ١٨٥٠ . ثم الرحلة التكميلية التي قام بها الرحالة الألماني ادوارد فوجل في سنة ١٨٥٢ . ثم رحلة البعثة الفرنسية ١٨٦٢ . ثم رحلة الرحالة الألماني بارث إلى طرابلس في ديسمبر ١٨٦٤ وعودته إليها في مارس ١٨٦٥ م ثم رحلة الرحالة نختجال سنة ١٨٦٩. ثم رحلة الرحالة الهولاندية الحسناء الكسندرا تنييه ثم رحلة البارون انريكو فون ملتزان سنة ١٨٦٩ وقد أمضى فترة محددة في مدينة طرابلس وجمع معلومات وافرة عنها (ولعل هذه الملاحظات هى أوسع ما نملك من معلومات حول مدينة طرابلس) . ثم رحلة الدكتور ارفن فون بارى سنة ١٨٧٥ ويتفق عهد أحمد راسم باشا والى طرابلس مع عدد آخر من الرحلات وبداية الرحلات الايطالية .

وفي ١٩ فبراير ١٨٨٠ وصل إلى مدينة طرابلس الرحالة الايطالى مانفريدو كامبيريو صاحب مجلة (المكتشف) الايطالية التي تصدر بميلانو ومؤسس جمعية الاكتشافات التجارية في أفريقيا . مُواصلاً بذلك الحلقة التي بدأها بعض الرحالين من أبناء وطنه خلال الفترة الأولى من القرن والتي انقطعت حلقاتها مدة تبلغ ما يزيد على ستين سنة . وقد كان هذا الرحالة من غلاة الدعاة الاستعماريين ومن الذين أسهموا بنصيب وافر في تكوين الروح الاستعمارية الايطالية الحديثة . ورغم الصلات التي قامت بينه وبين الرحالين الكبار في ذلك العصر واتصالاته بهم ، إلا أننا نفتقد في هذه الرحلة روح الرحالة وسعة أفقه وفضوله ، إذ يغلب عليها طابع التقرير واليوميات العاجلة ومرد ذلك إلى أنه كان مهتما بدراسة الجانب الاقتصادى التجارى وما يمكن أن توفره البلاد من إمكانيات للاستعمار والاستثمار . فهو لا يكاد يهتم بالجوانب الاجتماعية إلا عرضا ولا يعرض للحياة العامة إلا مرورا . ومع ذلك فهو يوفر لنا صورة مختصرة عن مدينة طرابلس في تلك الفترة ، بوقوفه عند معالمها وملامحها التي استلفتت نظره . ويصف لنا ميناء طرابلس فيقول : (إن مدخل الميناء ضيق والصخور تضايقه من كل مكان . ولكن الميناء طبيعى ورائع غير أنه غير مأمون ، ويمكن بانفاق نصف مليون ليرة تحويله إلى ميناء آمن بغلق الفتحات التي تتخلل الجزر الطبيعية التي تكون الميناء . كما يصف المنظر البهيج لطرابلس كما تبدو من البحر بنخيلها ومآذنها ومراكبها مما يبعث في النفس انطباعا حسنا عنها . ويذكر لنا أن أجمل منازل طرابلس هى التي تقع في شارع البحر . وليس للشوارع أسماء . إن المنازل بما في ذلك المتواضعة تزدان بالرخام في بلاطاتها وجوانب جدرانها فيمنحها ذلك منظرا أنيقا وهى نظيفة ويجرى تنظيفها أسبوعيا . وقد قام الرحالة بجولة في شوارع طرابلس الرئيسية التي تتميز بأقواسها وينقل ما يتردد من أن هذا الاسلوب الهندسي الجميل قد جرى إدخاله لتدعيم المنازل التي لا تقوم على أساسات متينة . ويرى أن هذه الأقواس تمنح المدينة طابعا فريدا خاصا يتميز

بالأصالة والجمال ويقول : (إن شوارع طرابلس أنظف جدا من شوارع تونس والاسكندرية والقاهرة) وقد سبق له أن زار هذه المدن قبل زيارته لطرابلس . ويصف مقر القنصلية الايطالية في المدينة فيقول : إنه بائس رغم وجوده في مركز المدينة قرب الكنيسة ويذكر من عيوبه (عدم إشرافه على الميناء بحيث لا يمكن مراقبة الحركة البحرية بينما راعت القنصليات الأخرى ذلك الاعتبار الهام في اختيار مقارها) ونفهم من ذلك السر لتلك الأهمية التي كانت توليها القنصليات الأجنبية في اختيار مقارها في منطقة (باب البحر) الذى كان في ذلك الوقت يمثل الحى الدبلوماسي ، ويظهر ذلك ويتأكد من مواقع القنصليات وأسماء الشوارع التي ما تزال تحتفظ حتى الآن بأسمائها القديمة مثل شارع قنصل الفرنسيس وشارع قنصل الانجليز وشارع الاسبانيول .

قام كامبيريو بزيارة النادى الصغير الذى يرأسه اربيب أحد تجار اليهود ، وهو مركز تجمع للطبقة الرأسمالية من الأجانب وموظفي القنصليات . ويقول : إن العنصر الاسرائيلى غالب عليه ، وأغلبهم من رعايا إيطاليا . ويرى أن إقامة ناد أوسع من شأنه أن يساعد على جمع العرب واليهود والمسيحيين الذين يوجدون في حالة عداء دائم ، وهو أمر يؤثر تأثيرا خطيرا على تطور التجارة والصناعة لفقدان روح التجمع والتضامن ، ويعزو هذا الانقسام إلى روح التعصب المسيطرة على اليهود والمسيحيين والمسلمين على حد سواء. وهو بذلك يقدم إلينا صورة عن الجاليات الأجنبية وعلاقتها بالمواطنين في تلك الفترة الدقيقة . ونكتشف من خلال حديثه عن العناصر البارزة من الجالية اليهودية ذلك الدور الخطير الذى لعبته في التمهيد لحركة الاستعمار الايطالى لليبيا . وقد كان هذا الرحالة نفسه موضع تكريم واهتمام من اليهودى اوجينيو اربيب الذى قدم له كافة التسهيلات الممكنة لإنجاح رحلته .

وقد كانت تقيم بمدينة طرابلس شخصيات أجنبية هامة مثل الدكتور كراوس

العالم الرحالة الذى كان رفيقا للرحالة الهولاندية الحسناء (الكسندرا تينيه) التي قتلت بفزان . وهو يقوم بمساعدة من الجمعية الجغرافية في برلين بتسجيل بعض الملاحظات والدراسات العلمية . وقد انفق أعواما طويلة في دراسة هذه المنطقة الهامة من الناحية المتعلقة بالارصاد الجوية والاجتماعية واللغوية ، كما ساهم في التعريف بتاريخ هذه البلاد من خلال الوثائق التي اكتشفها في محفوظات مالطا . وكان يعد العدة للقيام أيضا برحلة إلى السودان الأوسط . وقد جمع معلومات كثيرة من أفواه السودانيين الذين كان يعرف عددا من لهجاتهم ، وهو يعيش مع العرب الذين يتبنى أسلوبهم في الحياة وذلك لإعداد نفسه لهذه الرحلة .

ثم قابل أيضا القنصل البلجيكى (غاليوفي) وهو احد الشخصيات الأجنبية المشهورة بطرابلس ، وكان قد شغل في السابق أيضا منصب نائب القنصل البريطاني بفزان . ورغم أنه كان يبلغ الرابعة والثمانين من العمر ، إلا أنه كان ما يزال يحتفظ بحيويته ولمعانه الذهني وقد كان صديقا للرحالين الكبار من أمثال بارث وفوجل ورولف ونختجال رغم عدم تعاطفه مع بارث ونختجال اللذين أثارا الشك حول صلته بتجارة الرقيق في فزان . أقام في مرزق أربعة عشر عاما ، قام خلالها بخمس رحلات إلى طرابلس ، وهو يعلم بدقة الطرق المختلفة التي تؤدى إلى فزان . وكان من هذه الناحية مرجعا هاما لأمثال كامبيريو ممن كانوا يسعون إلى توفير أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الرحلات التي ينوون القيام بها والطرق التي ينوون قطعها .

وعلى الجملة فإن حسّ الرحالة كان ضعيفا لدى كامبيريو ، فلم يقدم لنا صورة كاملة مستوفاة عن الحياة في مدينة طرابلس في تلك الفترة التي أخذت تشهد فيها نوعا من الاهتمام، من قبل السلطات العثمانية الحاكمة، وهى الفترة التي بلغت أوجها في عهد الوالى أحمد راسم الذى جاء إلى الولاية بعد هذه الرحلة بوقت قليل . وقد كان اهتمامه منصرفا في المقام الأول ، إلى دراسة

إمكانيات الاستيطان الاستعمارى في المناطق الزراعية المحيطة بالمدينة ودواخلها .

ولابد هنا من الوقوف عند عهد هذا الوالى الممتاز الذى كان من أبرز الولاة العثمانيين الذين تعاقبوا على حكم البلاد ، بحكم كفاءته وإخلاصه ومؤهلاته ، وبحكم الفترة الطويلة التي أتيح له أن يقيمها في الولاية والتي مثلت في ذاتها ظاهرة فريدة في تاريخ الولاة ، وخرقا لتلك السنة التي كانت تقضي بتغييرهم في فترات قصيرة ، مما لم يكن يتيح لهم سبيل الإحاطة بأوضاع البلاد وظروفها .

وقد واجه هذا الوالى منذ بداية حكمه ظروفا عسيرة دقيقة ، تمثلت في تلك الأوضاع القلقة المتوترة الناتجة عن احتلال فرنسا لتونس ، وانجلترا لمصر . وانشغال المواطنين في ليبيا بهذين الحدثين الخطيرين ، وما كانا يحملان من نذر ، تتوعد البقية الباقية من الرقعة الإسلامية في الشمال الأفريقي . وقد أحسن الشعب استقبال إخوانه التونسيين النازحين من وطأة الاستعمار الفرنسي ، وقدم لهم العون للاستمرار في الكفاح والنضال ووقف موقف المعارض المندد بالموقف الرسمى الذى اتخذته الحكومة العثمانية بإرجاع هؤلاء النازحين خوفا من الاصطدام بفرنسا . وقد نشطت الحركات الاستعمارية في هذه الفترة ، وتكاثرت أطماع الدول الأجنبية ، وازداد النشاط المشبوه للقناصل المعنيين بمستقبل هذه البلاد ، مما اضطر أحمد راسم إلى الوقوف في وجههم والحد من تصرفاتهم التي تجاوزت الحدود ، وقد كان قنصل إيطاليا ، التي أعلنت عن أطماعها في ليبيا ، بعد سقوط تونس ، من أكثر القناصل الأجانب تحرشا بحكومة الولاية وسعيا لخلق المشاكل لها التي تبرر تدخل دولته وتحمى حقه المزعوم في هذه البلاد . وقد بدأت المصالح الاستعمارية الايطالية تركز لنفسها بأكثر مما فعلت في الماضي ، وأخذت تشجع هجرة وإقامة بعض العناصر الايطالية تمهيدا لإنشاء شبكة من المصالح الاقتصادية التي تمهد لهم سبيل التدخل السلمى أو الحربي في المستقبل وقد حرصت الحكومة العثمانية في هذه

الفترة على تفويت الفرصة على الأطماع الاستعمارية وخاصة الايطالية التي كانت تتذرع باستمرار تجارة الرقيق في طرابلس . وقد تشدد أحمد راسم في تطبيق القرارات الصادرة من الحكومة بمنع هذه التجارة التي كانت تشكل عنصرا هاما من تجارة القوافل في السابق . وشهدت المدينة والبلاد بأسرها عملية متابعة صارمة (وأعطى أوامر مشددة لمن يلزم فلم يعد يجلب منذ مدة شيء من أولئك الأسارى وإن تجاسر أحد على جلب أسير أو أسيرين بصورة خفية فتجرى بحقه المجازاة النظامية) كما قامت الدولة بعتق جميع الأرقاء الموجودين بطرابلس ممن جلبوا قبل صدور المنع وتدبير أمورهم وتقول السلنامة : (أما الأسراء الزنجيون المجلوبون والمبيعون قبلا فيعتقون حالا إذا راجعوا الحكومة ، وتعطى لهم أوراق العتاق كما أن الإناث منهن يوضعن عقب عتقهن في بيت مخصص لهن من البلدية ويطعمن منها ويقمن هناك على صورة الضيافة بقصد وقايتهن من السفالات والحالات غير المرضية إلى أن يزوجن لطالبهن أويعطين لمن أراد بصفة خادمات بالأجرة الشهرية وقد استكملت أسباب معيشتهن وراحتهن على هذه الصورة . .) . وقد كان هذا من الأحداث الهامة التي عاشتها مدينة طرابلس خلال هذه الفترة وقد حاول القناصل استغلال هذا القرار بالتدخل في المشاركة بتطبيقه لإظهار قنصلياتهم بمظهر المحرر المنقذ لهؤلاء البؤساء . ولكن تشدد الحكومة في التطبيق قطع عليهم السبيل .

وشهدت المدينة أيضا حماسا زائدا في الدعوة إلى تحصين البلاد وتجهيزها ضد الأخطار الاستعمارية المتوقعة . وقد اهتم أحمد راسم بهذه الناحية بمساعدة الفريق زكى باشا الذى عين خصيصا لتحسين الأوضاع الدفاعية وإنشاء استحكامات في نقاط مناسبة بداخل المدينة أو خارجها . وقد تحدث النائب عن تطوع الأهالى في عمليات بناء هذه الاستحكامات (وأن أكثر ذوى الحمية من الأهالى يذهبون كل يوم على طريقة المناوبة لمحل الاستحكام الكبير الذى بدىء بإنشائه قبل هذا في النقطة الحاكمة المسماة برج التراب الكائنة داخل

السور ويعاونون العساكر السلطانية فعلا في عمليات البناء للإسراع في إتمام ذلك الاستحكام) وينقل لنا النائب وصف برج التراب الذى كان قائما في الموقع المعروف باسم القبة بباب البحر ، حيث يقوم حاليا خزان المياه في الميدان المعروف بوسعاية البولاقي ، فيقول : (إنه مرتفع على ساحل البحر بخمسين أو ستين مترا تقريبا ، وحقا إنه لنقطة محكمة بنظر فن الحرب . وكان إنشاؤه على ثلاث طبقات في غاية المتانة والرصانة ، ووضعت المدافع اللازمة من مدافع كروب القلاعية الجسيمة في الجهتين اليمني واليسرى ، وجهزت أطرافه بغيرها من المدافع الجديدة) كما أنشئت بضواحى المدينة حصون أخرى منها برج الحميدية وبرج الفرارة واستحكامات المصرى وسيدى منصور وقرقارش والسلطانية. وما من شك في أن هذه الوسائل الدفاعية كانت متخلفة حتى عن أسلوب عصرها وما كان يمكن لها أن تصمد أو تواجه الأساطيل الغازية وما كان من الممكن لهذه الرقعة الساحلية الطويلة أن تحميها أبراج أو حصون متفرقة متناثرة ، ولكنها على كل قد استطاعت أن تمتص إلى حين النقمة الشعبية ضد التفريط في وسائل الدفاع عن البلاد . وعلى كل حال فإن إقامة هذه الأبراج أو ترميمها كان يعبر عن الروح التي سادت المدينة وسكان البلاد ، وبيرز الجو الحربي الذى بدأ يخيم على وجدانها . مما جعلها تعيش في جو من الترقب والحذر والاستعداد .

وقد شهدت ولاية أحمد راسم اهتماما واضحا بنمو المدينة وتطويرها وتحسين أوضاعها ، وازداد النمو في مبانيها خارج أسوار المدينة القديمة يقول النائب : (في ابتداء تشريف حضرة الوالى المشار إليه إلى هنا لم يكن خارج مدينة طرابلس الغرب شيء من الأماكن والأبنية سوى سوقي العزيزية والحميدية المتقدم ذكرهما . على أن أهالى الولاية قد اهتموا من بعد بإنشاء أبنية جديدة خارج البلدة من بيوت ودكاكين وغير ذلك ، وهذا بفضل ما هو حاصل يوما فيوما لهذه الولاية من الاطمئنان والراحة والرقي والاتساع في معاملتها التجارية ، في ظل حضرة صاحب الخلافة الأعظم ، وقد صارخارج البلدة في شكل قصبة

منتظمة أكبر من داخلها في ظرف مدة قليلة كما هو معلوم عند كل من كان موجودا هنا منذ خمس عشرة سنة . .) .

ويقول النائب عن إصلاحاته داخل المدينة : (لما كانت الشوارع والأزقة الكائنة داخل مدينة طرابلس الغرب عارية عن التبليط من القديم ، فقد صرف حضرة الوالى المشار إليه عنايته في تبليط كل جهات البلدة مع إنشاء مجار للماء تحت هذا البلاط تنتهى إلى البحر) .

ومن أهم المشروعات التي نفذها أحمد راسم باشا في المدينة توصيل مياه بئر بومليانة . ونترك للنائب يصف لنا هذا الحدث بأسلوب العصر وطريقته :

(بما أن ولاية طرابلس الغرب خالية من الأنهار والمياه الجارية المساعدة للاستفادة العمومية ، فلأجل تسهيل حصول الأهالى على الماء جعل في كل بيت صهريج تجمع فيه مياه المطر ، إلا أن أكثر هذه الصهاريج لم تكن لتكفي إلى نهاية موسم الصيف ، أى إلى زمن نزول المطر ، فكان أهالى مركز الولاية مثل غيرها من بعض الملحقات المعمورة يضطرون لابتياع ما يحتاجونه من المياه العذبة بواسطة السقائين من الآبار الكائنة خارج البلدة) .

(وكان الفقراء من الأهالى يعانون مصاعب جمة في الحصول على الماء فلما رأى ذلك حضرة الوالى المشار إليه استحسن أن يجلب إلى البلدة ماء البئر المعروفة ببئر (بومليانة) الواقعة خارج البلدة إلى مسافة نصف ساعة إلى الجنوب ، وهى خاصة من القديم باستفادة العموم ، ومشهورة بلذة مائها وغزارته . وعمقها أربعة عشر مترا ونصف . فأمر بزيادة حفر هذه البئر وتنظيفها جيدا في أول الأمر ، وإبلاغ عمق مائها إلى أربعة أمتار ونصف ، وإتقان بناء داخلها وتوسيعه ، ثم أوصى إلى أوربا على آلة بخارية لرفع الماء تعادل قوة أربعة من الخيل فجيء بها ، ودفع ثمنها من واردات البلدية ، ووضعت على البئر ، وأنشأ بإزاء فم البئر غرفتين واحدة للآلة والأخرى لمديرها ، وخزان للماء متين محكم .

مساحته طولا عشرة أمتار وعرضا كذلك . وارتفاعه ستة أمتار . ولأجل إيصال الماء المتجمع في ذلك الخزان إلى البلدة مدت مسافة ألفين وخمسمائة متر أنابيب جيء بها من أوربا أيضا ، قطرها عشرة سنتيمترات ونصف ، وبنيت عين (خزان) في غاية الرصانة والمتانة لتكون مركزا للماء خارج باب الخندق متصلة بالبئر بواسطة مواسير تحت الأرض ، طول العين سبعة أمتار وعرضها ستة وارتفاعها خمسة ، وتسع ٦٢٤٠٠ أقة عتيقة من الماء ، وجدارها من الماء ملاصق لحائط القلعة الحاجز بين باب الخندق المذكور وباب المنشية ، وقد غلفت هذه العين بالحجر المالطى الصلد ، وزينت بنقوش لطيفة منحوتة على هذا الحجر ووضع على كل من أضلاعها الثلاثة أنبوبتان كبيرتان ، وأنشئت حياض صغيرة مستطيلة الشكل في أطرافها من الحجر المالطى أيضا ، وبنيت بها طرق لجريان الماء الزائد إلى البحر ، وتبلطت أطراف العين ، فصار كل فقراء المدينة وحمالو الماء والعساكر السلطانية يأخذون الماء من هذه العين ليلا ونهارا منذ اليوم الخامس عشر من شعبان المعظم سنة ١٣٠٨ ، والكل يثنون على حضرة الوالى المشار إليه ، مردفين ثناءهم بالدعوات الخيرية للحضرة العلية السلطانية من أجل تيسير هذا الاحتياج العظيم .

وقد حضر رسم افتتاح هذه العين حضرة ذى العطوفة محمود أكرم بك أفندى رجائي زاده . أحد أعضاء شورى الدولة ومن أعاظم الأدباء والشعراء ، لما كان هنا عضوا للهيئة التفتيشية ، فأنشأ منظومة تاريخية تركية العبارة ، نقشت على واجهة العين) .

وقد ورد في مصدر آخر وصف الاحتفال بافتتاح هذا السبيل :

. . . اصطف من حول السبيل باحترام طابور من العساكر الملكية وبينما كانت جوقة موسيقية تدق الأنغام الشجية حضر خارج باب الخندق حضرات الباشوات ، صاحب الدولة وسعادة القائد وحضرات رؤساء أعضاء الهيئة

التفتيشية وأركان الولاية والأمراء العسكريون وغيرهم من موظفي الحكومة وهيئة دائرة البلدية وجمع غفير من الأهالى . وبعد أن تلى بالمناسبة من قبل السيد مصطفى بن أبي بكر مفتي الولاية دعاء بليغ بازديادعمر وعافية حضرة ظل الله (؟) وأمن الحاضرون ، صدحت الموسيقى نشيد السلاح وهتف الجنود وكل الحاضرين لله المتعال دعاءهم الواجب الأداء ثلاث مرات ، يعيش السلطان . .) .

وأنشأ أحمد راسم مستشفى للغرباء عام ١٨٨٣ (فوق أساس فندق قديم خرب قرب باب البحر ، وبني على ثلاث طبقات في الطبقة السفلى عشر مغازات لتكون إيراداً للبلدية وفي الطبقتين الوسطى والعليا أربع عشرة غرفة تستوعب مائة وخمسين فراشا) وقد تحول هذا المبنى في أواخر عهد راسم باشا إلى مكتب رشدى عسكرى . وهو ما يزال قائما حتى الآن قرب الزاوية الصغيرة (سيدى يعقوب) وتقرر إنشاء مستشفى خارج الأسوار بشارع .ميزران وتم افتتاحه في عهد الوالى نامق باشا ١٨٩٧ . في الموقع الذى تقوم فيه حاليا (مدرسة) .

كما تم في عهد أحمد راسم إنشاء الرصيف الذى عرف باسم رصيف سوق الثلاثاء وهو حاجز من الأسمنت المسلح يمتد من تحت سور البلدة إلى مرسى الحلفاء (سقالة الحلفاء) على أن يكون طول الرصيف ٧٥٥ مترا ويبدو أن موقعه يطابق الكورنيش الحالى . وقد كان الغرض من إنشائه حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر . كما أنشىء برج الساعة بالمدينة .

وعلى الجملة ، فإن الأثر العمراني الذى خلفه أحمد راسم باشا على المدينة كان بارزا واضحا في كثير من المشروعات الهامة والانشاءات المفيدة . ولا شك في أن أعماله هذه في العناية بالمدينة وتطويرها وتجميلها تسلكه ضمن الولاة الكبار الذين تقدموه في العصور السابقة من أمثال مراد آغا ودرغوت ومحمد

الساقزلى وعثمان الساقزلى ومحمد شائب العين وأحمد باشا القرامنللى ممن خلفوا طابعهم الخاص في الحياة العامة والحياة العمرانية هذا إلى عنايته بالمرافق الأخرى واهتمامه بالشئون الزراعية والاقتصادية والمالية والإدارية والتعليم الذى شهد في عصره قفزة حسنة ونشاطا ملحوظا خاصة في مواجهة التسلل الثقافي الأجنبي الذى ازدادت قوته في هذه الفترة تمهيدا ومساندة للاحتلال الأجنبي . وقد حاول أحمد راسم بكل ما توفر له من إمكانيات محدودة تطوير مرفق التعليم والوقوف في وجه المدارس الأجنبية من إيطالية وفرنسيةوالارساليات التي كانت تسعى إلى اجتذاب العناصر المحلية .

ويتبين لنا أن المدينة قد نعمت في عهد هذا الوالى بفترة طويلة من الاستقرار وشهدت تطورا واضحا في كافة مرافقها ، وازدهرت بها الحياة التجارية والاقتصادية . ولقد استطاع أحمد راسم أن يوفركل ذلك على الرغم من المصاعب والتيارات والمطامع الأجنبية والمشاكل الداخلية والتحركات الأجنبية ، وبداية انبعاث اليقظة القومية بين صفوف الشعب ، وقيام بعض الحركات السياسية التي شغلت الرأى العام الذى كان يتابع بحذر ويقظة المطامع الأجنبية في البلاد ويلح على طلب الإصلاح والاستعداد لمواجهة الأخطار المحدقة والتي أخذت تتأكد بإقدام فرنسا على احتلال تونس وبريطانيا على احتلال مصر .

كما يقدم لنا الرحالة الحشائشي هذه اللمحة عن مدينة طرابلس فيقول عن أهلها : « طباعهم تميل إلى البداوة أكثر من الحضارة وهم على كمال بشرى في أنفسهم وأغلبهم يميلون إلى التجارة خصوصا في هاته السنين الأخيرة فلهم متجر عظيم مع أهل السودان من برنو ووادى والشاد وغات وغير ذلك » .

ولا يميلون إلى الغرباء في أول الأمر وقد ذكرت هذا في رحلتي لكن

تحققت بعد ذلك أنهم إذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم وصدق الله تحقيقي هذا ببيتين من الشعر وجدتها ببعض التقارير للفقيه أبي الحسن :

لاهــل طــرابـلس عــادة من البر تنسي الغريب الحميا
حللت بها مـكرها ثم إذ أقمت بها أبــدلوا الهاء ميا

وقول التجاني :

سقى ربوعك يا مغنى طرابلس حيا يحييك منه كل منبجس
فكم يد لك في تأنيس مغترب شطت به الدارعن أنس وعن انس
اقمت فيك على حكم النوى زمنا كأنني فيه للسلوان في عرس

أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة كما لا توجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الاسلام ، على أن هاته المدينة اشتهرت بأكابر من علماء الامة المحمدية كالفقيه أبي على الحسن ابن موسي بن معمر الهوارى الطرابلسي ، كما مررت له ترجمته هو وغيره من الأكابر .

وفي رمضان سنة ١٣١٣ ﻫ (١٨٩٥ م) دخلت جامع السوق داخل البلد وهو جامع بهيج عليه رونق عظيم فوجدت كثيرا من أعيان الترك من ضباط وغيرهم كل منهم جالس على ركبتيه بخشوع وتؤدة ووقار يسمعون في كلام رب العالمين من جود عالم بالتلاوة مصرى له صوت حسن كأنه من مزامير آل داود . وفي أحد أركان الجامع من الجهة القبلية وجدت العالم الفاضل التحرير المنعم الشيخ محمد بن مصطفى باشا مفتي السادة الحنفية يقرى الحديث الشريف متن الشفا للقاضي عياض وعليه حلقة عظيمة من أعيان البلاد وغيرهم وهو على اسطبل من اللوح عال على الأرض بمقدار يسير تراه أعلى من جميع من دار به من السامعين . وهاته عادة جلوس المدرسين عندهم الا أن الكراسة لا تنقطع

من يده وهو أول مشهور بالعلم هناك إلى أن تم درسه قبل المغرب بساعة . وفي مدة اقامتي بهاته المدينة رأيت أوباش البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون معهم باللغة الطليانية .

وأكثر الاوربيين بها طليان .

والبلد القديم بناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس الا اماكن الافرنج فانها على الشكل الاورباوى .

أما هواء البلد فهو معتدل ليس برديئ وتوجد به الحمى في زمن الصيف .

أما لحوم البلد وفواكهها وغلاتها فجميعها طيبة ، وفيها من كل ماخلق الله لعباده من أصناف النعم بثمن متهاون ويعظم فيها الدلاع (البطيخ الأخضر) إلى أمر عظيم بحيث أن الجمل لا يمكنه حمل دلاعتين الا بمشقة وهو في غاية الحلاوة مع لذاذة الطعم .

ويأتيها من اوربا غالب السلع التي تأتي إلى بلد تونس ويخرج منها القمح والشعير والبقر والغنم والصوف والتمر وبعض الغلال كالبردقان والليم الحامض والحلو والفلفل الاحمر الشايح والحنا وسلع السودان كالجلد المسمى بالرقعة وريش النعام وناب الفيل وغير ذلك . وهاته السلع الخارجة ليس عليها ضرائب دولية الاشيئ قليل وجميع ما يأتيها من السلع برا مع القواقل السودانية وغيرها لا يؤدى شيئاً من الضرائب .

وغالب تجارها من أهل البلد وبعض من المالطيين واليهود ، ولا يوجد فيها بانكه مالية في وقت حلولى بها ولا طرق من الحديد ولا معامل اوربية نارية ولا قهاوى منظمة على الشكل الاوربي . وهى ما زالت بعيدة عن التنظيمات الاوربية والتحسينات .

أما الفلاحة في هذا البلد فتنقسم على قسمين القسم الأول أصحاب البساتين الكبيرة والاراضي المجاورة إلى البلد يعني أحواز طرابلس وأصحاب

الآبار والمياه فان هؤلاء يتقنون الفلاحة ويخدمون الارض جدا واما العرب والعروش البعيدة عن البلد وهم القسم الثاني فليسوا بأصحاب حزم وكد لا يخدمون الفلاحة على أصلها مع أن أراضيهم جيدة في غاية الخصب لكن يميلون إلى المتاجر أكثر مما يميلون للفلاحة على عكس أهل بني غازى كما سنعرف (انشاء) الله في هذا التاريخ .

الحالة العسكرية بهاته المدينة ينقسم حال الجيش إلى قسمين اما ما كان من رتبة شاويش إلى رتبة أمير أمراء فانهم على أكمل حال وأتم منوال يأكلون الطيبات ويسكنون الغرف الرفيعة وفيهم ذوات العيال بكثرة ومرتباتهم جارية يميلون إلى التنزه كالاوروبيين ويلبسون اللباس الفاخر وحريمهم في غاية التستر لا ترى من جسم المرأة أنملة مع العفة والديانة وغالبهم يحسنون التكلم باللغة الافرنسية . أما العساكر فحالتهم دون ذلك ومرتباتهم ليس جارية على أصلها في ذلك الوقت .

وفيها من العساكر في ذلك التاريخ سنة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥ م) ما ينيف على الثمانية الاف جندى تامة العدد والعدد وقيل لى أن جميع مراسيها كلها محصنة بالالغام البحرية بحيث لا تجوز سفينة كبيرة الابـدليـل . وما أبهج نظام تلك العساكر العثمانية خصوصا عندما تكون الموسيقي السلطانية تصدح بنغماتها الشجية في أدواح المنشية والضحى ينشر نسيمه العليل على أفنان الشعاب ذوات الظل الظـليل وثغر طرابلس في ابتسام والربيع ضارب أطنابه بأريافها وعلى الدنيا السلام . .

حالة مرساها :

ومرسى البلد ليس بمرسى صناعى بل تقف فيه السفن قريبة من البر وان اشتد البحر يصعب النزول من السفن على الركاب . ولما كنت هناك وجدت بمرساها مدرعة واحدة للعثمانيين وبابورين للبوسطة أحدهما فرنساوى والآخر

طلياني وكان الطلياني متوجها إلى تونس وهو الذى حملني إلى مسقط رأسي .

ويوفر لنا الرحالة كوبر ضورة شاملة عن مدينة طرابلس التي زارها أثناء رحلته التي تمت بين ١٨٩٥ — ١٨٩٦ . ويلاحظ الرحالة منذ البداية أن هذه البلاد لا تحظى إلا بالقليل من الاهتمام في هذا العصر حتى بين أولئك الذين يهتمون بتجارة البحر الأبيض المتوسط أو الذين يبحثون عن المتعة في مياهه الزرقاء .

موقع مدينة طرابلس :

(فإذا نظرنا إلى الشرق رأينا خليجا واسعا يسبح في نور الشمس ، يظهر وراءه امتداد أرضي يحفل بالنخيل ، ووراء السطوح البيضاء في الجزء الغربي من المدينة يمكننا أن نتبين بالعين المجردة ساحلا رمليا أصفر يتجه إلى الجنوب الغربي تغسله أشد الأمواج زرقة ، وإلى الغرب من ذلك وخلف الزرقة ، يمكننا أن نتتبع خطا منخفضا من السواحل الصحراوية التي تختلط بعض الاختلاط بالسراب وهكذا فنحن نرى البحر من رأسين أرضيين شرقا وغربا .

أما إلى الشمال مباشرة فإننا نجد المدينة مبنية على أرض مرتفعة ، ولا نرى البحر . والفنار الذى يقع في برج التراب يمثل مركز الجهة . ونجد إلى الشمال الشرقي لمحة من قلعة المندريك التي تسمى أحيانا القلعة الاسبانية وهى تقع على رأس أرضي بارز يحمى الميناء . ومع أن هذا الرأس هو في الواقع جزيرة إلا أنه كان في وقت ما يشكل مع الحاجز الصخرى في الجهة الشمالية الغربية جزءا كاملا عاليا وجافا مرتبطا بالمدينة . ولا شك في أن هذا الرأس الأرضي الحامى هو الذى كان السبب في إنشاء المدينة هنا) .

القلعة :

(هنالك أمر يجب علينا أن نلاحظه ، وهو هذا القصر الذى يرجع إلى

الزمن الذى وقعت فيه المدينة بيد المسلمين ، وهو يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة ، ويشرف على المواقع المحيطة به من عل ، ويلوح أنه مبني فوق كتلة صخرية ناتئة من البحر) .

موقع المدينة قبل الفتح :

(وأما موقع المدينة قبل الفترة الإسلامية العربية فيظهر أنه كان فوق هذه الكتلة الصخرية ذاتها ، ولكن ليو الأفريقي يذكر أن الأخبار كانت تشير إلى أنها كانت تقع إلى الشمال . مع أن الكتاب ناقشوا ذلك مؤخرا قائلين : إننا لا نجد وراء الحاجز الصخرى في الشمال الغربي غير الماء العميق . ولست أظن أن تلك الأخبار تعني أن المسافة إلى الشمال كانت كبيرة ، ولعل هذه الصخور كانت في وقت ما متصلة بالبر ، وتم إنشاء المدينة عليها وهنالك أيضا دليل على أن المدينة كانت تمتد إلى الغرب على طول الساحل . وإذا كانت كذلك حقا ، فلابد أن أويا القديمة كانت بلدة صغيرة جدا لأن الوصف التالى لفتح العرب لها يظهر أن المرتفع الذى تنهض عليه القلعة الآن كان منفصلا عن أسوار المدينة في الجنوب) .

يرى بعض المؤرخين أن المرتفع الذى عسكر عنده الفاتحون العرب هو مرتفع الظهرة ، وليس المرتفع الذى تقوم عليه القلعة كما ظن كوبر . ويرى آخرون أنه المرتفع الذى يقوم بالقرب منه سيدى الشعاب . وتذكر النصوص العربية أن عمرو قد عسكر بجنوده على قمة مرتفع يقع إلى الشرق من طرابلس . وقد ظل وصف هذا المرتفع يتردد حتى في الوثائق التالية ، ويمثل مركزه خطرا على المدينة ، وقد أشارت إليه الوثائق الاسبانية المالطية واستعمله الأتراك في هجومهم لاسترداد مدينة طرابلس .

أما كوبر فيرى أن هذا المرتفع الذى عسكر عنده عمرو هو المرتفع الذى تقوم عليه القلعة حاليا حيث كان في وسعه أن يرى جنوده السبعة الذين تسللوا

من الجزء الذى يسمى الآن حومة باب البحر ، والذى بدوره مرتفع أيضا .

القلعة وما حولها :

(كان العرب شعبا عسكريا ، وليس شعبا بحريا ، قد رأوا أن قلعة عظيمة هى كالميناء في أهميتها ، إن لم تكن أهم ، ولذلك فقد حصنوا المرتفع الذى كان شديد النفع لهم ، وأصبح هذا الحصن نواة لمدينة إسلامية سرعان ما ارتبطت بالمدينة القديمة ، وهكذا نرى الجامع الكبير والأسواق والأحياء المسلمة حول الحصن حتى هذا اليوم . .) .

شكل مدينة طرابلس وأسوارها في ١٨٩٥ :

(ومدينة طرابلس مبنية بشكل مثمن ، والجهة التي تقابل البحر إلى الشمال الشرقي تمثل أطول الأضلاع ، ويشتمل على بروزى القصر وقلعة المندريك ، ويبلغ طول المدينة شمالا وجنوبا ١١٣٠ ياردة مقيسة بالخطوات وعرضها ٨٧٠) .

(وطرابلس محاطة بأسوار عالية تماما ، وهذه الأسوار هى في حالة سيئة متداعية ، كما هو الأمر في أى مدينة تركية . ولها أربع بوابات ، وفيها ستة حصون كبيرة ، وأربعة صغيرة بالإضافة إلى برج المندريك وبرج القلعة فإذا بدأنا بالشمال الشرقي ، وجدنا باب البحر ، وبالقرب منه رصيف صغير ودائرة الجمارك وسوق السمك . وعلى هذا الباب تاريخ عربي هو ١٠٢٢ هـ ويشير ذلك إلى أن هذا الباب كان قد شيد أو أعيد ترميمه قبل ٢٩٠ سنة تقريبا. وهناك أسفل ذلك عند الرصيف ، لوحة نحاسية صفراء يقال إن كل من يطأها حين يغادر طرابلس لا بد أن يعود إلى المدينة فيما بعد . .) .

وهنالك ، بعد ذلك بناء مربع صغير يشتمل على سوق السمك تجد فيها دائما أغرب أنواع السمك . .) .

سلسلة المقاهى :

(وهنالك بين هذه المنطقة والحصن الشمالى الشرقي وبداية رأس الأرض المشتمل على قلعة المندريك ، سلسلة من المقاهى والأبنية الأخرى المشيدة عند الجدار الذى إلى اليسار . بينما تقبع على الساحل قوارب سفنج يونانية موضوعة على الأرض لإصلاحها . وهنالك يقوم أيضا هرم من الفخار الأبيض فيه قطع وأوعية بأحجام ضخمة ، وتصنع هذه القطع في جزيرة جربة وتصدر منها) .

برج أبي ليلى ومنطقة البياضة :

(ولا يمكن للخيال أن يتوصل إلى ماهو أجمل من البحر والصخور في هذه الناحية من المدينة ، فالماء صاف نظيف ، ومن الممكن رؤية الصخور من مواقع عديدة تغطيها النباتات البحرية إلى أعماق بعيدة . وتنوع الألوان في هذه الجنة الكامنة تحت الماء حين تنعكس عليها الشمس الساطعة يكاد يكون مدهشا وبينما يوجه صاحب الزورق زورقه بك عبر الصخور نحو برج أبي ليلى يخيل لك أنك تسمع بين أصوات الأمواج الصاعدة الهابطة بين الصخور همسات واهات حوريات البحر) .

حصن الباب الجديد :

(والحصن الثاني مثمن ويقع في وسط الناحية الغربية مشتملا على الباب الجديد . ولا بد أنه قد كانت هناك بوابة في ذلك المكان باستمرار ، أو منذ اتخذت المدينة شكلها الجديد . وأظن أن البوابة قد أعيد إنشاؤها في زمن ما إلى الغرب قليلا من موقعها الأول ، لأن هنالك بالقرب من القلعة الشرقية بعض الآثار التي تدل على وجود بوابة في ذلك المكان في زمن من الأزمان) .

(ومن القلعة الشمالية الغربية إلى الباب الجديد ، يوجد هنالك خارج

السور منخفض يلوح أنه يمثل خندقا قديما ، ولكن لا يوجد من هنا إلى ما حول الجهتين الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية ، أي خندق . مع أن الأرض تمتلىء دائما خلال الشتاء والربيع ببرك الماء الآسن الذى يزخر بالضفادع . وقد كان هنالك في الماضي خندق دائرى . وأما البوابة الرئيسية عند القلعة فهى باب الخندق . ويصف التجاني كيف أن السكان حفروا في بداية القرن الرابع عشر خندقا يحيط بالمدينة ، وكانت المحاولة الأولى هى من الزاوية الجنوبية الشرقية ولكن العمل جابه صعوبات كثيرة بسبب هبوب العواصف الرملية التي كانت تملأ الحفر بسرعة) .

البوابات :

(وهنالك في هذه الزاوية الجنوبية الشرقية بوابتان متجاورتان أكبرهما هى البوابة الغربية من القلعة التي تسمى باب الخندق كما ذكرنا . والبوابة الملاصقة لها من الناحية الغربية مزدوجة . وتوجد أيضا سوق يبلغ طولها ستين خطوة بين الباب الخارجى والباب الداخلى . وتسمى هذه السوق (فم الباب) . والمادة الرئيسية التي تباع هنا هى الحبال . .) .

الشوارع :

(والذين يألفون المدن العربية ، خاصة مدن المغرب ، يدهشهم أن يروا العدد الكبير من الشوارع يتصف بالاستقامة بل إن هناك قسما واحدا فقط من المدينة يسمى الحارة ، حيث يعيش اليهود ، يتصف بتشابك الطرق والتوائها . وقد لاحظ التجاني هذه الحقيقة فشبه تخطيط المدينة برقعة الشطرنج) .

أحياء المدينة :

(وتنقسم المدينة إلى أربعة أحياء ، تسمى حومات . ويطلق عليها

بالتعاقب حومة باب البحر ، وحومة البلدية ، وحومة كوشة الصفار ، وحومة غريان . والحومة الأولى هى القسم الشمالى الغربي من المدينة ، وتشتمل على شارع قهوة دحمان ، ويعيش فيها اليهود والمالطيون والشرقيون . ويقع جزء من الحارة الكبيرة أو الحى اليهودى الواسع في هذه الحومة . وكذلك القنصلية الانجليزية والقوس الرومانية القديمة (مخزن الرخام) وجامع قرجى وجامع سيدى سالم . وتحتل حومة البلدية القسم الشرقي من المدينة من باب البحر إلى أسفل ، وتمثل منطقة الأعمال ، ففيها الأسواق الرئيسية والحمامات وجوامع أحمد باشا وشايب العين ودرغوت والخروبة والدروج والناقة ومركز البلدية والقنصلية الايطالية وميدان الوسعاية ومدرسة عثمان باشا . وإلى الغرب من ذلك تقع حومة كوشة الصفار التي يسكنها المسلمون والتي تخلو من المباني العامة ، وهى حومة هامة نظيفة منظمة ، بينما تحتل حومة غريان القسم الجنوبي من المدينة ممتدة من الحارة الكبيرة إلى القلعة الجنوبية ، وقسم من هذه الحارة يتصل بالباب الجديد ، ويدعى الحارة الصغيرة ويسكنه اليهود .

سكان المدينة :

(إن العرب يؤلفون العنصر أكثر أهمية في المدينة ، وليس هذا بالأمر الذى يدعو إلى الأسف لأنهم مع عدم إتقانهم الصناعات التي يتقنها اليهود والمالطيون واليونانيون إلا أنهم أشد من هؤلاء شخصية واحتراما ونبلا ، وشوارعهم أنظف وأقل عفونة ، بحيث إن السائرين يختارون شوارع الأحياء العربية ويفضلونها على شوارع اليهود والمالطيين) .

الأجناس :

(نجد بين المؤمنين في طرابلس الغرب أصحاب الأردية البيضاء ، وجوها تنطق بالأصل البربرى ، كما نرى أيضا وجوها تنطق بالأصل العربي ، أصل بني مكة ، ثم إن حياة المدينة تتشبع باستمرار بقبائل سلاسل المرتفعات وفزان ،

وكذلك نشأ جنس مختلط بالزواج من زنوج السودان ، وهكذا فنحن لا نجد جميع الأجناس وحسب بل نجد أيضا كل فرع وكل لون) .

(إننا نجد عددا كبيرا من الزنوج الحقيقيين بسبب تجارة العبيد ، وتجارة الحلفاء التي يشتغل فيها الزنوج . وهؤلاء الناس هم أسعد الطرابلسيين وأشدهم فرحا وغبطة وخفة فهم يضحكون ويرقصون ويغنون طول العمر ، بعكس إخوانهم المسلمين الآخرين العابسين . وهنالك الفزانيون والطوارق البدو) .

(وحين يظهر أبناء الصحراء المترفعون ، هؤلاء يستطيع الناس أن يميزوهم بسهولة من ملابسهم الملفعة المقنعة البيضاء ، وتكبرهم ومشيتهم المتحدية وعصيهم الطويلة التي تشبه عصي ضباط الفرق الموسيقية ، بحيث إن الذى يصادفهم في الطريق لا يلبث أن يلتفت إليهم معجبا باختيالهم وزهوهم ومظاهر العنف والوحشية المحيطة بهم) .

المسيحيون :

(ولا يستطيع أحد أن يكتب شيئا عن طرابلس ، بدون أن يتطرق إلى المسيحيين الذين لا يقلون أهمية عن غيرهم من السكان . ومع أننا نجد بينهم اليونانيين والايطاليين وحتى بعض السوريين ، إلا أن أغلبهم من المالطيين ، بحيث أنهم الوحيدون الذين يستحقون الذكر .) .

(ويسكن المالطيون في الجزء الشرقي من المدينة ، ويحد منطقتهم من الشمال والجنوب ، شارعا قهوة دحمان وأربع عرصات . وأما من الغرب فتحدها الحارة . وفي هذه المساحة نجد أيضا القنصليات الانجليزية والايطالية والفرنسية والكنيسة والميدان أو الوسعاية) .

(والمالطيون هنا لا يختلفون عنهم في أى مكان آخر، فهم نشطون مقتصدون متباينون متنازعون قذرون . وترتدى النساء لباس الرأس (الفالديتا) وهن بشعات كما هو مألوف في المالطيين دائما . وقد كانت هنالك دائما أعداد

كبيرة من المالطيين في طرابلس التي كانت في يوم من الأيام تتبع حكم القديس يوحنا . ومع أن هنالك عددا كبيرا من المالطيين الذين ولدوا في طرابلس ، ألا أنني لا أظن أن هنالك بينهم إلا القلائل ممن لا يريدون أن يعودوا . يوما إلى جزيرتهم الجميلة ويمكنني أن أقول : إن السوق المالطية هى الشارع الذى يمر بالقنصلية البريطانية والقوس الرومانية إلى باب البحر . وهذا الشارع (أى شارع المالطيين) لا يقل قذارة وعفونة عن الحارة في بعض أجزائه . .) .

(وتقع الكنيسة الكاثوليكية في مقابل نهاية الشارع الذى يسمى أحيانا شارع حوش قنصل الانجليز وبالقرب من الميدان . .) .

ويقدر الرحالة عدد المالطيين بثلاثة آلاف نسمة والايطاليين بألف نسمة ويقية المسيحيين بحوالى مئة أو مئتين .

على أن أهم الشهادات التاريخية التي تسجل من هذا الرحالة لمدينة طرابلس ، هى شهادته لها بالتسامح الديني وهى الشهادة التي تضاف إلى ما سبق أن سجلته المس توللي في يومياتها في العهد القرمانللى :

(جميل أن ينتقل المرء من الحالة التي يعيش فيها المسيحيون في آسيا الصغرى ، إلى طرابلس ، إذ يجد هنالك في الامبراطورية ، بعض المناطق التي يعيش فيها أبناء ديننا في دعة واطمئنان والتي نرى فيها كنيسة مهمة ترتفع وسط المدينة ، وتشرف على كل ما يحيط بها . فمسيحيو طرابلس أحرار تماما . وربما ستكون هذه الكنيسة عند إكمالها أبرز بناء داخل القلعة رغم أنها قد لا تكون أشد الأبنية أهمية .

بل إذا أراد المرء حقا أن يعرف كيف يعيش المسيحيون في طرابلس فعليه أن يذهب إليها في عيد الفصح لأن الكاثوليك يحولون المدينة إلى شعلة ملتهبة بالألعاب النارية في هذه المناسبة ، ويطلقون مدافع المورتار كل ساعة تحية للعيد

من ثمانية عشر أو عشرين مدفعا في الميدان .

ويقال إن هذه العادة نشأت من عادة تحية الباشا الذى كان يزور الأسقف رسميا حين كان يمثل البابا . وكانت الحكومة هى التي تخصص البارود لإطلاق القذائف ، إلا أنها الآن لا تفعل ذلك . ولكن الباشا والموظفين الأتراك يقومون في هذه المناسبة بزيارة القناصل الأوربيين . والمسألة هنا هى : أين هو التعصب التركى ؟ وهل سنسمح نحن في انجلترا برقصة الأشباح يقوم بها الهنود الحمر أو باستعراض للمرابطين في أوسع ميادينا ؟) .

الجنود الأتراك :

(إن طرابلس اليوم تعج بالجنود الأتراك ، وهم يشكلون منظرا غريبا حقا ، فهم قذرون لم يغتسلوا منذ زمن ، ولم يمشطوا شعورهم ، وملابسهم مزق ، وأقدامهم في أحذية منشقة ، ونعال بالية ، يتمددون حول بوابة المدينة كأنهم رمز حقيقي لامبراطورية متداعية . ومع ذلك وبالرغم من الرواتب القليلة والملابس المهملة فإنهم يلوحون سعداء مغتبطين دائما ، يضحكون ويتصارعون كصبيان المدارس الكبار ، أو يتجولون متشابكى الأيدى في البساتين . إن الجندى التركى أينما رأيته وخاصة في طرابلس مثير للاشفاق . .) .

الجوامع الرئيسية :

(الجوامع الرئيسية في المدينة هى عشرة ، أما المظاهر الهندسية فيها ، فهى قليلة . والمآذن القليلة التي تبرز من متاهة السطوح البيضاء متعددة الزوايا أو مستديرة ، ولا ترى فيها الزخارف الدقيقة التي تراها في مآذن القاهرة أو الألوان الساطعة التي تخلب الألباب حين ينظر المرء إلى الأبراج المربعة المرصوفة في تونس والمغرب ، وتنهض هنا وهناك في الزوايا الصغيرة مآذن مربعة أيضا ولكنها عديمة النقوش كالمآذن الكبيرة) .

وهذه الجوامع هى جامع أحمد باشا ، جامع شايب العين ، جامع درغوث ، جامع محمود ، جامع قرجى ، جامع الناقة ، جامع الخروبة ، مدرسة عثمان باشا ، جامع سيدى سالم ، جامع الدروج .

سوق الترك وبقية الأسواق :

(وهى سوق تركية مستقيمة ، يستطيع المرء أن يشترى فيها كل شىء ، وفيها دكاكين ذات واجهات زجاجية ، ولكن طبيعة السوق شرقية عموما مع أن أغلب الحاجيات المعروضة للبيع هى أوربية الصنع . أما الذين يريدون أن يروا سوقا شرقية حقا فيجب عليهم أن يسيروا في هذه السوق حتى يصلوا إلى نهايتها الجنوبية ، ليجدوا أنفسهم في سوق الربع أو السوق المسقوفة المحيطة بالجامع الكبير . فهنا يجلس الباعة العرب في زواياهم الصغيرة ويبيعون الحوالى والبرانس . ولما لم تكن السوق لتشتمل إلا على الأزياء الوطنية فإن المشهد فيها هو شرقي دائما .

وهنا يأتي الحاكة الطرابلسيون ببضاعتهم . والحق أن هذه السوق هى سوق البضاعة بالجملة ، وحين يجرى المزاد العلني فإن المشهد يكون مثيرا للاهتمام ، إذ يركض النساجون وهم يحملون الحوالى على أكتافهم ويصرخون معلنين آخر العطاءات (سبعة وأربعون ، أربعة وستون قرشا إلى غير ذلك) .

وتنقسم السوق إلى قسمين سوق الربع القديم وسوق الربع الجديد .

أما بقية الأسواق فهى :

١) سوق الخروجية أو البقالة قرب فم الباب
٢) سوق الحلقة حيث يصنع المسلمون الأردية .
٣) سوق الفنيدقة حيث تنسج الأردية النسائية .

٤) سوق الحرير وتنسج فيه الأردية الحريرية .
٥) سوق الحرارة وتباع فيه الأقمشة والمنسوجات .
٦) سوق القزدارة وتصنع فيه الأواني النحاسية .
٧) سوق الحدادة .
٨) سوق النجارة .
٩) سوق الخبز .
١٠) سوق الخضرة .
١١) سوق البنادق .
١٢) سوق النعال (البلاغجية) .
١٣) سوق الصياغة وتباع فيها المصوغات الذهبية والفضية .

هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية الكبيرة المعروفة بآسم سوق الثلاثاء .

انطباع عن طرابلس :

(إن طرابلس ، بين مدن الشرق ، هى تحت حكم معتدل طيب ، وأهلها قانعون راضون . وقد تكون التجارة رديئة حقا . والنقود قليلة . ولكن المناخ مناسب . والشمس مشرقة دائما ، والناس الطيبون راضون بحياتهم الحالمة الوادعة ، غير متأثرين بالأمور التي تقلق بال حضارة القرن التاسع عشر . فلماذا نعكر عليهم صفوهم ؟ إن طرابلس ومدينتها التركية الجميلة ، وشوارعها الشرقية الزاهية لتفضل ألف مرة من الناحية العاطفية المدن المزيفة : القاهرة وبيروت وتونس التي تقوم فيها الشوارع الحديثة والفيلات الأوربية وصالونات القمار التي تزاحم الأسواق الشرقية الأصيلة الغافية) .

وجاء بعد أحمد راسم ، نامق باشا الذى استمر على الاهتمام بالتجهيزات العسكرية ووجد صعوبة في فرض التجنيد الإجبارى على بعض الجهات ، ولكنه نجح إلى حد كبير في برامجه الخاصة بالتدريب العسكرى . ومن الانشاءات

الهامة بالمدينة التي تمت في عهد نامق باشا تأسيس مدرسة الفنون والصنائع التي أسهم المواطنون بتبرعاتهم في إقامتها . كما عمل هذا الوالى على تأمين موارد أخرى من المياه للمدينة ونقل إليها مياه عين زارة . كما شهد عهده ازدهارا في الحياة الصحفية والثقافية إذ صدرت في مدينة طرابلس جريدة الترقي لصاحبها الشيخ محمد البوصيرى ومجلة الفنون لصاحبها داوود أفندى وقد حملت هذه الصحف لمحات من الروح الثقافية التي كانت سائدة لدى المثقفين في ذلك الوقت وعبرت إلى حد ما عن المشاكل والقضايا التي كانت تشغلهم وأسهمت بشكل واضح في تطوير الحركة الثقافية والفكرية في البلاد .

وفي عهد الوالى حافظ باشا تصاعدت المجابهة للمخططات الاستعمارية الأيطالية بالسعى إلى كسب ود الأهالى وقطع الطريق على التدخل الايطالى والعمل على التنظيم الادارى وتطوير التعليم الذى شهد في عهد هذا الوالى دفعة إلى الأمام إذ أسس دارا للمعلمين ومدرستين كبيرتين وكبر مدرسة البنات وأسس مدارس ابتدائية أخرى في الدواخل وأكمل بناء مدرسة الفنون والصنائع وألحق بها مدرسة أخرى للبنات وجلب لها الخبيرات يعلمن صناعة السجاد .

وفي ولاية حافظ باشا وقع في مدينة طرابلس كسوف كلى سنة ١٩٠٠ . وتقول مبل تود زوجة رئيس البعثة الأمريكية التي جاءت لرصد هذا الكسوف في وصف هذا الحدث : (فعج كل سطح في المدينة بالناس ، من عرب ومالطيين ويهود وجنود أتراك على ظهور متاريسهم ، ورهبان فرنسسكانيين في مكان تريضهم العالى وازدحمت حتى الآن) .

وقد زار طرابلس خلال الفترة الواقعة بين ١٩٠١ ـــ ١٩٠٢ وفي عهد الوالي حافظ باشا ، الايطالي جوستنيانو روسي ، وألف رحلة بعنوان (تونس وطرابلس اليوم) وقد فضل قبل أن يغادر السواحل الافريقية أن يزور طرابلس (التي تتجه اليها ايطاليا بمطامحها بعد اخفاقها في الاستيلاء على تونس) . . .

ويقرع هذا الكاتب طبول التحذير من ضياع هذه الفرصة على ايطاليا ، ويخشى أن يضيع حديثه ، وحديث أمثاله في لجج النسيان . وقد وصل طرابلس ، في فجر أحد الايام الجميلة ، قادما اليها من صفاقس بطريق البحر فبدت له كأنها خارجة لتوها ببياضها الناصع من زرقة البحر . انها تبدى نفسها بطريقة جيدة وباعثة على اغراء من يتأملها من البحر ، بمنازلها البيضاء ومآذنها وبقلاعها الواهية وبخضرة واحة النخيل التي تحيط بها أشكال وحركات وألوان تعطي لهذه المدينة مظهرا أنيقا ساحرا ، ولكنك ماتكاد تحل بها حتى تصاب بالخيبة المريرة التي يصاب بها أغلب زوار المدن الشرقية ، فذلك الاطار الجميل الذى تبدو به على البعد سرعان ما يتلاشى لتحل به الحقيقة السافرة بكل قسوتها . . . فشوارعها في أغلبها غير منتظمة ، ضيقة ، وغير مرصوفة ، وقلة الاضاءة الغازية بها تجعل التنقل بها ليلا أمرًا عسيرا وخاصة في الليالى والايام الممطرة حيث تشاهد بعض الاشخاص يتقدمهم حملة المصابيح التي يمكن أن تعرف من عددها وضخامتها اهمية الشخص الذى يقطع الطريق . وهكذا فان قنصلنا العام يتقدمه مصباحان كبيران يحتوى كل واحد منهما على أربع شمعات . . .) ويشعر أن هناك فرقا في الاسلوب المعماري بين الاحياء التي تتكون منها المدينة بحيث يختلف الحى العربي عن اليهودى والمالطى اختلافا ظاهرا ، ولعل اختلاف طبيعة الحياة في هذه الاحياء قد أوقعه في هذا الظن . ويتحدث عن أبواب المدينة والقلعة وحصن المنارة والحصن الفرنساوى (برج أبي ليلى) الذى تمتد منه مجموعة من الجزر تشكل ذراع الميناء ، وينصح بما سبق أن نصح به كامبريو بالعمل على وصل هذه الجزر بقليل من الانفاق حيث ستجعل هذه العملية ميناء طرابلس أحسن الموانئ بالشمال الافريقي بعد ميناء بنزرت . وقد أدى اهمال الاتراك لهذه الجزر في رأيه إلى جر كوارث على بعض السفن التي لم تتبين هذه الجزر ويشير إلى الحادثة التي وقعت ليلة ١٤ يناير ١٨٨٠ حيث غرقت ثماني سفن .

وخلف السور الذى يصل القلعة بحصن المنار يمتد الشارعان اللذان يكونان الحي الاوربي الايطالي والمالطي ، وتوجد بهما أجمل المنازل التي تتميز بطرازها الموحد تقريبا فهي مربعة ومكونة من دورين ، ذات صحن واسع تزينه نباتات الزينة ، وهى تشبه طراز البيت الاندلسي. وفي هذين الشارعين يسكن علية القوم من أبناء الجاليتين الايطالية والمالطية وكبار الموظفين الاتراك وبه مقر القنصليتين الايطالية والفرنسية . ومقر القنصلية الايطالية يقع في منزل جميل يشغل القنصل القسم العلوى منه . وبهذا البيت أيضا دائرة البريد الايطالي التي تعج بالناس بالنظر لدقة الخدمات البريدية الايطالية — كما يقول — بالمقارنة إلى البريد العثماني والفرنسي . . .

واستقلال كل قنصلية ببريدها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البلاد مظهر من مظاهر التفريط في السيادة ، واهمال من الحكومة التركية التي تركت لهذه القنصليات سبيل الاستهتار بمصالح البلاد ومستقبلها .

ويصف الميدان الصغير الوحيد بالمدينة وهو الميدان المعروف قرب مدرسة عثمان والمعروف سابقا باسم ميدان السيدة مريم ، حيث يوجد به في ذلك الوقت كما يقول الكاتب النادى الاوربي الذى يجتمع به التجار المالطيون والايطاليون كما توجد بالقرب منه بعض المقاهي العربية وقوس ماركوس اوريليوس الذى جعله أحد المالطيين حانة يبيع فيها النبيذ .

ويذكر نقطة قد تهم عشاق التاريخ للمسرح حيث يشير إلى وجود مسرح صغير يحمل اسم الكاتب المسرحي الايطالي الشهير (غولدوني) تعرض به الفرق الايطالية وبعض المغنيات اليهوديات اللواتي يرقصن رقصة البطن على مشهد من النظارة العرب . . .

(أن الحيين العربي واليهودى يجتذبان الاهتمام بأكثر من الاحياء الأخرى بالنظر لما يتميزان به من أصالة فشوارع الحى العربي مكونة من بناءات غريبة

ذات طابع في أبوابها مغلقة تمنح المشاهد شعورا بالغموض والسر. بينما يقع العكس في المنازل اليهودية ، اذ أبوابها مفتوحة تماما ويمكن للسائح الا يكتفي بالنظر اليها بل يمكنه أن يدخلها دون اعتبار أو حذر) .

ويبدو هذا السائح متأثرا بقراءاته لرحلة الدكتور نختجال التي قرأها في الفرنسية وتأثر ببعض آرائها ، وخاصة في المقارنة بين أوضاع اليهود واليهوديات في تونس وطرابلس .

أن متاجر طرابلس لا تختلف عن غيرها من متاجر الشرق ولكنها تتميز بطابع التنوع الكبير في ملامح التجار وزبائنهم وأسواق طرابلس معرض حقيقي للفلكلور الافريقي . . . أن هذا النوع من البشر ينطوى على شيء من العنف الوحشي الذى لا يبعث على الاطمئنان ويشف من عيونهم السوداء نوع من الحقد القومى والديني . . . وكذلك وجوه الاتراك من أبناء أسيا وفي المدينة الكثير من العناصر الثائرة والمغامرين الاكراد والشركس . ويلاحظ الوضع البائس للجنود الاتراك ولكنه ينوه بشجاعتهم المعروفة ويشير إلى ما أبدوه من بسالة في الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ — ١٨٨٨ ، الا انه يشك في امكانية أن يقوم الجنود الذين يشاهدهم بطرابلس بتجديد تلك البطولات الفائقة . ولا يختلف وضع الضباط كثيرا عن وضع الجنود عدا تلك الفئة من الضباط المتخرجة من الكلية العسكرية حيث تتميز بزيها الانيق وبسلوكها الكريم . ليست هناك اعمار محددة لنهاية الخدمة العسكرية ، وهكذا تشيخ الاطارات العسكرية وقد لاحظ وجود عقيدين بطرابلس على رأس سلاح الفرسان الأول في الخامسة والستين والآخر في الستين من عمره أن ضباط المشاة وخاصة النقباء من كبار السن ولا اعتقد أن جيش الحامية بطرابلس قادر على القيام بأى حرب هجومية لنقص الخدمات التجهيزية والصحية ولواء الفرسان إلى نصف العدد المقرر له من الخيول . المناورات العسكرية قليلة نادرة وعند

الساعة الرابعة مساء من كل يوم يخرج العدد المتوفر من الجيش ، وهو كتيبة في أربع طوابير تتقدمه الموسيقي إلى ميدان سوق الثلثاء حيث يواجه البحر ويرفع سلاحه ويهتف الضباط والجنود ثلاثا عبارة (الله ينصر السلطان) . . .

ويلاحظ عدم الانضباط والالتزام الصارم بالسلوك العسكرى فيذكر انه شاهد حراسا يدخنون وآخرين يغطون في نوم عميق وقد اسندوا بندقيتهم إلى الحائط واخرين يسبحون ! ويقدر عدد الجيش بحوالى اربعة الاف جندى موزعين على الولاية . بقيادة مشير ، وكان قائد الجيش حينذاك رجب الباشا الذى جمع فيا بعد في شخصه قيادة الجيش والولاية . ويقول أن سمعته العسكرية جيدة ، ويتميز بلطفه وعلاقاته الطيبة مع الجاليات الاوربية والقنصليات وانفتاحه على الافكار الحديثة التي كانت من الأسباب التي أدت إلى تعيينه في هذا المنصب لاقصائه عن العاصمة التركية .

اما الوالي حينذاك فقد كان حافظ باشا وهو كردى الأصل من ارزوروم ولا يحظى بما يحظى به رجب باشا من محبة وقد أعلن التجنيد الاجبارى ويقوم سكان المدينة بالتدريب العسكرى مرة كل اسبوع وقد نصب الوالي بعض المدافع العتيقة فوق بعض الحصون والقلاع حتى تكون على مرأى من الشعب ويصف أحوال اسوار المدينة وحصونها وينتهي إلى القول بانه (لا الحامية التركية ولا أسوار المدينة المتداعية ولا الحصون البحرية ولا السفينتان الحربيتان العتيقتان ستحول دون أية دولة من الدول الكبرى للاستيلاء على المدينة وضواحيها) .

ونلاحظ التركيز في هذه الرحلة القصيرة على دراسة الاوضاع الدفاعية والعسكرية بالمدينة . ويقدر عدد سكان المدينة بحوالي ٣٠ ألف نسمة منهم عشرون ألف نسمة من العرب وستة الاف من اليهود والبقية من جنسيات مختلفة ، اما اذا اضيف اليها سكان الضواحي القريبة فان العدد يرتفع إلى خمسين ألف نسمة . وتحتل الجالية المالطية والايطالية المرتبة الاولى بين الجاليات

الاجنبية ثم تأتي الجالية اليونانية فالاسبانية فالفرنسية التي يرى انها لا تزيد على موظفي القنصلية واللغة السائدة في الحي الاوربي هي الايطالية . وتأتي ايطاليا ايضا في المرتبة الاولى من حيث عدد المدارس التي تديرها وتمولها ، وهي مدرسة فنية تجارية عالية ومدرستان ابتدائيتان واحدة للبنين وأخرى للبنات ، وروضة أطفال ويبلغ عدد المدرسين والمدرسات بهذه المعاهد والمدارس حوالي ٣٠ مدرسا ومدرسة ، وبها ما يقرب من خمسمائة تلميذ من مختلف الجنسيات وأغلبهم من الايطاليين والمالطيين واليهود وبعض المسلمين بالنظر للمعارضة في الانتماء إلى هذه المدارس ويشير إلى المزاحمة الفرنسية في هذا المجال رغم عدم وجود جالية لها ، وقيامها بانشاء مدرستين ابتدائيتين واحدة للبنين واخرى للبنات وللجالية اليهودية ايضا مدارسها . أما المدارس الحكومية فلا يشير منها الا إلى المدرسة العسكرية التي تعد الشباب للدراسة العالية في كلية استانبول ويلاحظ التسامح الديني الكبير الذى يبديه العرب ويستغرب من صفة التعصب التي ألحقها بهم بعض الكتاب الفرنسيين ويذكر أن بطرابلس كنيسة واحدة بالمدينة وأخرى بالريف ، وأن صومعة كنيسة تعلو كل مآذن المدينة الأمر الذى كان يثير مشاعر الضيق والتبرم لدى الأهالي الذين لا يطيقون أن تكون صومعة الكنيسة أعلى من مآذنهم . ومع ذلك فهم متسامحون وتجرى ممارسة الطقوس الدينية المسيحية خارج الكنيسة سواء التعميد أو الزواج أو الجنائز دون مضايقة كما يقوم العرب ايضا بممارسة عاداتهم الدينية دون اعتبار لأحد من الاجانب !

أما الروح السائدة في طرابلس في رأية فهي رفض الاحتلال التركي (إن طرابلس الغرب بصفة عامة ستكسب من الاحتلال الاوربي . المهم الاتستمر تحت السيادة العثمانية التي تمثل الركود والجمود واستبعاد كل أسباب التقدم .

ويسجل هذا السائح أن البلاد أى المدينة قد شهدت خلال الاعوام الاخيرة نوعا من التوسع خرجت به عن الاسوار القديمة حيث فتح شارعان متقاطعان جديدان واسعان بدأت تحف بهما بعض العمارات من الطراز

الاوربي ، والنادى العسكرى ومقر اقامة المشير قائد الجيش وينتهي الشارعان بحديقة صغيرة عامة تسمى (جنان الفريق) وهى متنزه السادة الطرابلسيين وتعزف بها في العادة الفرقة العسكرية بعض القطع الموسيقية . ويجرى تخزين البضائع في بعض المخازن الكبيرة الموجودة في هذين الشارعين الذين يقع بالقرب منهما ، سوق الثلثاء . . .

إلى آخر هذه الانطباعات التي تعطي لمحات عن الحياة العامة في مدينة طرابلس في مطلع القرن العشرين .

وقد وفّرت لنا هذه المناسبة التي وقعت في سنة ١٩٠٠ وتكرر وقوعها في سنة ١٩٠٥ مصدرا هاما من المصادر عن الحياة العامة في مدينة طرابلس في تلك الفترة ونعني به كتاب (أسرار طرابلس) الذى ألفته مبل تود زوجة رئيس البعثة الأمريكية وقدمت لنا به صورة من أجمل الصور الفنية الشعرية عن الحياة في مدينة . وهى المرأة الثانية التي تقدم لنا وصفا لمدينة طرابلس بهذه الدقة في الملاحظة والروح الشاعرية والتفتح البرىء على جمال المدينة وسحرها الخلاب . أما المرأة الأولى فقد كانت المس توللى التي تقدم الحديث عنها والتي وفرت لنا مصدرا هاما عن المدينة والبلاط والسلك الدبلوماسي وحياة العامة ورجال الدولة في العهد القرمانللى .

ويتضح من كتاب مابل تود أنها شغفت بمدينة طرابلس واستراحت إلى أهلها واستطابت الإقامة فيها ، وأدارت في أنحائها عينا لاقطة وذاكرة حافظة ساعدتها فعلا على أن تقدم إلينا هذه اللوحة الفنية الشاعرية الزاخرة بالألوان الصارخة والهادئة ، وقد استطاعت أن تنفذ إلى كثير من العادات والتقاليد وخاصة منها ما تعلق بمراسم العرس في مدينة طرابلس الذى تقدم لنا عنه صورة تاريخية مطابقة للواقع التاريخى المعروف . . . ونؤثر هنا أن نصاحب هذه الكاتبة الرحالة في بعض انطباعاتها الهامة عن مدينة طرابلس في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخها .

وتروى لنا الكاتبة في مستهل كتابها الدوافع التي حركتها إلى نشر انطباعاتها . إذ وجهتها أحداث الغزو الايطالى لليبيا إلى نشر انطباعاتها ومذكراتها عن الفترة التي أقامتها بها خلال ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٥ .

(كان حظ طرابلس ، منذ بدء التاريخ ، تجارب متنوعة . إنها واحدة من أقدم المدن في العالم) . . .

(إن قصة طرابلس تتغير الآن ثانية . ولتكن النتيجة ما تكون ، فلسوف تكون لها سماواتها الشفافة ، وهواؤها الشبيه بالخمر ، وطقس يكون من الخطيئة الاحساس فيه بصداع أو ألم ، بالشيخوخة أو التعاسة . وربما كان سحر الشرق والإسلام فيها الآن أقل . ولكني لا أستطيع أن أكف عن الشكر لأنني عرفتها حينما كان تنفس هوائها ، والمرح تحت أشعة شمسها يعنيان البهجة والمسرة . ليس هذا فقط ، بل حين كانت القوميات المجتمعة والسنة بابل والشوارع المتوسطية تجلب مثل هذا الاهتمام المنعش الذى جعل كل السنوات التالية أغنى وأكثر إرضاء ، وأكثر امتلاء بخمرة الحياة المسكرة) .

(وتقدم طرابلس ، بالبحر الأزرق والرمال وبياض المدينة الباهر ، وبالعرب والبدو المحيرين الغامضين ، وبآثار مغمورة في التاريخ ، تقدم طرابلس بهذا كله نصف المنسي . فكل حجر مليء بالإيحاء . ولأنها الجار القريب لأطلال لا تحصى عصفت بها الرمال ، كل منها بقصتها الصامتة تنتظر التفسير .

تقدم طرابلس بكل هذا مادة لا يمكن تخيلها ، للفنان وعالم الآثار والمؤرخ . وتقدم مثل ذلك للمنقبين عن المشاكل السلالية ولدارسي علم اللغات . .) .

الوصول إلى طرابلس :

(إن وصول ميناء طرابلس المتلالىء في الصباح الباكر ، كان مشهدا رائعا تقريبا لسفن أجنبية ترفع أعلام اليونان وتركيا وفرنسا ، ولقوارب صغيرة

محلية ، ولصيادى الأسماك والغواصين على الاسفنج ، ولكل الحياة المثيرة للفضول في مجتمع متميز غير أوربي) .

(لقد وصف مؤلفون عرب عديدون هذه المدينة القديمة ، كما تبدو للقادم إليها من البحر ، بكل ثروة الخيال وغنى التمثيل اللذين عرفوهما جيدا . ولكن جمال هذا المشهد لا يمكن أن يكون قد بولغ فيه . .) .

(إن السور القديم ، وقلعة الباشا ، والمساجد الرائعة المستديرة ، والعدد الكبير من المآذن التي تعلوها قباب مذهبة وآهلة ، والنخيل الكثيف ، والحزام الأخضر الفاصل بين البحر وكثبان الرمل والصحراء والضريحين المقببين الواقعين جانبا على رأس صغير . كل هذه كونت مشهدا ذا جمال رقيق) .

(ويصبح الانطباع الكلى عن الوصول لأول مرة مقسما إلى أجزاء مكونة من : قوارب الاسفنج اليونانية مشدودة إلى أعلى ، وحافة على الشاطىء من أجل التصليح . باب البحر المفتوح طوال النهار . الموظفون الأتراك الكسالى الذين يدخنون فوق المقاعد . البحارة اليونانيون الذين يسحبون الاراجيل . العرب يرشفون فناجين القهوة ، في الزوايا المتفرقة ، تناقضات حادة ملأت مدينة الرسول الأجنبية هذه . .) .

الشوارع والأسواق :-

(بالك . . بالك . . ويقفز الإنسان جانبا بسبب الصرخة المفاجئة الجافة ، ويمر حمار نحيل مثقل ، في تؤدة . ولا وقع لحوافره على الشارع الرملى الأبيض . وتخب أعداد لاحصر لها من هذه الحيوانات الصغيرة الحزينة ، رازحة بشكل عام ، تحت سلال من القش ، تضم جرار ماء فخارية ضخمة ، وغالبا ما تحمل خروفا أو حملا ، وربما حملت صاحبها بالإضافة إلى ذلك ، جالسا على كل حال بلارحمة فوق الحيوان الصغير هذا إذا لم يمش خلفه ليتسنى له همزه) .

الباعة :

وكانت صرخات جوقة الشارع تختلف من فرد إلى آخر . بطاطا ، برتقال . وخاصة البيض الأبيض الذى يبيعه رجال سود فاحمون . وكان يرافق كل سلعة صوت خاص ونغمة خاصة ولهجة أو لغة خاصة . .) .

(ويقرأ العرب الاتقياء القرآن ، أمام متاجرهم ، والاستغراق باد عليهم . إنهم لم يكونوا أبدا بمنأى عن شئون الحياة . وكأنما يريدون على كل حال نسيان زيادة السعر التي خصوا بها المسيحيين) .

(ويسحب الخبازون ، دون انذار ، مجارفهم الكبيرة من أفرانهم ، مليئة بالأرغفة الصفراء لتبرهن مقابضها الطويلة أنها حجر عثرة مفاجىء لغير اليقظين . .) . (وكانت كل الأعمال تتم على الطرق الضيقة الشبيهة بالانفاق ، على مرأى من الجمهور ، ولونت كثيرا من الأقواس زرقة نيلية شاحبة أو وردية أو صفراء ، إلا أنها تكاد لا تؤثر في البياض الشامل . وكانت الشوارع تسقف أحيانا بالحصر لتلافي الشمس اللاهبة أو تعالج عن طريق العرائش ، حيث تتدلى عناقيد الدوالى فوق رؤوس الجماعات المسرعة . وتتم أعمال النسيج ، بأشد الأنوال بدائية في شارع واحد . ذلك أن لكل حرفة حيها الخاص بها . حيث تكرس كل الحوانيت والبيوت لصناعة معينة) .

النافورة التركية :

(وكان الينبوع التركى نقطة تجمع كبرى في المدينة ، شيد على شرف السلطان السابق . وهو يظل محاطا دائما بحشود مختلفة كل الوقت ، ويمر به المرء في كل النزهات والجولات عبر الحارات الموحلة المسورة التي تفضي إلى الصحراء الكبرى) .

أسوار المدينة :

(ولقد سورت المدينة تسويرا هائلا سنة ١٩٠٠ . وكانت البوابات الثقيلة تغلق عند السادسة وتوصد في وجه المقيمين خارج المدينة عندما يأخذ المغيب يورد المباني البيضاء بلون وردى شهى ، ولا يستطيع أحد الدخول أو الخروج حتى الصباح) .

اللوحة النحاسية :

(وعندما تدار البوابتان معا ، تلتقيان على قطعة نحاسية في الشارع ، كل من يطأها ساهيا في عودته من المدينة يقدر له الرجوع إليها . ولقد كان هذا حظي السعيد سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٠ . وقد رأيت المدينة الصحراوية مرة أخرى ، بعد خمس سنوات ، وكانت البوابة وجزء من السور قد أزيلا . وبزغ شعور غامض لإنشاء شارع واسع على الطريقة الأوربية ، فرصف شارع على شاطىء البحر وأحيط بسور ودرابزين . .) .

شارع البحر :

(وكانت قوارب الإسفنج ترسو أحيانا في المارينا ، حيث كنا نتناول قهوة بعد الظهر في بعض الأوقات . وكان الرجال المسنون يصنعون السلال الخشبية ، يجلسون في الزوايا ، وكانت جبال من جرار الماء من كل الأحجام والأشكال التي يمكن تخيلها مكومة هنا وهناك . وكان يوجد في سوق السمك ، سمك أحمر زاه وأزرق لامع . ورأيت قريبا من هذا المكان في مناسبات عديدة درويشا ورعا ذا رأس وذقن غزيرين أجعدين ، ورأس لا يعتمر طربوشا ولا يرتدى حوليا ونظرته ذات انجذاب غريب يطالع في عينيه النفاذتين . ويمر شيوخ الطرق والاتقياء ما بين الحين والآخر ، فتحييهم كل يد تحية احترام . .) .

القلعة سنة ١٩٠٠ :

(هذا المقر الرسمى للحاكم الذى كان قلعة قديمة هو مدينة صغيرة تقريبا قائمة بذاتها . وقد أقيمت هنا دوائر الدولة الرئيسية والمحاكم والسجون والمخازن والمستودعات العسكرية . وكان وضع الفرسان والمدفعية خارج المدينة . وكان يعقد نوع من المجلس البلدى المعين من قبل الوالى ، جلساته هنا .

إضاءة المدينة :

(ولم تكن الإضاءة مسألة معقدة غير عادية . فقد كانت توضع قناديل شاحبة تعمل بالنفط في الزوايا المظلمة ، هنا وهناك) .

الصورة الحية للحياة اليومية :

(وتقدم الحياة اليومية صورة حية لقوميات لا تجارى في أية منطقة أخرى وكان العرب منتشرين وموجودين دائما مثل الأطياف التي تبدو في الأحلام يرتدون الحولى الأبيض ، ويجتازون شوارع المدينة الشاحبة بصمت وهم سواسية في طبيعتهم ، وتلتف النساء بثيابهن التفافا كاملا ما عدا عين سوداء واحدة ويبدى الرجال وجوها سمراء ذات رصانة وإباء لا يمكن التعبير عنهما ، ويملأ الشوارع الرئيسية اليهود المتعجلون والمالطيون ذوو الوجوه المستديرة ، والنساء في اللباس الوطني . وأمم الصحراء المتدفقة ، تمتلىء الشوارع بهؤلاء من كل لون ابتداء من الأصفر إلى البني الغامق جدا ، ومن ثم إلى الأسود القاتم الشبيه بالأبنوس ، أو الأسود المجلو مثل الجلد المصنوع . إنهم خليط من البربر والزنوج والفزانيين والسودانيين في مشهد متحرك) .

المنازل :

(كان كثير من باحات الحريم مرصوفا رصفا جيدا . وكان غطاء الجدران

من ملاط جميل . وكان هنالك دائما ينبوع في الوسط أو شجرة جميلة ونباتات مزهرة) .

القوس الروماني :

(إن أنفس آثار هذه الأيام القديمة ، مهجور الآن ، وهو قوس النصر ذو الزوايا الأربع ، يقال بأنه ممتد بما لا يقل عن ثلاثين قدما تحت مستوى الشارع ، ويبلغ أكثر من هذا الارتفاع فوقه ، حيث حانة ومُسْتودع فحم . .) .

كانت مابل تود امرأة شاعرة ، وقفت أمام كل زاوية وكل ركن وقفة شاعرية ، ولم يحدث أن كتب أحد عن هذه المدينة بهذا العشق الذى يحاول أن يكتشف النادر والطريق والمميز والبارز في كل شيء تقع عليه العين ، حتي الجدران الصامته (فلوتتكلم الجدران الصامتة فستكشف عن سنوات من التاريخ غير المكتوب ، وغير المحفوظ المليئ بالعاطفة والبطولة والقسوة وخيانة الحياة) وتقدر مابل تود سكان طرابلس في ذلك الوقت باربعين ألف نسمة ويبلغ الاوربيون بها خمسة الاف نسمة تقريبا ، وأغلبهم من المالطيين المقيمين بها اقامة دائمة ، يضاف إلى سكان المدينة عشرة الاف جندى يقيمون بشكل رئيسي في المدينة أو على مقربة منها .

البساتين :

(وكانت الحارات والطرق التي تقود إلى البساتين خارج المدينة جذابة ، بلاحدود . ومتجددة البهجة كلما خرجنا اوعدنا على هذه الطرق الرملية . وتكلّل الأسوار (الطوابي) أشجار الصبار الكثيرة القديمة والتي غالبا ما تكون اشجارا وهي كثيرا ما تفتت هذه الاسوار التي تتماوج فوقها أشجار الزيتون . وكانت الخيل العظيمة المزينة ببذخ بالفضة والجلد وذات الذيول الغزيرة المنسابة التي

تقل جماعات من العرب والترك ، معرضة لأن تصادفنا في الشوارع الضيقة مثلها مثل قطعان الجمال والحمير والماعز) . . .

العرس الليبي :

وصفت مابل تود العرس الليبي وصفا يتسم بالدقة الانثوية التي لا تغيب عنها التفاصيل الصغيرة . وتحدثت عن يوم (المحضر) فقالت :

(وجلست في صف ، على الاطراف ، أربعون أو خمسون امرأة ، شابات جذابات المظهر ، ولكنهن مطليات الوجوه بالمسحوق حتى درجة البياض الشاحب ، مع مثلثات قرمزية ناصعة مرسومة على كل خد من خدودهن ، وكانت حواجبهن مخططة بالاسود تخطيطا ثقيلا وهي تلتقي فوق الأنف وتمتد عبر الأصداغ إلى الشعر . ان الاصباغ الزيتية الشهيرة مرغوبة في الشرق رغبة عميقة ، إلى درجة انها حلت تقريبا محل الالوان الناعمة القديمة المصنوعة من الاعشاب ، ذات الماضي الاكثر جمالا وفنا . وظهرت في تمازج مدهش تنانير قصيرة ، سراويل طويلة ، قمصان بلا اكمام من الحرير والمخمل كلها مطرزة تطريزا كثيفا بالذهب والفضة . أدت كل لون يمكن تصويره . قرمزى ، وردى ، ازرق ، كوبالت ، اصفر ، ازرق ، اخضر حشيشي ، حتى الموشيات الحرائر والسلاسل والاساور في كل ، مدهش واحد ، أنيق مزخرف ومسرحي ، ذى قوة غير عادية) . . .

(وجلست العروس الصغيرة في مكان بازر ، ثابتة لا تتحرك . كما نصت التقاليد الجامدة من فروق بين هؤلاء السيدات الجميلات الحاضرات . وهي أزهى وأبهى من أى منهن . انها مزيج صاخب من الالوان الحقيقية ، وكانت مخامل وحرائر قيصها وسروالها والدبوس الفضي المتعلق بشعرها الاسود المضفور جيدا ، والصدرية الموشاة ، والحذاء الذهبي ، وأرطال من الاقراط المتدلية من نصف دزينة من الثقوب في كل اذن ، واذرع من الليرات الذهبية تلتف حول

رقبتها الرقيقة . ومثلها من الازهار المنسوجة في سلاسل والمعتمدة على حبال زينة ملتفة حول خديها الابيضين القرمزين (الفل) كل هذا كان أكبر ، وكان أطول ، وكان أجمل وأثقل مما لدى الاخريات . وكان متلائما مع طبيعة هذه المرحلة الكبيرة الوحيدة في حياتها) . . .

(جلست العروس الشابة هادئة تماما ، يداها المصبوغتان بالحناء حتى الحمرة الداكنة ، والمغطيتان بالذهب بالطريقة التقليدية إلى الكوع ، مفرودتان على ركبتيها ، بينما جلست سيدة من كل جانب تروح بها ، بتفان مستمر ، في تلك الحرارة الخانقة ولم تصدر منها التفاتة أو حركة رمش تدل على انها كانت تحس بوضعها المعظم) . . .

أما موكب العريس فتصفه هذا الوصف :

(موكب آخر هادئ جدا في العادة ، يسير فيه الرجال بجواليهم الخيالية ، في مقدمة صانعي الفرح، وبينهم عدد كبير من الزنوج، وهم سودانيون من الجنوب ، يقرعون الطبول ، ويشعلون نارا حمراء ، ويطلقون شيئا يشبه الالعاب النارية والمشاعل ، ويسير العريس في الوسط مودعا العزوبية هذا الوداع المرح) . . .

سوق الثلثاء

وكان يجتمع عند الشاطئ الابيض الرحب ما لا يقل عن عشرة الاف من الاهلين من أجل البيع والمبادلة في يوم الثلثاء هذا . ويتخطر البدو المتكبرون والصامتون ، والذين كثيرا ما يكونون أغنياء . ومع هذا فهم يصرفون على حياتهم اليومية أقل مما يصرف أفقر عامل أوربي . من أجل البحث عن صفقات . ولم تكن هناك سلع تجتذب الأجانب الموسرين ، ولكن أشياء يحتاجها الاهلون ويشترونها . وليس هناك محاولات لمداجاة المشترين العابرين من

الانجليز ، فقد كان الاهتمام بالمقيمين المنوعين فقط) . . .

وكان يتلطف العربي ذو الملابس البيضاء المتوجه ليتزود من هنا . ويعود إلى بيته في بعض الواحات البعيدة في الصحراء ، على حصان أصيل أحيانا ، مغطى بالجلود المبهجة وزخارف من النحاس والفضة وثيابه تتطاير مع الرياح وقد امتدت بندقيته عشرة أقدام ، وكثيرا ما يمتطي مؤخرة حماره الصبور المحمل ايضا بحاجات العائلة للاسبوع القادم) .

سوق الخبز :

ومن الاحياء البهيجة في المدينة الميدان الذى يستخدم في أيام معينة كسوق للخبز حيث يقبع مئات من العرب كل النهار تحت حواليهم ، في ضوء الشمس اللاهب ، يحرسون أرغفة ، صفراء زاهية ، ذات تجاويف فنية ، وان كانت غير صحية) . . .

عودة القافلة :

ولا يسمع التجار الاغنياء الذين يرسلون السلع إلى أعماق الصحراء شيئا عنها طوال عدة أشهر ، بل لا يعرفون احيانا شيئا عن مصيرها ، عدة سنوات . وكانت الآمال في عودتها تفقد مرارا وتكرارا . ولكن عندما تشاهد قافلة عائدة بجمالها المنهكة ، ورجالها الجياع العطاش الذين لوحتهم الشمس ، تخرج كل طرابلس من بواباتها . وكانت القافلة تقابل بنوع من الترحاب البهيج الذى يندر أن تقدمه المناطق الاكثر تمدنا لابنائها الجوالين العائدين . وكان يرسل خمسمائة أو حتى الف ، والآن ، وعلى الرغم من أن طرابلس مازالت نقطة انطلاق لمثل هذه الحملات ، فانها أصغر وأقل مما كانت بكثير) .

مركز طرابلس :

(طرابلس تبدو صلة الوصل الطبيعية بين اوربا وافريقيا ، وكانت

البضائع الاوربية تختزن هنا في السنوات الماضية حتى يحل وقت سفر القافلة إلى السودان كما كانت البضائع الافريقية تنتظر هنا لتنقل عبر البحر الابيض المتوسط . وكانت التجارة مع الداخل مستمرة ، وكان ريش النعام وانياب الفيلة والجلود وحتى الذهب تأتي بواسطة القوافل بكميات من افريقيا لتقايض بأقمشة مانشستر وأواني فينسيا الزجاجية ، وبضائع من جنوب فرنسا) . . .

المنفيون :

ولما كانت طرابلس نوعا من المستعمرة للمشبوهين السياسيين فإن عددا كبيرا منهم عاش في هذه المدينة البيضاء ، جالبين معهم جو الاستانة الحقيقي ، الاناقة ورغد العيش اللذين لم يستطع النفي أن يخفيهما . . .

طرابلس المستقبل :

والآن ، لقد قصفت طرابلس بالقنابل ، وتغير غزاتها مرة أخرى ، في قصة التقلبات الطويلة التي مرت بها . ان تلك المنارة القديمة كتلة بيضاء لا شكل لها . وكل الحياة الناعمة ، هزت من نومها وستزرع التربة الخصبة ، المترصدة دائماً تحت الرمال المعتدية . منتظرة الماء فقط لتنفجر بالزهر والتمر . وستترك الابار المتداعية التي لم تتغير منذ أيام قرطاجنة مكانها حالا للخزانات الحديثة ، وستحتل الانابيب محلاً قرب الماعز ، وستقوم الالات بعمل الابقار الصابرة الكادحة ، كفوة حسيرة ، وستتقدم المدينة ، بعد أزمتها الاخيرة على الطرق الحديثة ، وسيكون هنالك في يوم من الايام حتى هواتف وكهرباء وشوارع معبدة وسيارات ولكن لن يكون مستطاعا قهر الصحراء مرة واحدة ، ولا الطوارق الذين يجتازون فلواتها الغامضة ، وسيظل هنالك دائما أميال غريبة من الرمل الذهبي ، حيث تترصد اللانهاية .

أن كل قذارة تبدو مغسولة في امتداداتها الموحشة . ولابد من أن تجلب الشمس الواهبة الحياة ، والهواء المتوهج فرحا رائعا . وان يتم الصبح المتلهف

والمدى المتلالئ ، وسماك المساء الكثيبة ستظل تحكى قصة رائعة وان كانت غامضة .

وستبقى طرابلس ، تلك ، مهما كانت قرارات الدول الكبرى .

(ومهما كانت طرابلس ، فانها مدينة سحر ، بيضاء كأحلام الجنة ، مزركشة بحواش من النخيل والزيتون ، وذات جذور عميقة في ذكريات القرون) .

قام الرحالة الفرنسي ما تزويل بعدة رحلات إلى ليبيا وكتب عن هذه الرحلات ، وسجل انطباعاته التي نشرها في المجلات العلمية التاريخية الجغرافية كما نشرها ايضا في كتاب وسوف نقتصر هنا على رحلته التي عني الايطاليون بترجمتها لحاجاتهم إلى المعلومات التي تضمنتها عن الاوضاع العامة بالبلاد كما تبدو سنة ١٩٠١ .

وصل هذا الرحالة إلى مدينة طرابلس فجر يوم ٢٣ ابريل ١٩٠١ ، وشعر للوهلة الاولى بالراحة والاطمئنان لبلوغه أخيرا (الوكر العتيد للقرصنة في الشمال الافريقي الذى احتفظ بأصالته الموروثة من القرون الوسطى ، وبكل ألوانه العربية الزاهية بفضل الغيرة القلقة التي أبداها نحوه حكامه الاتراك) وقد زادت الصعوبات التي واجهته في الحصول على الترخيص بزيارة هذه البلاد ، من شوقه والحاحه على زيارة هذه البلاد التي ظلت مغلقة في رأيه في وجه الرحالين منذ الرحلات الكبرى التي قام بها بارث ونختجال .

كان صوت المؤذن يرتفع باذان الفجر من المآذن التي كانت تبدو من بينها صومعة الكنيسة الكاثوليكية حين أحاطت بالسفينة التي كانت تقله قوارب تحمل أعلام مختلف القنصليات والوكالات البحرية والحجر الصحى .

ولكن المشهد الرائع للقباب والمآذن وسطوح المنازل البيضاء الغارقة في زرقة السماء ، لم تكن — في رآيه — سوى مظهر خادع رائع سرعان ما تبدد

في تلك الخيبة التي اصيب بها عندما أخذ رجال الجمارك يفتشون حقائب المسافرين ويقول : (ان معاملة جمارك طرابلس لا تطاق ، وهم يبالغون في تطبيق التعليمات السلطانية فيصادرون الكتب والاسلحة والاجهزة من كل المسافرين ، وبعد فحص دقيق يتم ارجاع الكتب والمطبوعات ، بعد التأكد من انها لا تتضمن شيئا ضد أمير المؤمنين ، أما البنادق والمسدسات والرصاص فتصادر كلها مصادرة نهائية) اما الرحالة فقد كان مشمولا برعاية قنصل فرنسا ، فلم يتعرض لمثل هذه المعاملة . .

وقد أخذ بمنظر الاجناس المتعددة التي تعج بها منطقة باب البحر (عرب ويهود ومالطيون وزنوج ، كل الالوان ، وكل البشرات ، وكل الملامح تمتزج في تنوع لا حد له ، في هذا المنفذ الوحيد لتجارة السودان ، شعور مختلفة ، طويلة وقصيرة شقراء وسوداء ، منسابة أو مجعدة تبدو تحت مختلف أنواع أغطية الرأس من طرابيش وطواقي ومناديل وقبعات ، وملابس واسعة وضيقة ، ثقيلة وخفيفة ، وملامح حربية صارمة واخرى حيية وادعة تقف أمام المتاجر التي تعرض مختلف البضائع الشائعة في التجارة المحلية ، وتدل كلها على حياة زاخرة كثيفة في هذه الزاوية الافريقية) .

(المتاجر لا تحوى الا القليل من البضائع ، وبعضها خالية تماما ، ان طرابلس التي كانت إلى وقت قريب عاصمة التجارة مع أفريقيا الوسطى أخذت تفقد أهميتها ، حيث قلت القوافل القادمة من السودان وزاد الجفاف من فقر المزارعين بهذه الولاية) .

ويصف مقابلة حافظ باشا والى طرابلس حينذاك وموافقته على قيامه بهذه الرحلة إلى الدواخل ، وقد أصدر الوالى التعليمات لتزويده بالتصريحات اللازمة ، بل عرض عليه تزويده بالخيول والرجال والتموين اللازم ، ولكنه اعتذر عن ذلك ، مكتفيا كما يقول بمجرد الاذن . . ومع ذلك كله ، فان

هؤلاء الرحالة لم يترددوا في شتى المناسبات عن تشويه سمعة السلطات التركية ومعاملتها للرجالة والمكتشفين.

ويصف القلعة وسوق المشير وبرج الساعة (الذى دفع الشعب ثمن تشييده أربع مرات دون أن يراه قائما) والنافورة العامة التي اقامها الاتراك والتي ينساب منها خيط رفيع ضئيل من الماء . وبرغم ذلك فهى تزود المدينة بالمياه الصالحة للشرب . أما بقية المياه فيتزود بها السكان من الصهاريج . .

وعلى الجملة فقد كانت أوصاف هذا الرحالة للمدينة وحياتها الاجتماعية العامة مقتضبة مبتسرة وتبدو متأثرة بقراءاته وباحكام الرحالين الذين سبقوه ولعل أهم ما يميز هذه الرحلة ، ذلك العدد الجيد من الصور الفوتوغرافية للمدينة والتي قد تفصح عن بعض معالمها ومظاهرها العامة بأكثر مما فعل الرحالة في وصفه العام ، لا يبدو من مجمل هذا الوصف انه يتعاطف مع المدينة وسكانها وكثيرا ما يبدو بمظهر الاوربي المتعالى المترفع . . ويستغرب من التشبث الذى يبديه الباب العالى بهذا البلد الصحراوى الفقير ويرى ان الاعمال الاصلاحية التي قام بها بعض الولاة في المجال الزراعى لا يمكن أن تكون مبعثا لآمال كبيرة . . ولعل التشبث التركى بهذا البلد لأنه آخر مظاهر النفوذ والوجود في أفريقيا الاسلامية ويشير إلى المبعدين السياسيين الذين كانوا يضمون لطرابلس ، من ارناؤوط وأرمن وأكراد ومقدونيين، ويحتفظ بعضهم بوظائفه العسكرية أو المدنية ويرصد ظاهرة الزواج بين الموظفين الأتراك الذين يتركون زوجاتهم بالبلدان التي قدموا منها ثم يتزوجون نساء صغيرات .

ويندد كغيره بقذارة الحى اليهودى وبؤس سكانه الذين يراهم أقل معرفة وثقافة من أبناء ملتهم بتونس والجزائر .

ويلفت نظره رخص الأسعار (انه في وسعك أن تعيش عيشة الأمراء بعدد قليل من الدراهم) ويشيد بالجو الصحى في المدينة (ان نسمات البحر

الأبيض تهب يوميا على شوارعها وأزقتها وتجعل الجو فيها صحيا) .

ويقف كما وقف أسلافه من الرحالة ، أمام الأثر الروماني الوحيد بالمدينة ذاهلا معجبا متحدثا عنه بشئ من الاسهاب ، واصفا حاله في تلك الفترة ، ذاكرا انه قد تحول إلى حانة وان اكثر من نصفه مدفون تحت الرمال . ومع ذلك فان عظمته ما تزال بادية ولا يوجد حتى بروما نفسها ما يماثله . وقد شيد من قطع صخرية ضخمة ويستغرب من وجود هذا النوع من الصخور في بلاد لا تنتج هذا النوع، وقد ركب بدون ملاط وينفي عن الاهالى تهمة تخريب هذا الاثر بسبب نبؤة قديمة شائعة ، تقضي بحلول لعنة الخراب والدمار على كل من يحاول تدميره . ويعزو الرحالة هذه الاسطورة إلى الارساليات الفرنشيسكانية التي اشاعت ان أحد الولاة القدامى قد حاول تهديمه فتعرضت المدينة لهزة أرضية .

وينتقل للحديث عن الاوضاع العسكرية والدفاعية بالمدينة فيشير إلى أن عدد الحامية بالقطر لا يزيد على أربعة الاف جندى بقيادة مشير لا يتبع الوالى ويقول عن الحصون ، انه قد كانت لها أمجادها القديمة ولكن من الخير أن تنام هذه الحصون العاجزة التي ما يزال لها مظهرها الفني تحت شمس الشواطئ الساطعة ولا يمكن لأى انسان أن يمسك نفسه عن الضحك أمام الفرقاطة الهزيلة الخشبية التي تحتفظ بها البحرية التركية في شيء كثير من الابهة للرد على تحية السفن الاجنبية وللعمل كقاعدة دفاعية متحركة .

ويصف الحديقة العامة التي أقامها الاتراك وسوق الثلثاء ، والمنشية التي تعبق عند الغروب بروائح الفل والياسمين ويشير إلى المنافسة الحادة بين المدارس الايطالية والمدارس الفرنسية ويختم هذه الانطباعات المختلفة برأى تخييه الأعوام التالية . فقد كان يظن أن ايطاليا لا ترغب في احتلال ليبيا ، إذ ليس لها مال تبدده . .

وفي عهد رجب باشا قام عضو مجلس الشيوخ الايطالى جاكو مودى مارتينو برحلة في ليبيا وتونس نشرها بعنوان (طرابلس وقورينا وقرطاجنة)

تحدث فيها عن طرابلس حديثا قصيرا لا يختلف في مجموعه العام وملاحظاته عن الملاحظات التي رددها أغلب الرحالين ، وخاصة الايطاليين منهم ويستهل كلامه بهذا الوصف لمدينة طرابلس (لو بعث اجدادنا ورفعوا رؤوسهم يتأملون طرابلس ، فلن يدهشهم أن يروا سلطانة البحر الابيض الجميلة وهى تستلقي في وهن وارتخاء ، بثوبها الابيض الشفاف في أحضان ذلك القوس الهلالى الذى تكونه شواطئها الممتدة من الجزر البحرية الصغيرة حتي القلعة المهيبة وتلك الغابات من النخيل التي تغطي الأرض بطبقة خضراء . لقد ظلت كما كانت . ثابتة على الزمن . لم يغيرها شئ . ولماذا تتغير . وكل شئ ساكن خامد لدى هؤلاء القوم الرافضين للتقدم ما هى الحاجات الجديدة التي يشعر بها العربي والتركى فتختلف به عن اجداده ؟ أن العرب والاتراك يجلسون في المقاهى المواجهة لشاطئ الميناء ، تهب عليهم نسمات البحر الندية ، وهم يدخنون ويحتسون القهوة . وتلك غاية السعادة في نظرهم .

ويقول عن رجب باشا (انه رجل ذكى وروح مجددة) يبذل كل ما في وسعه لتطوير المدينة والحياة العامة بالولاية (انه رجل غير عادى ولكنه مغلوب ببيئة أقوى من أية ارادة ذكية. انه من أصل ألباني. ويشك بصفة خاصة في نوايا ايطاليا ويعمل على معارضتها وعرقلة مصالحها وهو بحكم نزعته التركية العميقة يرغب أن يتم تقدم البلاد على أيدى الاتراك وليس على ايدى الاوربيين) . .

وفي عهد رجب باشا ، قام السياسي والصحفي الايطالى تومياتي برحلة إلى ليبيا ، زار خلالها طرابلس وضواحيها كما زار بنغازى أيضا وسجل انطباعاته عنها في كتاب جعل عنوانه (طرابلس الغرب) وتدخل رحلة تومياتي في اطار الرحلات السياسية التي حرص عدد من الساسة والصحفيين على القيام بها خلال الفترة التي سبقت الاحتلال الايطالى وذلك من أجل دراسة الاوضاع العامة

والتعرف عليها عن كثب . ولذا غلب على هذه الرحلات الاتجاه السياسي الذى كان يمثله هؤلاء الرحالة ، وتكيفت نظراتهم واحكامهم وانطباعهم بأفكارهم السياسية التي جاءوا من أجل دعمها بالمشاهدة والوقوف الشخصي على الواقع . ومن العبث أن نعثر هنا على نظرة موضوعية محايدة وانما يجب أن نقرأ هذه الرحلات من حيث هى تعبير عن أطماع واتجاهات أصحابها . وقد كان توميأتي من غلاة الرحالة الايطاليين الاستعماريين . كما كان قطبا من أقطاب الحزب الوطني ، المعروف بنزعاته الاستعمارية وتعبئته الشديدة القوية للرأى العام الايطالى التي قام بها تمهيدا للغزو . وفي اطار هذه الحملة الاعلامية . قام برحلته ليحمل انطباعاته إلى القارئ الايطالى عن الارض الموعودة التي تفتح أحضانها لاستقباله والترحيب به ، وتنتظر بشوق بالغ دوره الحضارى التمدني كما يزعم . ولقد شارك توميأتي بذلك في تضليل الرأى العام الايطالى ونسج أوهام كاذبة من أجل دفعه إلى الحرب واحتلال ليبيا . ونظراته في هذه الرحلة مكيفة بهذا الواقع الذى لم يستطع أن يتحرر منه وهى على الجملة رحلة لا تتسم بالعمق والاحكام الرصينة وانما هى انطباعات سريعة اريد لها أن تؤدى غاية سريعة في تهييج واثارة الرأى العام ، ولعله قد بلغ شيئا من ذلك في ذلك الاوان ، وبقيت الرحلة بعد ذلك تشهد في حالات كثيرة على سطحية الفهم وسذاجة الانطباع . .

وكان أول عمل بادر اليه توميأتي ، بعد وصوله إلى طرابلس ، هو زيارة الوالى القائم حينذاك وهو رجب باشا المعروف بعدائه وعرقلته للمبادرات الاستعمارية الايطالية . وقد زاره من أجل الحصول على الاذن بزيارة الدواخل وهو يصف لنا المقابلة والحوار الذى جرى بينه وبين رجب باشا وصفا يعطى صورة جيدة عن شخصية رجب باشا ولباقته السياسية . ويقول عن رجب باشا (انه رجل متوسط القامة ، ذو صدر عريض ، ولحيته قصيرة مدببة ، وخطها الشيب ، يرتدى الملابس الاوربية ، ويضع الطربوش فوق رأسه . في محضره

يشعر الانسان بالانسجام اللطيف بين القوة العسكرية التي تضفيها رتبته كفريق وبين اللطف التركي . نظرات باردة واضحة ، واستعداد لا صدار الاوامر والقاء التحية ، رجل حرب اشترك في كثير من الحملات التركية — الروسية) ويشير بعد ذلك إلى أن حكومة هذا الوالى تبدي حذرا شديدا نحو الايطاليين وترسل العيون والارصاد لضبط تحركاتهم واتصالاتهم . وقد ظنت المخابرات التركية انه ضابط ومرسل بمهمة خاصة ، ولذا كان يلاحظ رقابة على تحركاته . .

وقد حاول الحصول من الوالى على اذن التجول ، ولكن الوالى اعتذر بان ذلك لا يدخل في اختصاصاته ، وان اقصى ما يمكن أن يسمح له به هو الموافقة على زيارة تاجوراء وجنزور تحت حراسة رسمية . وقال توميانى أن تاجوراء ليست سوى نزهة قصيرة . وان الرحالة الفرنسي ماتزويل سمح له بزيارة الدواخل أكثر من مرة . فأشار الوالى ان ذلك قد تم بناء على ترخيص من الاستانة . وحاول أن يؤكد توميانى بان الغرض من الزيارة فني محض وانه يعجب كيف يسمح للرحالة الفرنسي الذى نشر الخريطة العسكرية لطرابلس وكشف بوضوح عن أهدافه الرامية إلى الوصول إلى غدامس لدراسة امكانية مد خط حديدى بين غدامس وتونس ، لتحويل التجارة الداخلية إلى تونس بدلا من طرابلس . فقاطعه الوالى قائلا : ومن أجل هذا بالذات صدرت التعليمات بمنع الدخول إلى الدواخل وأن هذا الرحالة لن يسمح له اذا عاد بأية رحلة في الدواخل . . .

وقع ذلك فقد كان هذا الموقف الصارم الذي يتخذه بعض الولاة يخذل بالحصول على الاذن المباشر من لاستانة بعد أن تتدخل السفارات المعنية في الأمر . وهكذا كان الشأن مع هذا الرحالة الذى تمكن من زيارة بعض المدن الداخلية والكتابة عنها في رحلة طويلة ولكنها سطحية عابرة . ولا يهمنا من هذه الرحلة الا الانطباعات السريعة العابرة التي كتبها عن مدينة طرابلس خلال هذه الفترة من حياتها التاريخية .

هذه المدينة التي لم تتوقف أبدا عن الحياة ، وتحمل اسم طرابلس . .

ماذا أوحت ، وما هي أهم الانطباعات التي كونها عنها ؟ (القلعة العربية التي تغسلها مياه البحر تشبه حيزوم السفينة الراسية ، واللون الازرق الذى ينتشر خلف الواجهة الشرقية ، الشامخة الرائعة يبعث الشعور أثناء الليل بانها قد سقطت من الجبال القمرية . . انها المدينة الصغيرة التي يتركز فيها الحكم التركى ، وحيث يعتقل المنفيون الذين ترسلهم الاستانة إلى طرابلس) . .

(أما شوارعها فينبغى أن لا تجتازها ليلا حيث يمكن لأية خطوة أن تكلفك حياتك . فالضجيج يخبو والخطوات تخفت في الحى العربي الذى لا يجروء أحد على اجتيازه ، حتى الشرطة التركية . . فالعربي شديد الغيرة على حيه ومنزله . ووراء كل سؤال ، وخلف كل سر تختفي المرأة دائما . . ولكن عندما يستيقظ الفجر بين أشجار النخيل فان مدينة أخرى تخرج من نومها ، وينتشر مشهد رائع متعدد الالوان أمام أبصارنا ، وتستيقظ الشوارع كما تستيقظ شهرزاد الجميلة ، وهناك ترفرف الآف الأردية البيضاء بالقرب من شاطىء البحر لتستغرق في البيع والشراء ، حيث يباع كل شيء (البرتقال والليمون هنا أجمل منه في جزيرة صقلية) والاف الاطنان من الحلفاء تشحن اسبوعيا إلى انجلترا وامريكا وما تزال طرابلس العاصمة الكبرى لتجارة السودان وجميع منتوجات اواسط افريقيا تتدفق على شواطئها عبر طرق قوافلها التي ترجع إلى الاف السنين . والحياة تنشط في أسواق المدينة حتى منتصف النهار ، وبعد أن تتم كافة المعاملات التجارية فان الكسل يستولى على النفوس التي يلوذ بعضها بالاسوار العتيقة ، المقاهى أو المتاجر الكبيرة . . وهم يتحدثون (افصح) وأنقى لهجة بين سكان الشمال الافريقي.

ويهتم الرحالة بعد ذلك ببعض المظاهر ويعنى عناية خاصة بتسجيل بعض الملاحظات حول واقع المرأة العربية ويقارن بينها وبين المرأة اليهودية المقيمة في طرابلس . (فالبيت اليهودى يضج بالحركة والضحك أما البيت العربي فهو غامض مقفل) . . ومع ذلك فانه يلاحظ التشابه الواضح في اللهجة والعادات والتقاليد وفي الحلى وأدوات الزينة ويهتم بوصف العرس الاسرائيلى ويحضر عزفا

موسيقيا تؤديه فرقة عسكرية في الحديقة العامة المعروفة باسم (جنان الفريق) وقد راعه أن يكون هو الشخص الوحيد الذى يتابع هذه الانغام ويخلص من ذلك إلى عدم اكتراث الناس وعدائهم للاتراك واسلوبهم في الحياة (ان هناك هوة حقيقية تفصل العنصر الحاكم عن العنصر المحكوم . ان الاتراك الان دخلاء في نظر العرب كما كانوا تماما في بداية احتلالهم وان العرب لم يعد يهمهم نوع الدولة التي تحكمهم بقدر ما يهمم أن يزاح الحكم التركى . والجنود الاتراك يعيشون منعزلين عن السكان . ولهم حامية في الحصن البحرى وأربعة حصون صغيرة رملية موزعة بين طرابلس وقرقارش ، يمكن الاستيلاء عليها بالسلاح الابيض ، وبقية الحاميات الصغيرة الموزعة في الدواخل يمكن تعطيلها بسرعة . والعساكر فوضويون في لباسهم ومسلكهم . وليس فيهم سوى بعض الضباط الذين يتميزون بالاناقة والسلوك اللطيف الذى يخصون به الاجانب ، اما نحو العرب فانهم يحجبون كل أنواع المجاملة واللطف بل ان بعض جنودهم لا يتورعون خاصة في الدواخل عن ارتكاب المظالم .

وتقضي أهداف الرحلة بالطبع ، بان يهتم بواقع الوجود الايطالى في المدينة فيقول ان النشاط السياسي الايطالى قد تركز في المدارس وفي المستوصف الجراحى ، وهى أعمال جيدة ولكنها تترك السبيل لاطماع الدول الاخرى التي تهتم بالأشياء الجوهرية في الوقت الذى يقوم فيه الايطاليون بتعليم اللغة الايطالية لأبناء الجالية اليهودية وتمرينهم على نفقة ايطاليا على الأعمال التجارية التي سيقومون بها لصالح لندن وباريس . ان فرنسا لا تضيع وقتها في مثل هذه المشاغل ولكنها تزحف كل عام على الحدود وتحتل بعض الكيلومترات من الحدود الغربية تحت سمع وبصر الاتراك الذين لا يحركون ساكنا . .

وتعاوده روحه المسيحية فيتذكر ما كانت عليه هذه البقاع قبل الفتح العربي ولكنه لا ينسى وهو يختم انطباعاته عن المدينة توجيه النصيحة إلى المحتل القادم (ان الذى يريد أن يحكم هذه الديار عليه أن يحيط العقيدة ومعابدها

بالاحترام اللازم) . .

ويضيف بعض المساجد المعروفة ، ويبدى اعجابا خاصا بمسجد قرجى الذى يقول عنه أن العمل به قد استغرق اربعة عشر عاما، على يد بناء جزائرى، كما يصف سكرة وبساتينها وصفا لا يخلو من فن وشاعرية . . وقد كان لهذه البساتين المحيطة بالمدينة جوها الخاص الذى تناقلته الأجيال . .

وفي فبراير ١٩١١ ، وبالتدقيق في اليوم الثالث والعشرين منه حل بمدينة طرابلس الكونت اسكانيو ميكيل سفورزا السياسي الايطالى المعروف الذى ربطته فيما بعد صلات ودية مع بعض الشخصيات الوطنية . وهو غير الكونت سفورزا صاحب المشروع المعروف باسمه (مشروع بيفن سفورزا) الذى شغل منصب وزير الخارجية الايطالية بعد الحرب العالمية وكانت له مواقف مستميتة في محاولة استرجاع ليبيا أو أى جزء منها . .

ولم يكن الكونت سفورزا من الرحالة المحترفين ولكنه كان رجل سياسة واقتصاد جاء إلى ليبيا بمهمة واضحة وهى القيام بدراسة شاملة عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية بحجة البحث عن المعادن . ولهذه الرحلة أهمية خاصة إذ تم قبل الاحتلال الايطالى بقليل ، وقد اعتقل الكونت سفورزا اثناء الحرب ، ولم يفرج عنه الا بعد ذلك . ورحلته هذه التي عنونها بعنوان (ارتحال واعتقال) تسجيل لهذه الوقائع التي مرت به خلال هذه الفترة منذ أن وطأت قدماه التراب الليبي حتى اطلاق سراحه .

ولا نتوقع من انسان هذا شأنه ، ولم تكن الرحلة في ذاتها من غاياته وأهدافه ، أن يقدم إلينا صورة مكتملة عن الحياة العامة على النحو الذى نجده عند الرحالين الكبار ، ومع ذلك لابد أن نلاحظ للوهلة الاولى ، روح الاعجاب التي يحملها الكاتب ، للاسلام والتقاليد الاسلامية ، فهو يتميز على الاقل بمحاولة الاقتراب من البيئة التي يتصل بها في غير تعال واستخفاف ،

واستهانة نعثر عليها جميعها لدى كثير من الكتاب الاجانب ، ولعل مرجع ذلك إلى تربية راقية وبيئة رفيعة وثقافة عامة لا تنقصها الاحاطة أو محاولة التحليل فهو منذ اللحظة الأولى لنزوله بالمدينة يؤخذ ببعض المظاهر المحافظة فيفيض في الحديث عن التقاليد وقواعد المجاملة الشائعة في البيئات الاسلامية كما يسجل وفي شيء كبير من الحماس ما تميز به الاسلام بالنسبة للأديان الأخرى من تسامح ومن قبول للتعايش مع مختلف الملل والنحل فالدين الاسلامى برىء مما قد ينسبه اليه بعض الأجانب من المواقف غير الودية التي قد تبديها بعض المجتمعات الاسلامية ازاء بعض العناصر الاجنبية كما يقول الكاتب . والاحترام الكبير الذى توفر عليه الاسلام نحو الرهبان والراهبات ومختلف رجال الأديان الأخرى سواء كانت يهودية أو مسيحية يدل على روح التسامح الذى يتميز به الاسلام ، ويقول بانه من المعروف أن الاسلام قد استطاع في فترة قصيرة ان يستولي على أجزاء كبيرة من العالم وفي عصور تميزت بوحشية التعصب انما يعود إلى الروح المتسامحة للاسلام ويضرب مثلا على ذلك موقف عمر بن الخطاب من كنيسة القيامة بالقدس .

ويضطر الكاتب أن يقيم بالمدينة التي لم تكن هدفا لرحلته فترة طويلة ويعتبرها نوعا من الاقامة الاجبارية بسبب موقف السلطات التركية من البعثات الايطالية وتخوفها من النشاطات الايطالية المشبوهة ، ويبدى استياء من التمييز في المعاملة ، والفرق بينها وبين المعاملة التي يلقاها رعايا الدول الاخرى والتسهيلات التي تقدم اليهم من السلطات التركية . وقد كانت سلطات الولاية في ذلك الوقت تتشدد في السماح للايطاليين بالقيام برحلات إلى دواخل البلاد ولا تتيح لهم ما تتيحه للاخرين بالنظر إلى المطامع الايطالية السافرة في احتلال البلاد . وقد حضر الكونت سفورزا نفسه في اطار هذه المحاولة وبتمويل من بنك روما لاجراء اتصالات ، واعداد الأرض لمزيد من التغلغل السلمى . وما كان للسلطات التركية الا أن تقف منه هذا الموقف المتحفظ ، ومع ذلك فقد أذن له

بالتجول داخل البلاد ، وظفر سواء أثناء اقامته أو رحيله أو في اعتقاله بما يشبه المعاملة الاستثنائية بالنظر إلى مركزه العائلي الكبير.

ورغم هذه الاقامة التي طالت نوعا ما بمدينة طرابلس فان الكاتب لا يقدم لنا صورة كاملة عن المدينة أو الحياة العامة فيها وانما هي ملاحظات والماعات يبثها من حين إلى آخر اثناء عرضه لبعض أفكاره نستطيع أن نخرج منها بجملة من الانطباعات العابرة . فقد أخذ هو الاخر بمنظر المدينة حين أقبل عليها من البحر قادمًا من مالطا صبيحة يوم ٢٣ فبراير ويلاحظ كما لاحظ غيره ، الاجناس المتعددة التي تعج بها الأسواق في مدينة طرابلس ويحاول عبثا أن يكشف وجه امرأة خلال هذا الزحام فلا يوفق إلى شيء من ذلك ولا يبصر بها الامحجبة حجابا ثقيلا لا تبدو منه سوى عين واحدة . اما إذا كشفت المرأة عن عينيها كما تردد الروايات الشائعة في عهده — على ما يقول — فان ذلك يعني التصريح بالحب . . وهو أمر لم يكن له حظ الوصول اليه . . وقد زار الكاتب أهم معالم المدينة ولكنه لا يقدم وصفا لها ويستغرب من عدم وجود آثار رومانية عدا القوس الرومانية المعروفة ويلاحظ أن هناك فرقا واضحا بين الاحياء العربية في المدينة الهادئة الساكنة سكون الموت وبين الاحياء الاوربية وخاصة تلك التي يسكنها المالطيون واليونانيون بضجيجها الدائم وحاناتها العامرة التي تخلو منها الاحياء العربية — لحسن الحظ كما يقول — خلوا تاما وان الفرق بين الحيين يفوق التصور حتى لكأنها حياة أخرى ، كما يلاحظ أن هناك انفصالا يكاد يكون تاما بين العنصر العربي والعناصر الاجنبية وانه على الرغم من تسامحهم الديني وتعاملهم التجارى الا انهم ينطوون في أعماقهم على احتقار واستهانة بالتقاليد الغربية ويترجم أحد الامثال الشائعة (ما يجى من الغرب ما يفرح قلب) ويأخذه هنا بمعنى الغرب الاوربي . . وقد اتيح له أثناء جولاته بالمدينة أن يلتقي بأحد المثقفين وكان يحسن الايطالية ويتكلم الفرنسية بطلاقة ، وهو على درجة وافرة من المعرفة ، وفهم عنه تفضيله للثورة الفرنسية ولكنه كان يحقد على

الاوربيين لانهم كانوا سببا في كل ماحل بالاسلام من نكبات . . وهو أمر يمثل الاقتناع العام للمثقفين .

ويلاحظ وجود العديد من الصحف التي صدرت في هذه الفترة ، بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ويشير إلى ثورة تلك الصحف ضد رئيس الاساقفة اليونانيين الذى دعا في احدى صلواته الكنيسية للملك الاغريق ولم يدع للسلطان العثماني . وكان المصلون اليونانيون كمواطنين عثمانيين أول من احتج على هذا التصرف من القسيس كما دعت الصحف إلى محاكمته ولكن الحكومة اكتفت بابعاده .

كانت تصدر في ذلك الوقت ثماني صحف ويتحدث عن الترقي التي كان يصدرها محمد البوصيرى وهى جريدة سياسية تهتم بالمصالح الوطنية ولها مراسلون في مختلف انحاء البلاد . وتخرج يوم السبت وقد منعت السلطات الفرنسية دخولها إلى تونس نتيجة مواقفها المعادية للاستعمار الفرنسي . ويذكر المرصاد والعصر الجديد والكشاف والرقيب وابو قشه ثم طرابلس الغرب وهى الجريدة الرسمية ثم (تعميم حريات) التي كانت تصدر بالتركية ويسجل من مواقفها هجومها الدائم على قناصل ايطاليا وانجلترا وفرنسا وجميع الاجانب ودعوتها إلى اجلائهم كما كانت تنادى بالغاء المحاكم القنصلية .

ويصف لنا حفلا رسميا دعي لحضوره بقصر الهاني أعلن فيه الوالى ابراهيم باشا التجنيد الاجبارى. وقد اقيمت معالم الزينة على الطريقة المحلية وحضر الضباط والاعيان وجميع فئات الشعب . وقد اخذ بمنظر الوالى الذى كان يحيط به جميع أفراد الشعب من مختلف طبقاتهم دون تمييز بين فقيرهم وغنيهم ، رفيعهم ووضيعهم ، ويقول ان هذا المشهد كان جديرا حقا بالاعجاب وان قليلا من الفرص يمكن أن تتاح لى لأكوّن فكرة عن ذلك الشعور بالمساواة الذي يسود بين المسلمين الذين استطاع القرآن عبر الاحقاب أن يصوغ نفوسهم بهذا الشعور المحبب اللطيف . . ثم يتحدث عن التنظيم الادارى والاسس التي يقوم

عليها ووظائف المتصرف والقاضي والمحاسب ومدير التحريرات .

ويتحدث عن البحارة العرب احفاد رجال البحرية الاسلامية القديمة وما يتميزون به من جرأة وقدرة على ركوب الاخطار ويقارن بينهم وبين البحارة اليونانيين الذين كانوا يقومون بصيد الاسفنج ويملأون الحانات البحرية بصخبهم وضجيجهم ويندد بفقرهم وقذاراتهم وامراضهم الناشئة عن حرفة الغطس ويقارن بينهم وبين البحارة العرب فيقول ان المقارنة بينهم وبين البحارة العرب تنتهى لمصلحة العرب فهم أكثر صحة وعافية ولا يسكرون وهم رغم اسمالهم البالية يتفوقون على اليونايين بنظافتهم واغتسالهم الدائم واحتشامهم واستقامة سلوكهم .

هذه هى مجمل انطباعاته عن المدينة ويبدو بشكل واضح أن المؤلف لم يكن منصرفا إلى الاهتمام بملامحها العامة وان مارصده منها لا يزيد على انطباعات مباشرة بسيطة اذ كان همه كله منصرفا إلى دراسة الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية الداخلية وهو يعني عناية خاصة بالتركيب الاجتماعى .

وفي اطار الحملة الكبرى التي مهدت للغزو الايطالى ، وعملت على تهييج واثارة الرأى العام الايطالى ودغدغة مشاعره الوطنية باحلام وهمية عظيمة في أرض موعودة ، قام عدد من الصحفيين والسياسيين الايطاليين بزيارة ليبيا ، خاصة ، خلال السنتين الاخيرتين من العهد العثماني ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الصحفيين لا يحسبون ضمن الرحالة الا ان انطباعاتهم ومشاهداتهم ذات أهمية في تصوير الحالة العامة خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ المدينة التي كانت تتابع الاحداث السياسية بقلق بالغ وتوتر شديد . .

وقد كان في مقدمة الزائرين السياسي الايطالى المعروف هنريكو كوراديني زعيم الحزب الوطني الاستعمارى المتطرف الذى قاد الحملة الاعلامية لتحريض الرأى العام الايطالى على المبادرة إلى احتلال ليبيا . وقد كان كوراديني من غلاة

الاستعماريين الايطاليين ومن أكبر ممثلي الفكر الاستعماري الايطالي الحديث .
كرس جهوده لهذه الدعوة ، وتفانى من أجلها وعمل على الترويج لها بخطبه الحزبية ومقالاته الصحفية . وقام من أجلها في يوليو ١٩١١ بزيارة إلى ليبيا أي قبل أشهر قليلة من الغزو ، حيث زار مدينة طرابلس (آخر العواصم الاسلامية على ساحل الشمال الافريقي) (تلك المدينة التي تفتح ذراعيها للقادم من اوربا) (انها مدينة بيضاء ككل المدن العربية ، تتوجها أشجار النخيل ، ومظهرها الأولي جميل ولطيف) وعندما يجوس خلال شوارعها يقول (انها ليست مدينة ولكنها قرية عربية كبيرة ليست لها سمة اوربية) . . (يمكن أن تصبح مدينة طرابلس واحدة من أجمل مدن البحر الابيض المتوسط اشترك البحر والصحراء في رسم ملامحها . فلا أحد بقادر على وصف جمال القوس الذي يحيط بمرفاها ، ولا أحد بقادر أن يصف جمال التاج الاخضر الذي تكلله به نخيلها ، واشجار زيتونها ولا أحد بقادر على التعبير عن جمال طقسها ولطفه) . .

ولا يعني كوراديني بالحياة العامة في المدينة ، فقد كان اهتمامه منصرفا في المقام الاول إلى التعرف على الامكانيات الموعودة التي تمثلها الاراضي الليبية . وقد بالغ في تصوير هذه الامكانيات وأوهم القارئ الايطالي انه أمام جنة موعودة ويحاول أن يتحسس النواقص ويستشعر الحاجات الضرورية لتطويرها من أجل تحقيق أوفر قدر من الراحة للايطاليين الذين كانوا يتهيأون للوثوب عليها ، فيقول في وقاحة نادرة ، وفي عري فاضح : (انني لا أكتب ذلك من أجل أهداف انسانية تتوجب على ايطاليا نحو سكان طرابلس الغرب . ذلك ان ايطاليا ينتظرها واجب احتلال هذه البقاع من أجل أسباب ومبررات خاصة بها تتعلق بمصالحها وضروراتها في البحر الابيض المتوسط ولكنني أكتب لأبين الحالة التي وجدت عليها عاصمة طرابلس الغرب في يوليو ١٩١١) . .

وقد طاف بشوارعها ، وزار ضواحيها ، ووقف عند منطقة آبار أبي مليانة حيث التقى للمرة الاولى بمشهد الصحراء . . ولم يعرف من الفيل الاذيله ومن

البحر الاشاطئه الذى غرقت فيه أحلامه وأحلام النزهة البحرية ، بعد قليل من هذه الزيارة . .

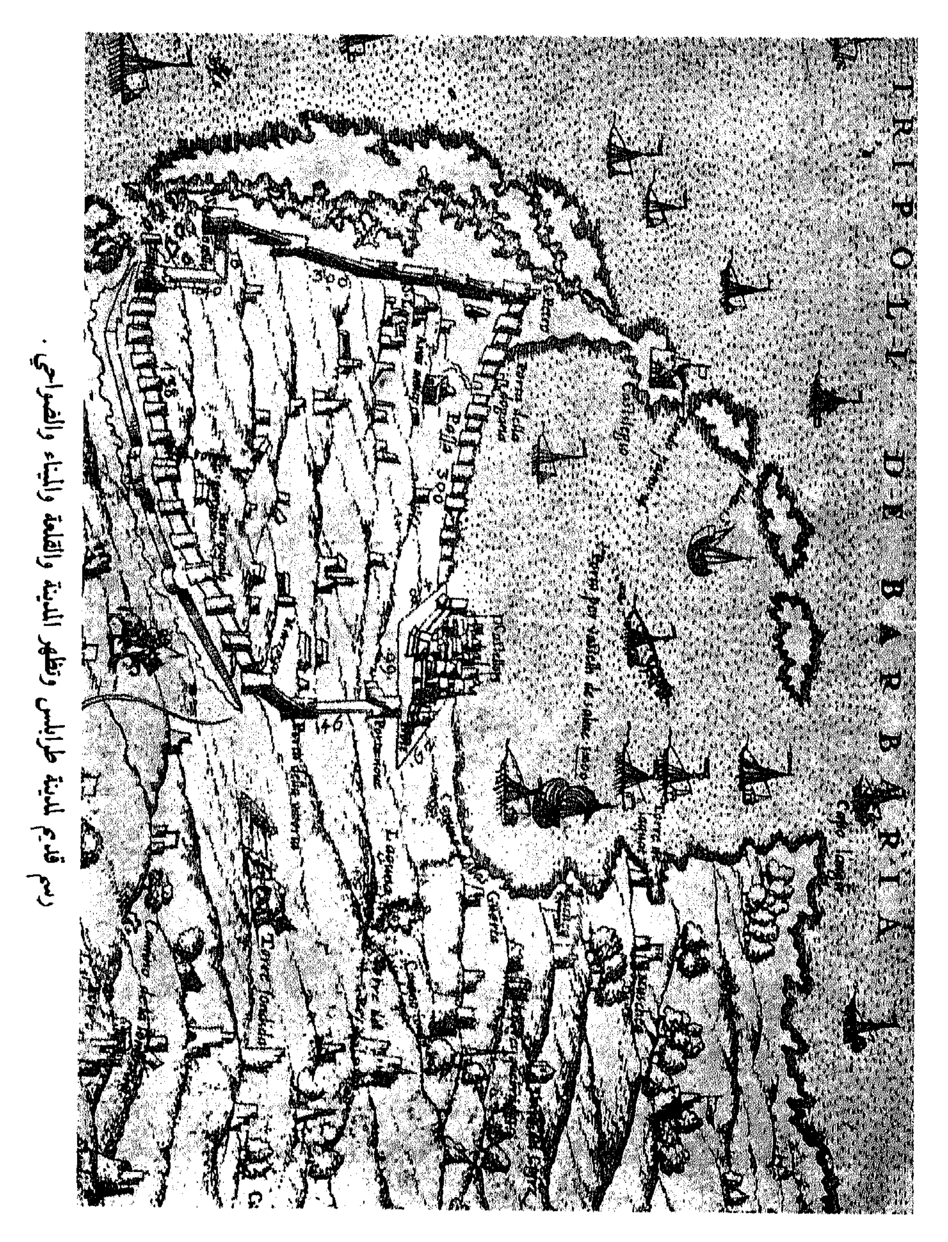
وفي اطار الحملة الاعلامية وتهيئة الرأى العام الايطالى ، تدخل ايضا انطباعات الصحفي جيوسبي بياتزا صاحب الكتاب المعروف باسم (الأرض الموعودة) والذى جمع مقالاته التي نشرها في صحيفة (ستامبا) المعروفة التي تصدر في تورينو . وقد كان هذا الصحفي من الاقلام التي أدانها المؤرخون الايطاليون المنصفون بتهمة تضليل الرأى العام الايطالى وتحريضه على العدوان ، واغرائه باحلام خيالية ، لم تلبث أن تحطمت على أرض الواقع سواء بمبالغته في تصوير الاستعداد المزعوم للشعب الليبي لاستقبال الاحتلال وتضخيمه للامكانيات الاقتصادية التي تتوفر عليها البلاد آنذاك .

ويهمنا من هذه المقالات ، بعض الانطباعات المتفرقة التي رصدت بعض مظاهر الحياة العامة في المدينة ويستوقفنا من ذلك وصفه للحركة الصحفية التي شهدتها المرحلة الاخيرة من العهد العثماني الثاني واقبال الجمهور على هذه الصحف . فيقول (ان من الدلائل الرئيسية على القدرة الكبيرة على تشرب واستيعاب المدنية الحديثة لدى هذا الشعب تتمثل في تلك العلاقة القائمة بينه وبين الصحافة التي تصدر ببلاده . فمنذ أعوام قليلة لا تزيد على ثلاثة ، أى قبل صدور الدستور ، كان الحديث عن الصحافة والصحفيين في طرابلس شيئا يشبه اللعنة ، فقد كانت الورقة المطبوعة حتى ولو كانت مما يستعمل في تغليف الجبن عرضة للمصادرة من أيدى الوطنيين . وكل ورقة ، وكل كتاب يتحدث عن الاتراك بشئ أو عن طرابلس في ظل حكمهم يحرق أو يمزق . . واليوم ، وفيما لا يزيد على ثلاثة أعوام توجد بطرابلس ثماني جرائد تصدر بصفة منتظمة . . اثنتان منها باللغة التركية (طرابلس الغرب وتعميم حريات) وثلاث عربيات (الترقي والمرصاد وأبو قشة) وواحدة عبرية واثنتان ايطاليتان (صدى طرابلس والاقتصادى) . وتصدر جميعها اسبوعيا . وإذا اخذنا في الاعتبار عدد

السكان في المدينة ونسبة المتعلمين تبين لنا أن هذا العدد من الجرائد هائل حقا واخراجها ليس متطورا عدا الترقي وهي أرصن الجرائد العربية ولها مطبعتها الخاصة ولا يبلغ السحب الالف العاشرة . ولكن الحماس لها شديد .

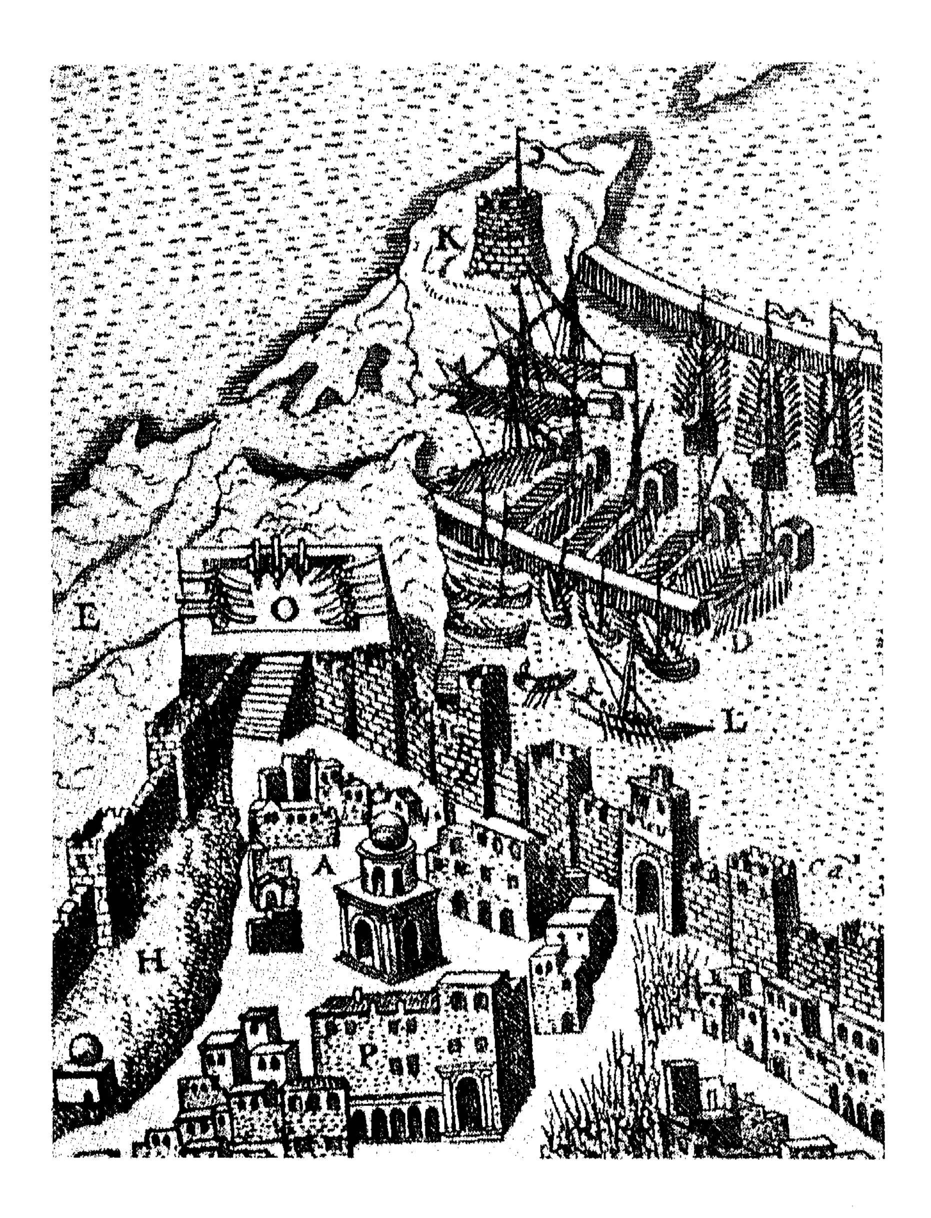
وقد اضطر صاحب جريدة (أبو قشة) إلى أن يبيع منزله من أجل أن تواصل جريدته الصدور . . والذى يجعل من هذه الجرائد أدوات هامة لا يمكن اغفالها أو التقليل من تأثيرها كوسيلة للاعلام والتمدين الطريقة التي تقرأ بها . فالقراء الحقيقيون قلة . ولكن كل قارئ محاط بجماعات كبيرة من الاصدقاء والمستمعين الذين يتحلقون حوله ، ينصتون لقراءاته بصوت عال . فما تكاد تصدر الجريدة حتى تشاهد في كل نقاط المدينة ، وحول موائد المقاهى التركية وفوق الحصر العربية بالشوارع ، وفي المتاجر والدكاكين جماعات ، جماعات تصغى إلى اخبار الجريدة وتعلق عليها) . .

مشاهد تاريخية مصورة من مدينة طرابلس

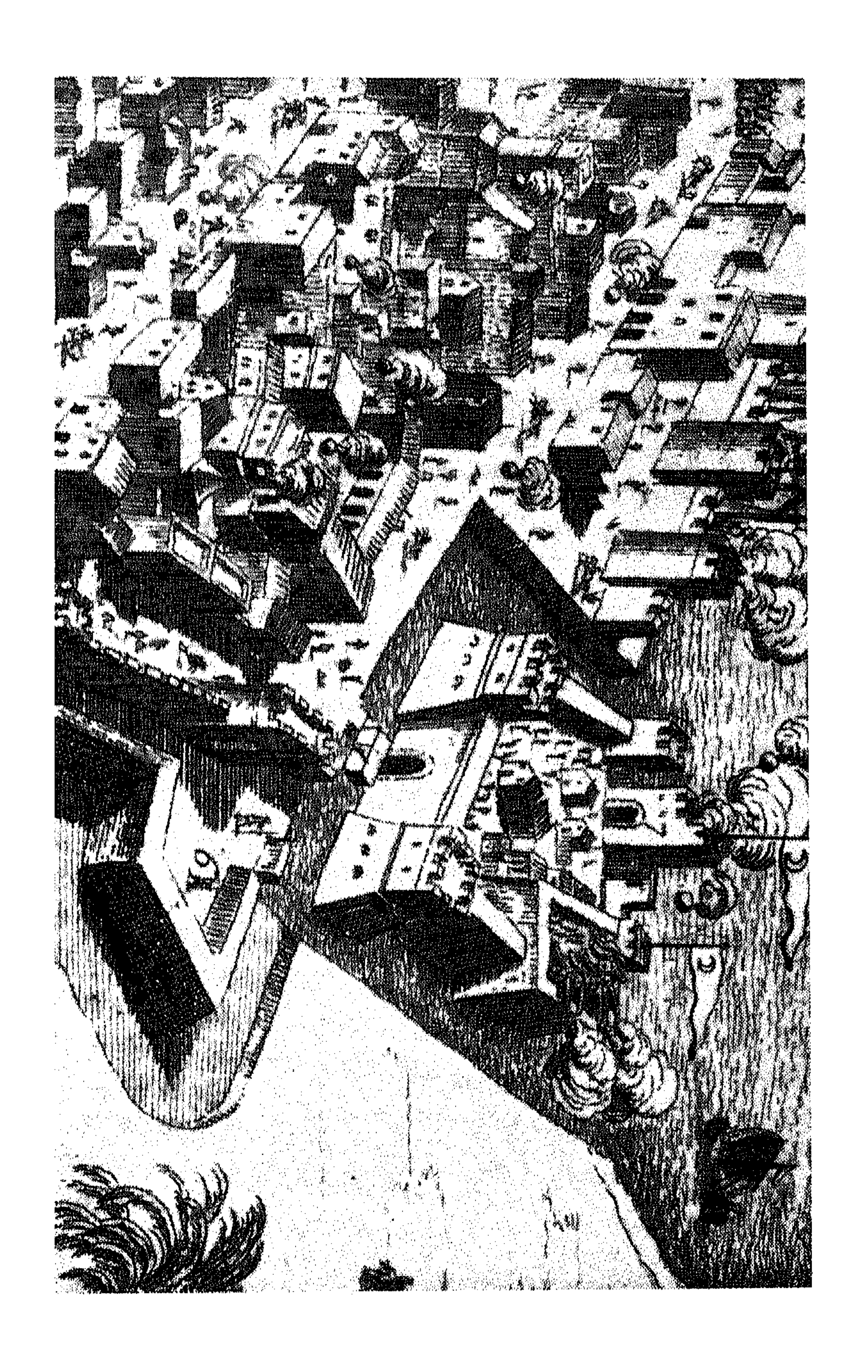


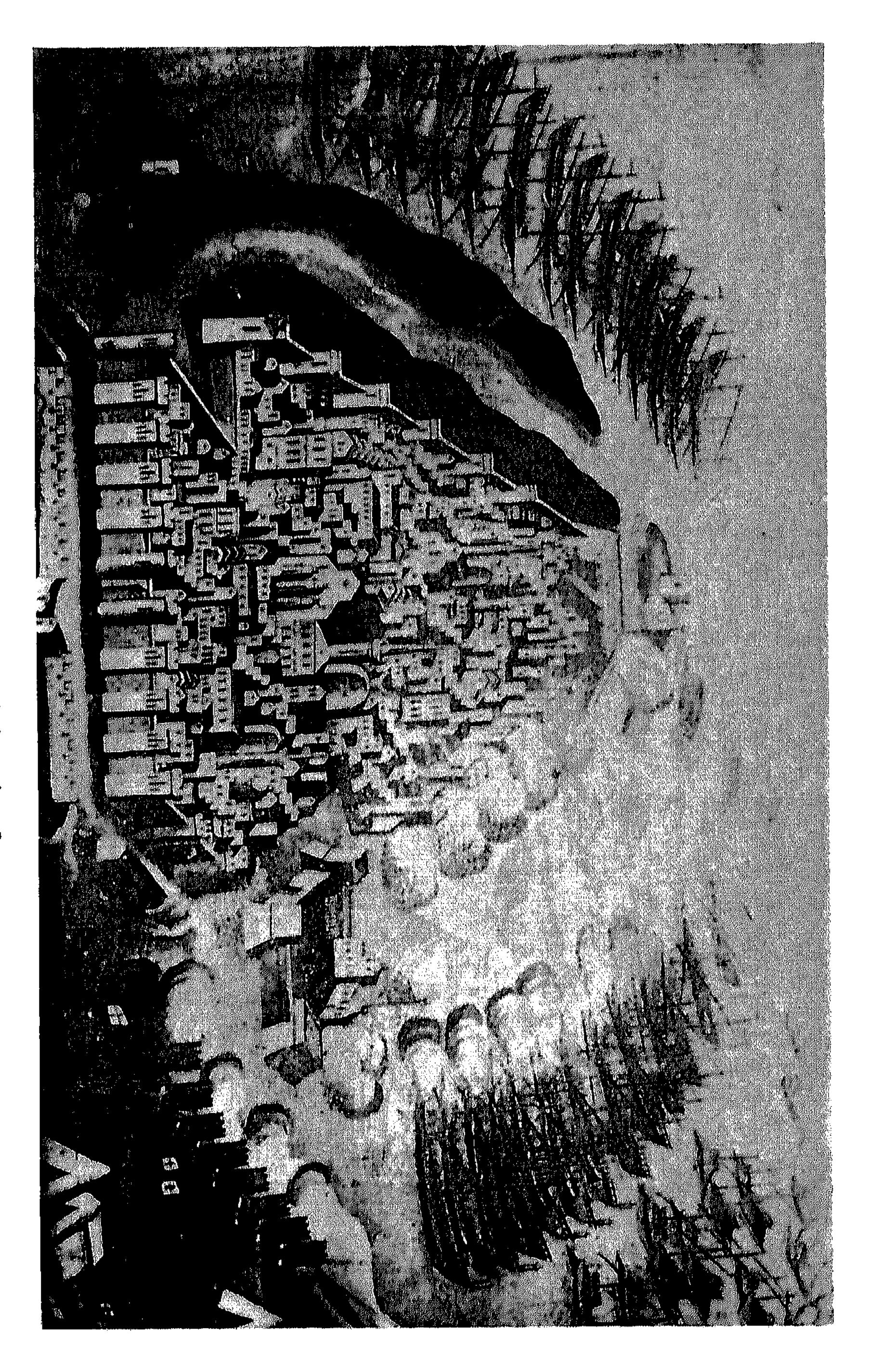
رسم قديم لمدينة طرابلس وتظهر المدينة والقلعة والميناء والضواحي.

رسم قديم لمدينة طرابلس.



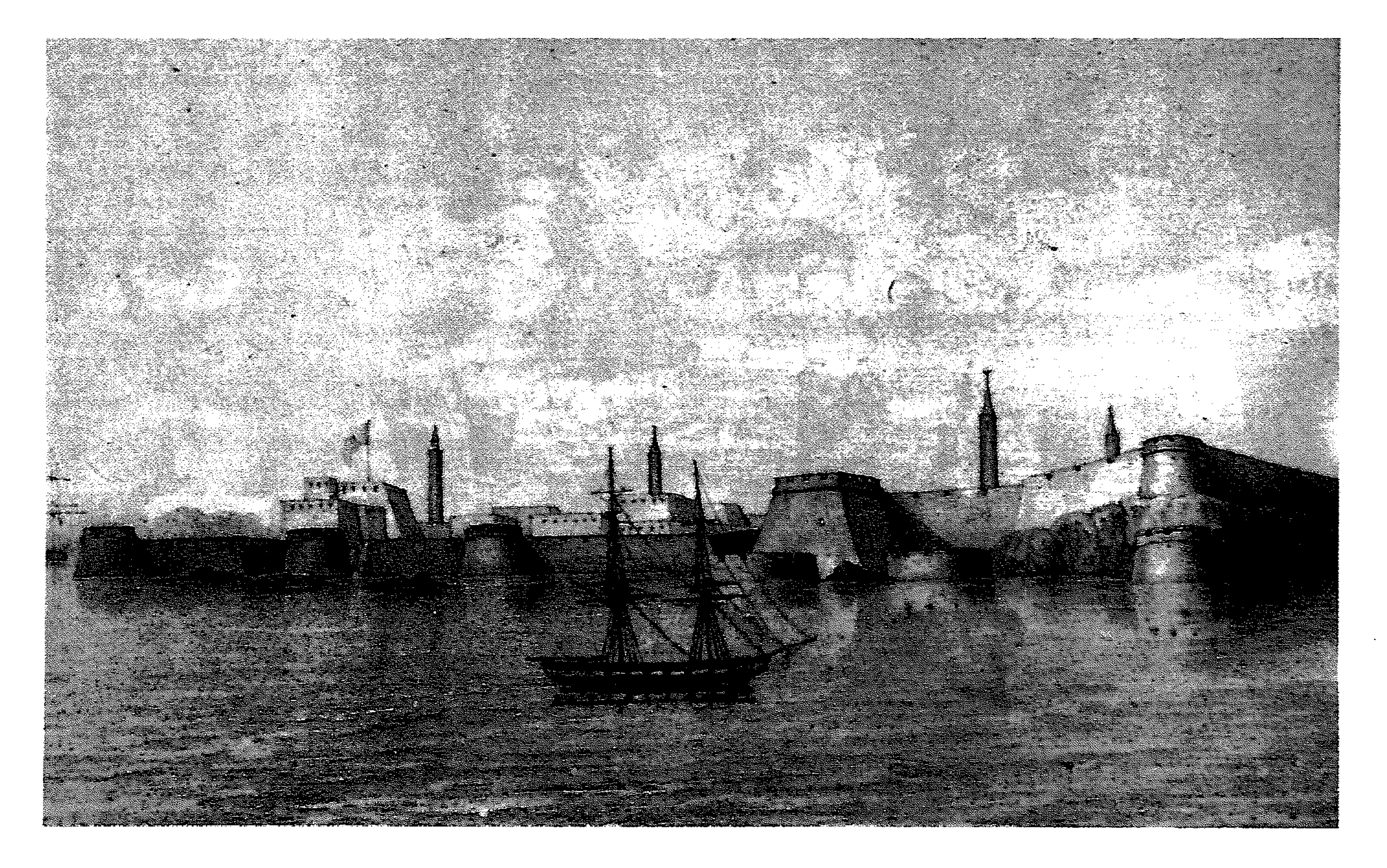
تفصيل من رسم قديم لمدينة طرابلس ويظهر في الرسم قصر درغوث





رسم قديم لمدينة طرابلس وتبدو به القلعة .

الضريح القديم لسيدي الشعاب .



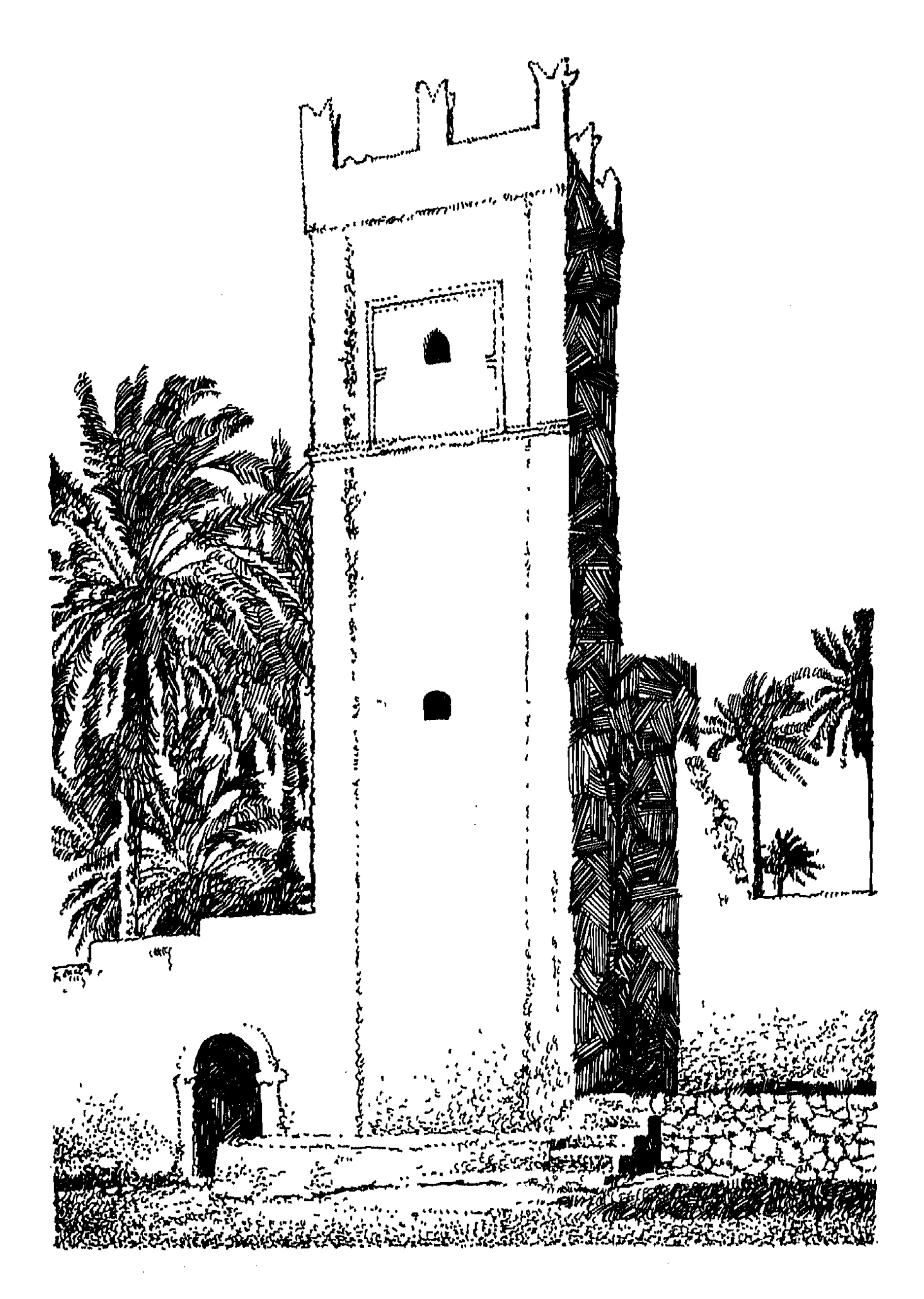
رسم قديم لميناء طرابلس وأسوارها .



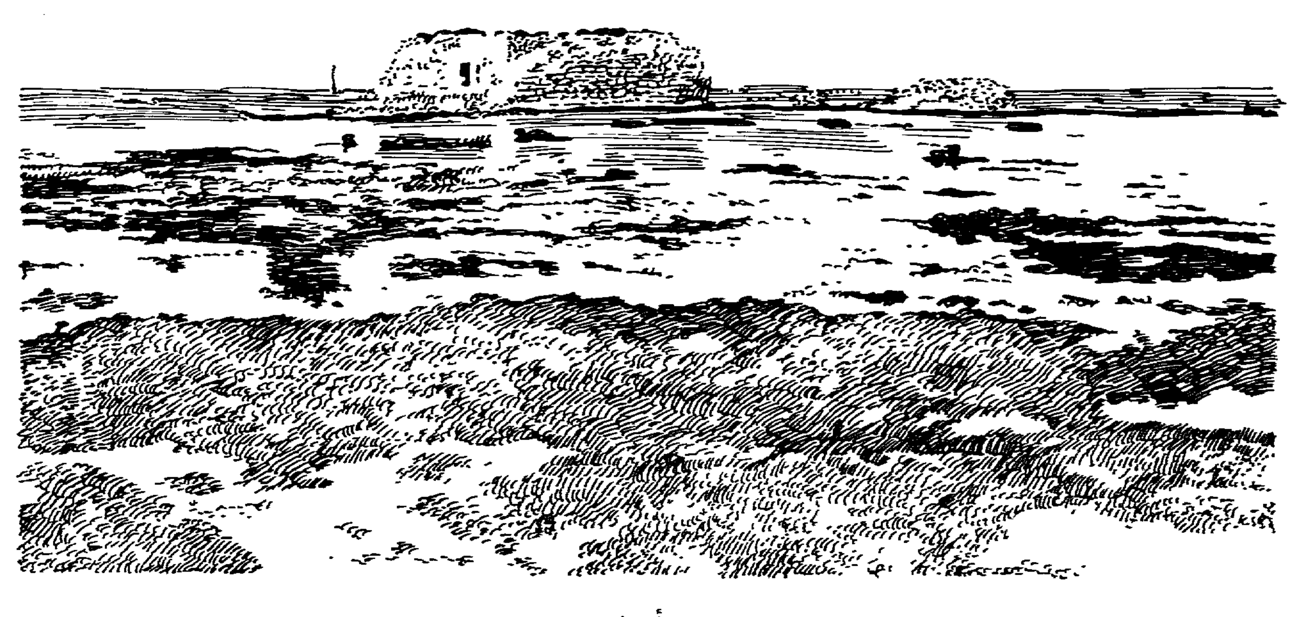
هجوم بحري على مدينة طرابلس.

برج أبي ليلى .

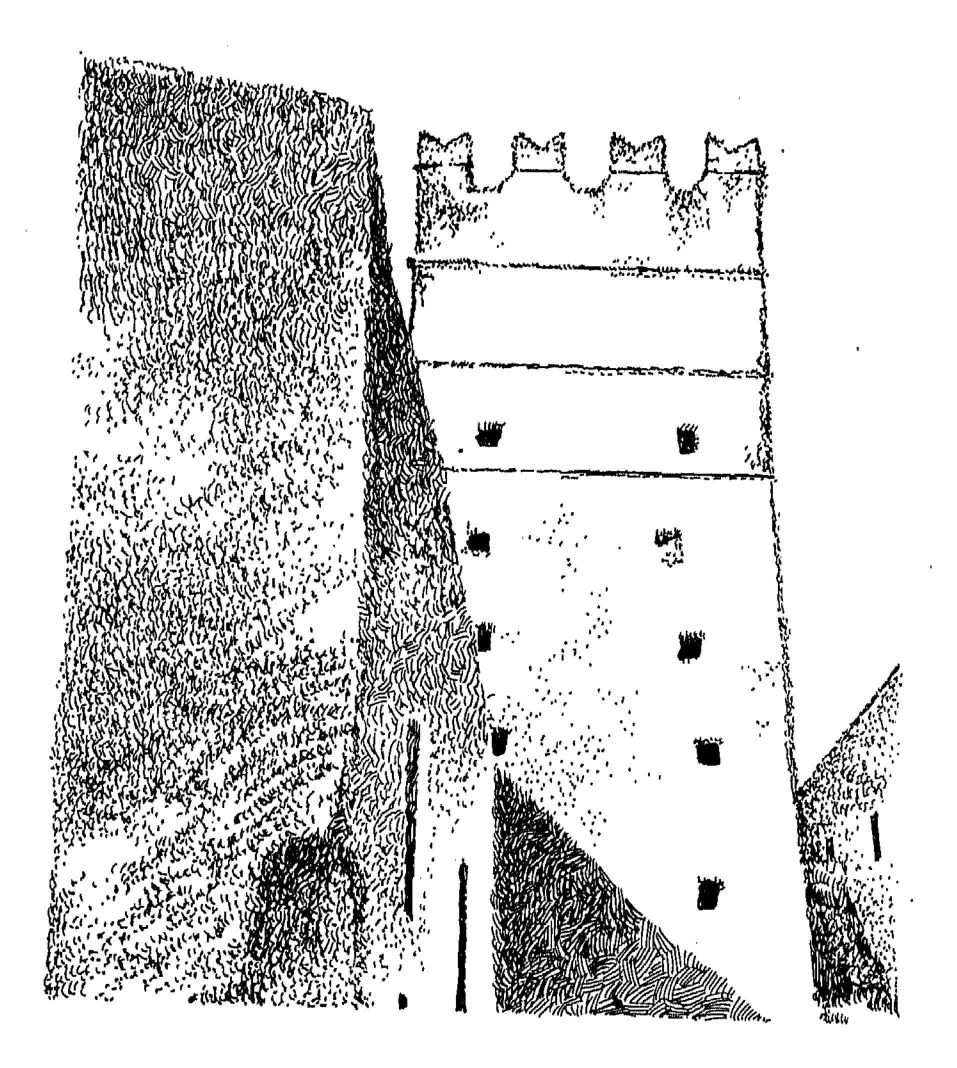
قلعة طرابلس كما كانت تبدو .



صومعة جامع مولای محمد .



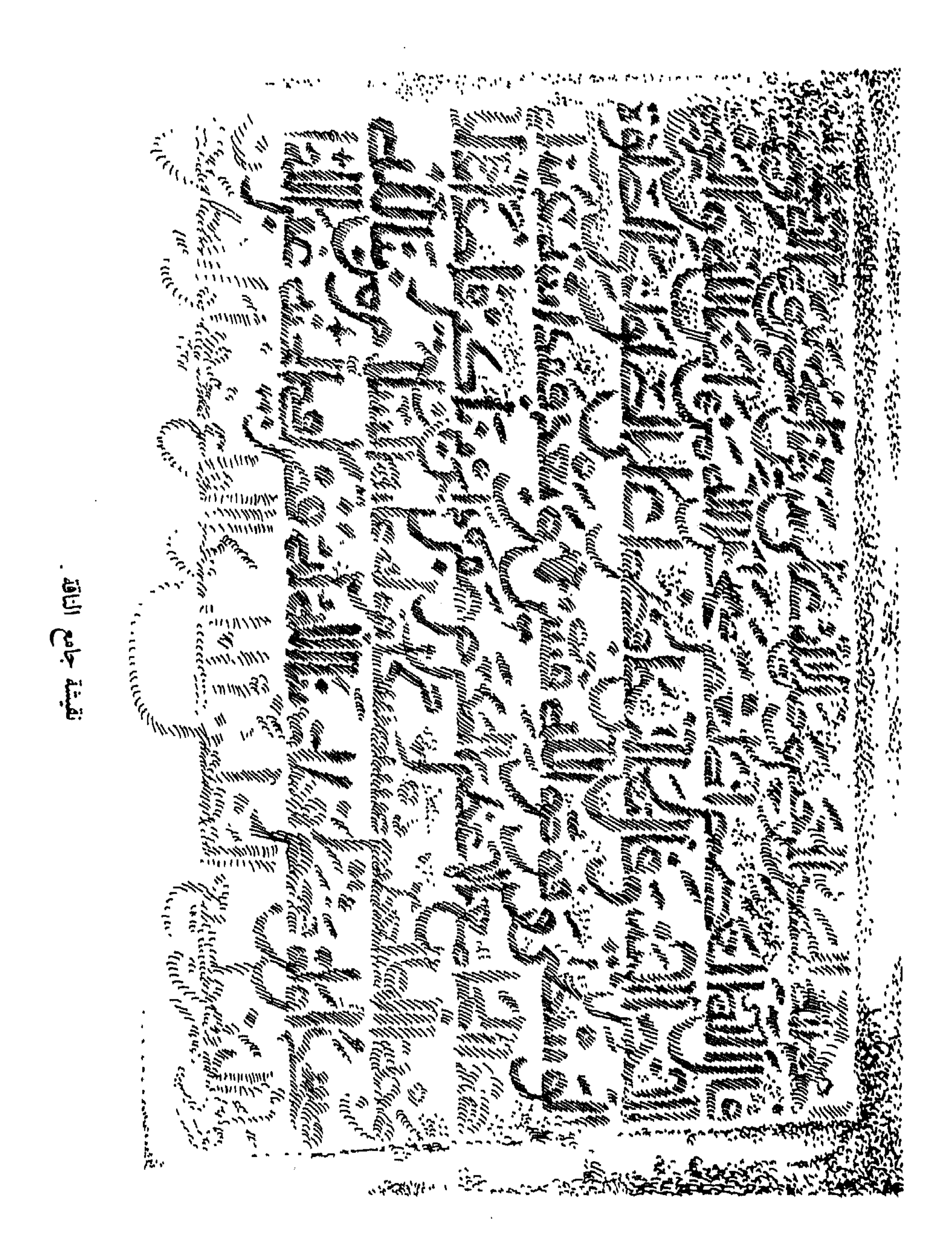
برج أبي ليلى.



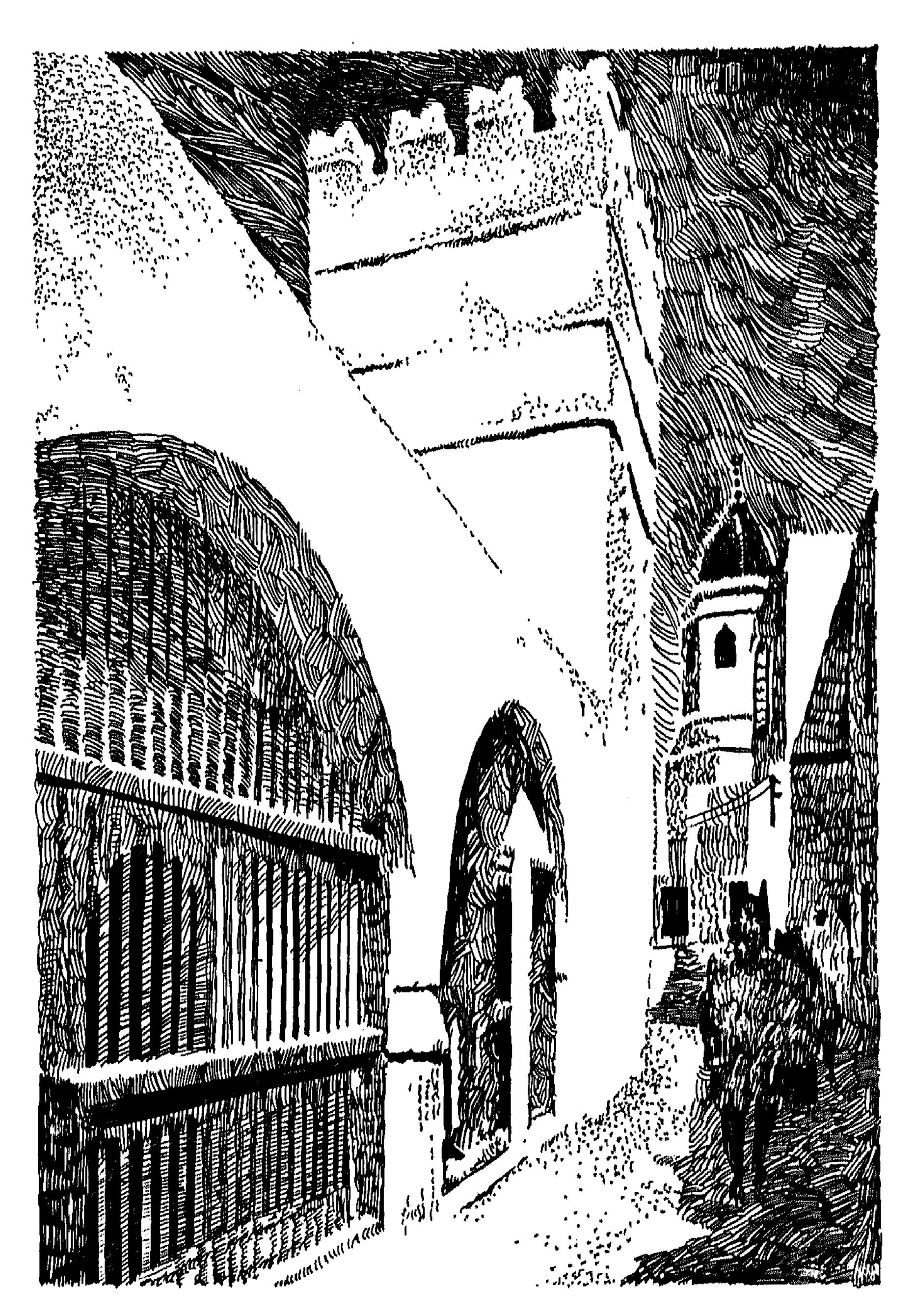
مئذنة جامع الناقة .



جامع مراد آغا .



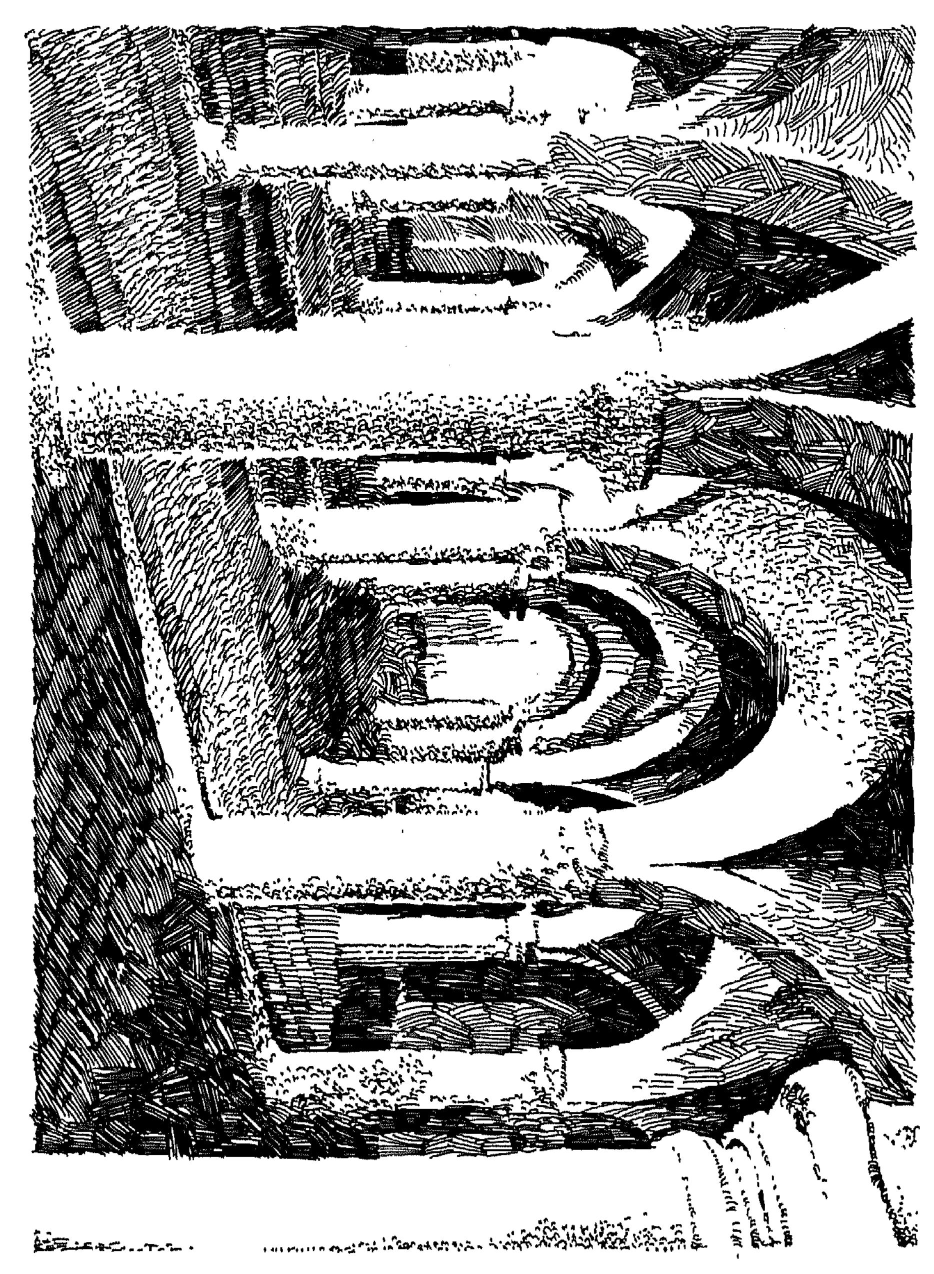
نقيشة جامع الباقة.



جامع الناقة .

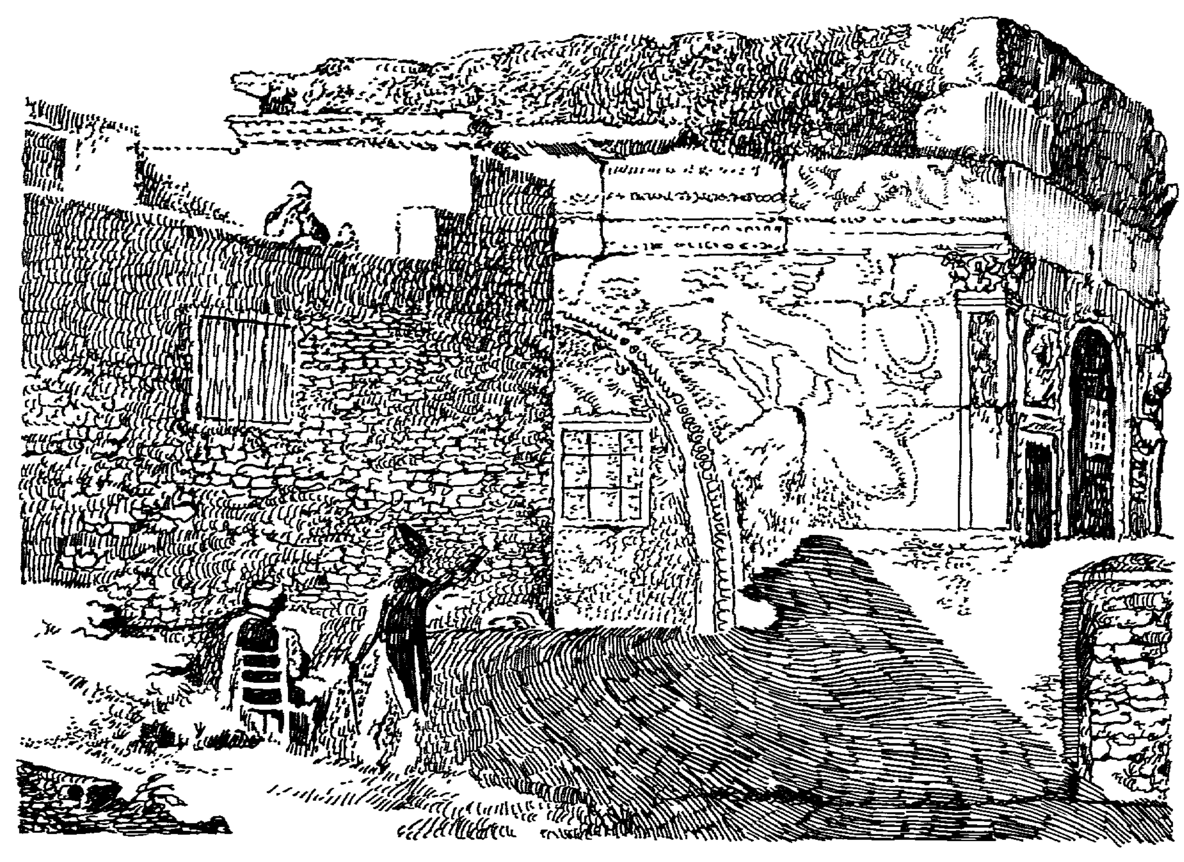


صحن جامع الناقة .

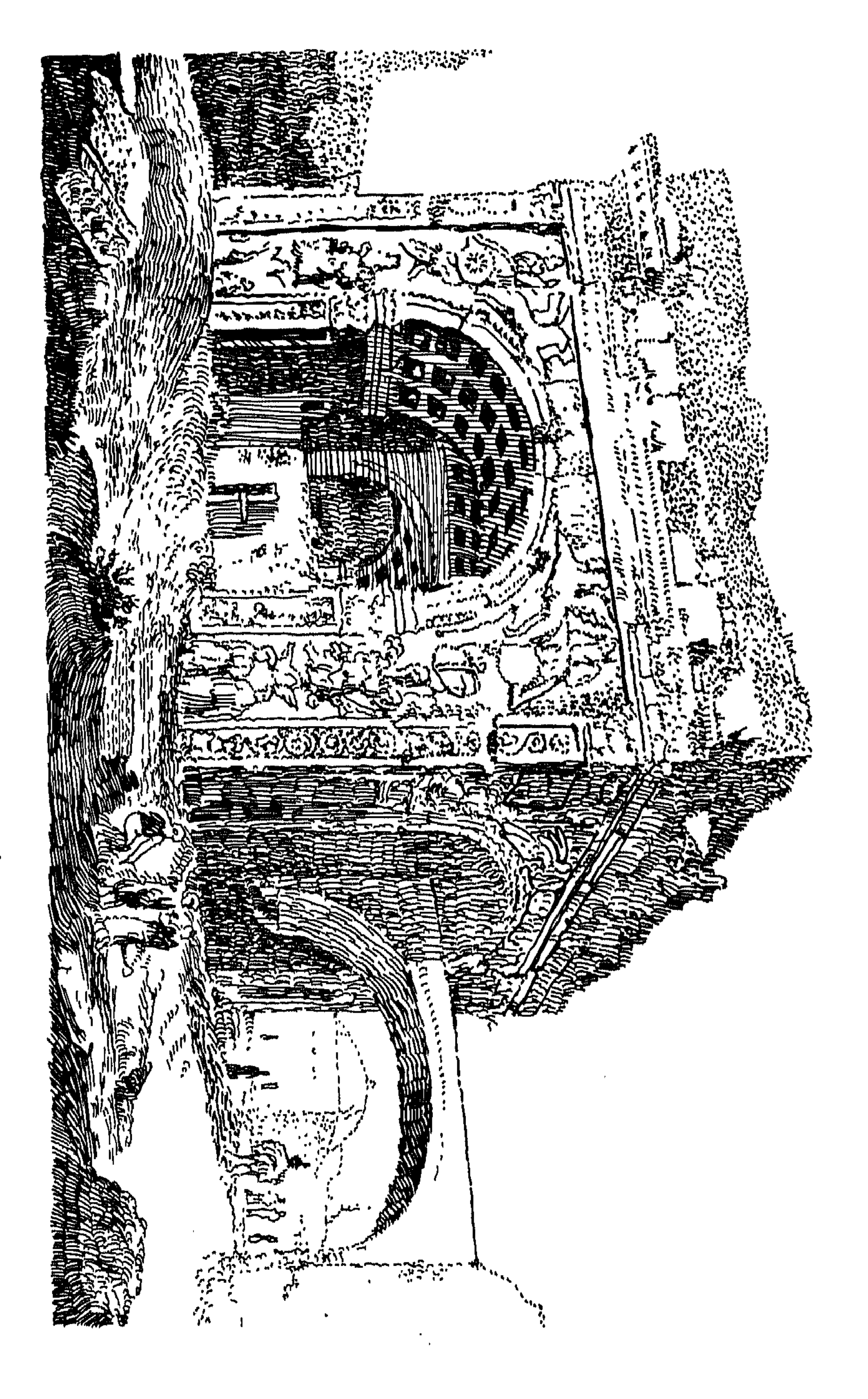


جامع الناقة .

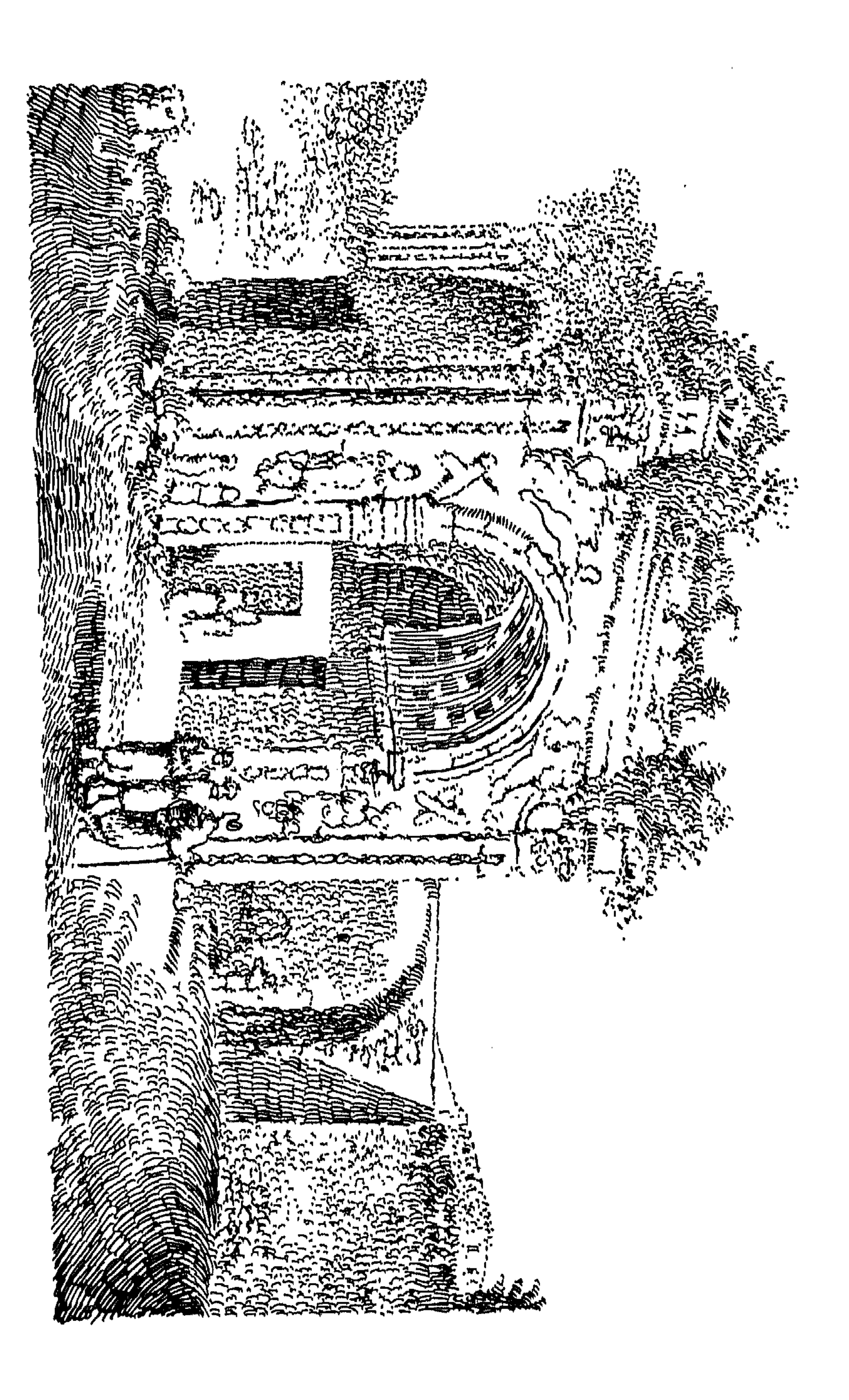
قوس ماركوس أوريليوس كما يبدو في رسم لبروس ١٧٦٦ م



قوس ماركوس أوريليوس كما يبدو سنة ١٨٦١ م .

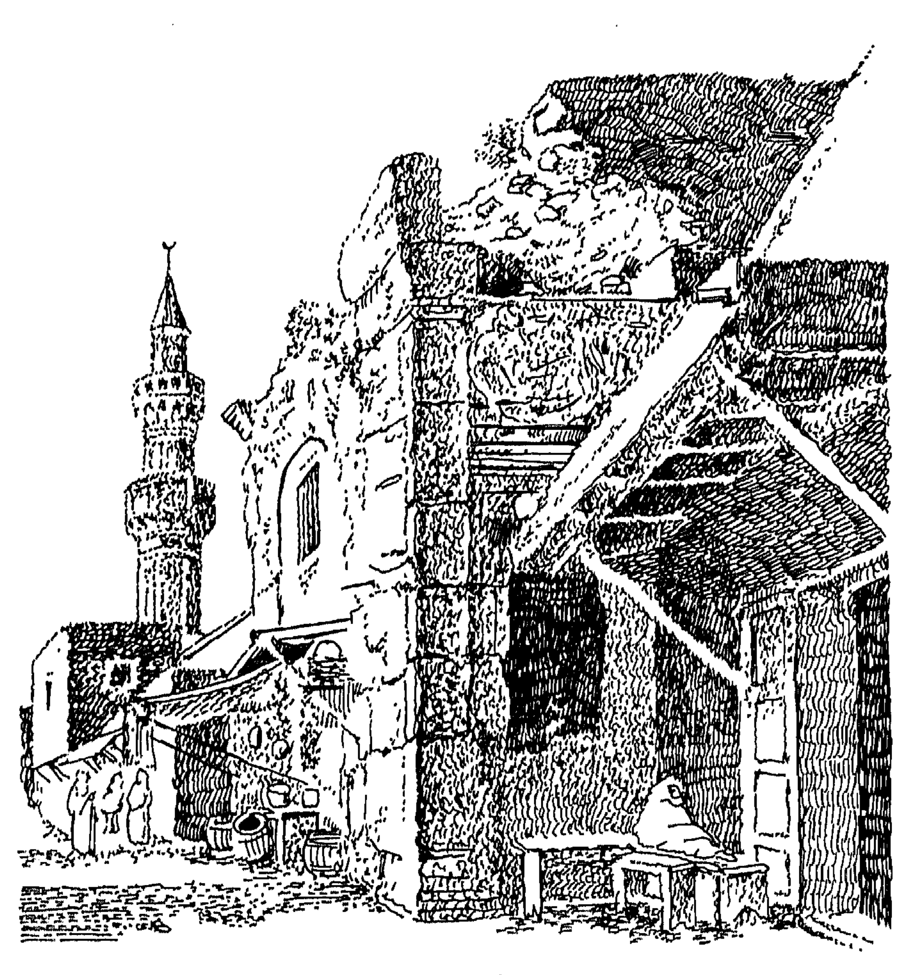


قوس ماركوس أوريليوس كما يبدو في القرن السابع عشر.

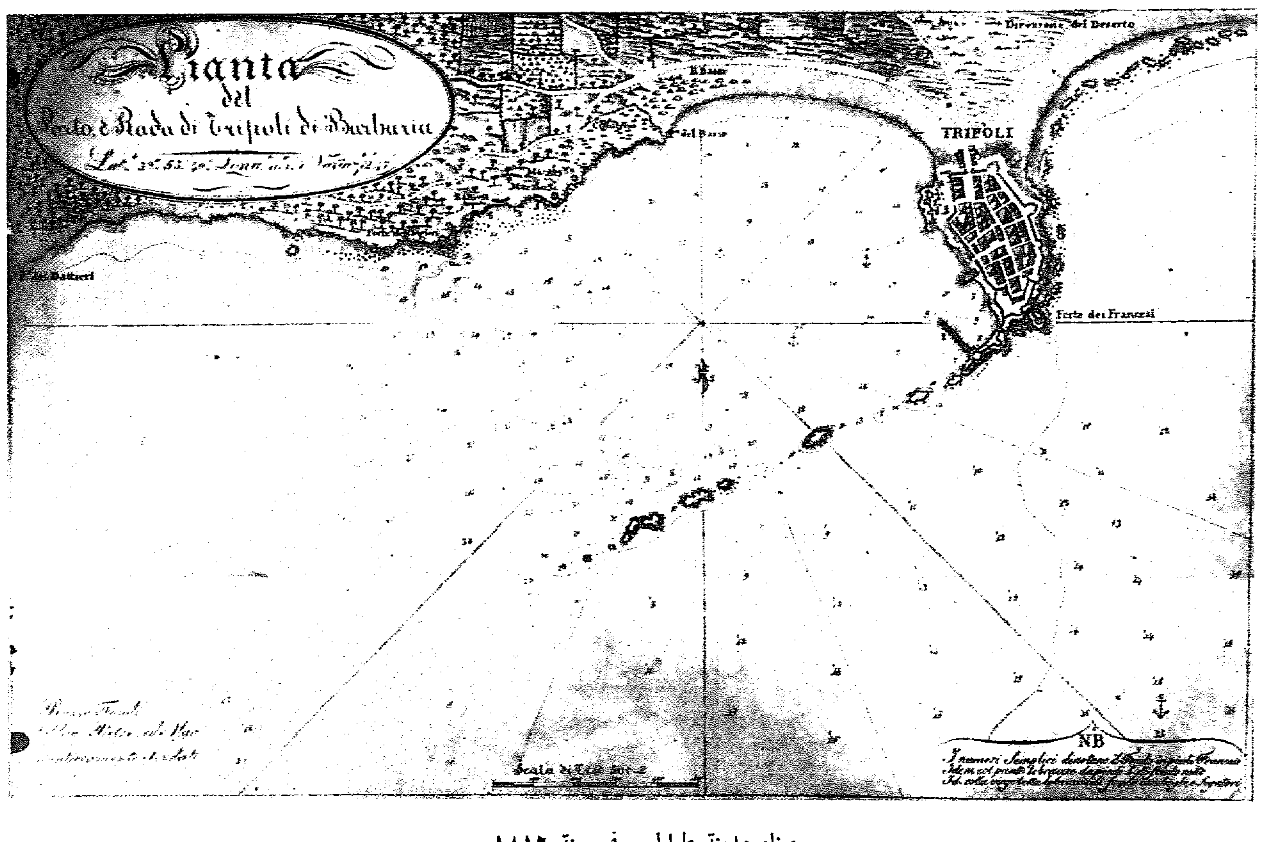


قوس ماركوس أوريليوس كما يبدو سنة ١٨١٦ م.

قوس ماركوس أوريليوس كما يبدو سنة ١٨٦٢ م.

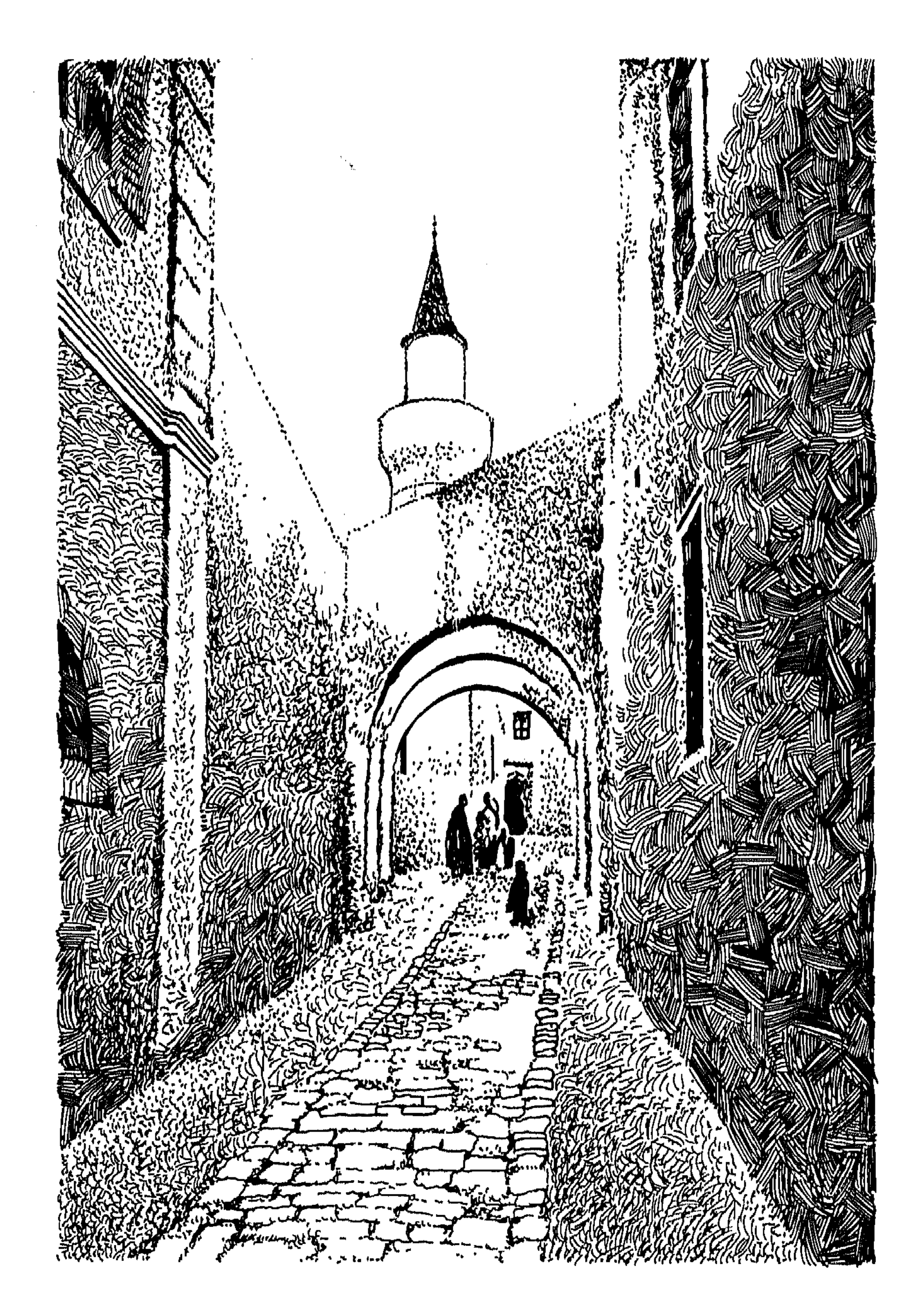


قوس ماركوس أوريليوس سنة ١٨٧٣ م.

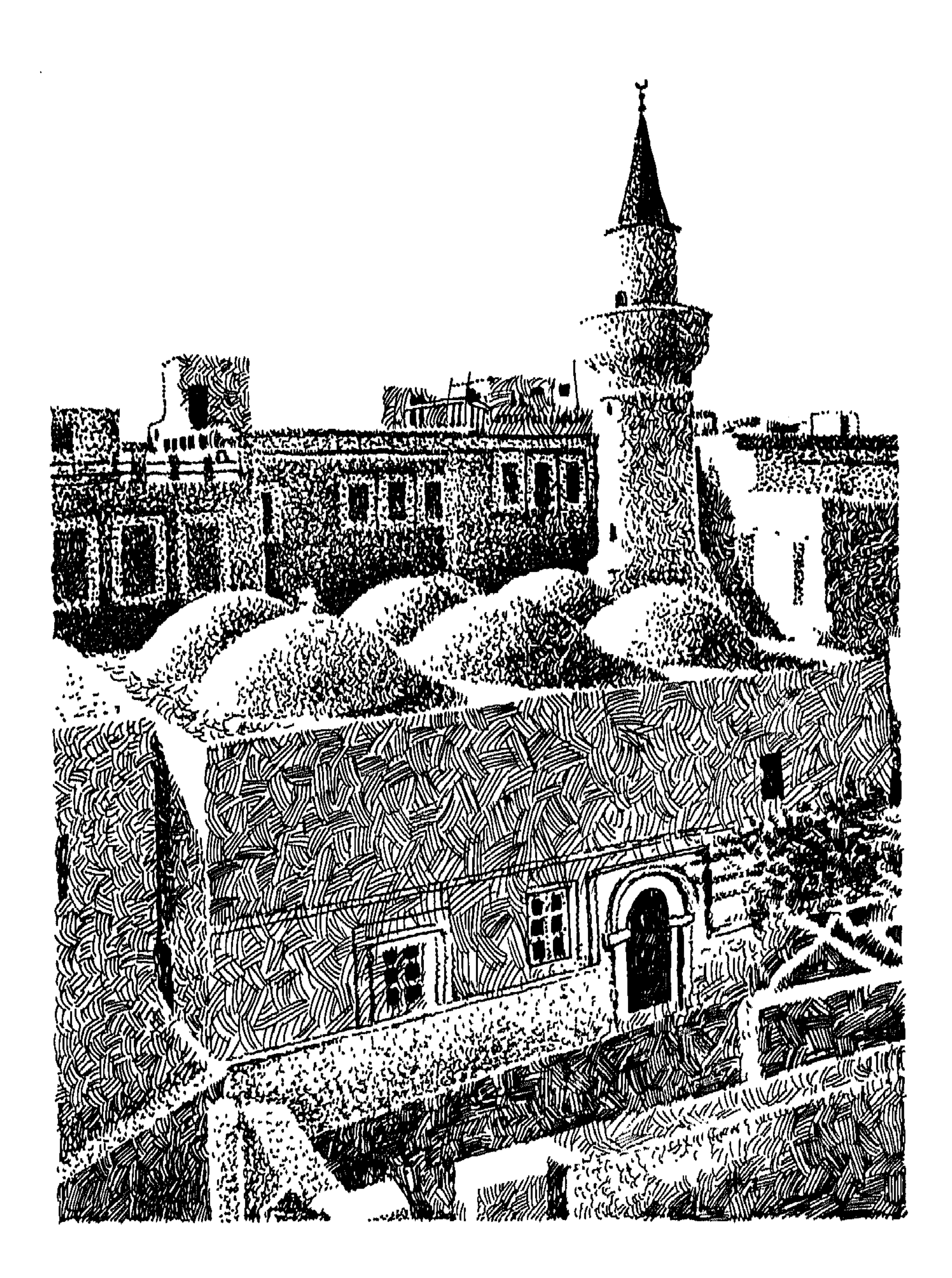


ميناء مدينة طرابلس في سنة ١٨١٦م.

رسم لمدينة طرابلس سنة ١٨٦٠ منطقة الغزالة وتظهر القلعة.

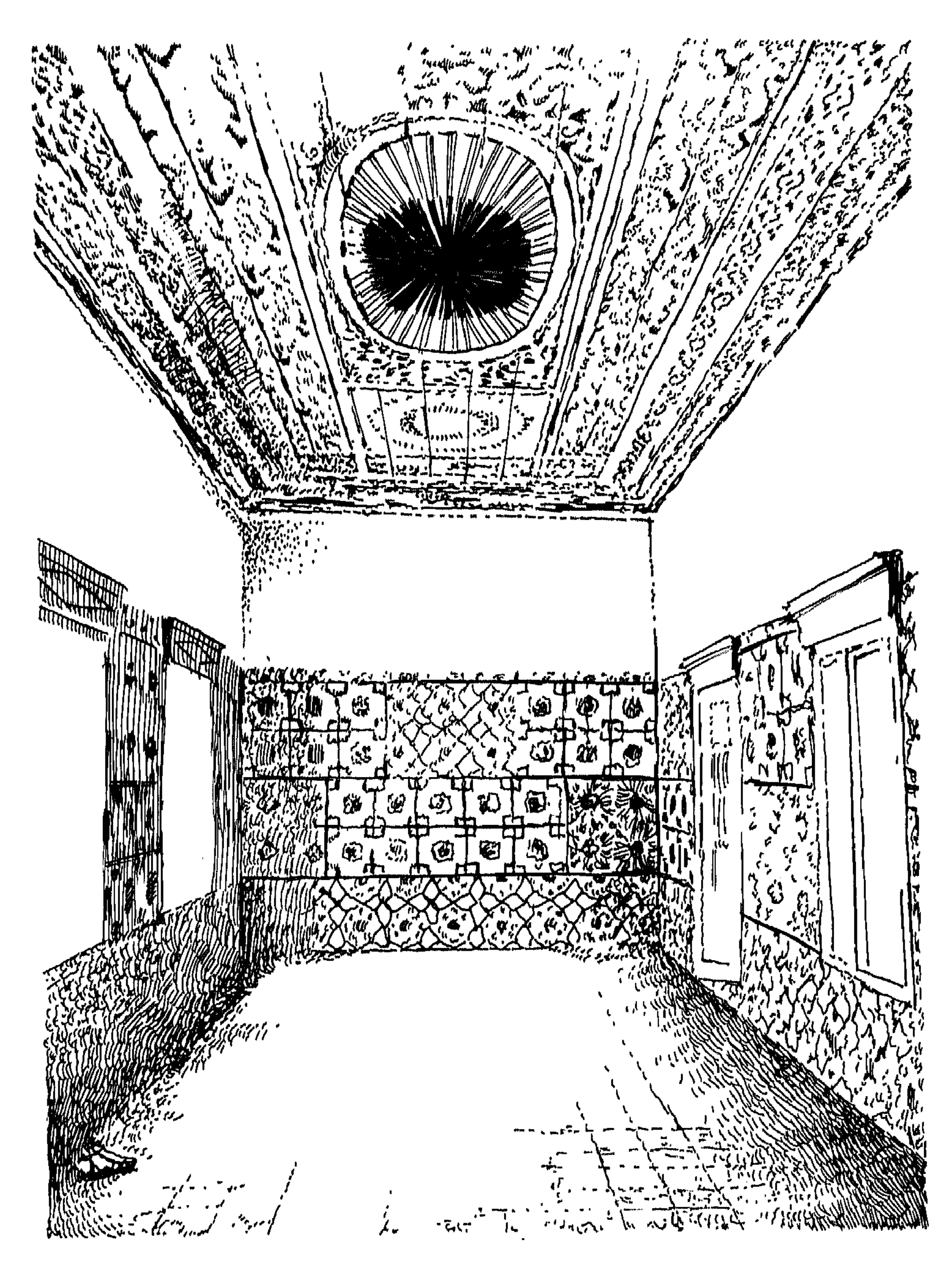


طريق سيدي سالم .

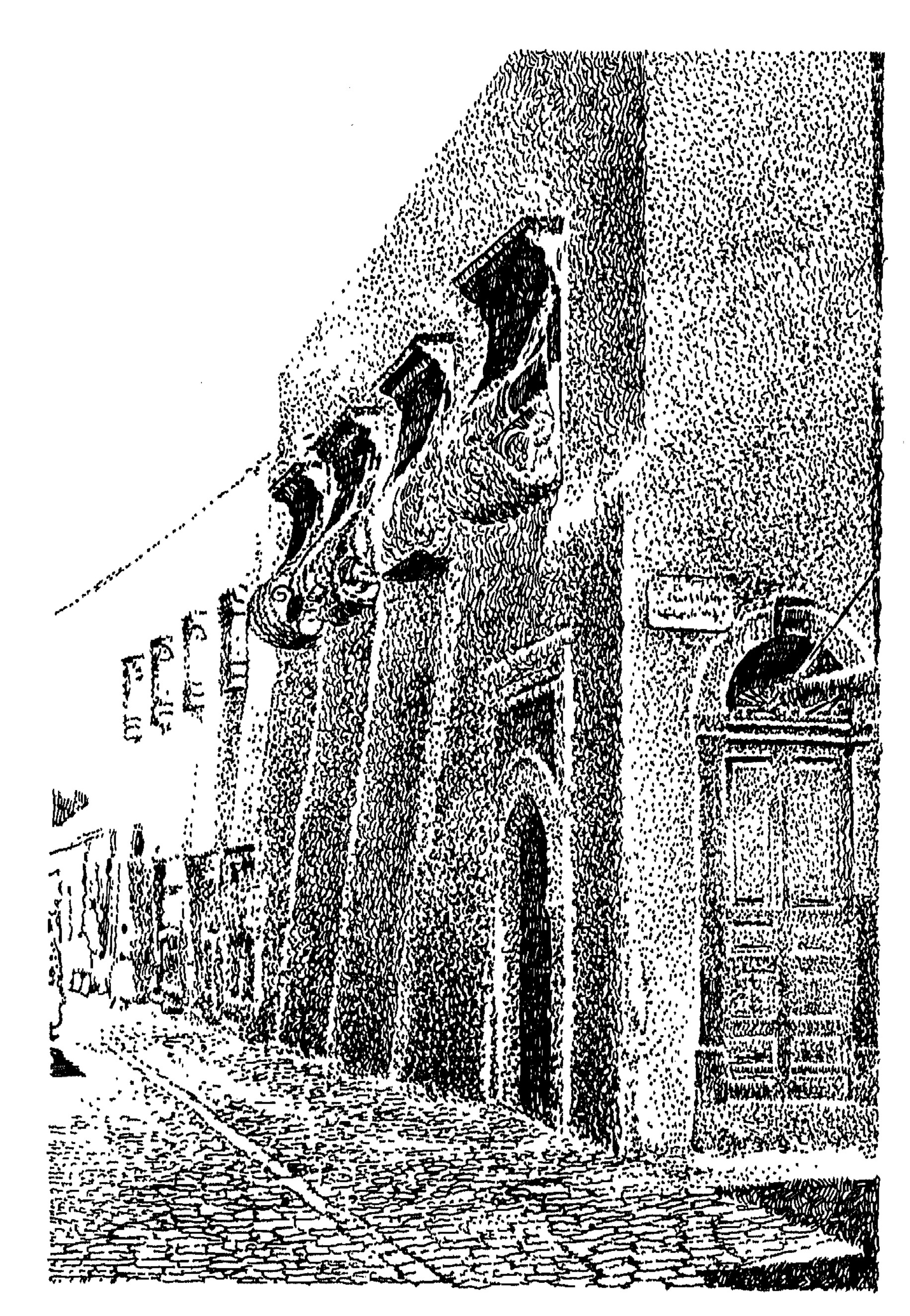


جامع سيدي سالم .

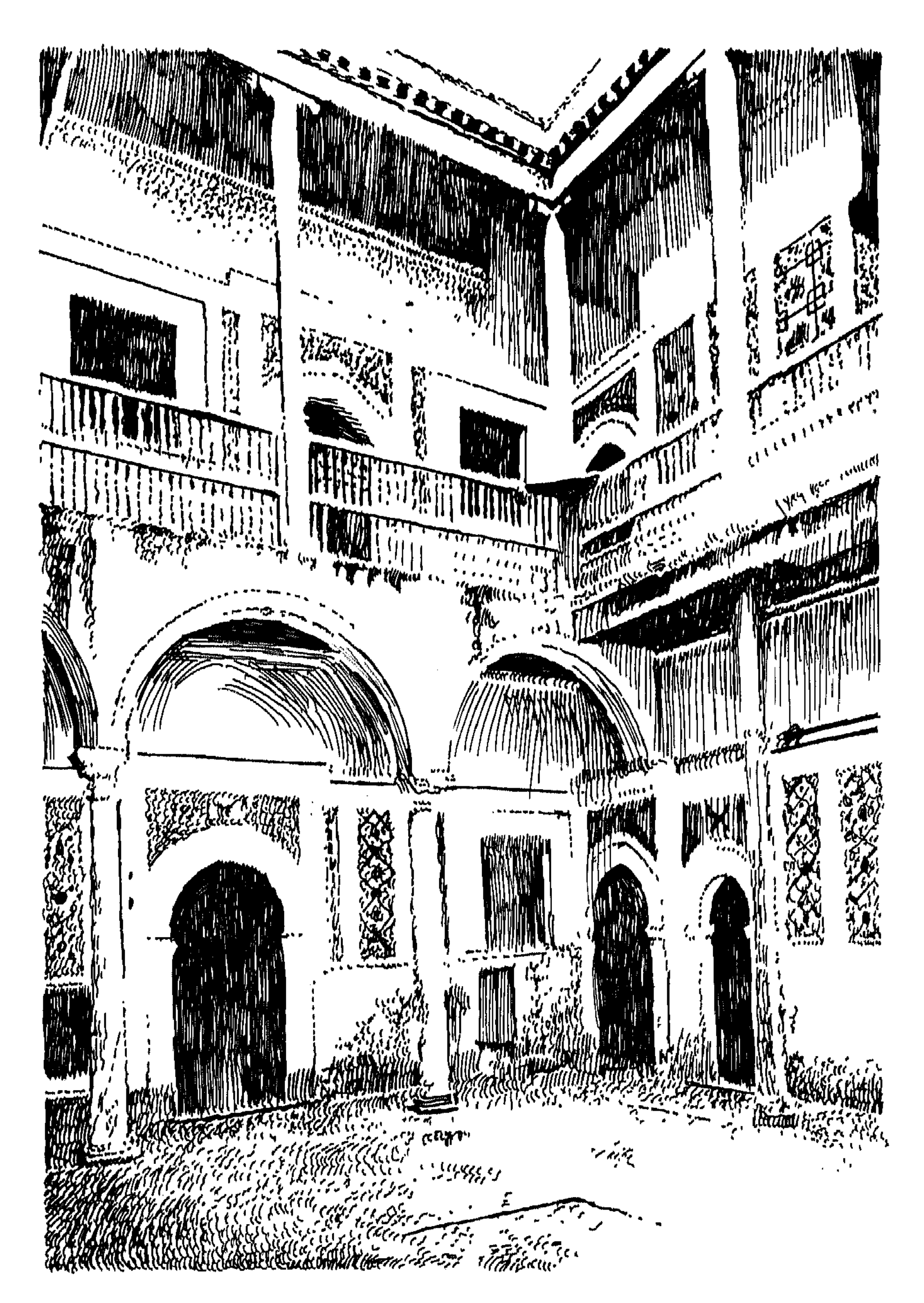
داخل منزل بالمدينة القديمة .



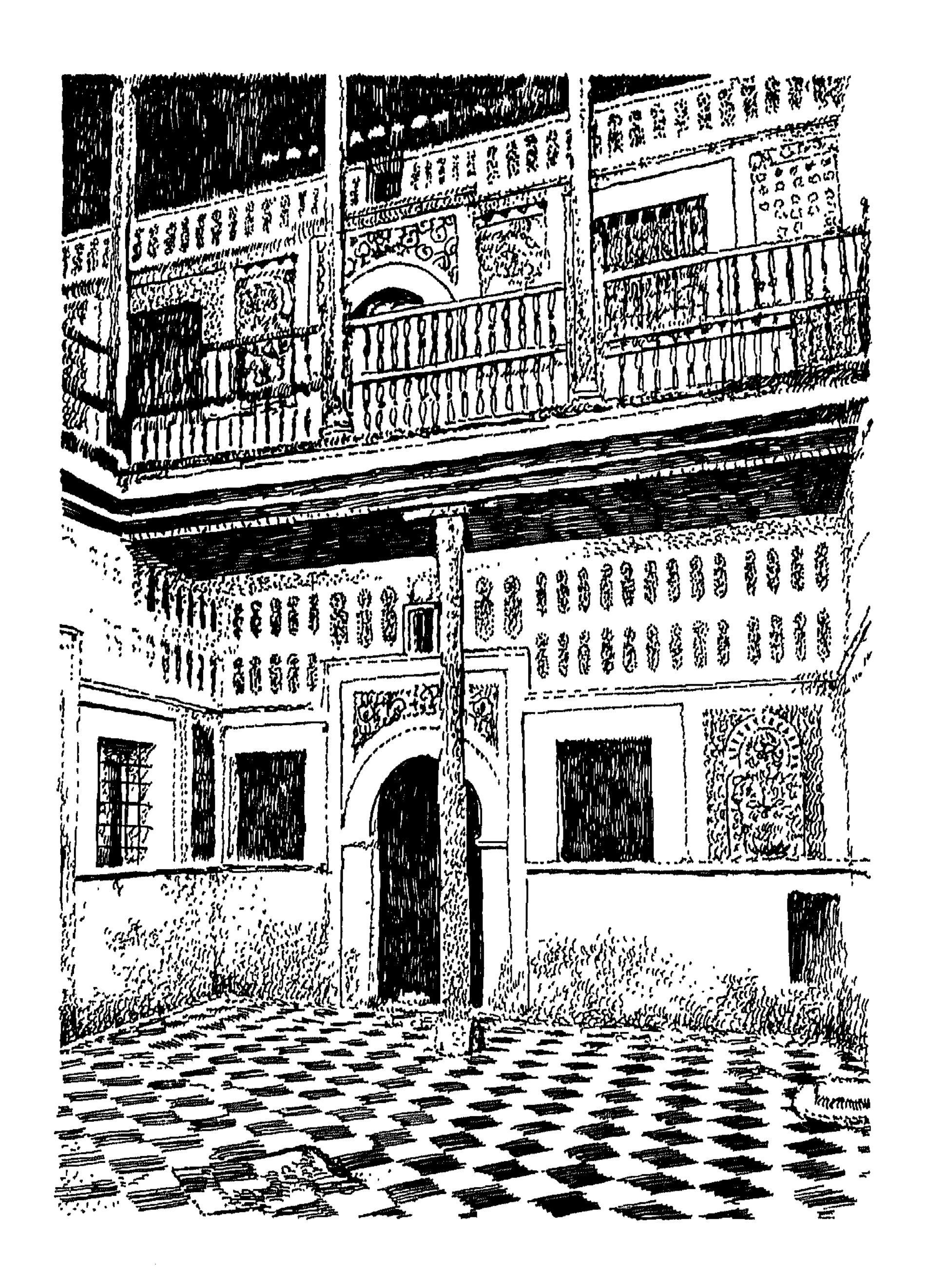
غرفة من منازل المدينة القديمة .



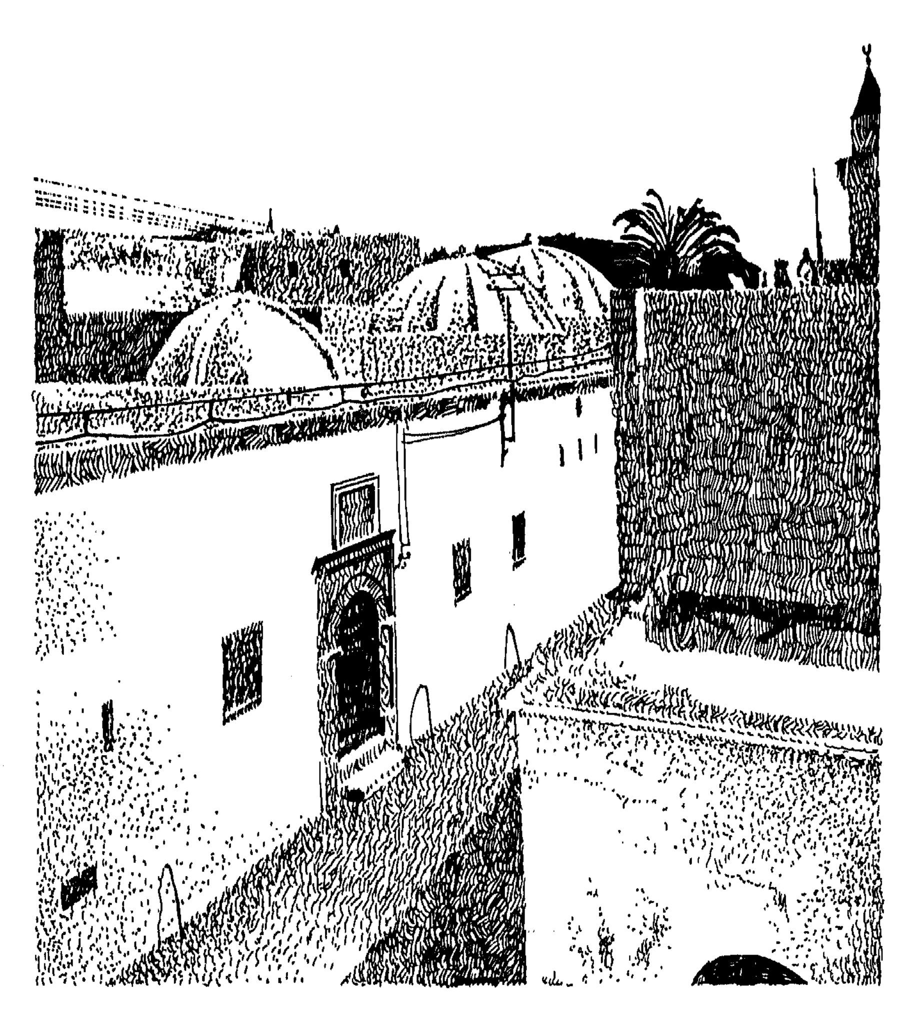
شارع سيدى مفتاح .



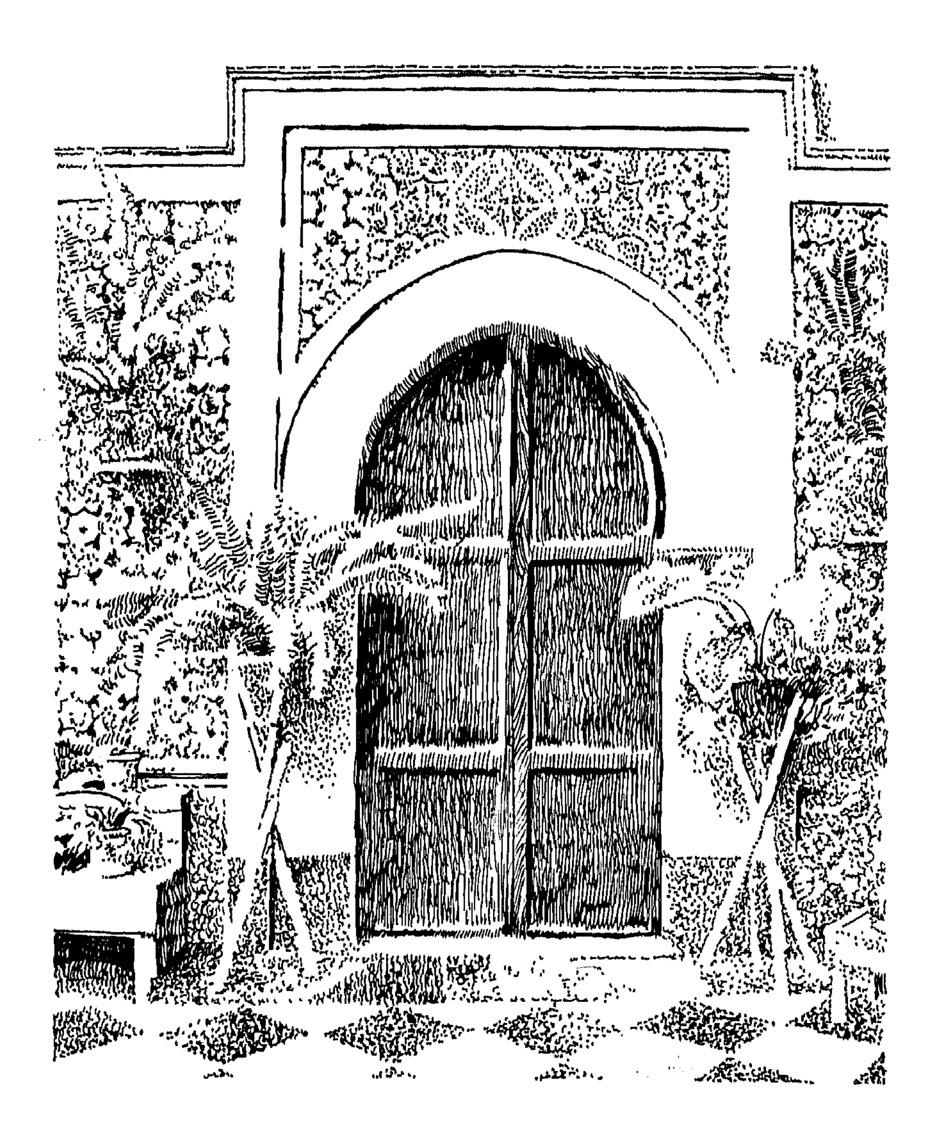
منزل بالمدينة القديمة .



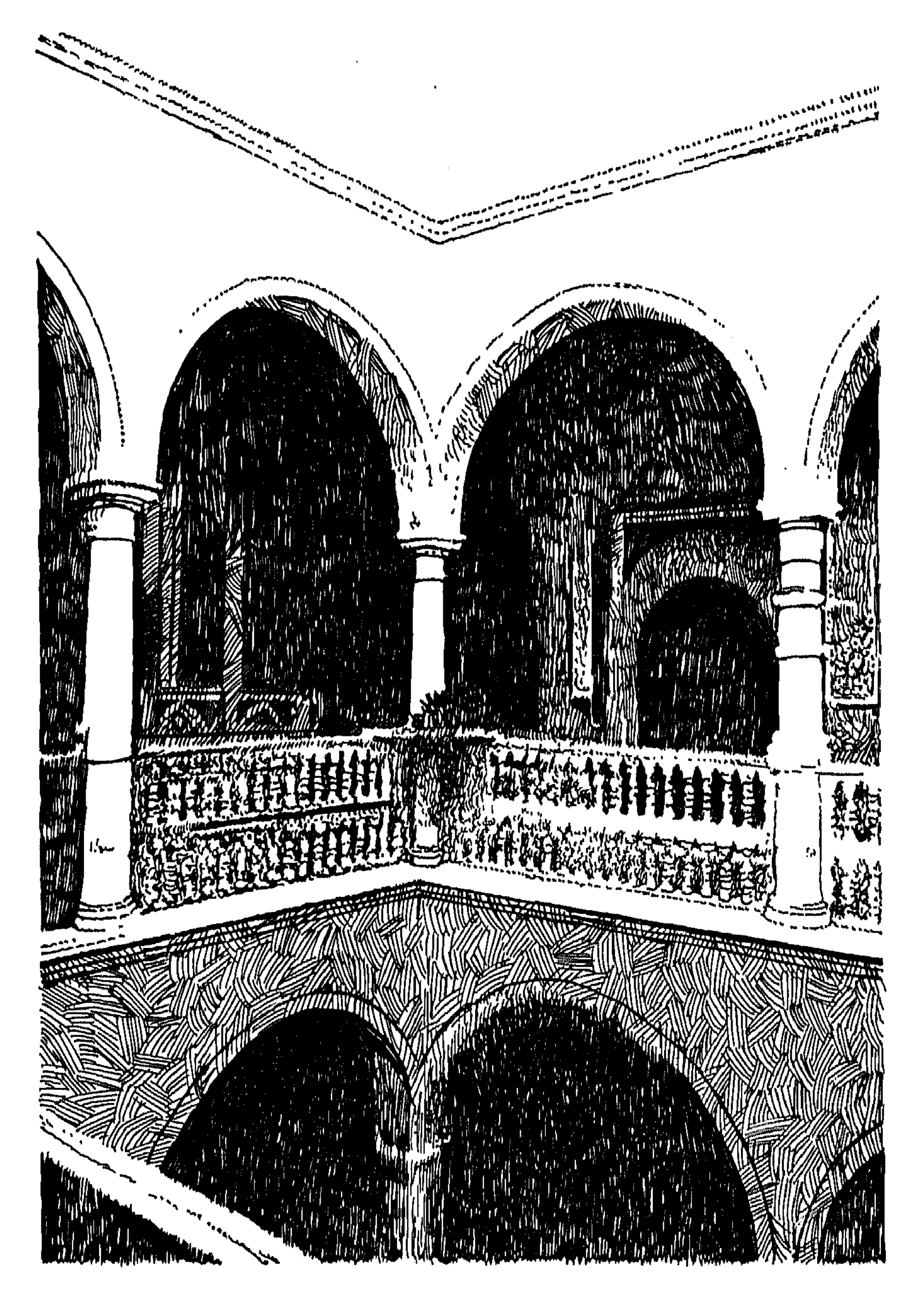
منزل بالمدينة القديمة .



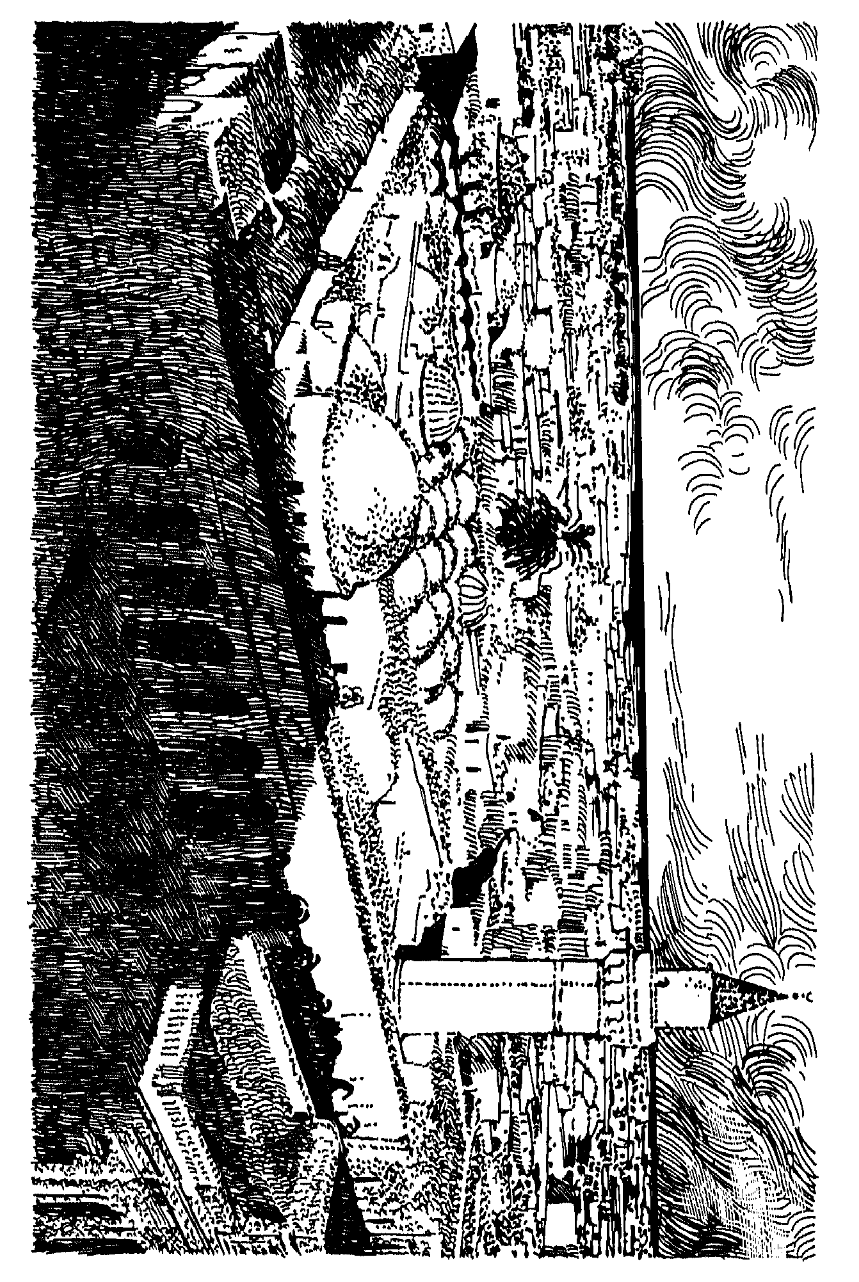
مدرسة عثمان باشا .



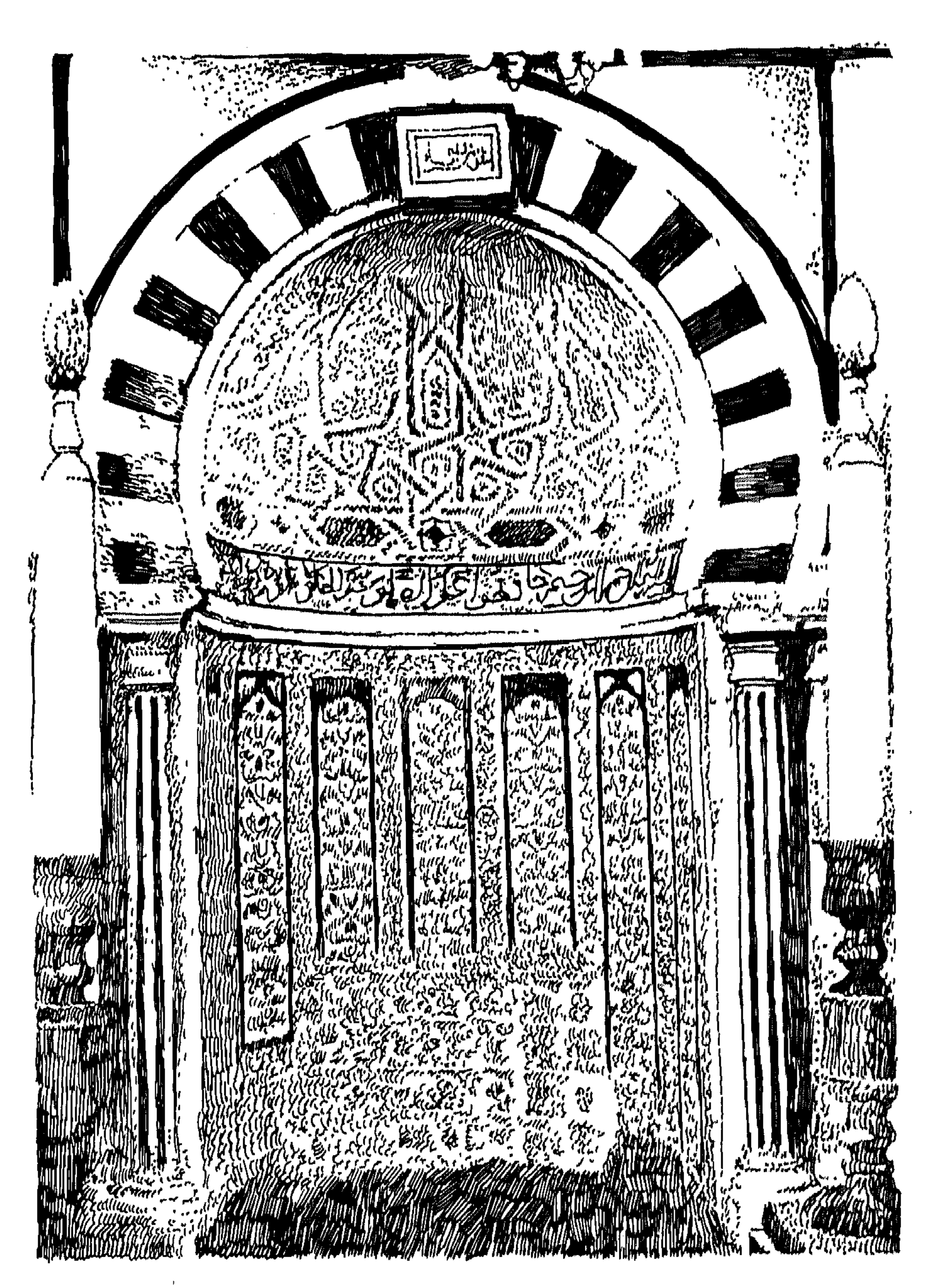
منزل بالمدينة القديمة .



منزل بالمدينة القديمة .

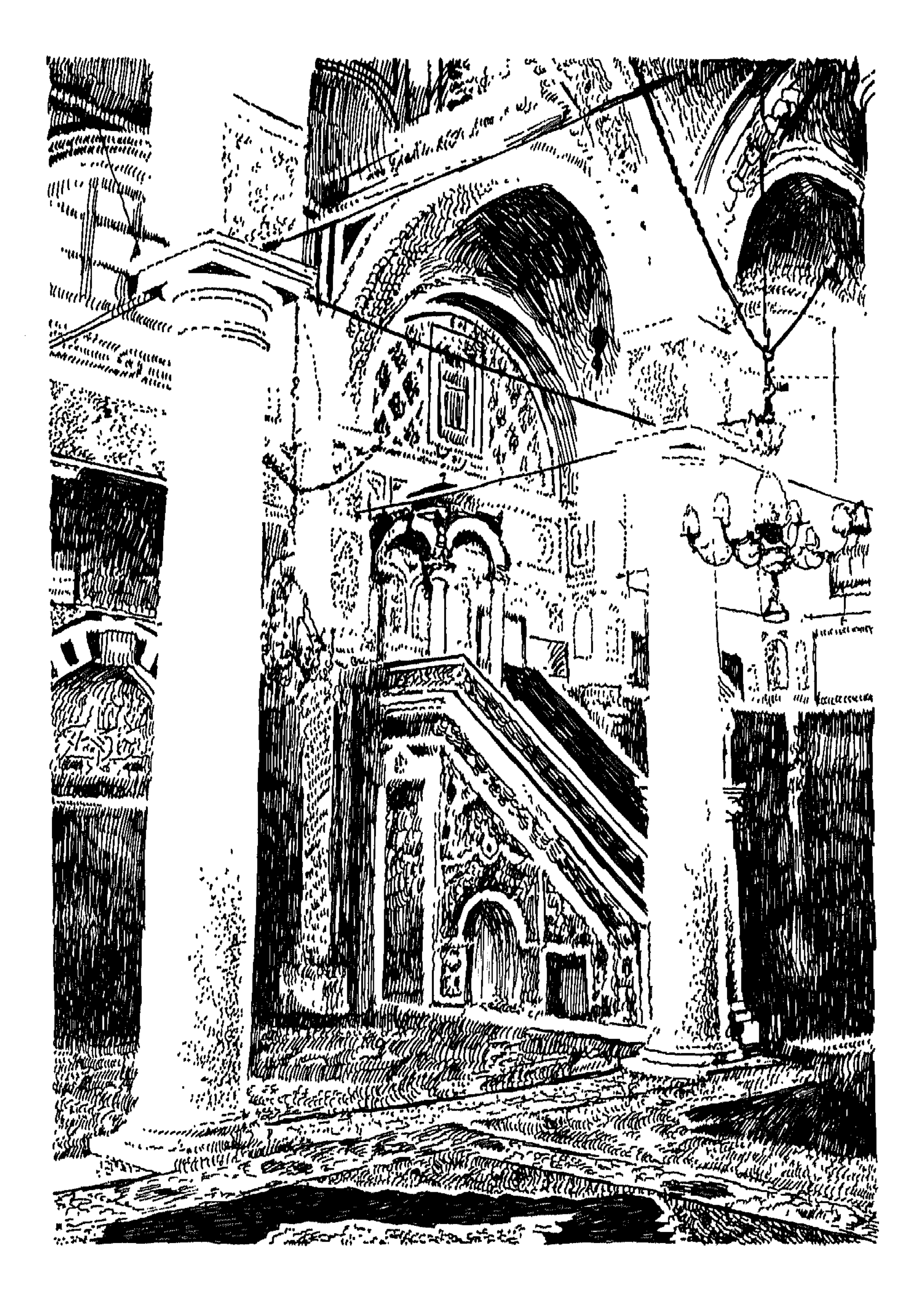


جامع أحمد باشا.

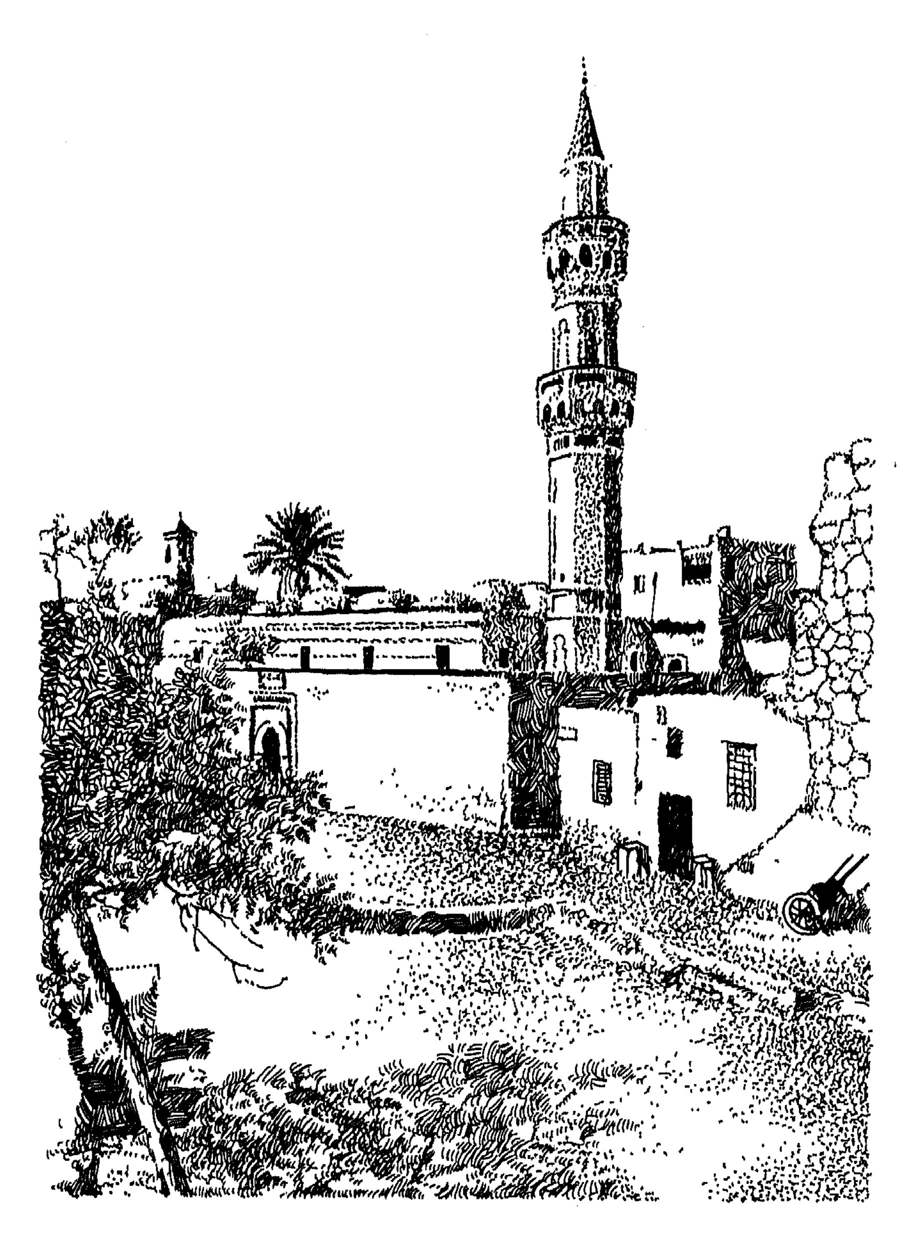


محراب جامع احمد باشا .

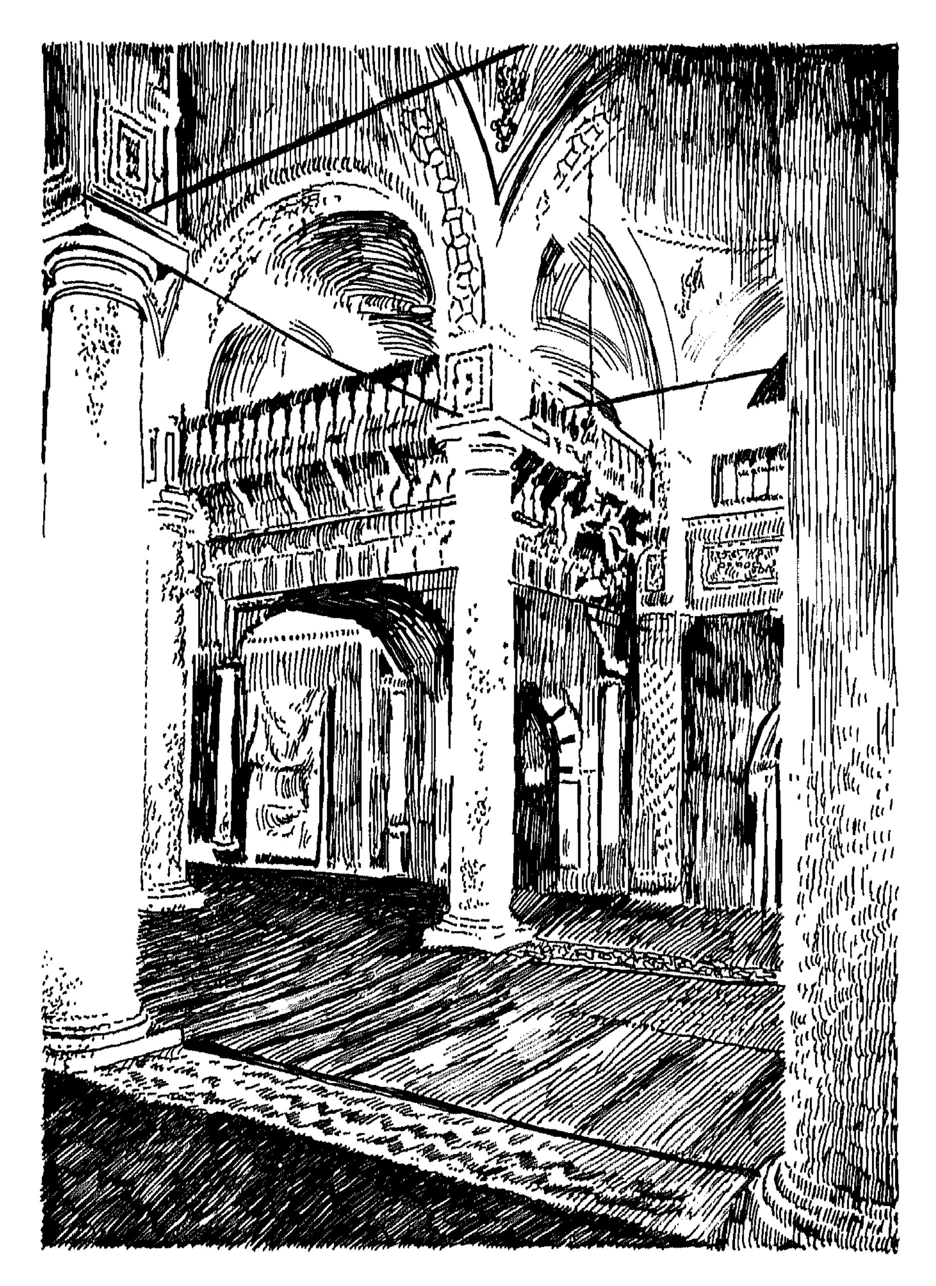
باب البحر.



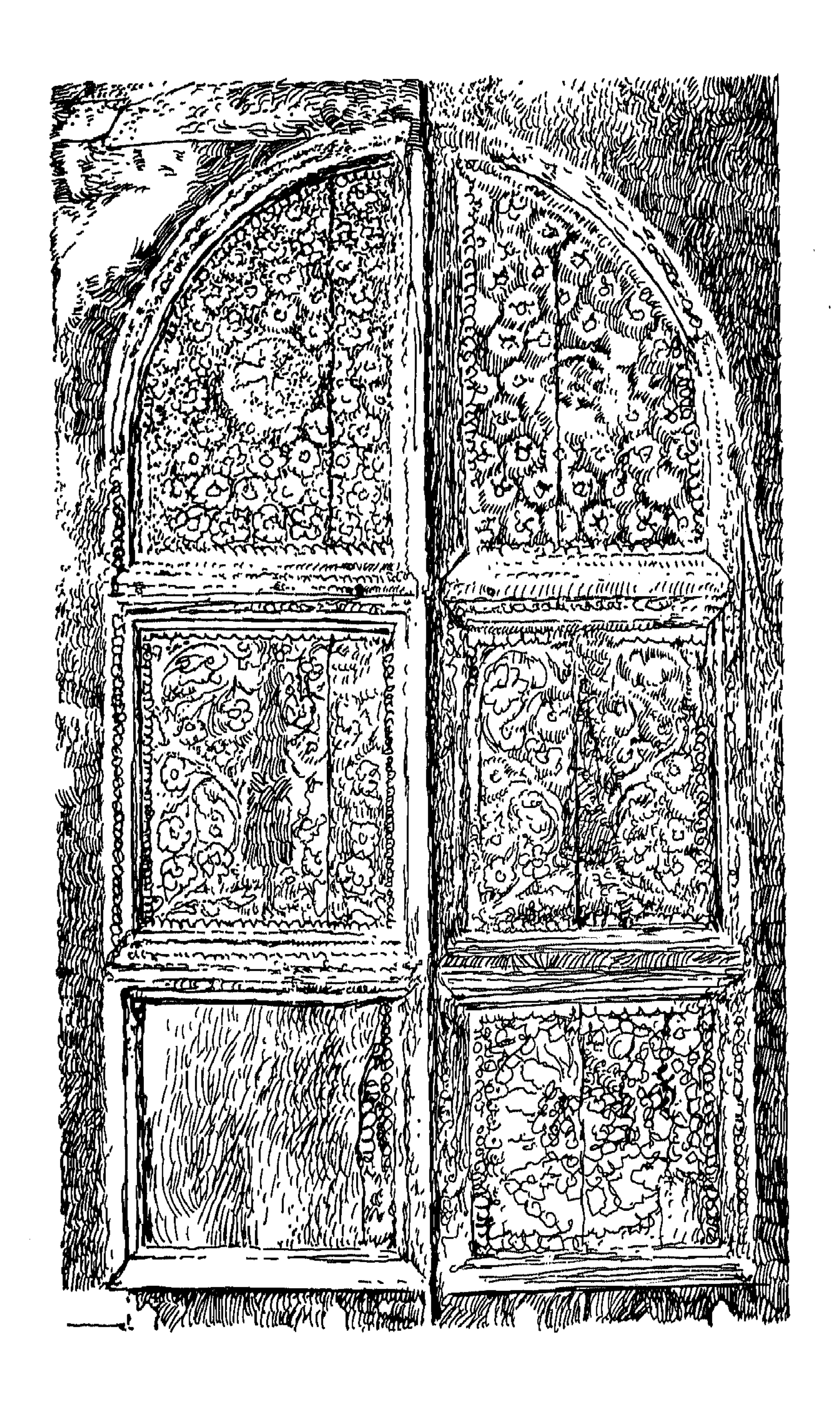
جامع احمد باشا .

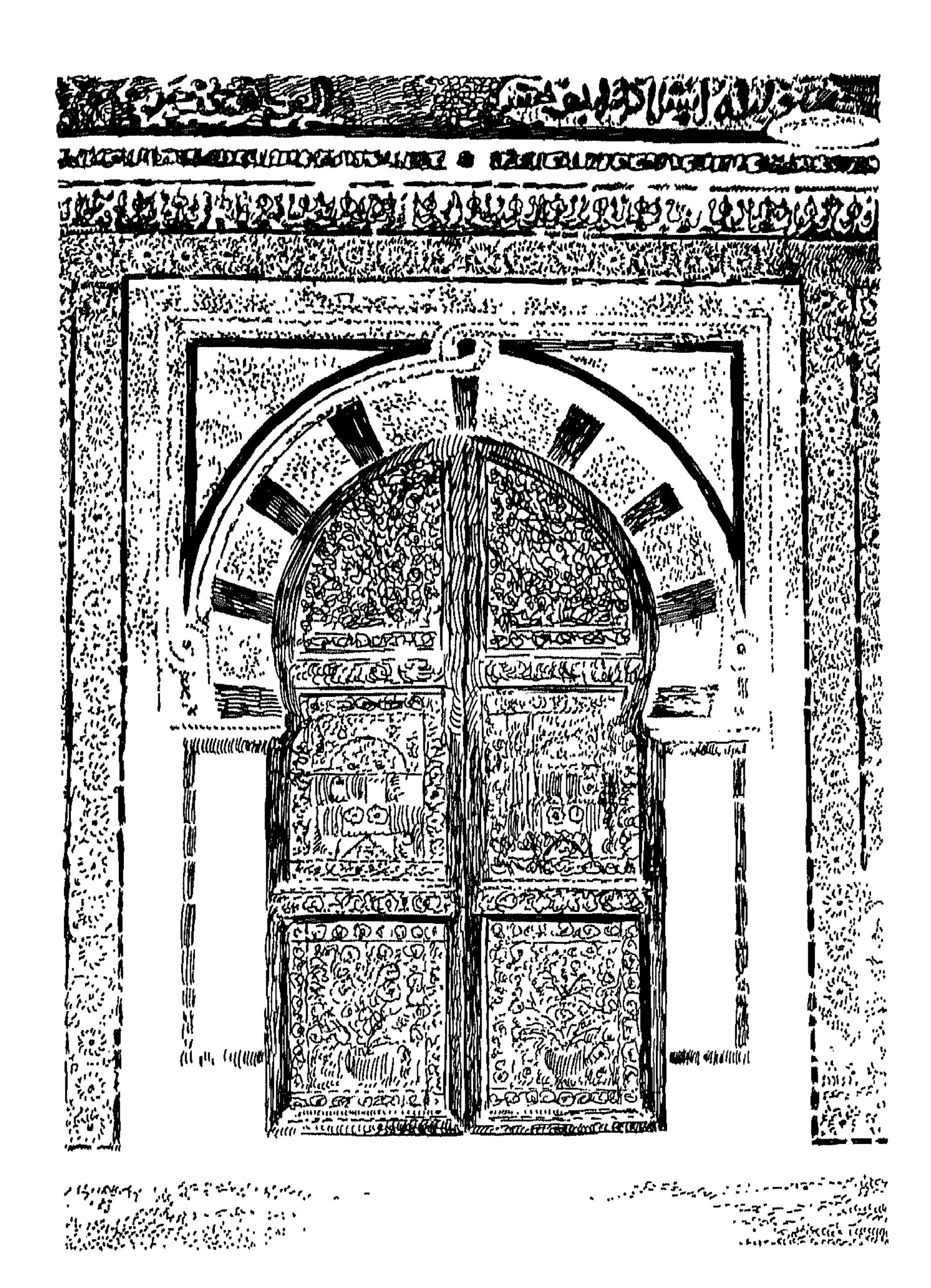


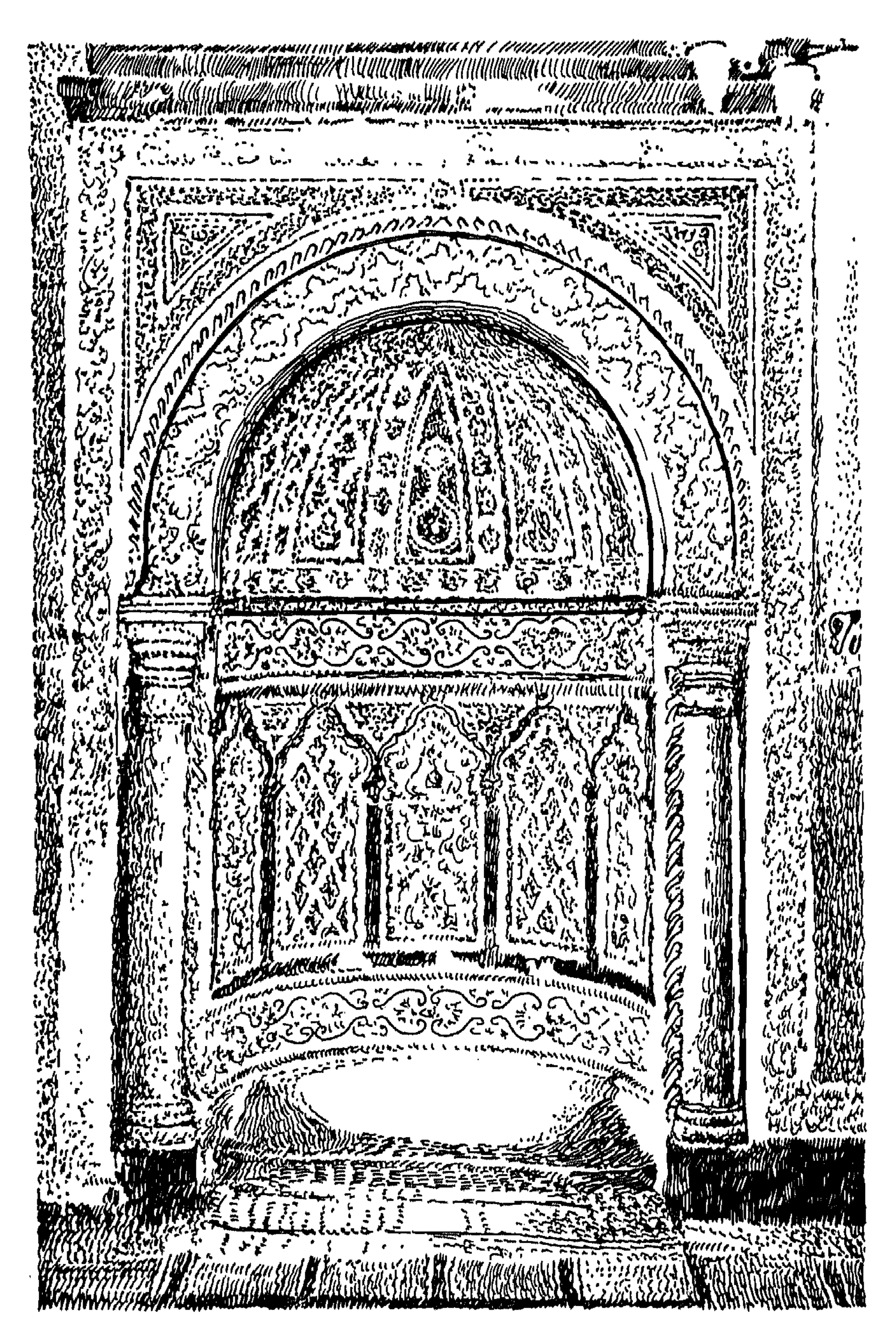
جامع قورجي .



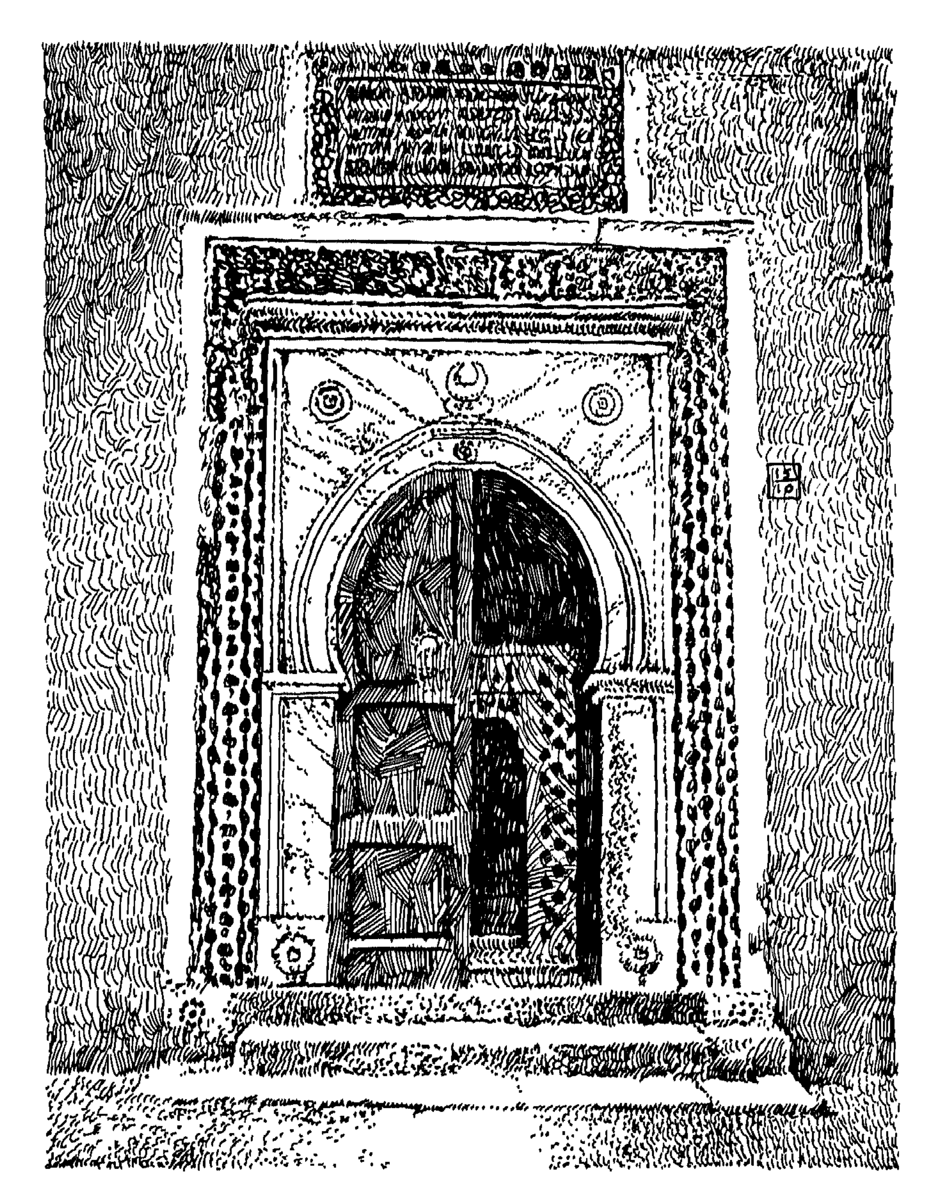
جامع قورجي من الداخل .







محراب جامع قورجي .



مدخل جامع قورجي .



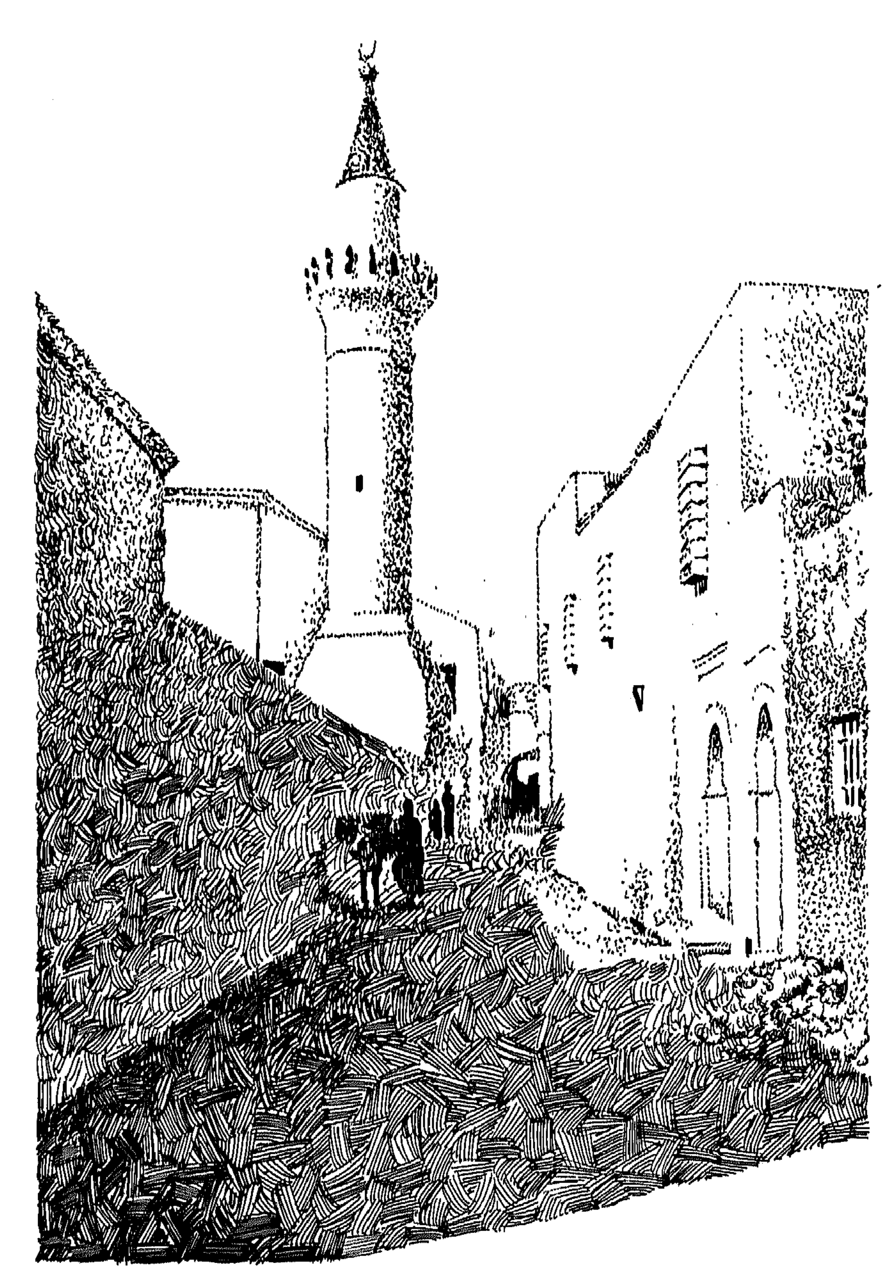
جامع قرجي من الداخل.



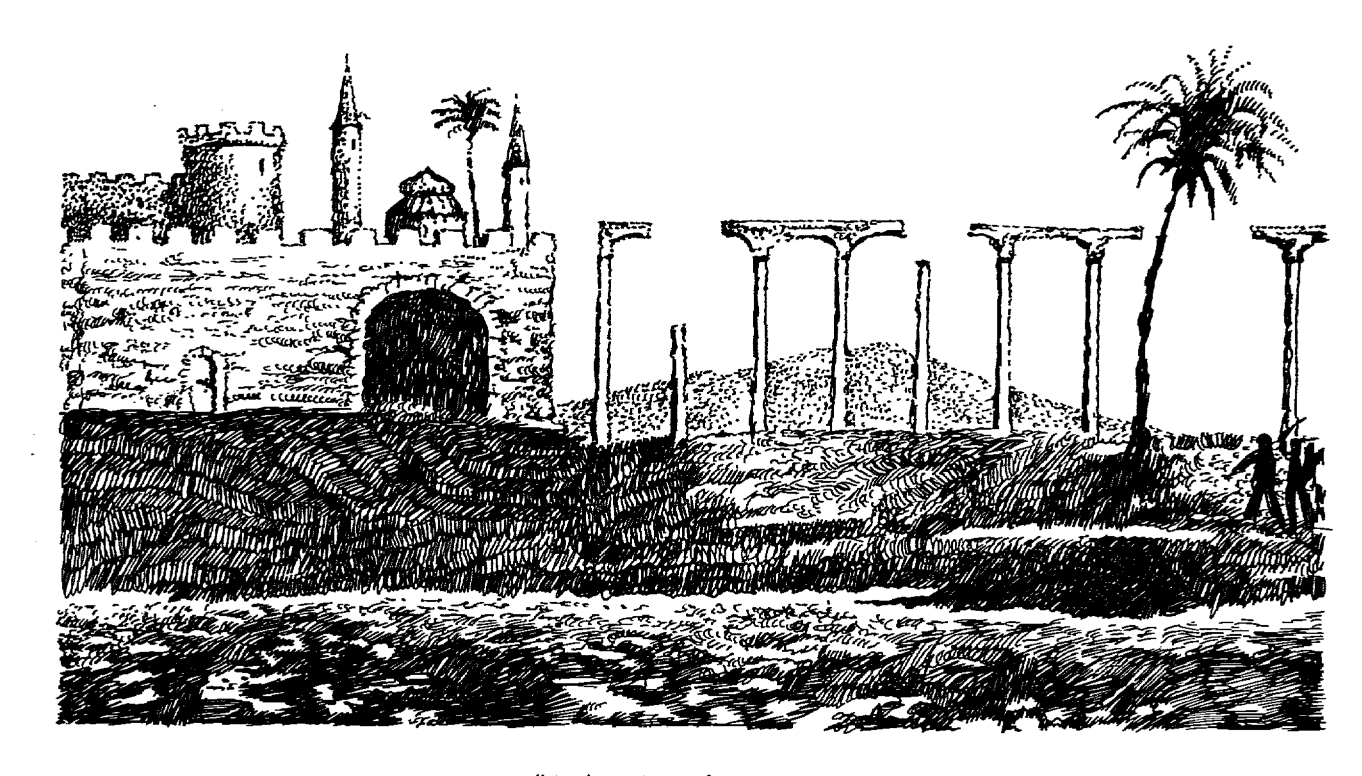
جامع قرجي من الداخل.



أحد شوارع المدينة القديمة.

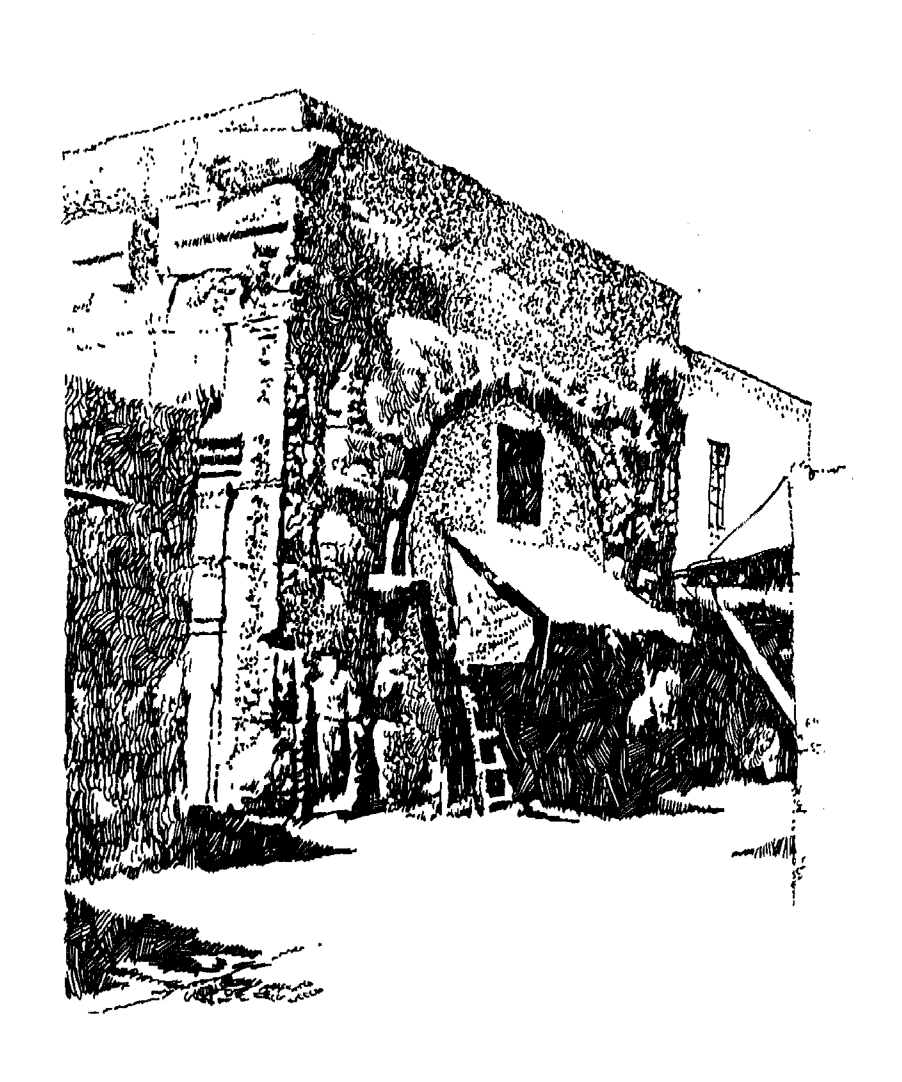


جامع درغوت في اواخر العهد العثماني .

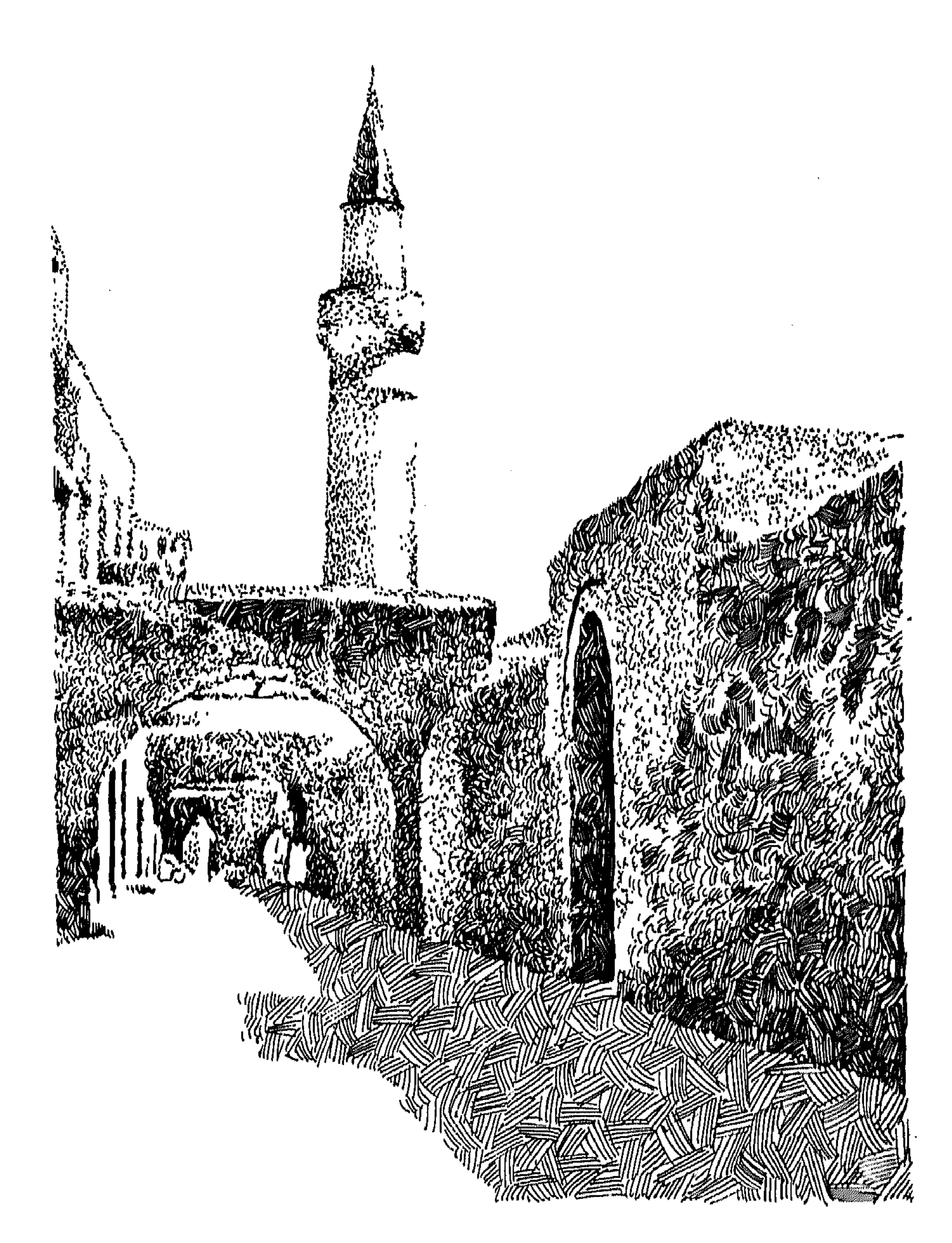


الحنايا التي كانت قائمة في العهد القرمانللى .

ميدان سيدى حمودة .



قوس ماركوس أوريليوس (مخزن الرخام) .



شارع جامع محمود .

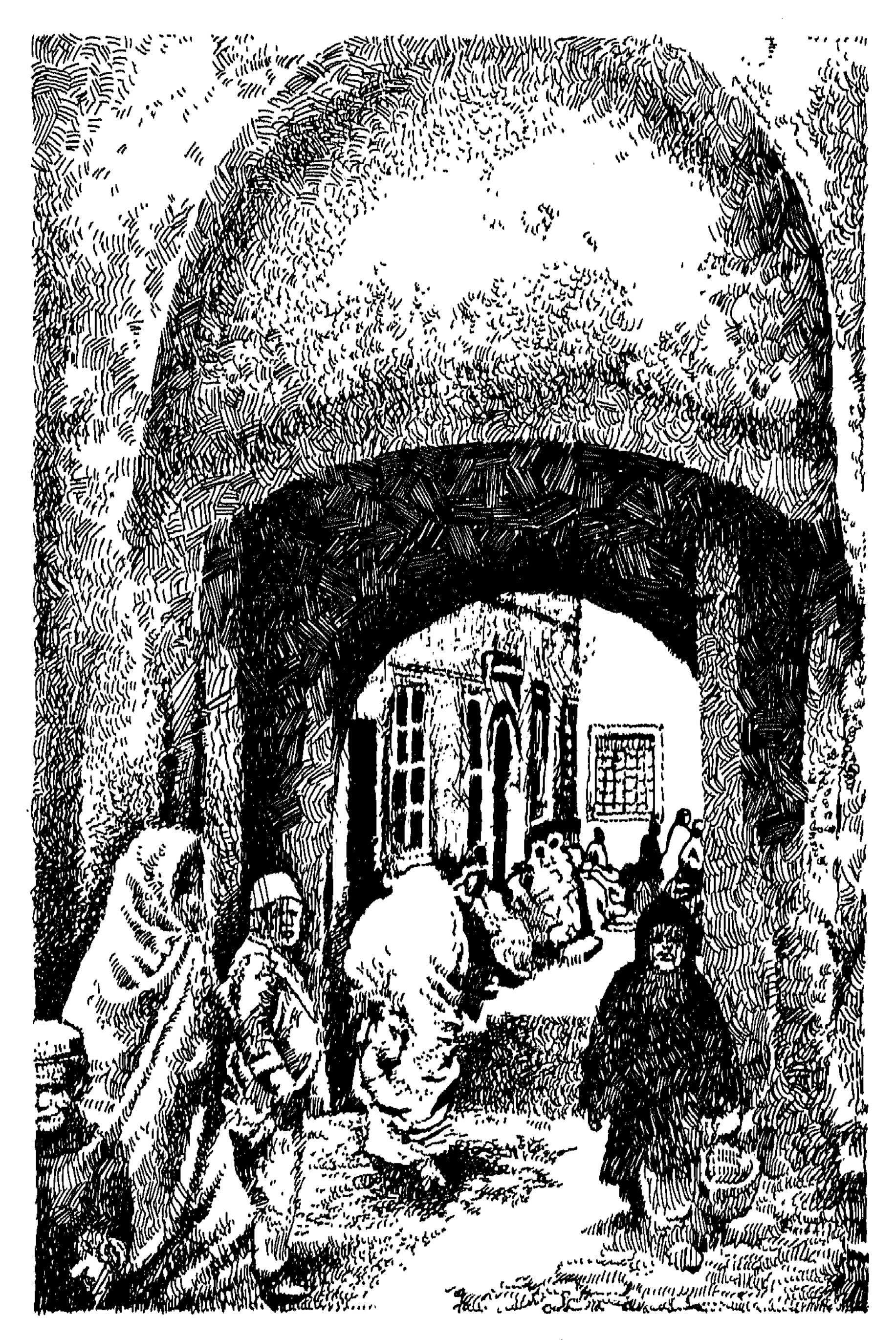
مشهد للجنود الأتراك أمام نافورة الميدان.



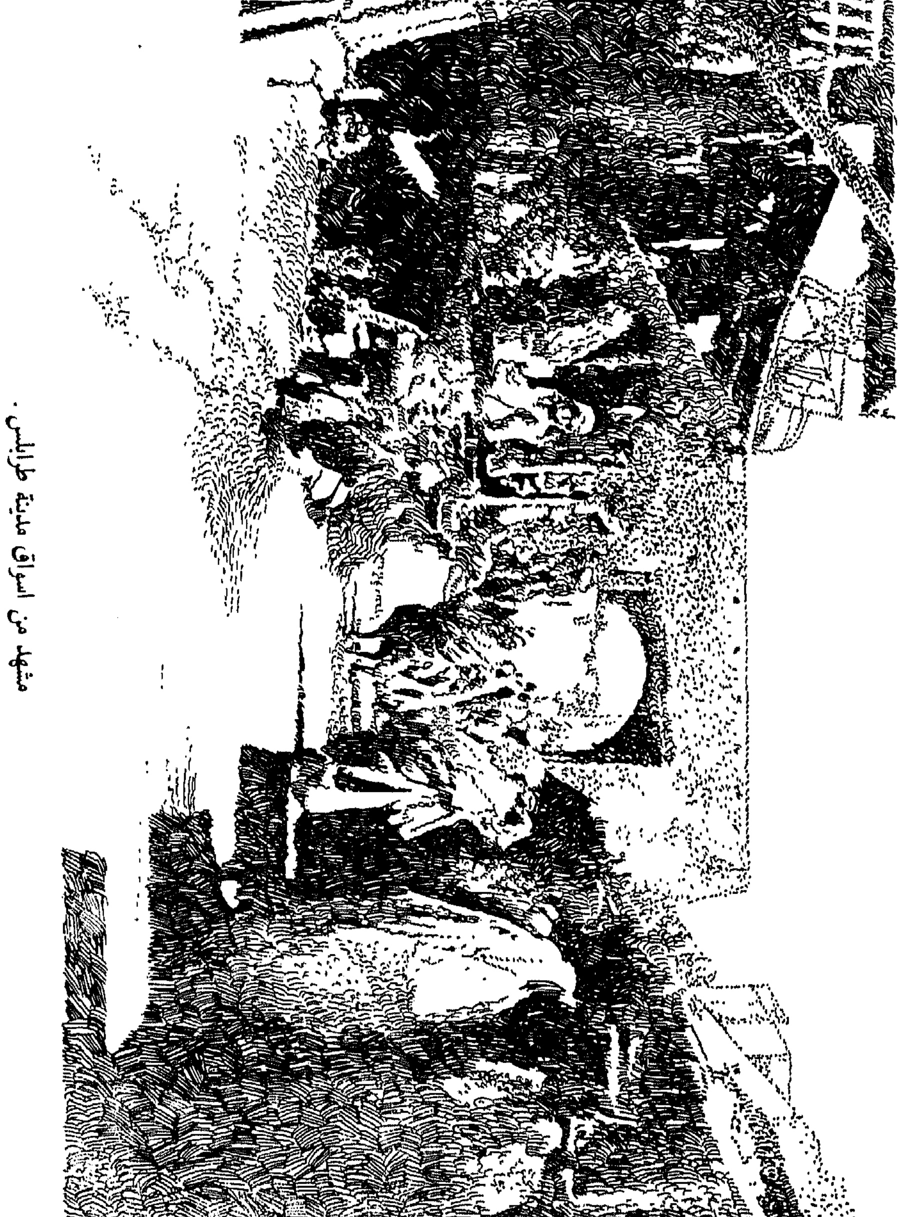
ميدان سيدى حمودة .



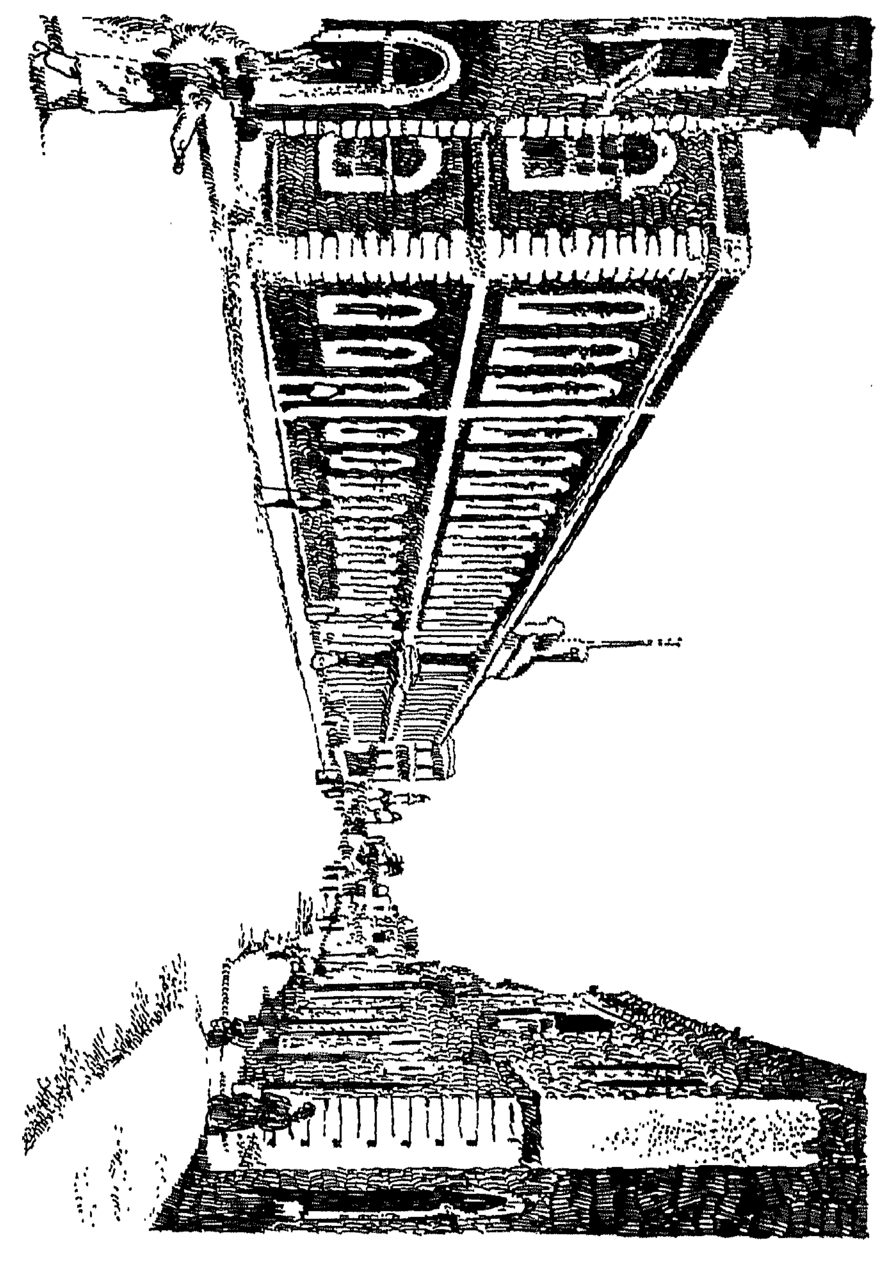
سوق المشير.



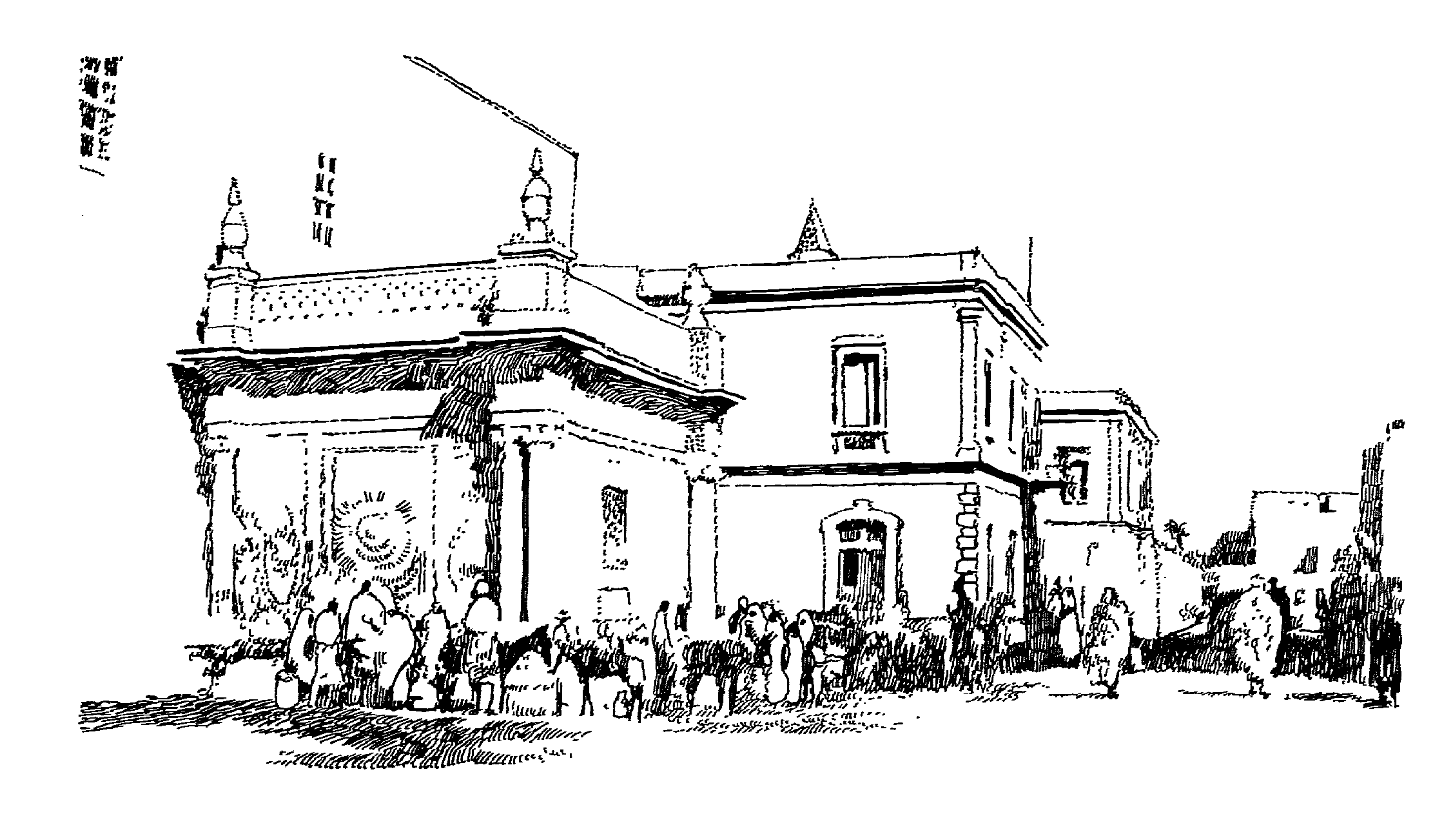
أحد ابواب مدينة طرابلس .



مشهد من اسواق مدينة طرابلس .



مدرسة الفنون والصنائع .

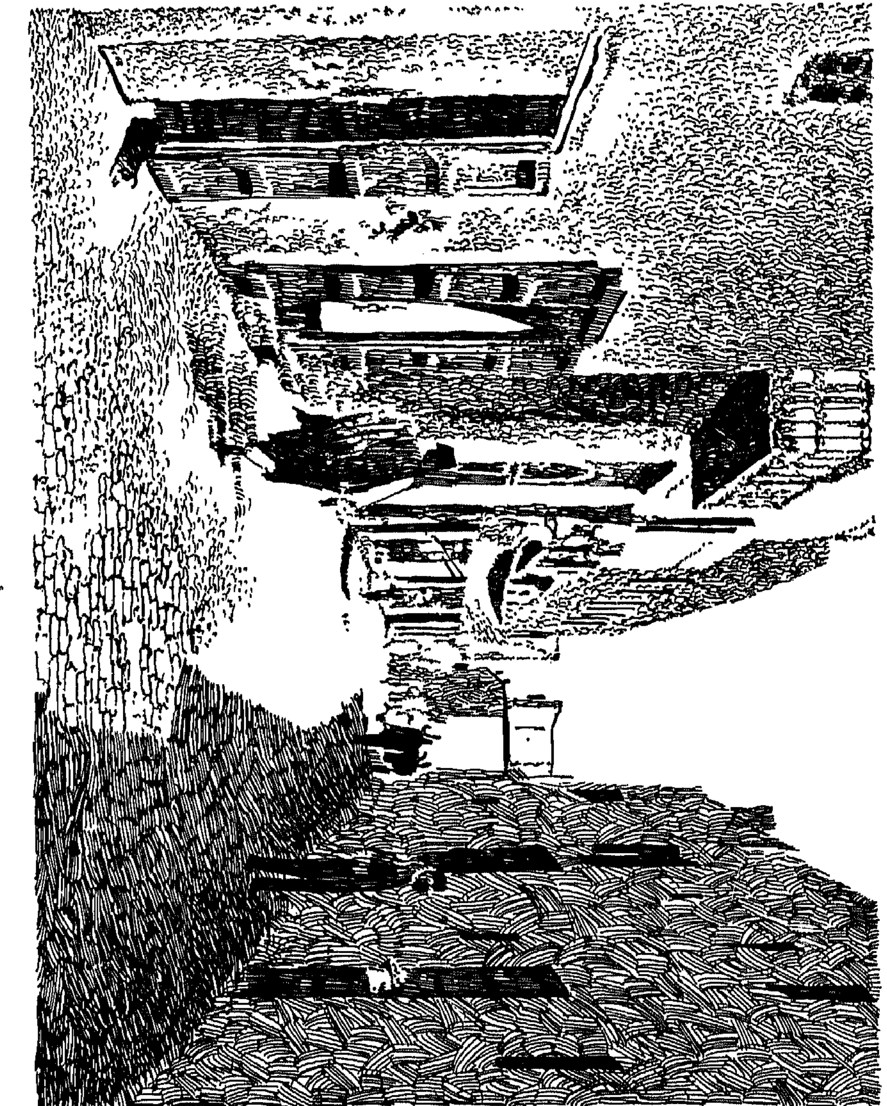


النافورة التركية .

ميدان الساعة .

مشهد لمدينة طرابلس في العهد العثماني .

الحديقة العامة (جنان الفريق) .



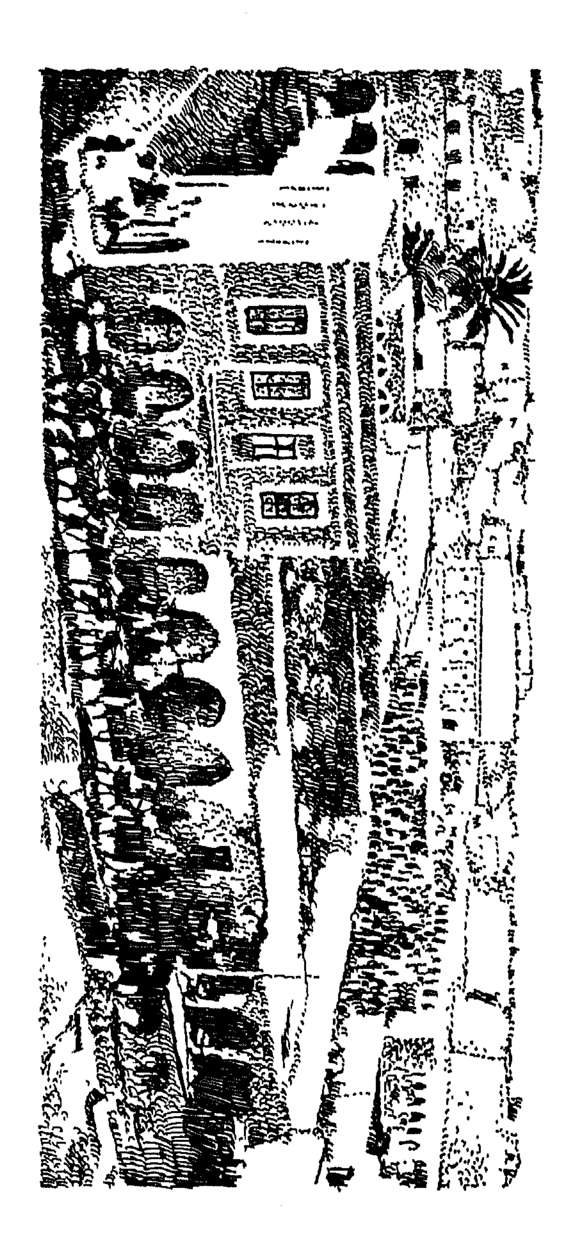
شارع الأربع عرصات .

طرابلس في العهد العثماني.

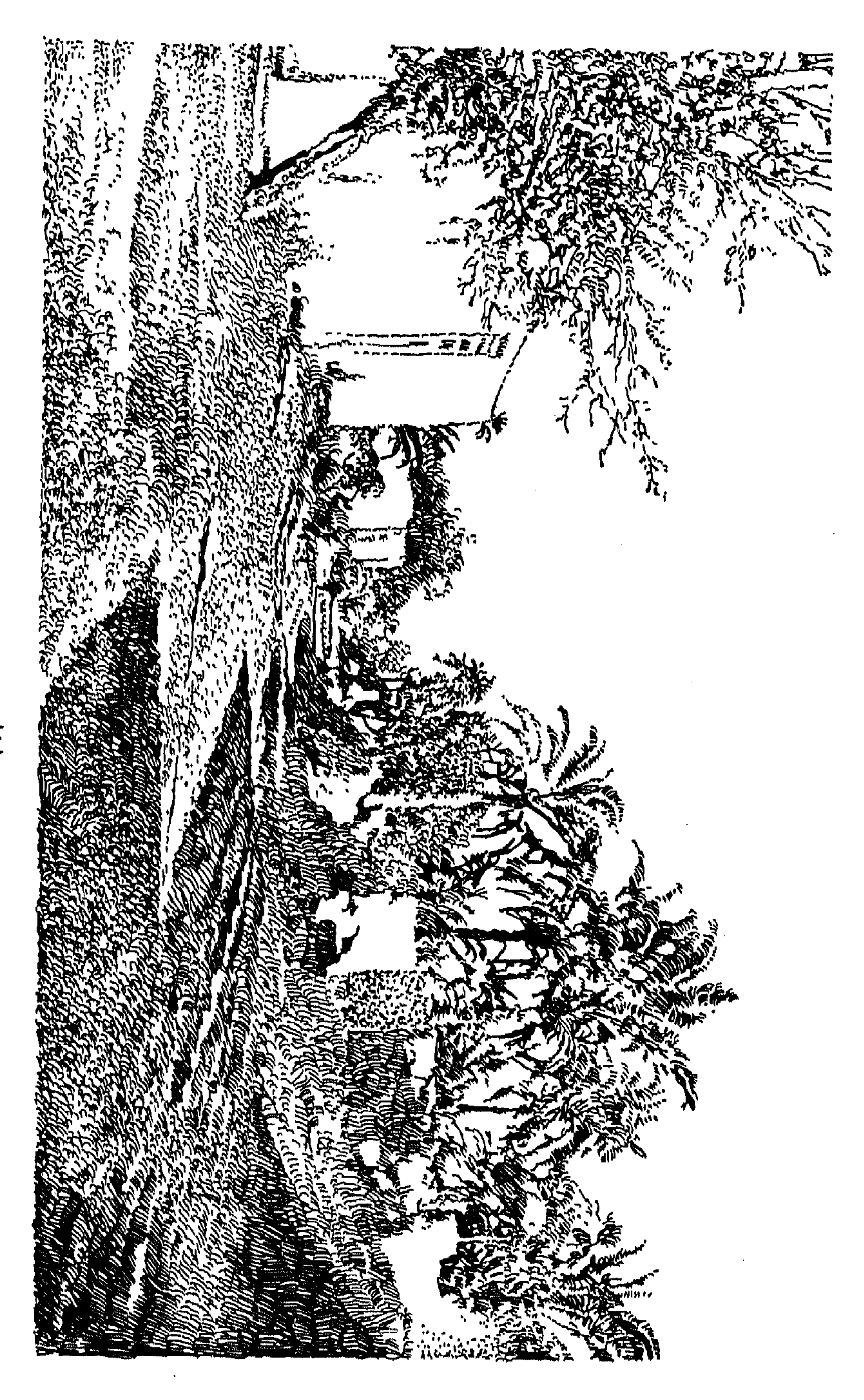
اسواق طرابلس في العهد العثماني.



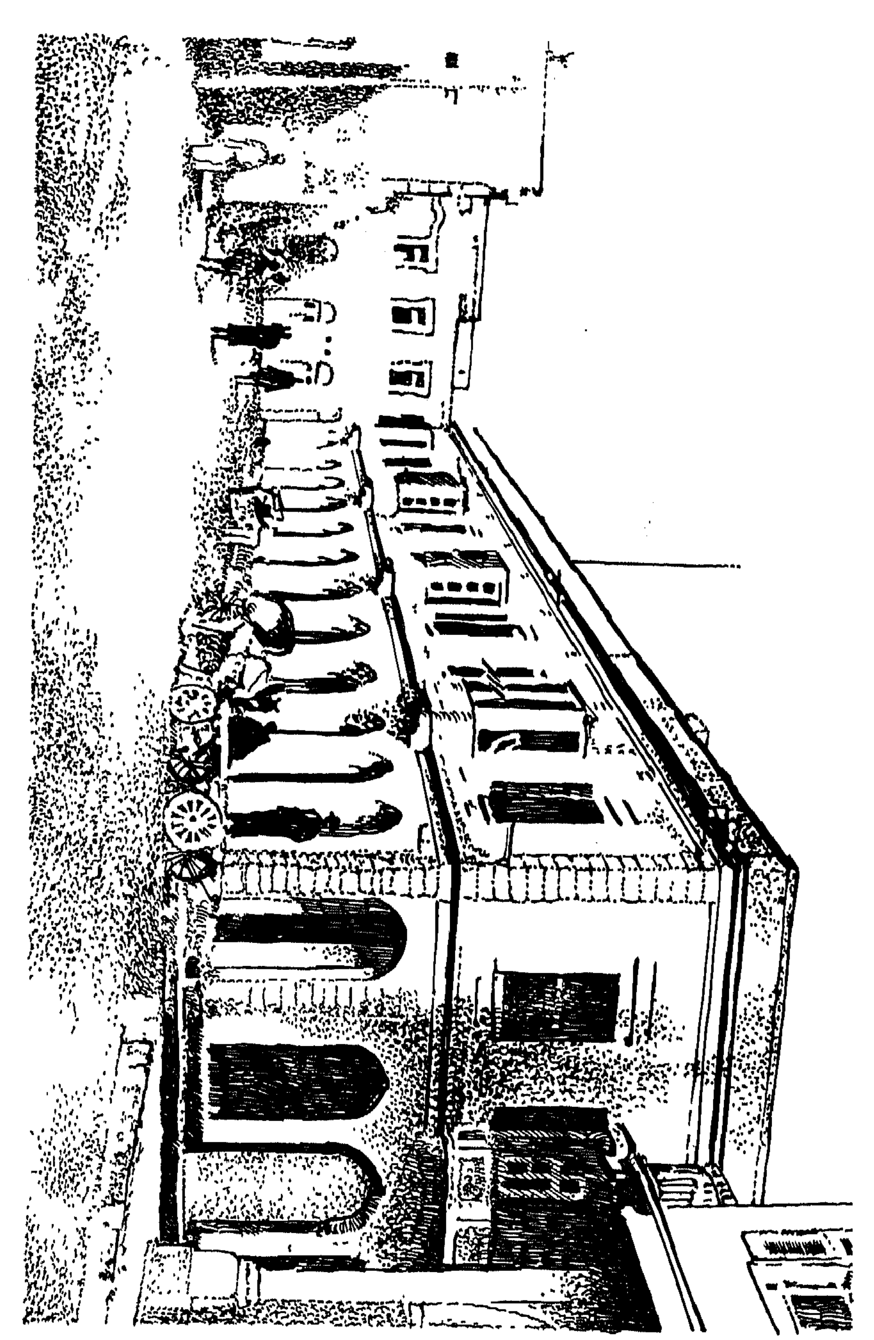
يوم السوق.



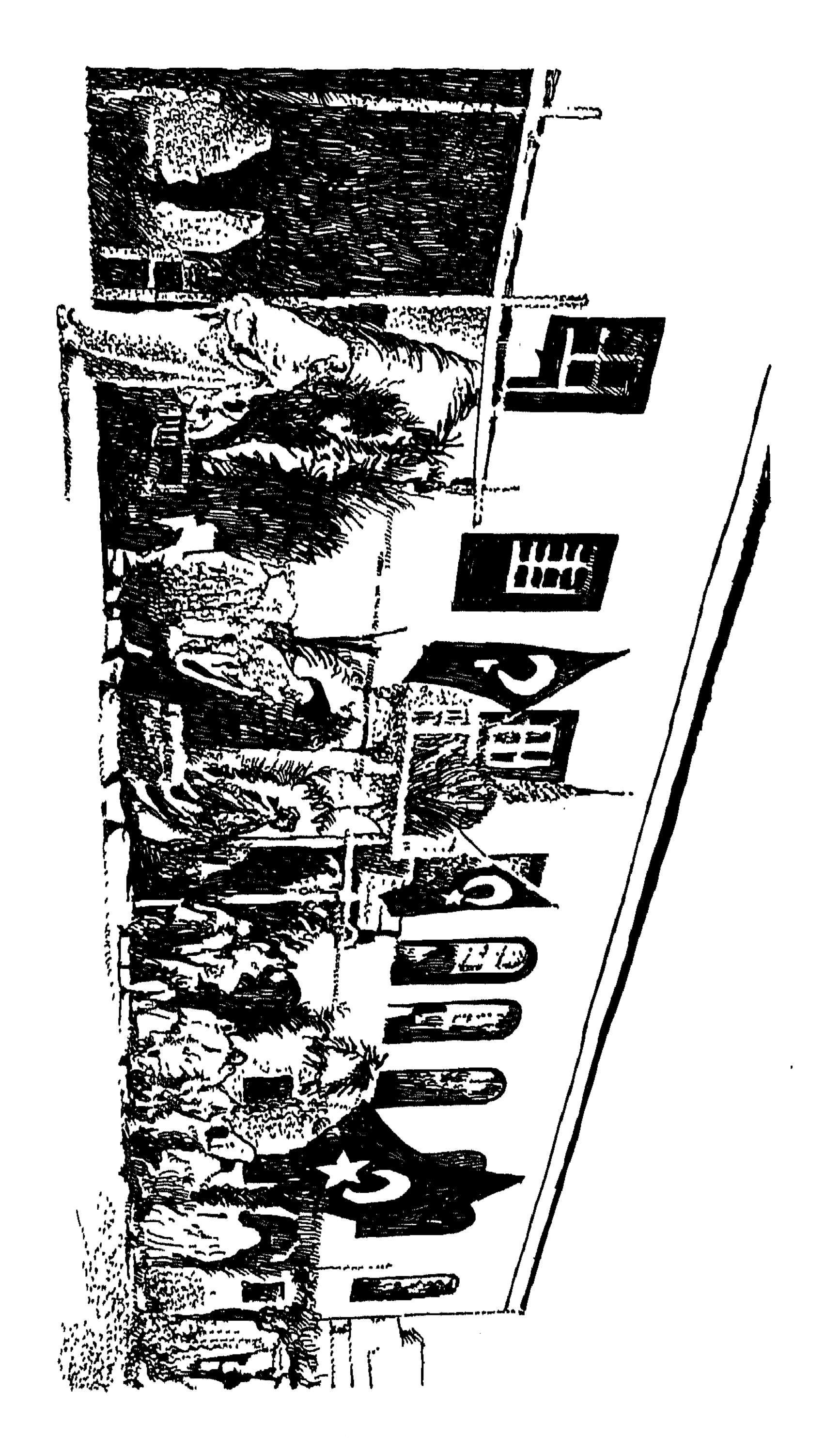
مدينة طرابلس .



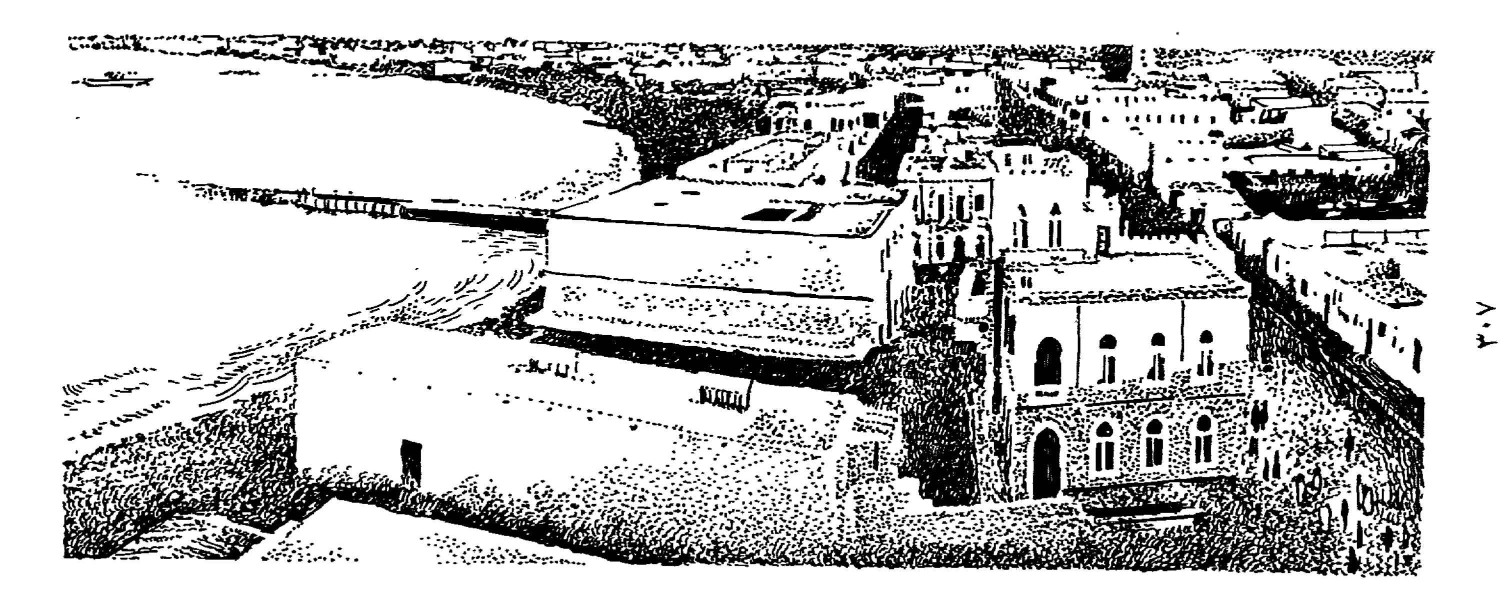
ضواحي طرابلس.



مشاهد من مدينة طرابلس .



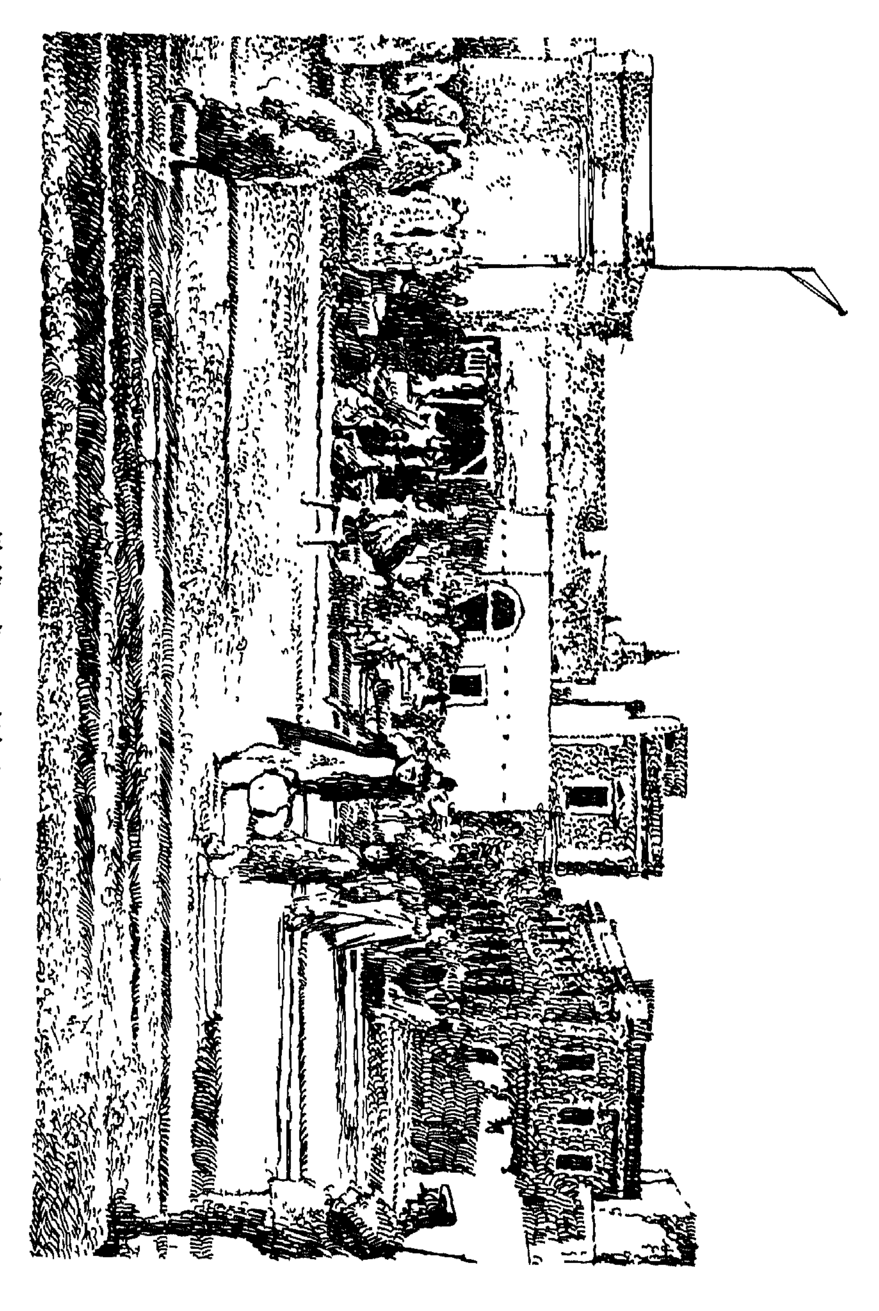
مشاهد من مدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني .



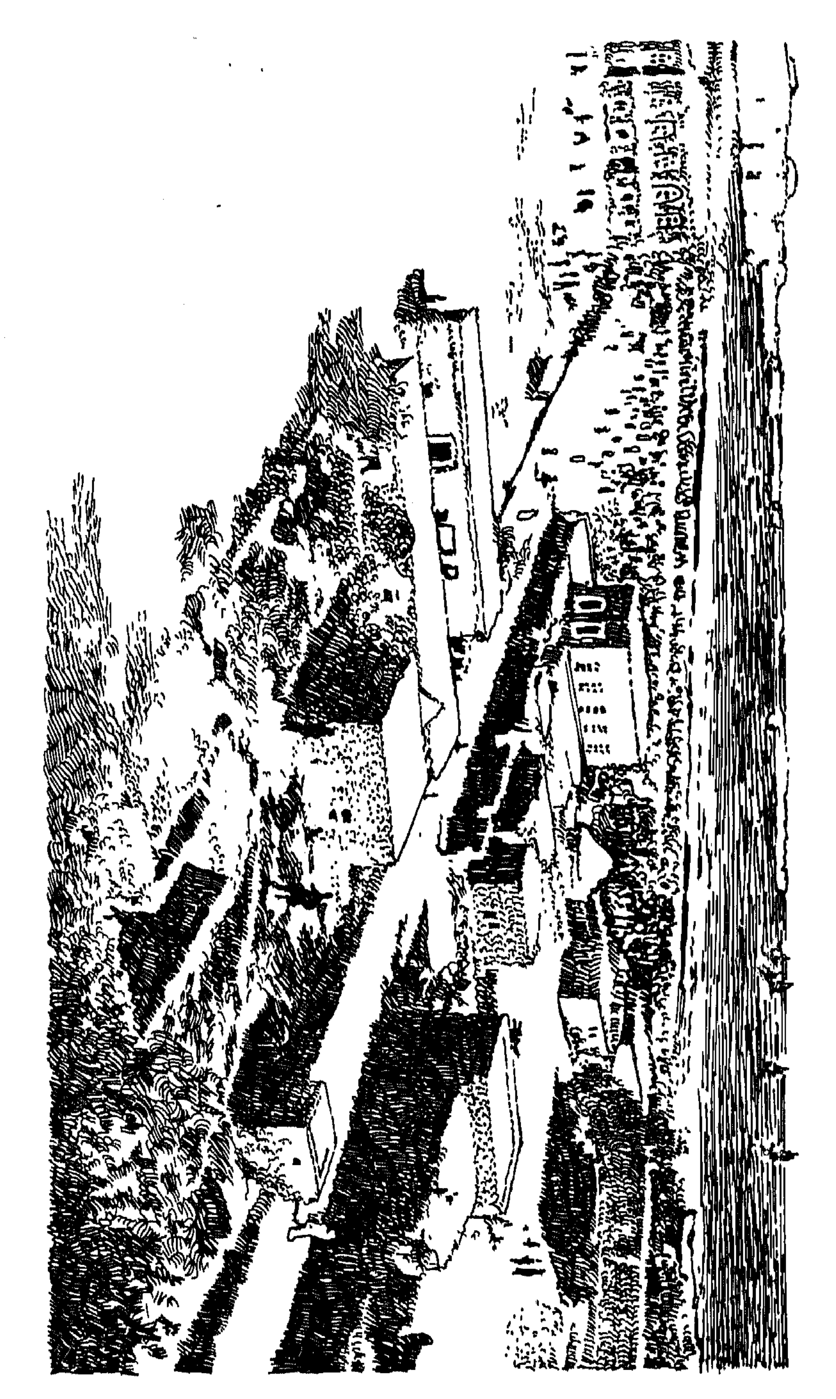
مشاهد من مدينة طرابلس في بدايات العهد الايطالي منطقة (الكورنيش) .



مشاهد من مدينة طرابلس في العهد العثماني الثاني .



مشاهد من مدينة طرابلس بعد الغزو الإيطالي .

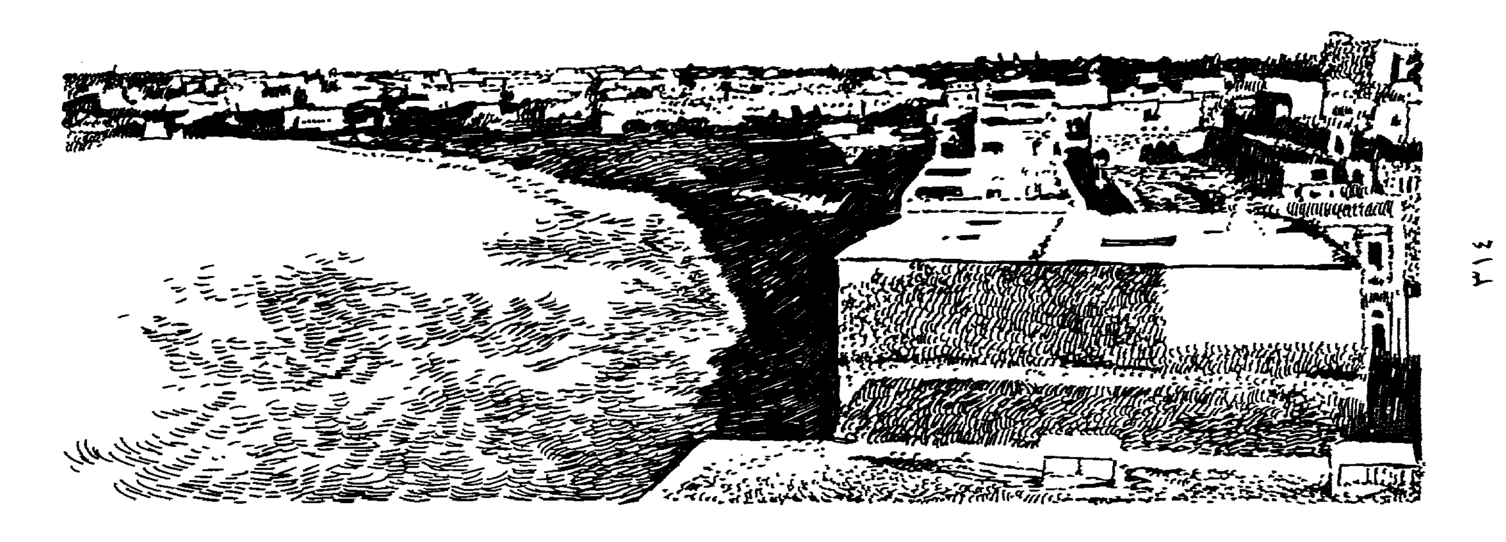


سوق القماش في العهد العثماني الثاني .

منطقة الحمراء في العهد العثماني .

مشهد من مدينة طرابلس بعد الغزو الايطالي.

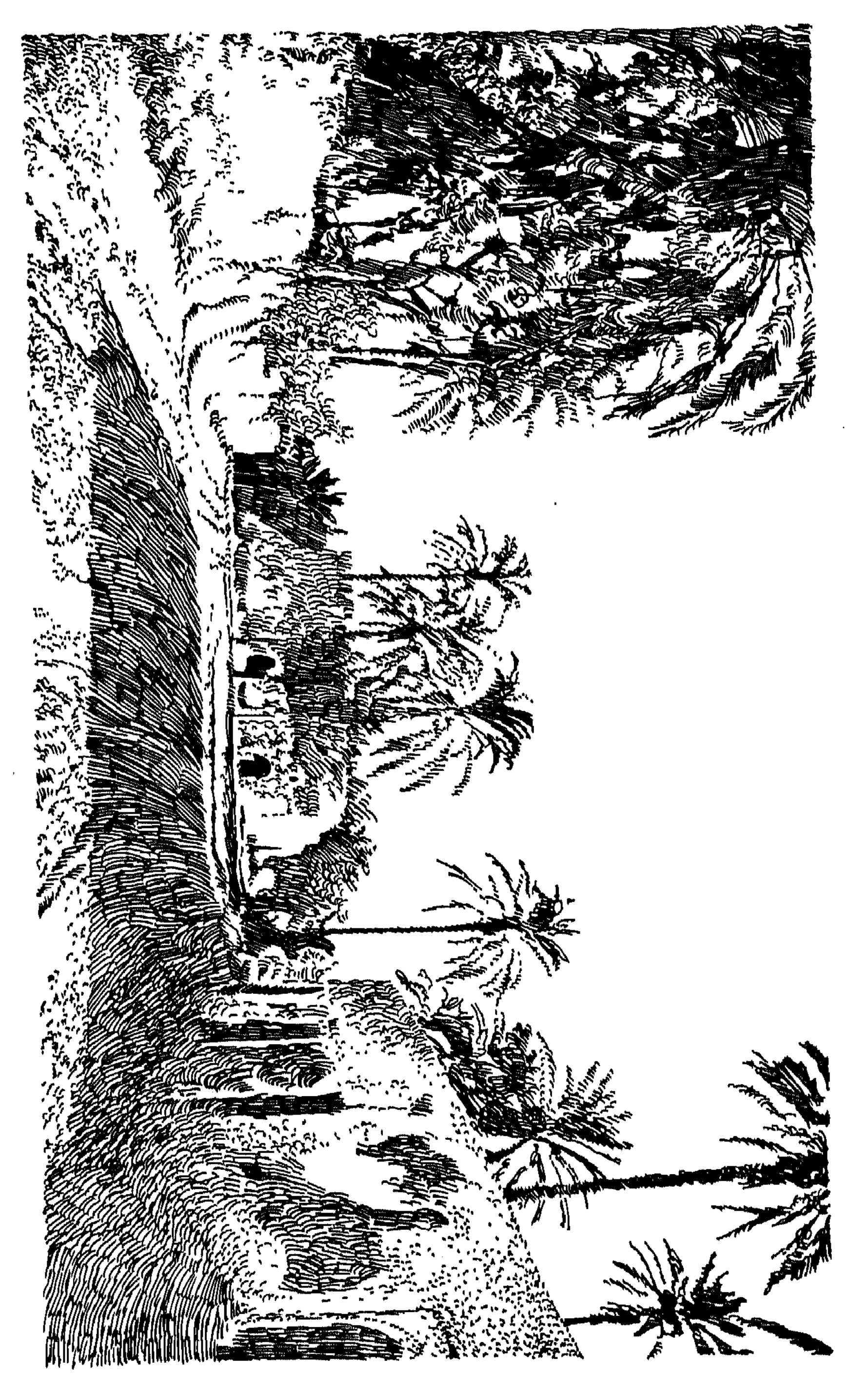
شارع العزيزية في العهد العثماني وتظهر القلعة ومئذنة جامع احمد باشا .



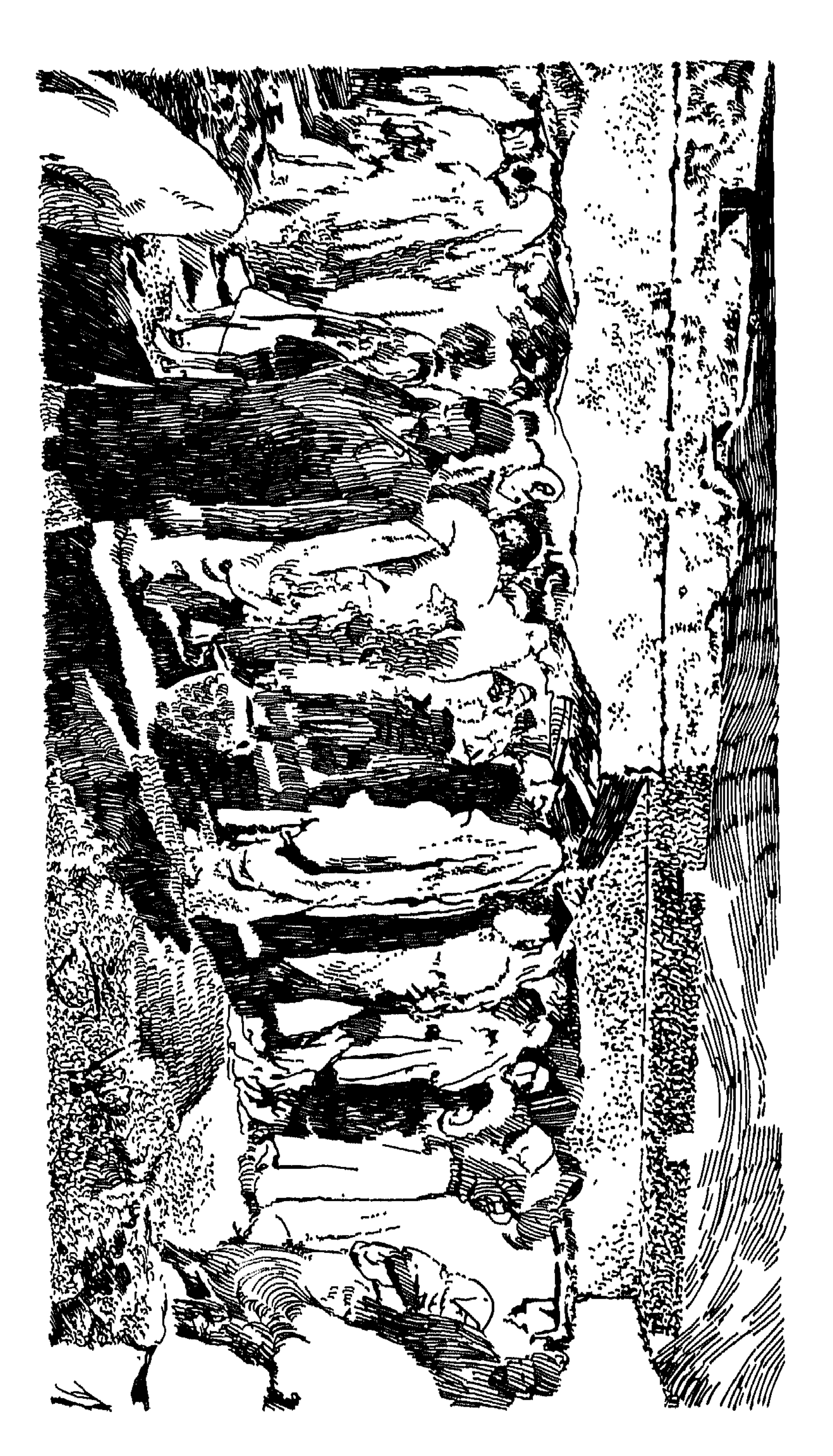
طرابلس منطقة الكورنيش في مطلع العهد الإيطالي.



طرابلس مركز البريد الإيطالي أثناء العهد العثماني.



ضواحي طرابلس.



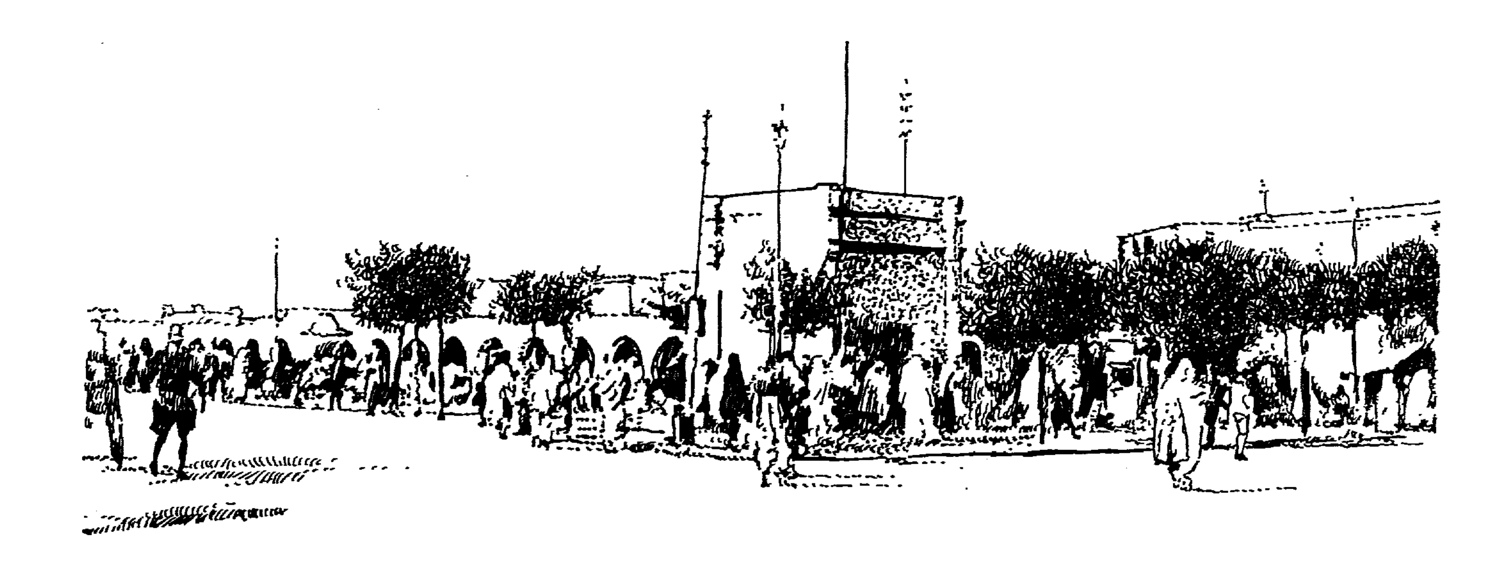
من أيام السوق.



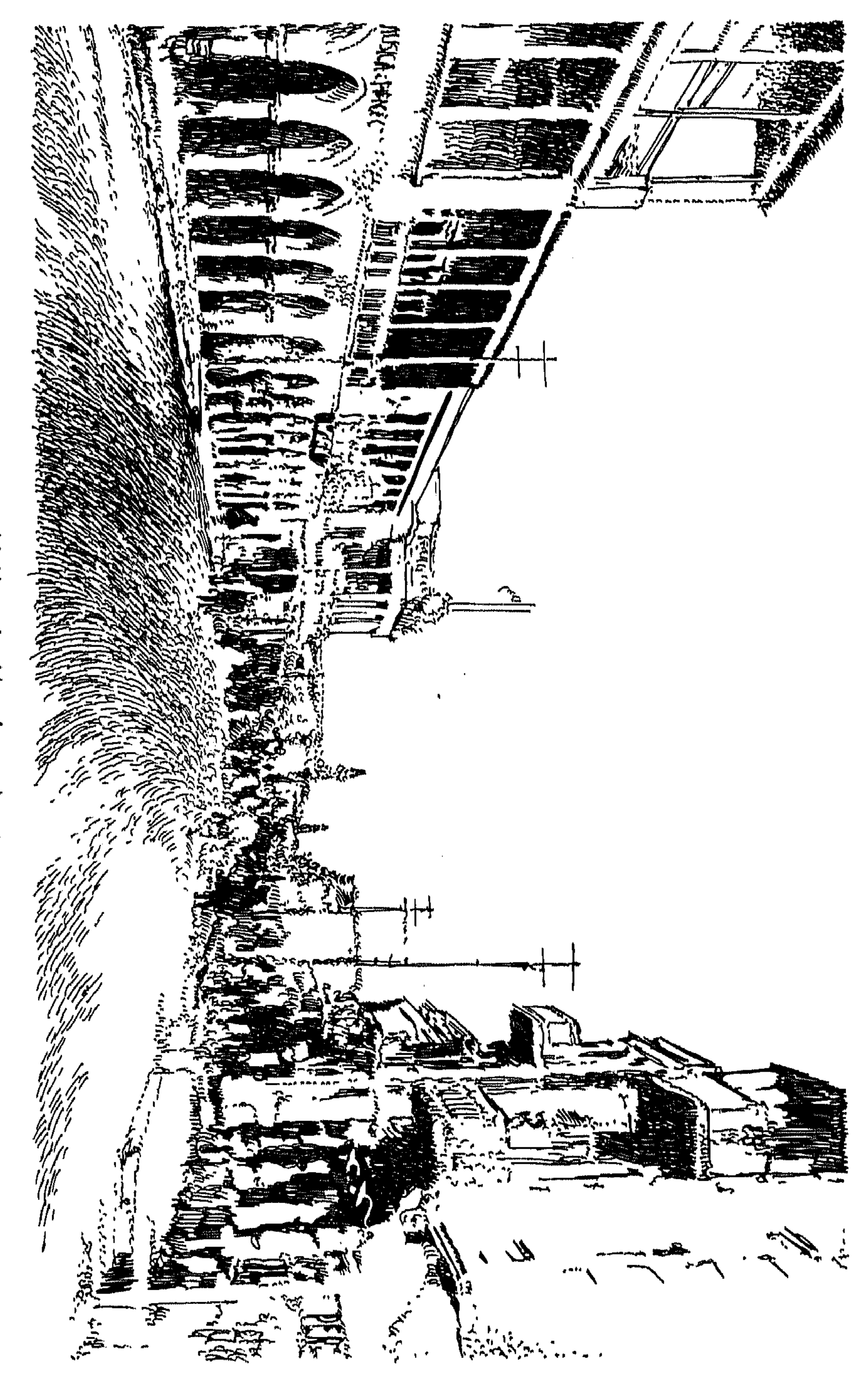
طرابلس — سوق.



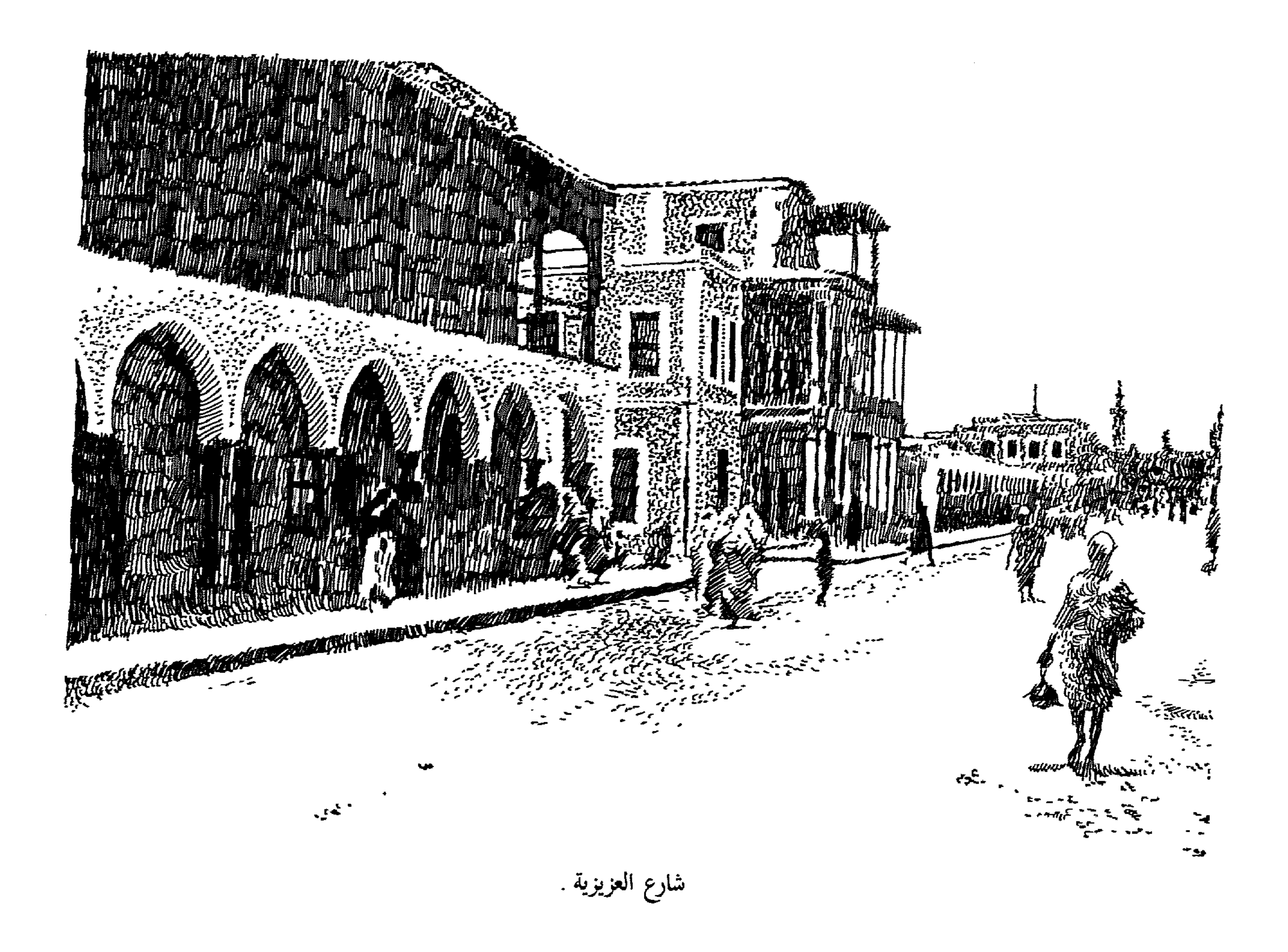
طرابلس — شارع العزيزية .



مشهد من مدينة طرابلس عند مطالع الاحتلال الايطالي.



شارع العزيزية في مطالع العهد الإيطالي.



شارع العزيزية .



مشهد عام لمدينة طرابلس من البحر عند بداية الاحتلال الإيطالي.

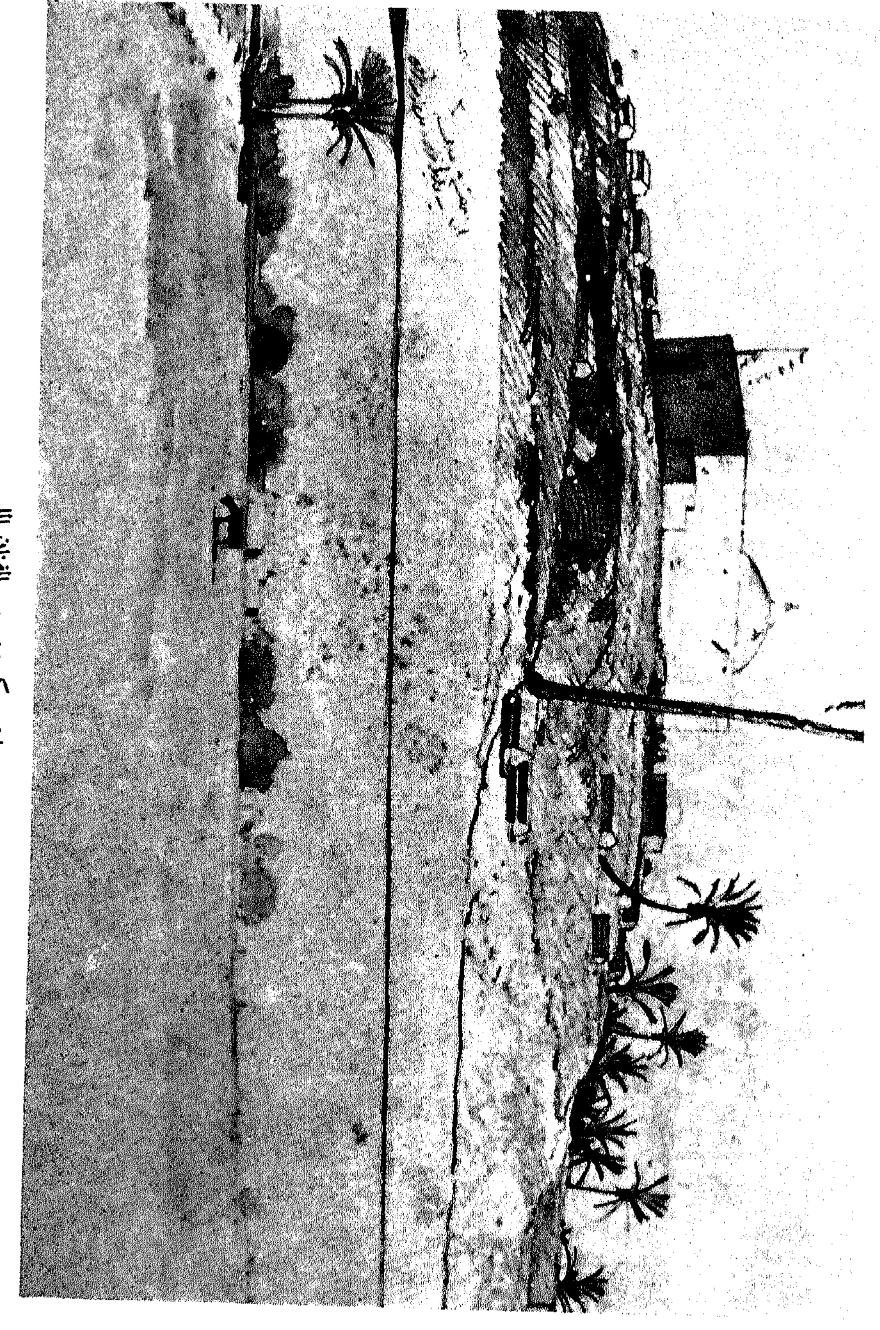
الحديقة العامة في العهد العثماني.



من مشاهد مدينة طرابلس من رسم الفنان الليبي الذي عاش أثناء العهد العثماني .



من مشاهد طرابلس من رسم الفنان .

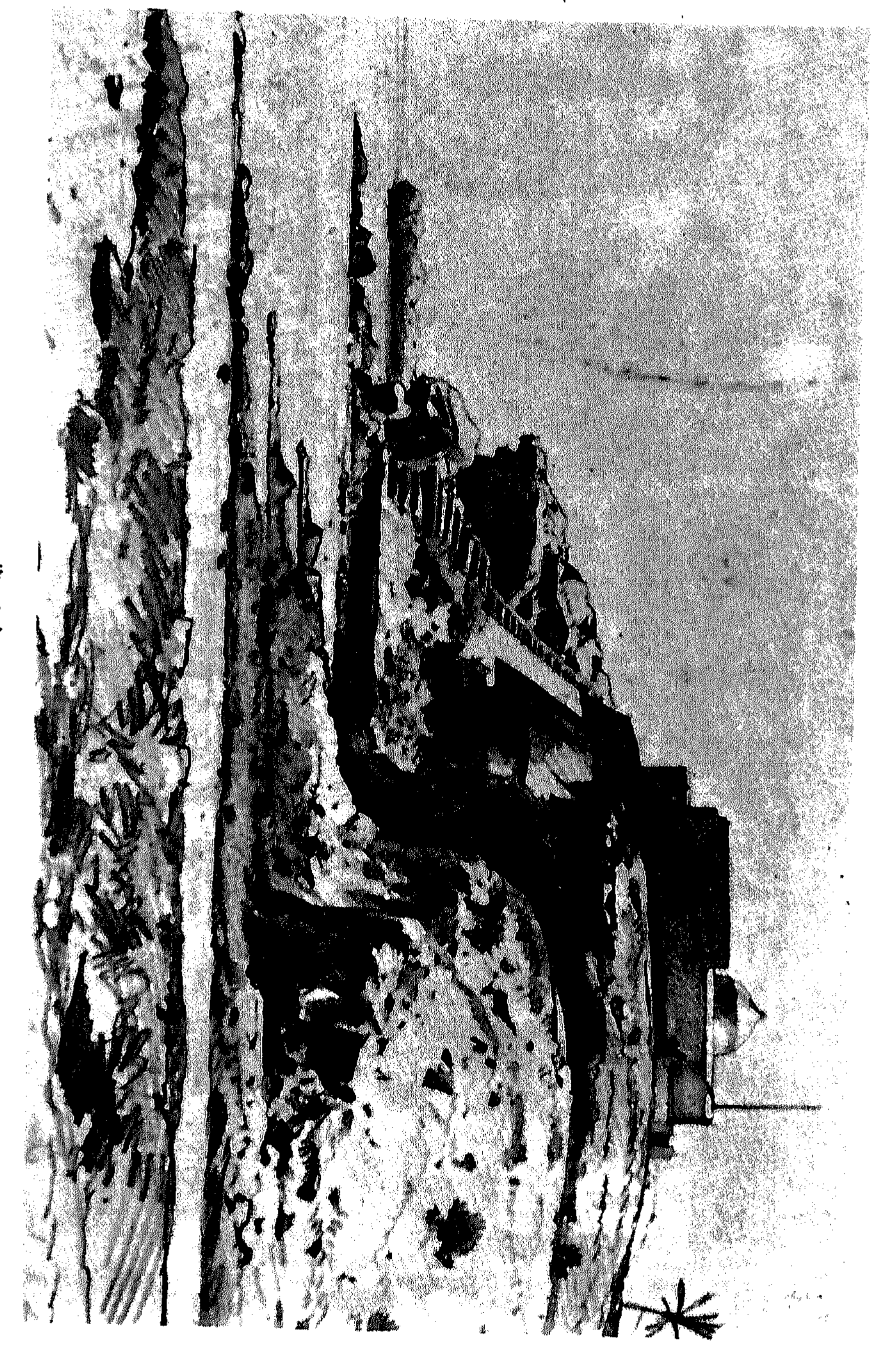


سيدي بوكر من رسم الفنان الليبي .

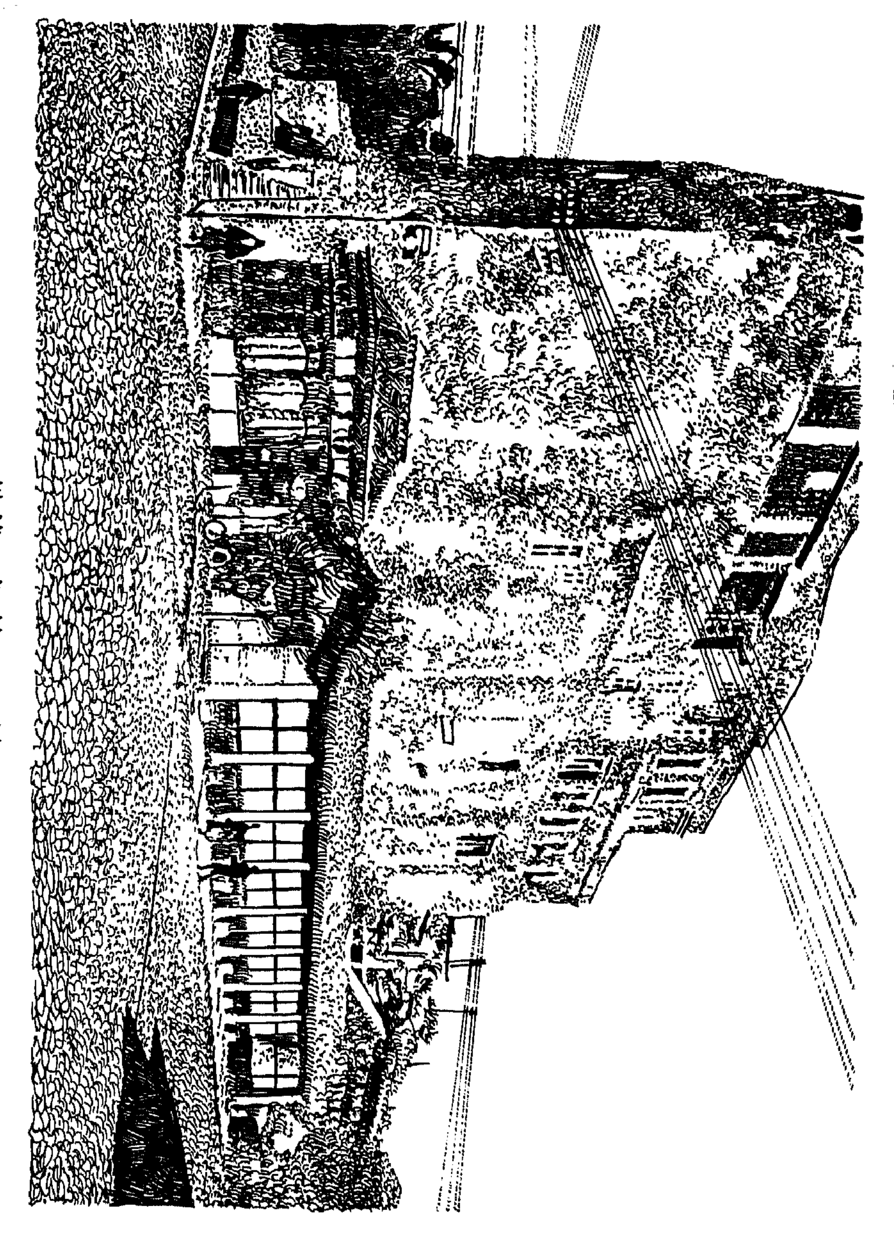
طرابلس عام الوادي .



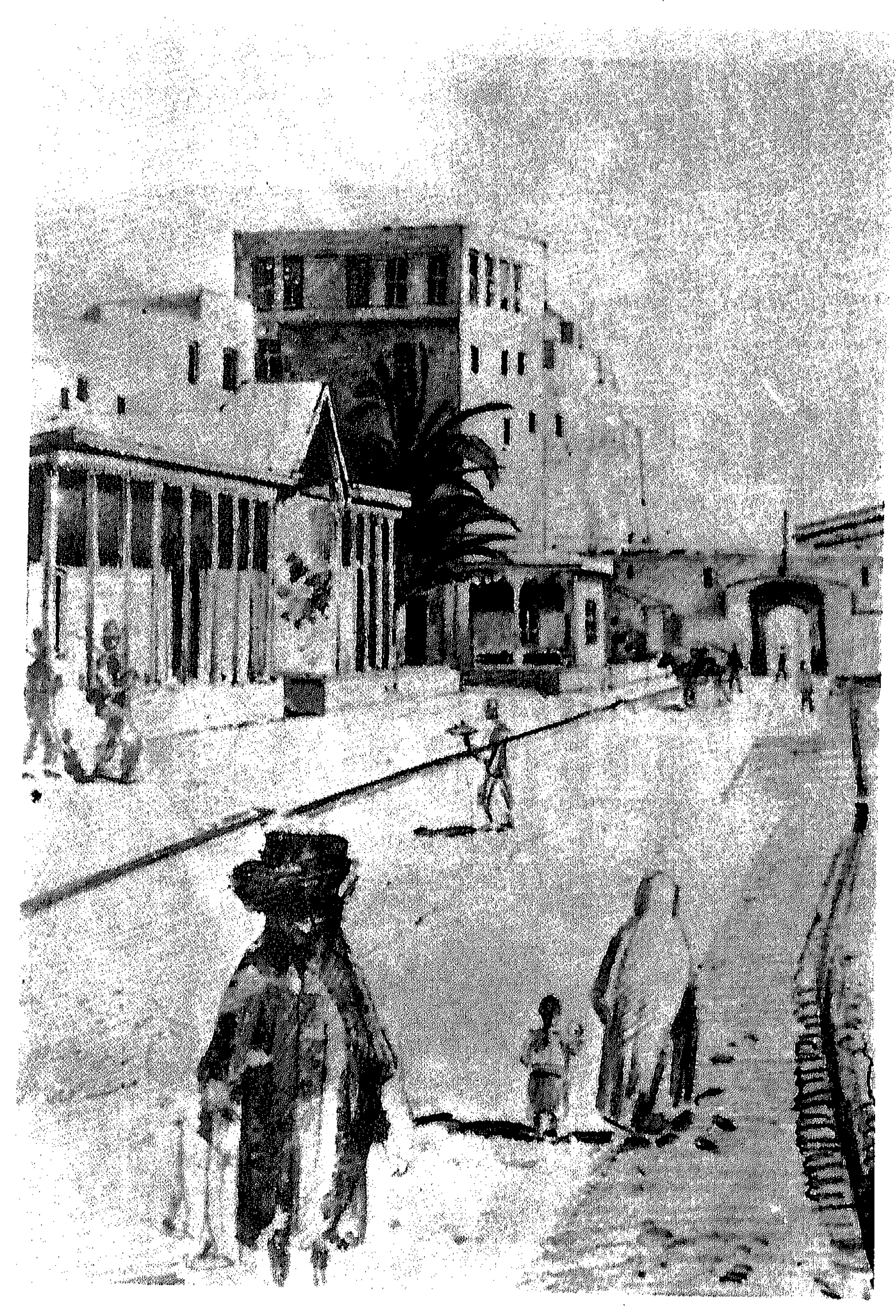
طرابلس عام الوادي .



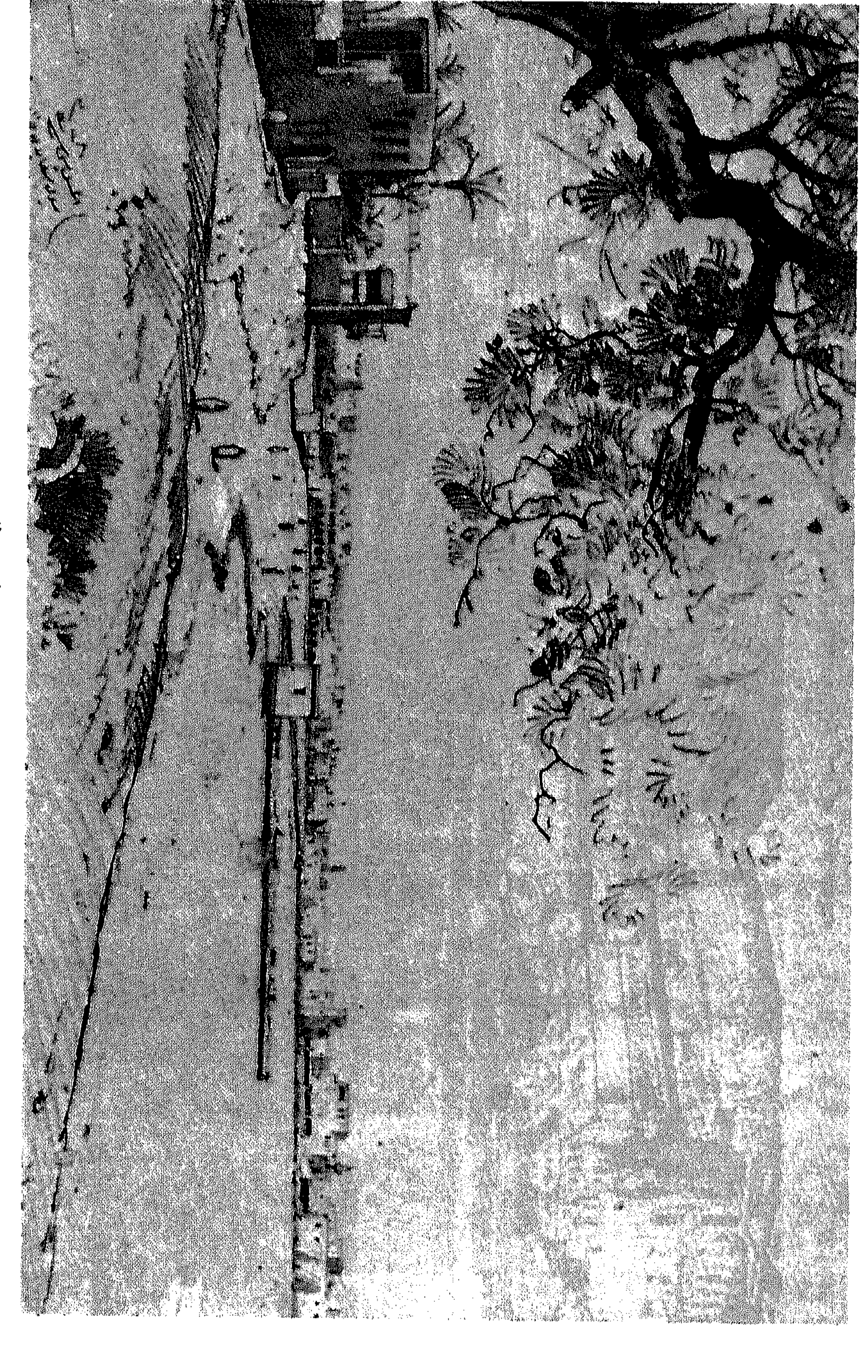
سيدي الشعاب من رسم الفنان الليجي .



القلعة عند مطلع العهد الإيطالي.

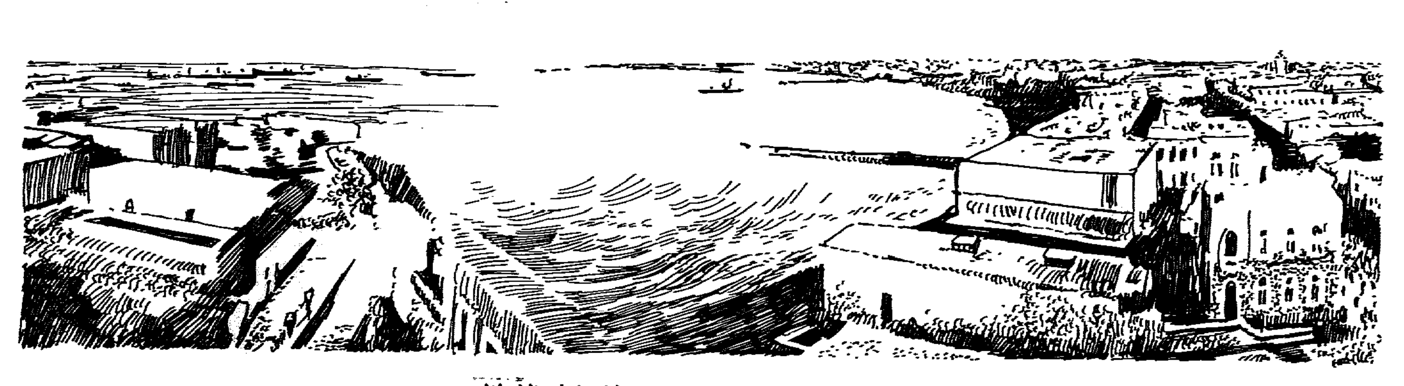


طريق الخندق من رسم الفنان الليبي .



سقالة الخلفاء من رسم الفنان الليبي.

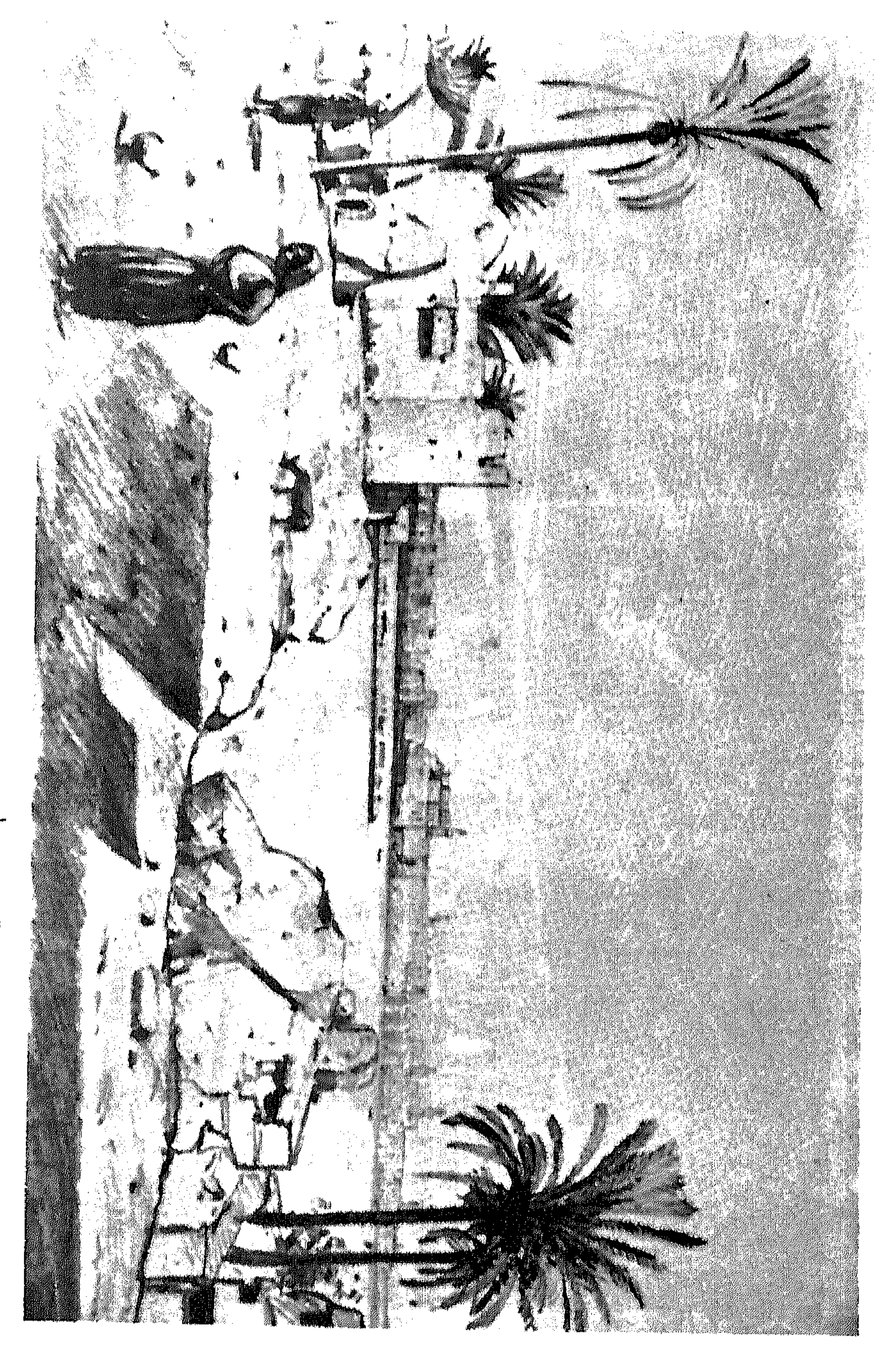




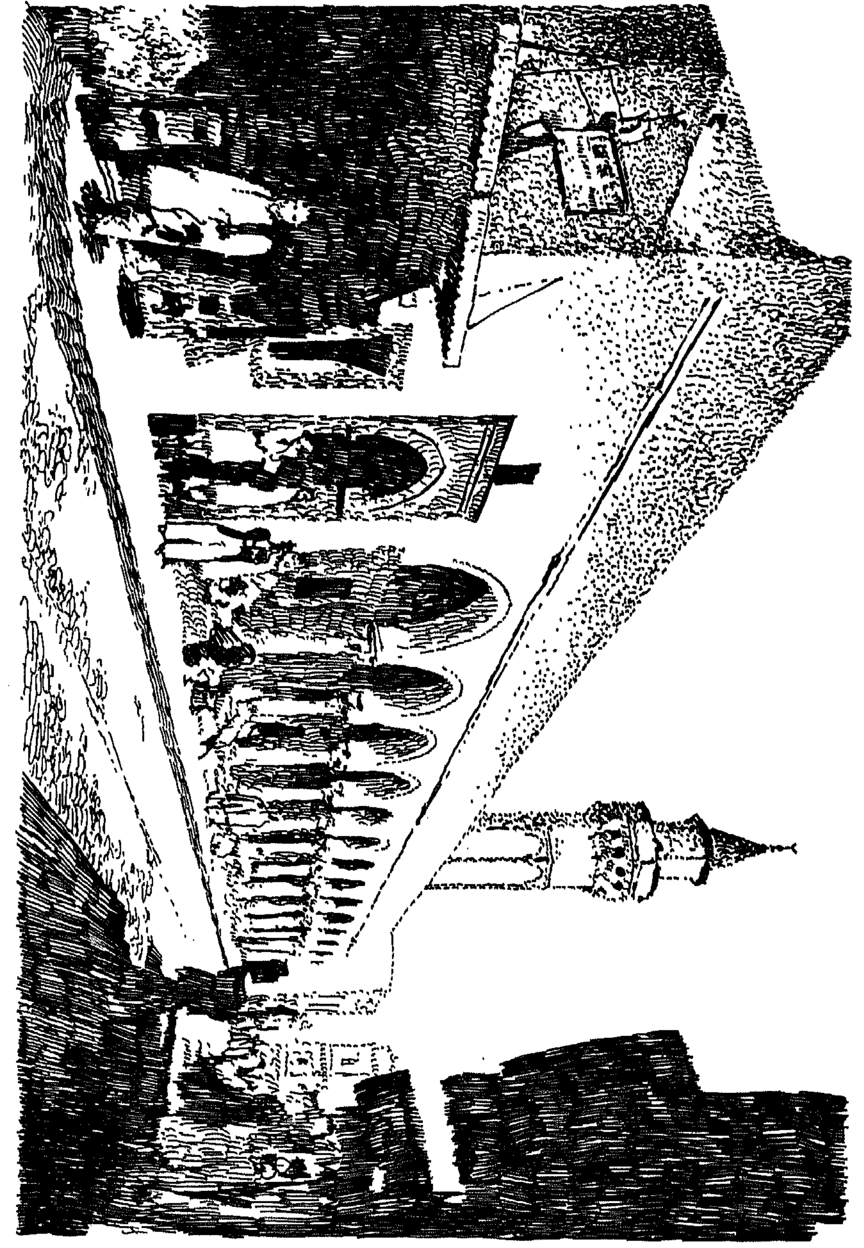
مشاهد لمدينة طرابلس والميناء عقب الاحتلال الأيطالي.



أحد حصون البناء .

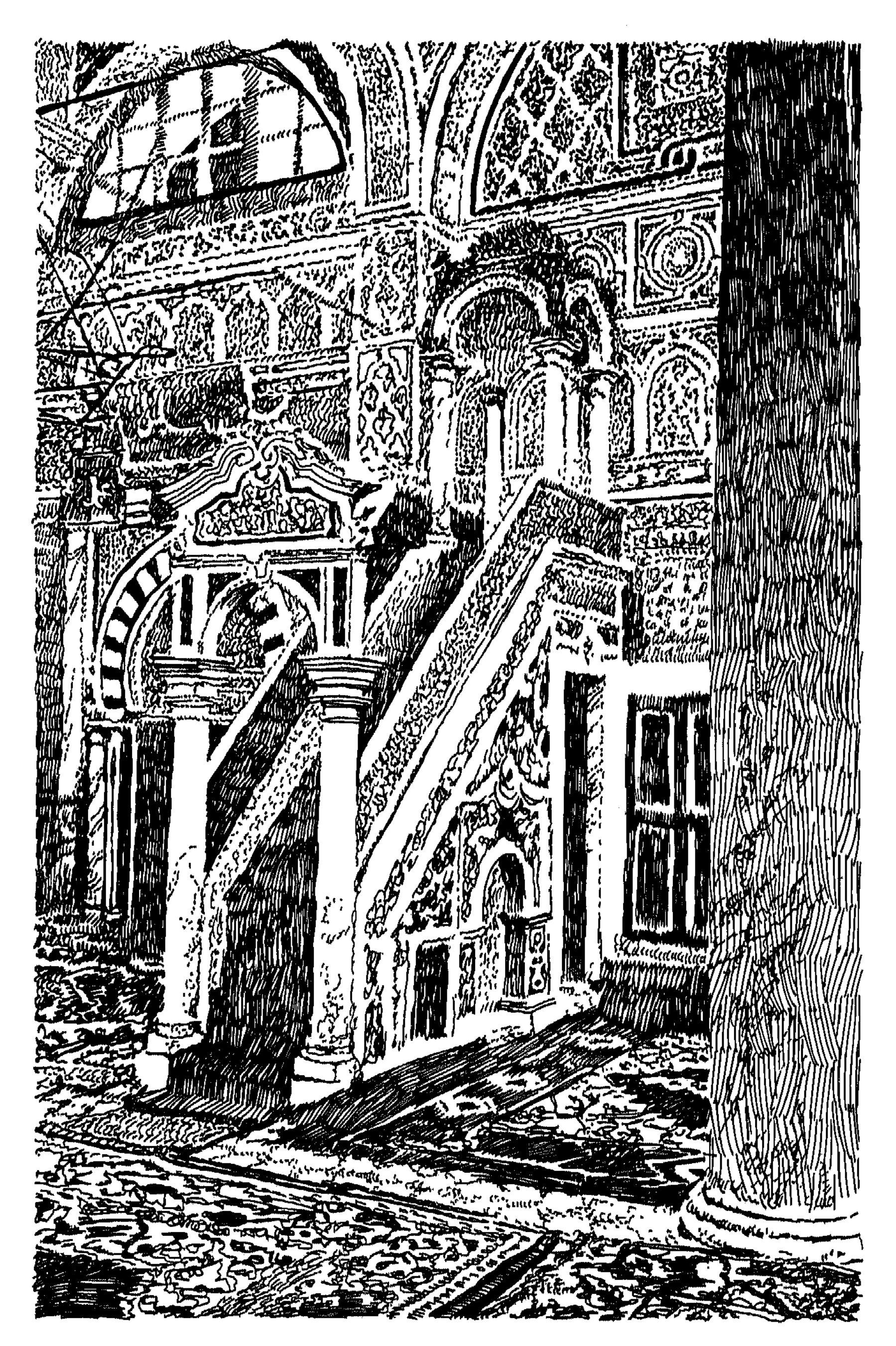


منطقة الغزالة كما تبدو في رسم الفنان الليبي.



سوق المشير أثناء العهد الإيطالي.

جامع سيالة بشارع عمرو بن العاص

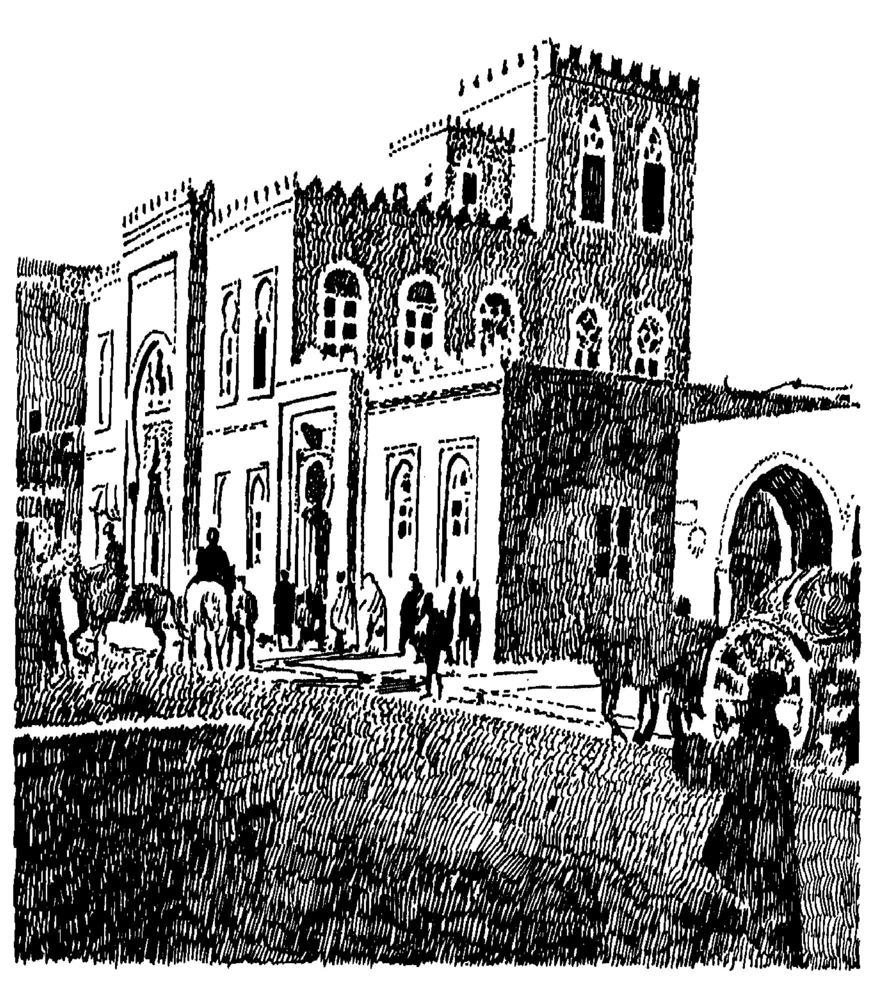


جامع أحمد باشا من الداخل .

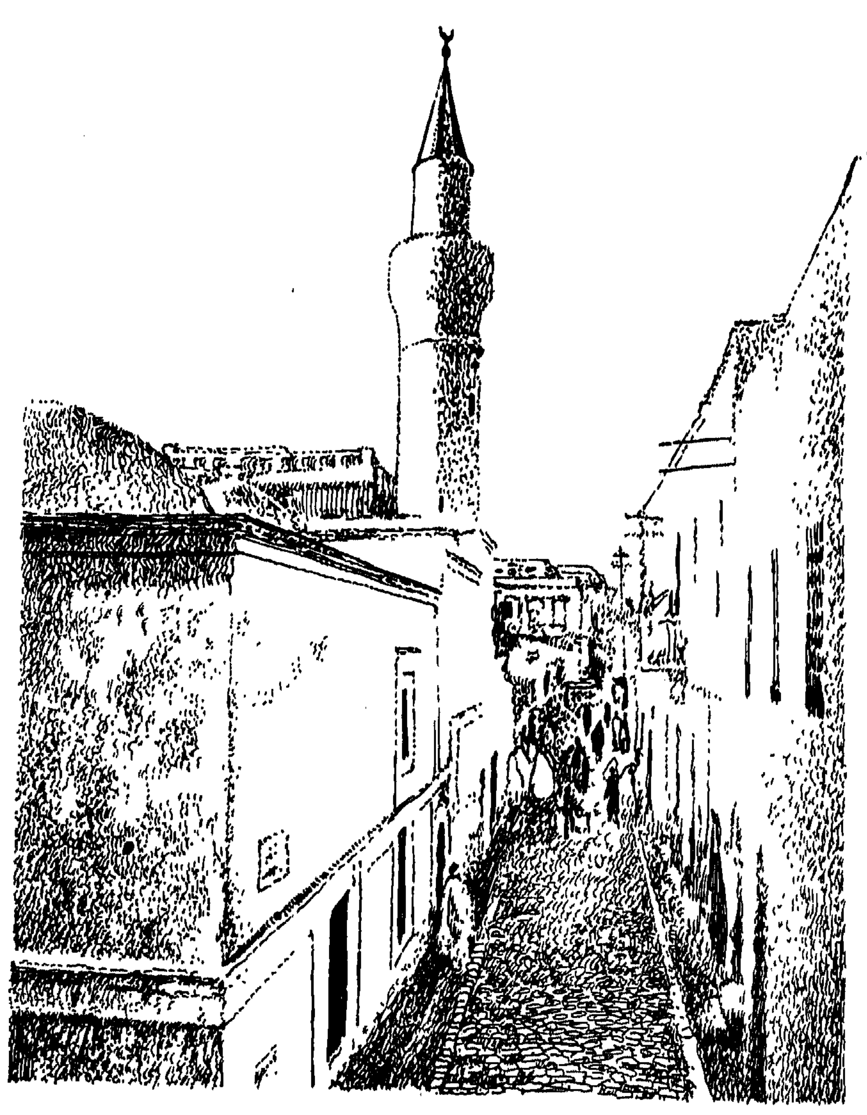


شارع العزيزية في العهد الايطالي .

يوم السوق.

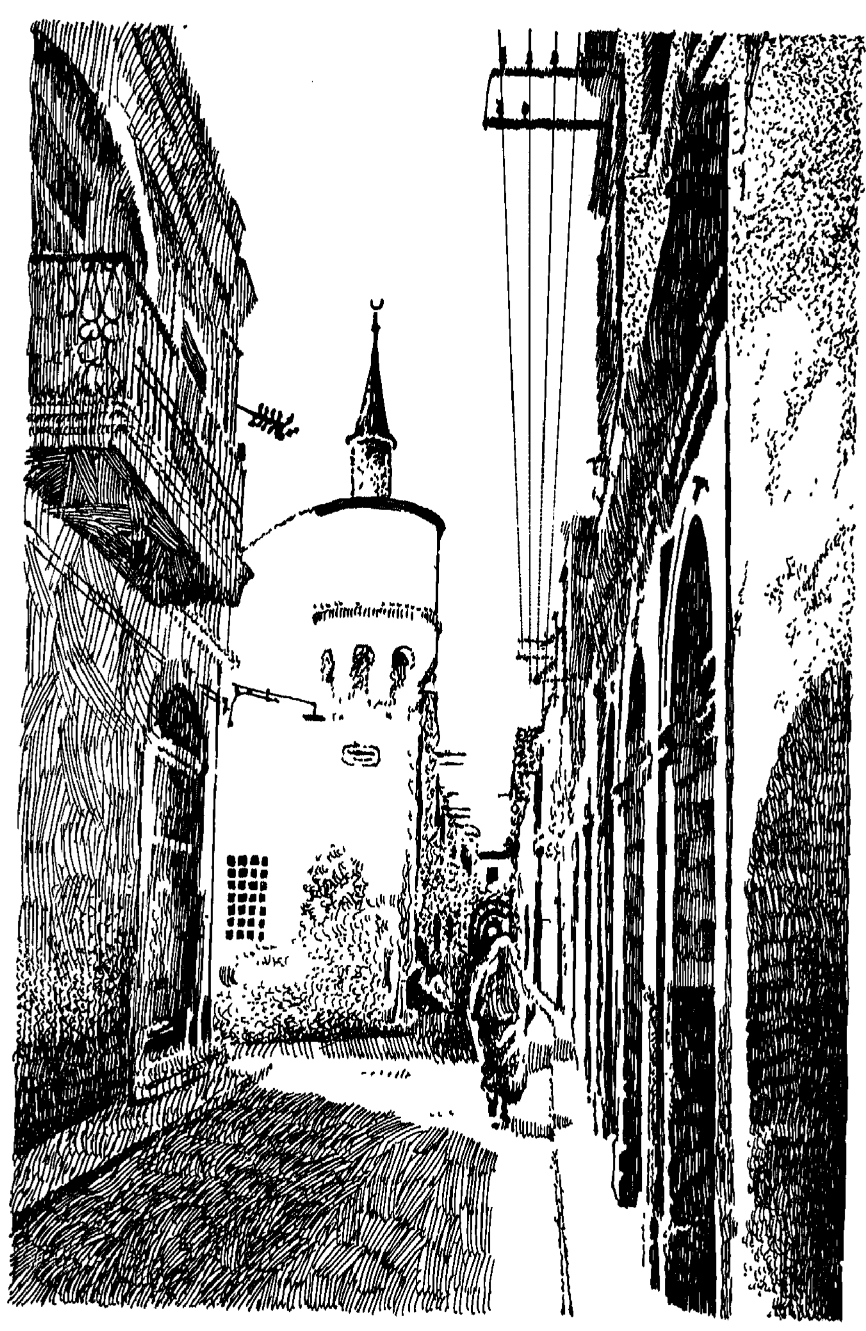


مشهد من مدينة طرابلس أثناء العهد الايطالي .

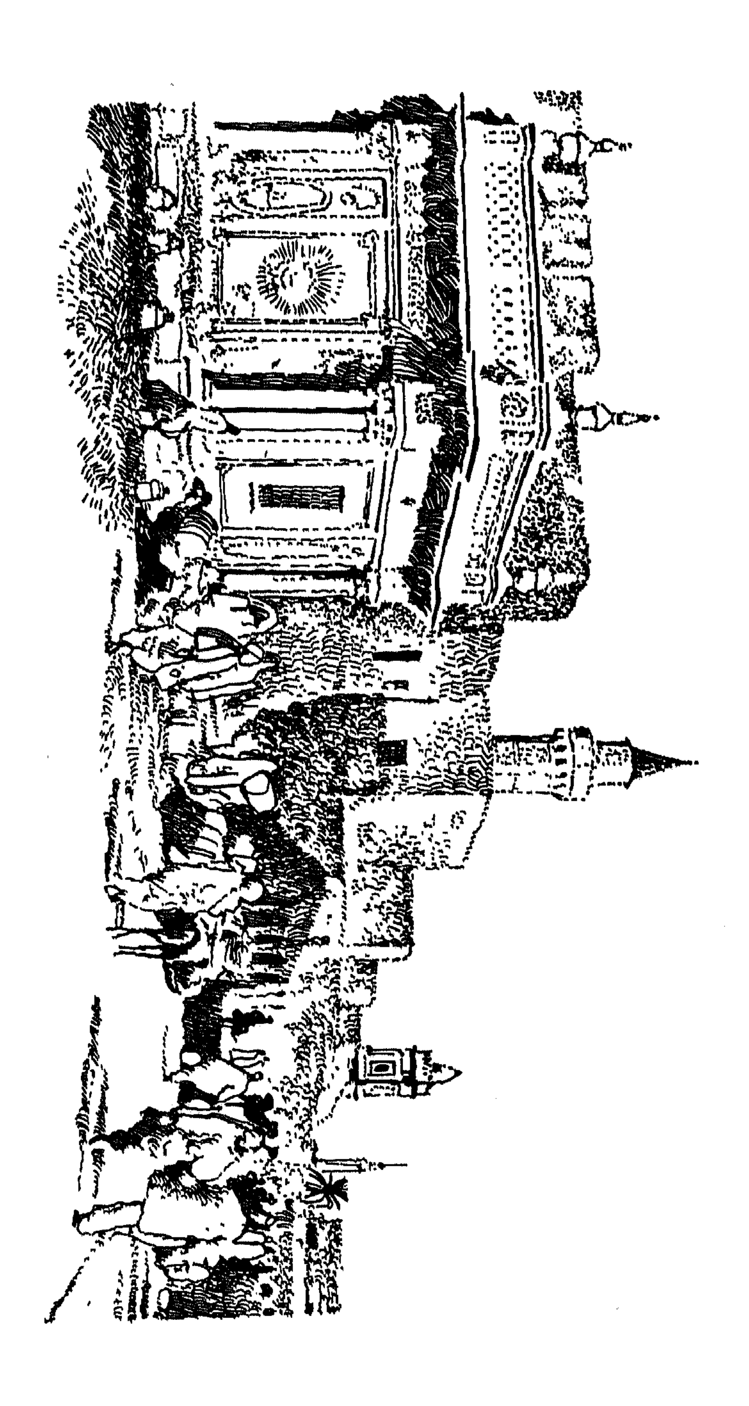


جامع محمود .

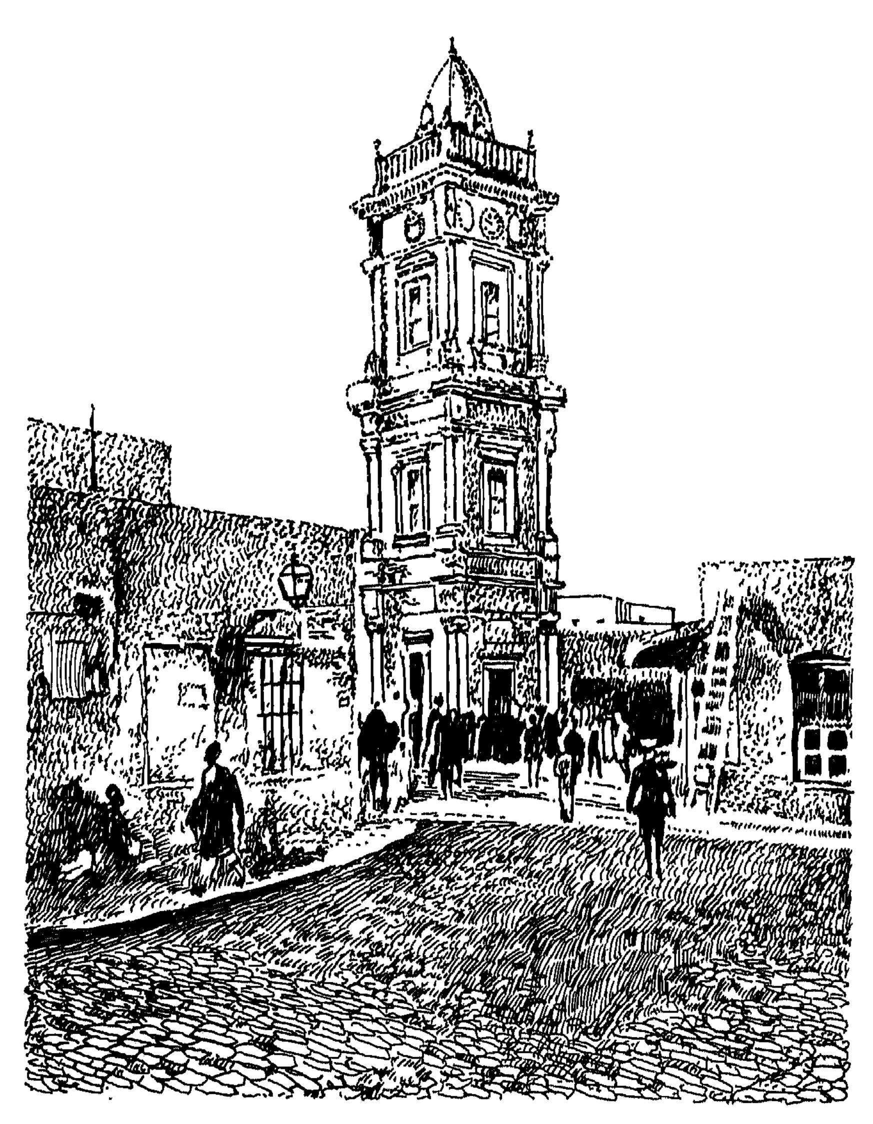
الباب الجديد .



جامع الدروج ـــ المدينة القديمة .



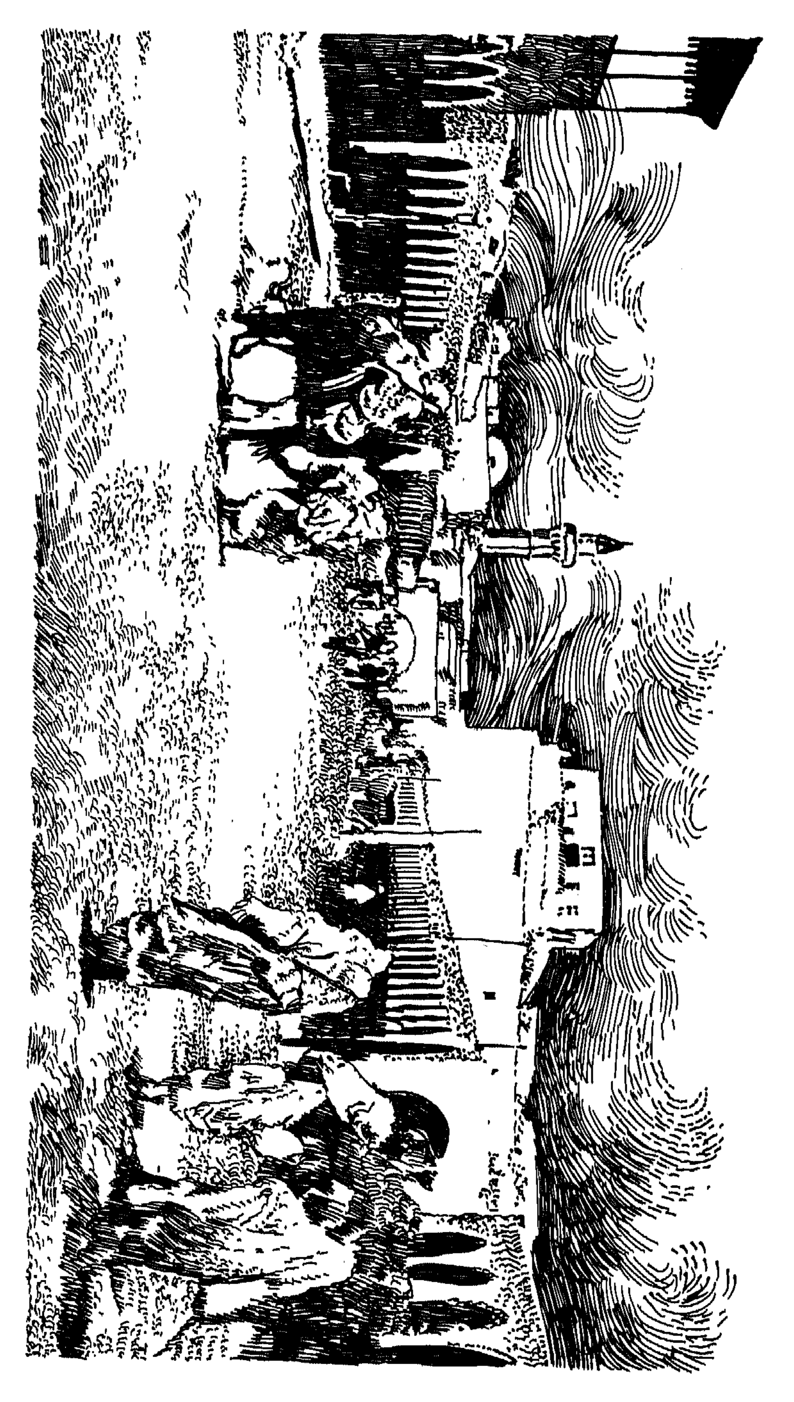
القاهرة التركية.



برج الساعة في مدينة طرابلس .

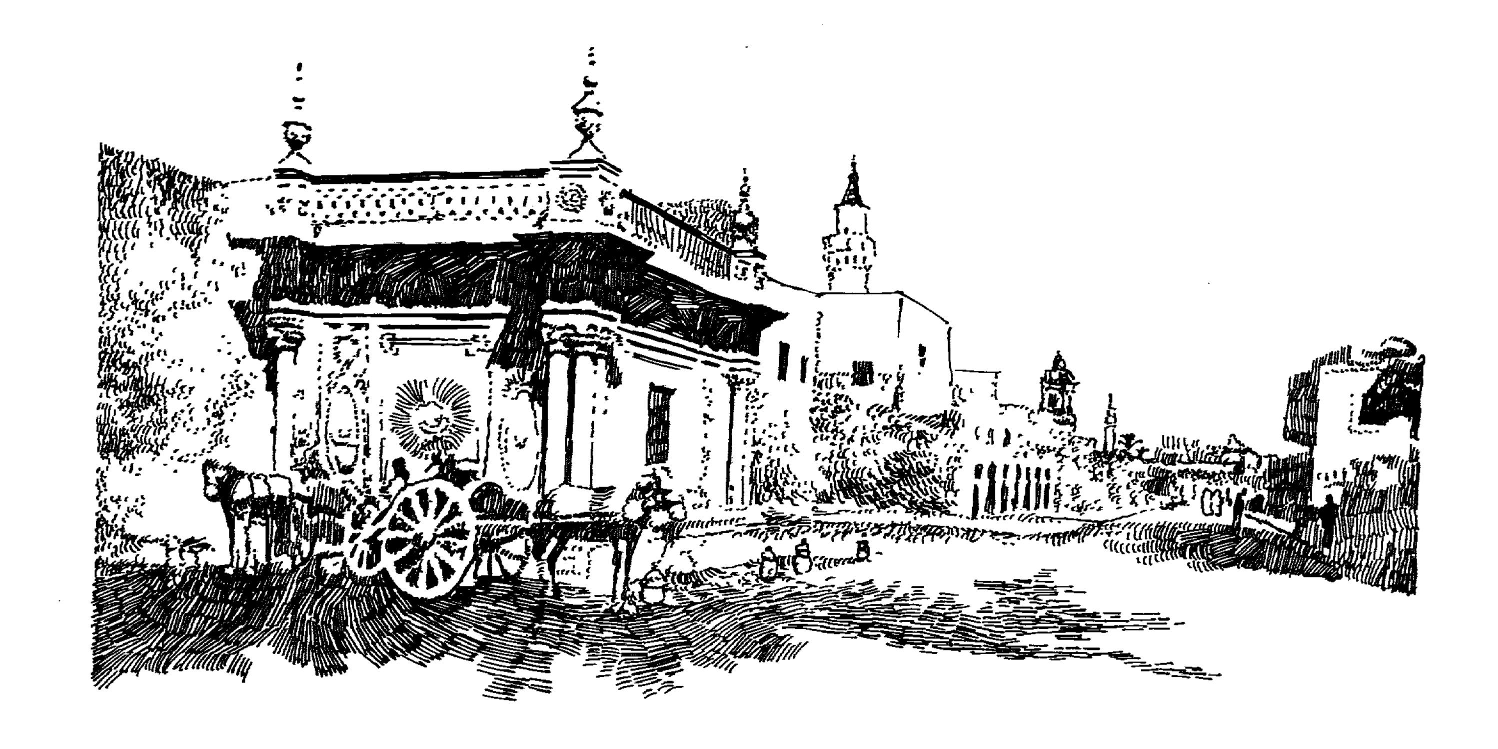


باب البحر ويظهر جامع قورجي وقوس ماركوس أوريليوس .



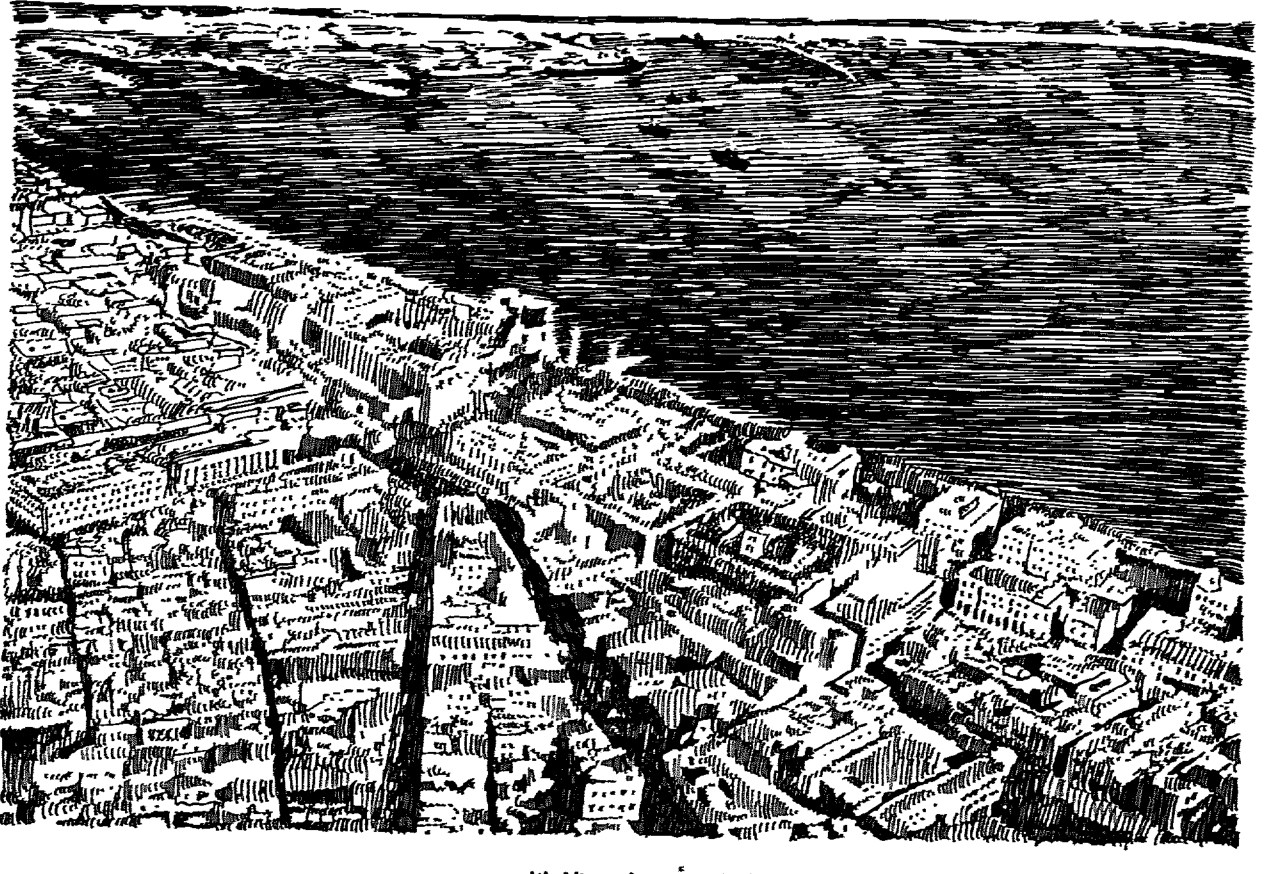
شارع العزيزية .

من أيام الأسواق.

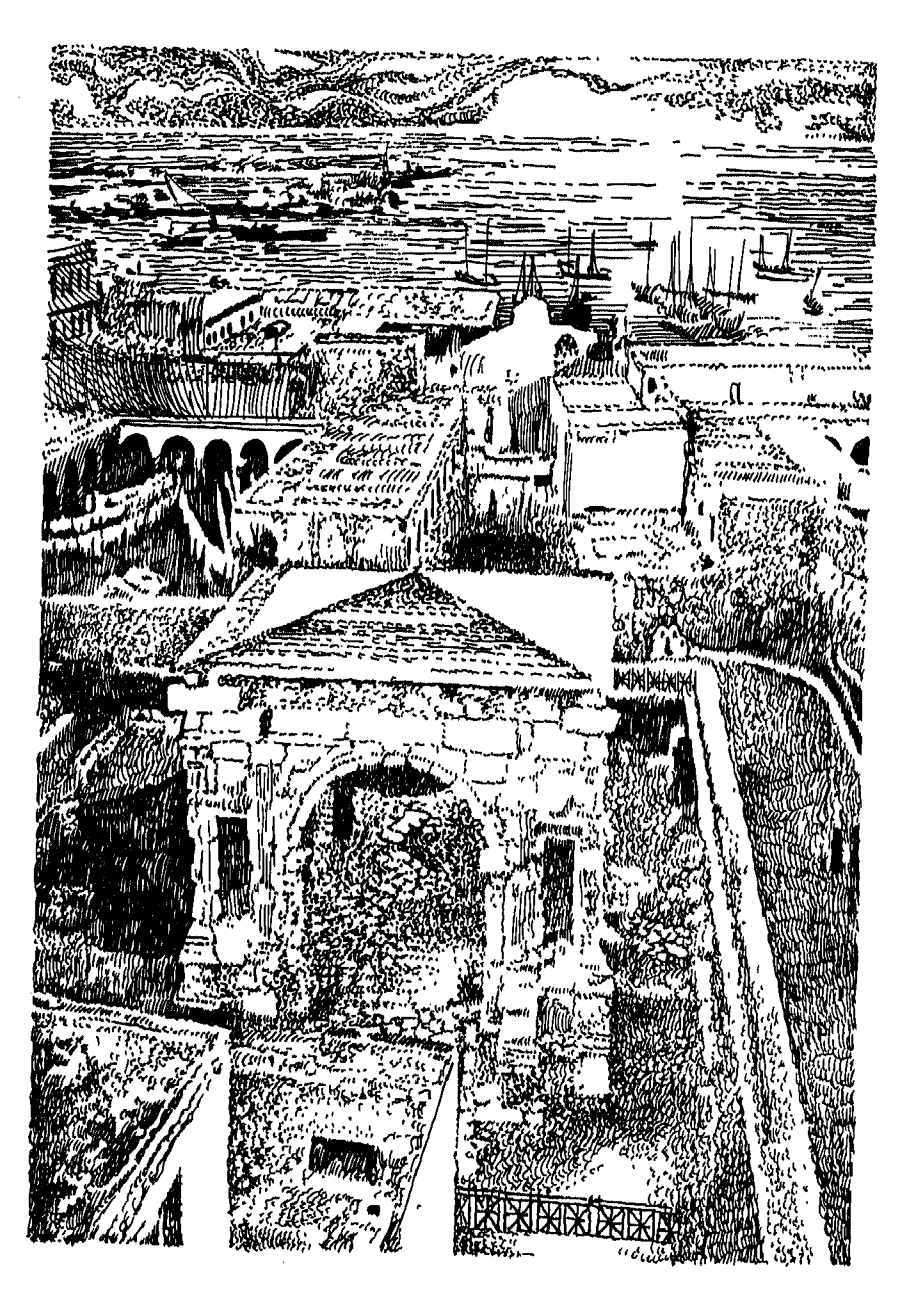


النافورة التركية .

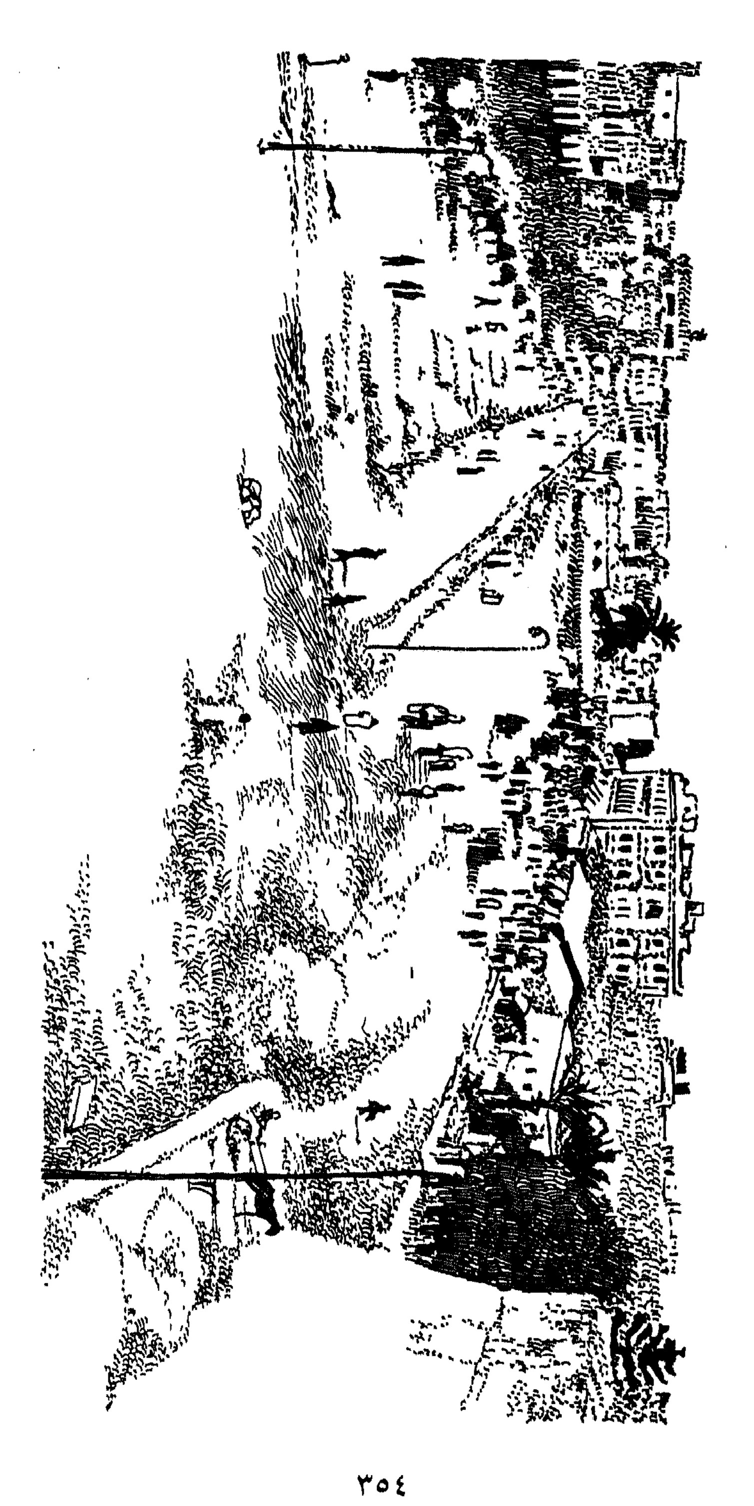
الباب الجديد .



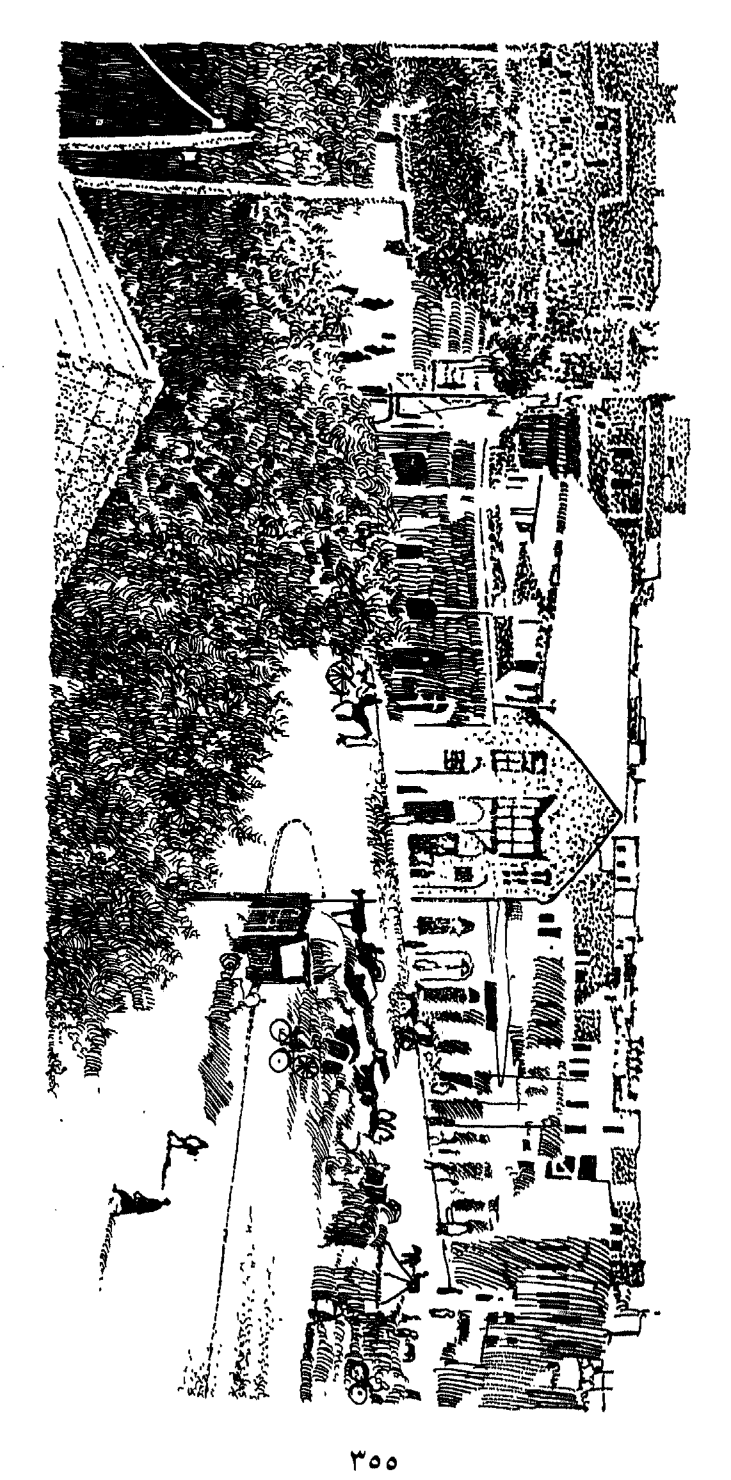
مشهد لميناء طرابلس أثناء العهد الايطالي .



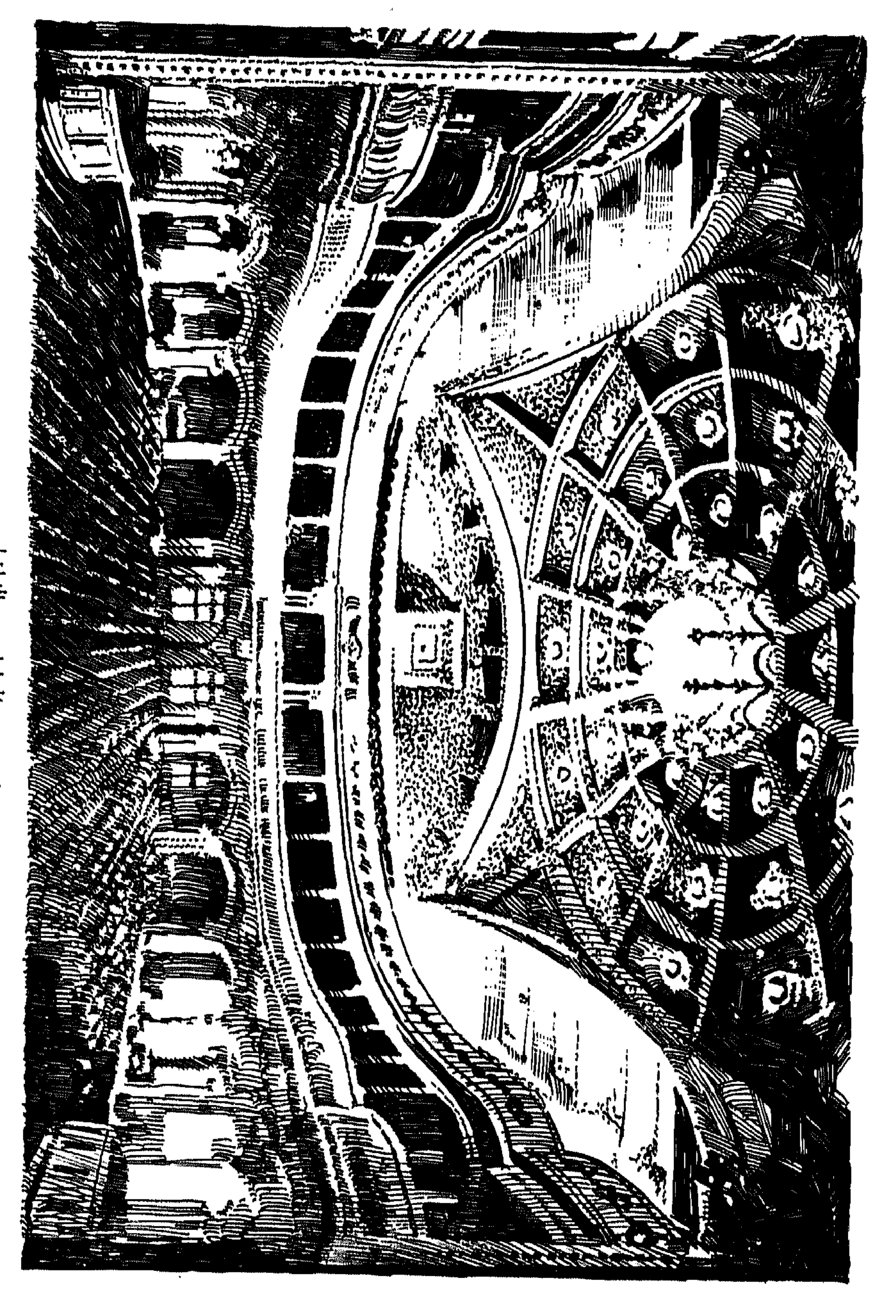
باب البحر كما يبدو في الفترات الاولى من العهد الايطالي .



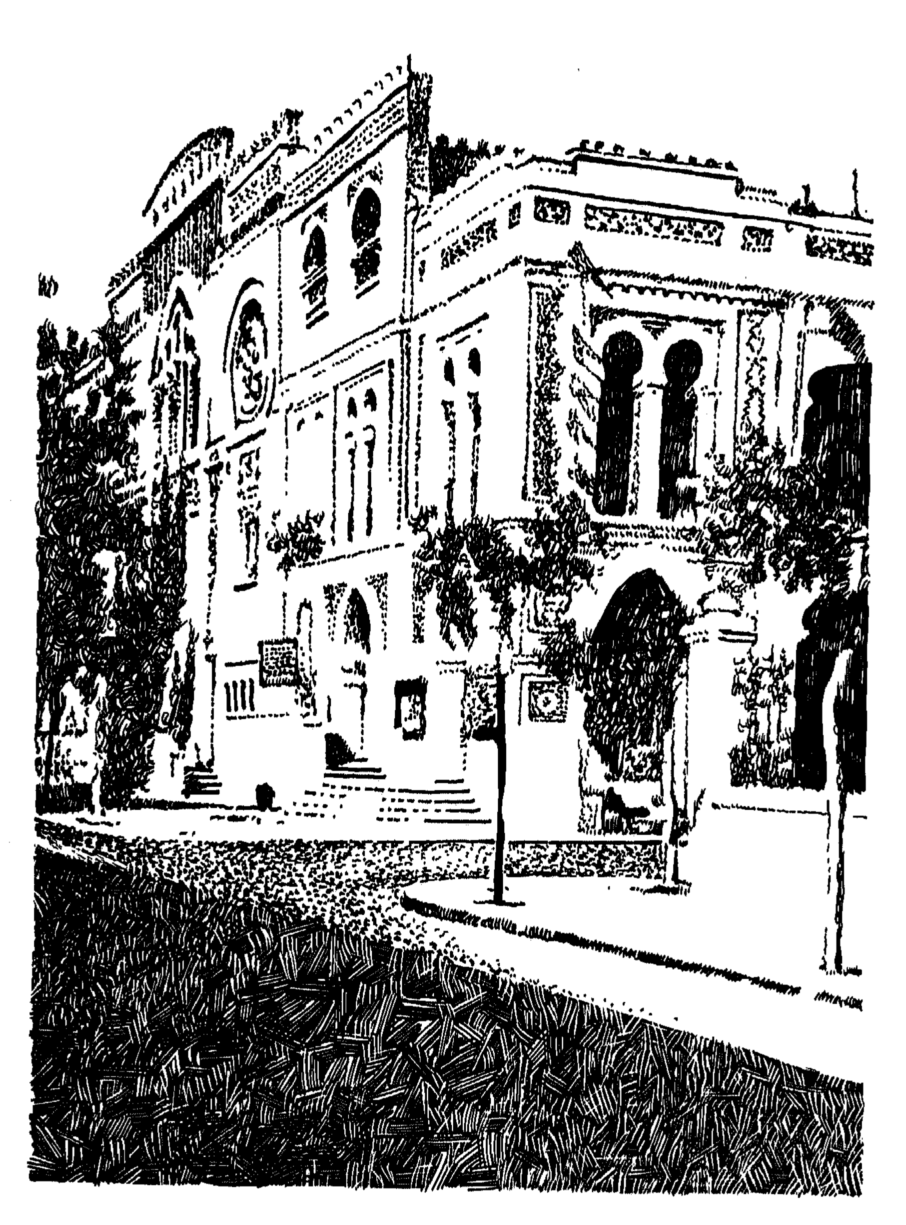
مشهد لمدينة طرابلس في أوائل العهد الايطالي



مشهد لمدينة طرابلس في أوائل العهد الايطالي.



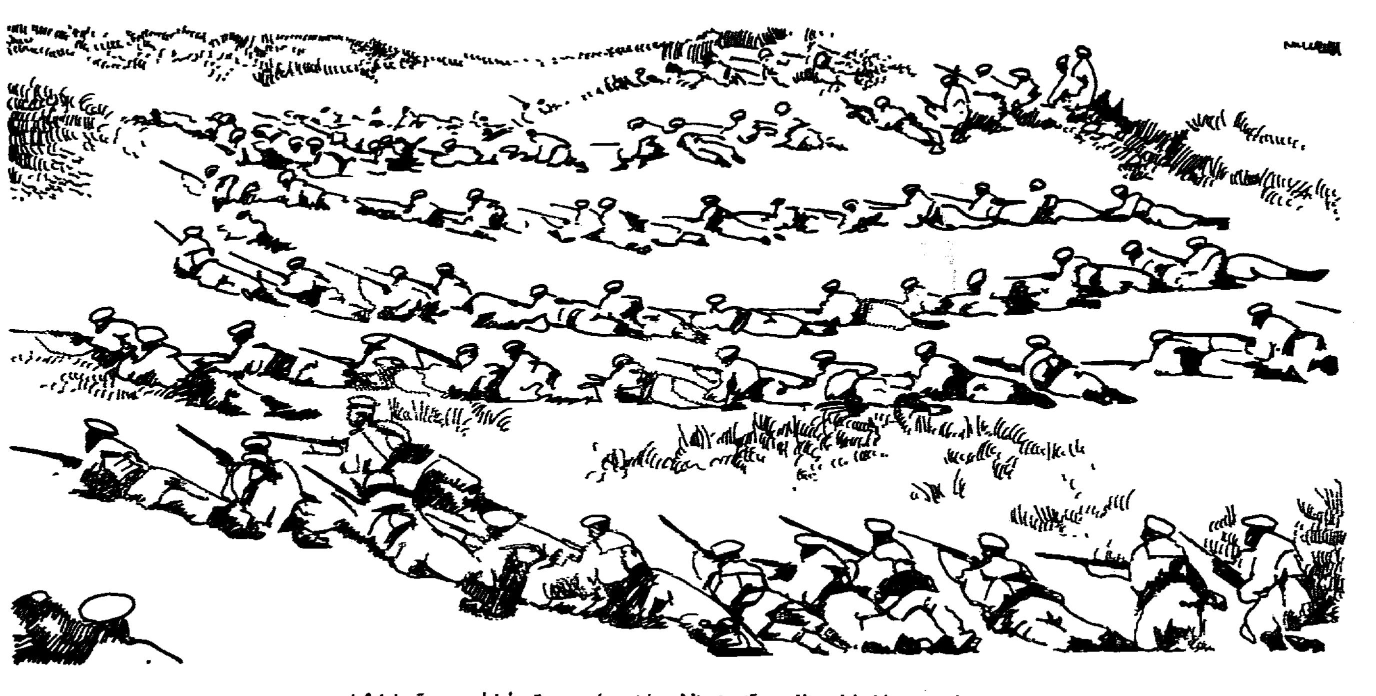
مسرح الكولون من الداخل.



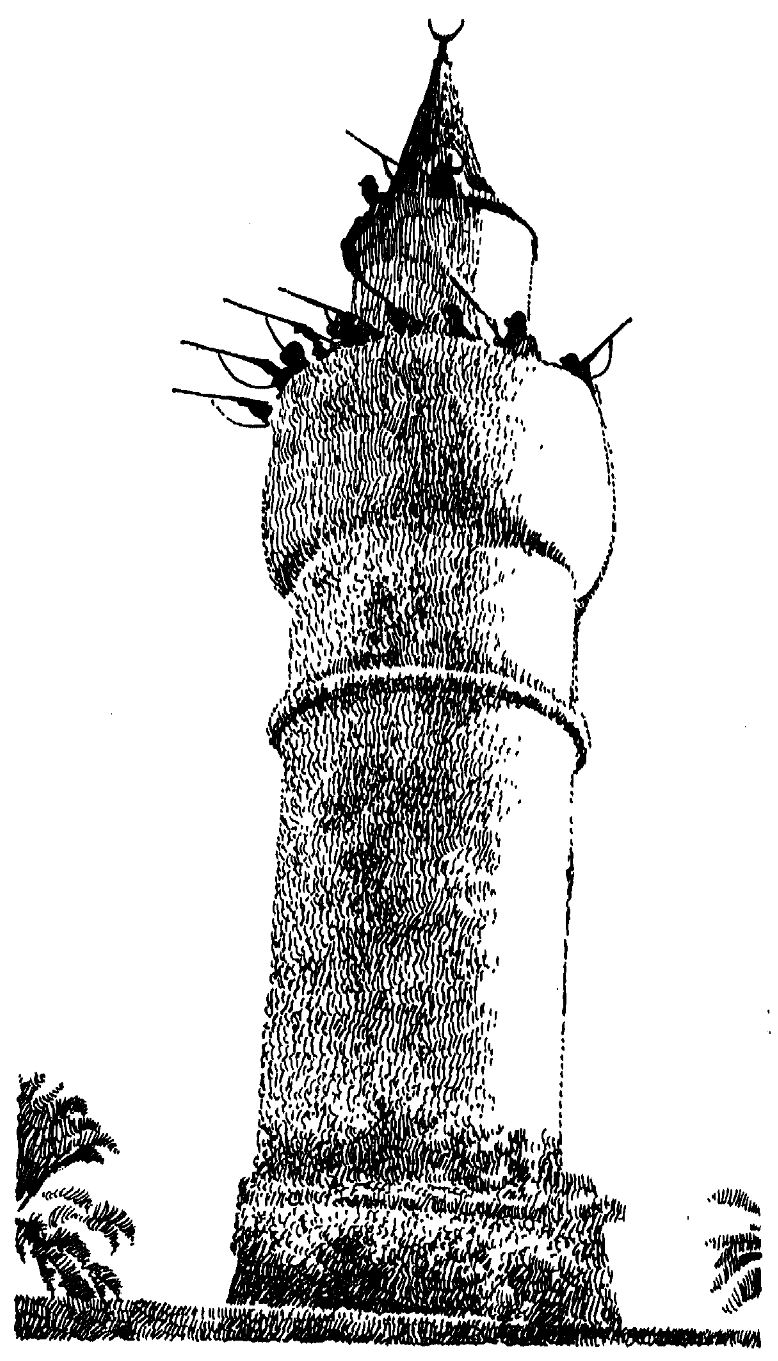
مسرح الميرامار من الخارج .

عمليات الانزال الايطالية الاولى في مدينة طرابلس .

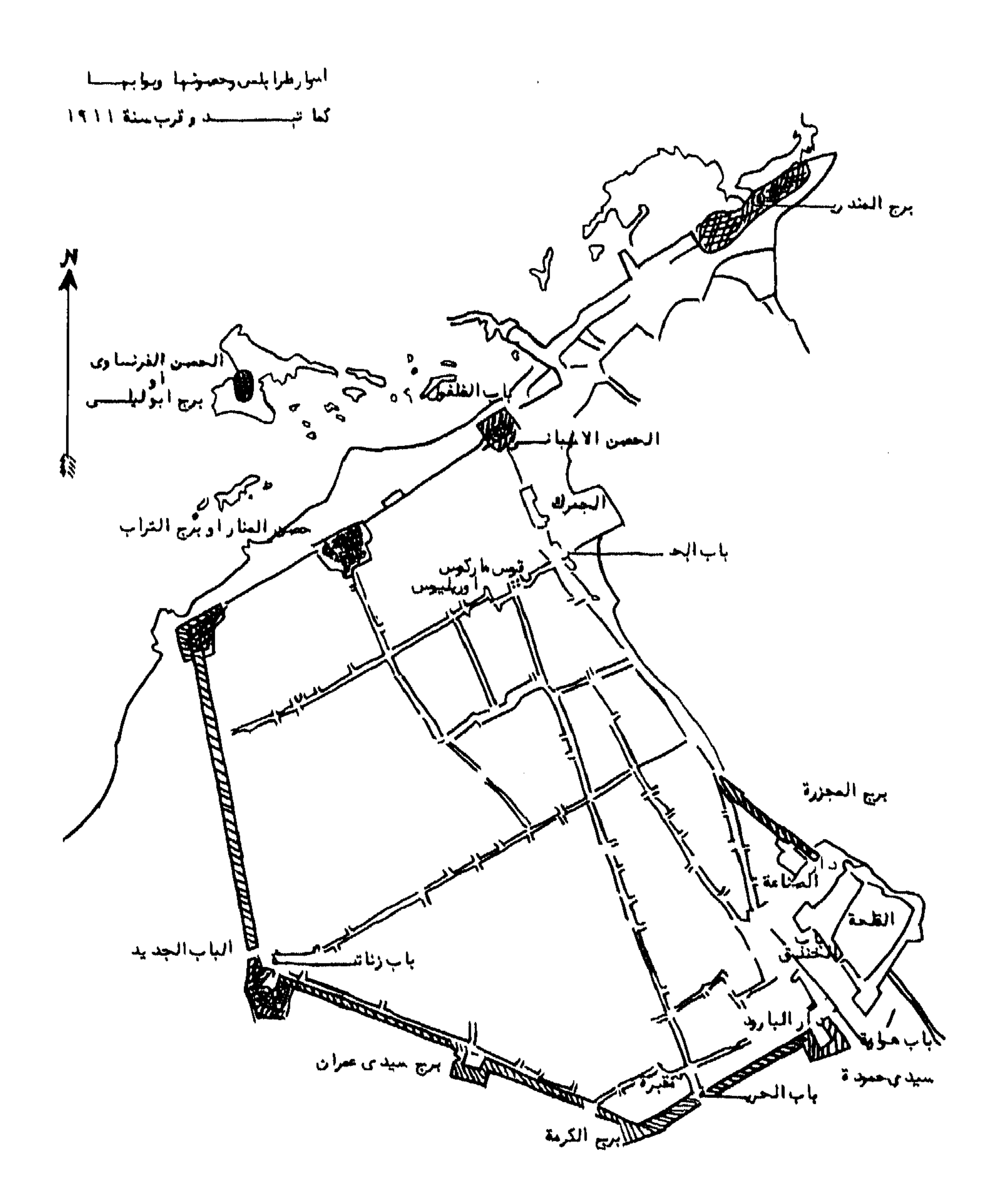
عمليات الانزال الايطالية الاولى في مدينة طرابلس .



جنود البحرية الإيطالية الذين قاموا بالاستيلاء على مدينة طرابلس سنة ١٩١١ .



جنود الغزو الايطالي .


اسوار طرابلس وحصونها وبوابها
كما تبدو وقرب سنة ١٩١١
N
برج المندر
الحصن الفرنساوى
او
برج ابوليلى
باب الفلفول
الحصن الاسبانى
الجمرك
حصن المنار او برج التراب
باب البحـ
قوس ماركوس
اوريليوس
برج المجزرة
الصناعة
القلعة
الخندق
الباب الجديد
باب زناتة
دار البارود
باب هوارة
سيدى حمودة
برج سيدى عمران
مقبرة
باب الحرية
برج الكرمة

المراجع العربية

١) الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى ـــ تأليف : أبو العباس احمد بن خالد الناصري ـــ الدار البيضاء ١٩٥٤ .

٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـــ للمقدسي ـــ ابريل ١٩٠٦ (طبعة خيّاط) .

٣) أسرار طرابلس ـــ مابل تود ـــ ترجمة ونشر دار الفرجاني ـــ طرابلس ١٩٤٨ ، (والنقول الواردة في الكتاب هي من ترجمة مترجم الكتاب) .

٤) الأغالبة ـــ سياستهم الخارجية ـــ تأليف : محمد عبد الرازق ـــ القاهرة ١٩٧٢ .

٥) البيان المغرب ـــ ابن عذارى ـــ تحقيق : ليفي برونفنسال ـــ دار الثقافة ـــ بيروت .

٦) بلدية طرابلس في مئة عام ـــ ١٩٧٠ ـــ (مطبوعات البلدية) .

٧) تاريخ ابن الأثير ـــ دار صادر ـــ بيروت ١٩٦٦ .

٨) تاريخ ابن خلدون ـــ دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ .

٩) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي ـــ تحقيق : محمد ماضور ـــ تونس ١٩٦٦ .

١٠) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـــ الطاهر احمد الزاوي ـــ دار المعارف .

١١) تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتّى مطلع القرن التاسع الهجري ـــ تأليف : إحسان عباس ـــ دار ليبيا ١٩٦٧ .

١٢) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ـــ تأليف : إبن غلبون ـــ تحقيق : الطاهر الزاوي ـــ مكتبة النور ١٩٦٧ .

١٣) الحلّة السيراء ـــ ابن الأبار ـــ تحقيق : حسين مؤنس ـــ القاهرة ١٩٦٣ .

١٤) الحوليات الليبية — فيرو — ترجمة : الدكتور عبد الكريم وافي — دار الفرجاني .
١٥) دفاع صبراته — أبوليوس — ترجمة : الدكتور علي فهمي خشيم — الشركة العامة للنشر والاعلان والتوزيع .
١٦) دليل متحف الآثار بالسراي الحمراء بطرابلس — مصلحة الآثار ١٩٧٧ — تنفيذ الدار العربية للكتاب .
١٧) الدبلوماسية الليبية في القرن الثامن عشر — محمد مصطفى بازامة — مكتبة قورينا — بنغازي (ونص الوثيقة الواردة في ص منقول عن ترجمة المؤلف مع شيء من التحوير) .
١٨) الدولة الموحدية في المغرب في عهد عبد المؤمن بن علي — عبد الله علام — القاهرة ١٩٧١ .
١٩) خلاصة تاريخ تونس — حسن حسني عبد الوهاب — الدار التونسية للنشر .
٢٠) الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا — تأليف : ايتليو موري — ترجمة : خليفة محمد التليسي .
٢١) رحلة إبن بطوطة — دار صادر — بيروت .
٢٢) رحلة التجاني — تونس .
٢٣) رحلة التمجروتي (النفحة المسكية في السفارة التركية) ط حجرية .
٢٤) رحلة الحشائشي — محمد بن عثمان الحشائشي — تقديم وتحقيق : علي مصطفى المصراتي — دار لبنان ١٩٦٥ .
٢٥) رحلة العبدري — أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الحيحي — تحقيق وتقديم : محمد الفاسي — الرباط ١٩٦٨ .
٢٦) رحلة الناصري — مخطوطة بالخزانة العامة — الرباط .
٢٧) صورة الأرض — إبن حوقل — منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت .
٢٨) طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا — اتوري روسي — ترجمة : خليفة محمد التليسي — طرابلس ١٩٦٩ .
٢٩) طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠ — كوستانزيو برنيا — ترجمة : خليفة محمد التليسي — دار الفرجاني ١٩٦٩ .
٣٠) طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانللية — رودلفو ميكاكى — ترجمة : طه فوزي — القاهرة ١٩٦١ .

٣١) عشر سنوات في بلاط طرابلس — ريتشارد توللي — ترجمة : عمر الديرادي أبو جملة — مكتبة الفرجاني (والنصوص العربية منقولة عن هذه الترجمة) .

٣٢) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية — إبن قنفد — تونس ١٩٦٨ .

٣٣) فتوح البلدان — للبلاذري — دار النشر للجامعيين — بيروت ١٩٥٨ .

٣٤) ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني — فرانشسكو كورو — ترجمة : خليفة محمد التليسي — دار الفرجاني — ١٩٧١ .

٣٥) ليبيا في كتب التاريخ والسير — تصنيف : إحسان عباس ومحمد يوسف نجم — دار ليبيا ١٩٦٨ .

٣٦) ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات — تصنيف : إحسان عباس ومحمد يوسف نجم — ذار ليبيا ١٩٦٨ .

٣٧) ليبيا قبل الإحتلال الإيطالي — احمد صدقي الدجاني — بيروت ١٩٧١ .

٣٨) ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١ — اتوري روسي — ترجمة : خليفة محمد التليسي — دار الثقافة — بيروت ١٩٧٤ .

٣٩) مرتفع الاهات الجبال — رحلة هـ . س . كومر — ترجمة : أنيس زكي حسن — دار الفرجاني (والنصوص المنقولة عن الكتاب هي من الترجمة العربية) .

٤٠) المختار في مراجع تاريخ ليبيا (ج ٢) مصطفى عبد الله بعيو — دار الطليعة .

٤١) المختار في مراجع تاريخ ليبيا (ج ٣) مصطفى عبد الله بعيو — الدار العربية للكتاب ١٩٧٢ .

٤٢) المسالك والممالك — الكرخي — تحقيق : محمد صابر عبد العال — القاهرة ١٩٦١ .

٤٣) معجم معارك الجهاد في ليبيا — خليفة محمد التليسي — دار الثقافة — بيروت ١٩٧٢ .

٤٤) المعمار الإسلامي في ليبيا — غاسباري مسّانا — ترجمة : علي الصادق حسنين — بيروت ١٩٧٣ .

٤٥) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب — لأبي عبد الله البكري — مكتبة المقني — بغداد .

٤٦) المؤنس في تاريخ أفريقية وتونس — لابن أبي دينار — تونس — المكتبة العتيقة ١٩٦٧ .

٤٧) تونس الأحبة في أخبار جربة ـــ محمد أبو راس الجربي ـــ تحقيق : محمد المرزوقي ١٩٦٠ ـــ تونس ـــ المطبعة الرسمية .
٤٨) النشاط الثقافي في ليبيا ـــ احمد مختار عمر ـــ منشورات الجامعة الليبية ـــ ١٩٧١ .
٤٩) وصف افريقيا ـــ الحسن بن محمد الوزان الزياني (ليون الافريقي) ـــ طبعة جامعة الرياض .

19) **Deleone. E.** (La colonizzazione dell'Africa del nord) Padova–Cedam.
20) **Della Cella. P.** (Viaggio da Tripoli di Barberia alle frontiere dell' Egitto, fatto nel 1817). Citta di Castello 1912.
21) **De Martino** (Tripoli, Cirene, Cartagine) Zanichelli–Bologna 1912.
22) **De Maithuisieulx. H. M.** (Attraverso la Libia) Vallardi–Milano 1911.
23) **Gerard.** (Histoire cronologique du Royaume de Tripoly de Barbarie.) Mss. francais N. 12219–12220 B.N. Parigi.
24) **Lyon. C.F.R.N.** (A narrative of travels in Northern Africa ecc.). Murray – 1821.
25) **Merighi. A.** (La Tripolitania Antica) Airoldi editore.
26) **Micacchi. R.** (Le straordinarie avventure di Dorming Dadiay Leblik ecc.) R.C. – 7–1933 p. 617–642–703–719.
27) **Micacchi. R.** (Le ultime geste dei Corsari Tripolini e la relazione degli stati italiani) R.C. – 7–1933 p. 201–222.
28) **Micacch. R.** (I rapporti tra il regno di Francine e la reggenza di Tripoli di Barberia nella prima metà del secolo XVIII) R.C. – 8–1934 p. 65–81–159–182–247–276.
29) **Micacchi. R.** (La Tripolitania sotto il dominio dei Caramanli) Airold Editore.
30) **Nachtigal. G.** (Sahara and Sudan) Hurst–London 1974 Repr.
31) **Piazza G.** (La nostra terra promessa) Lux Editore-Roma.
32) **Plonieri Italiani in Libia** (Relazione dei delegati della Societa Italiana di Esplorazione Geografiche e Commerciali di Milano 1880–1896) Vallardi–Milano.
33) **Rossi G.** (La Tunisia e la Tripolitania dell'oggi. Impressioni di Viaggio 1901–1902) Trapani–1902.
34) **Sforza. A. M.** (Esplorazione e Prigionia in Libia) F. Treves–Milano 1919.
35) **Talbi. M.** (L'Emirat Aghlabide) Librarie d'Amerique et d'Orient 1966.
36) **Tumiati. D.** (La Tripolitania) Treves–Milano 1911.
37) **Maynes D. E. L.** (Ancient Tripolitania) British Administration Tripolitania.

المـــراجع الأجنبيـــة

1) **Amari. M.** (Storia dei musulmani in Sicilia) Catania – Prampolini Editore 1938.
2) **Aurigemma. S.** (I Cavalieri Gerosolomitani a Tripoli negli anni 1530 1551) INTRA 1937.
3) **Aurigemma. S.** (La moschea di Ahmad Al-Qoramanli in Tripoli) estratto dal VIII fascicolo VII - anno di Dedalo - gennaio 1927 Milano-Roma.
4) **Aurigemma. S.** (Le fortificazioni di Tripoli in antiche vedute dell 600 e del 700) RCI anno III p. 1217–1237 Roma 1930.
5) **Aurigemma. S.** (A proposito di una antica pianta di Tripoli) R. C. 7 1933 p. 54-57.
6) **Aurigemma. S.** (Vedute di Tripoli che si riferiscono all'azione navale dei francesi nel 1685) R.C. 7-1933 p. 537–546.
7) **Aurigemma. S.** (L'Arco Quadrante di Marco Aurelio) dep. of Antiquities Tripoli - Supplement to Libya Antiqua III.
8) **Aurigemma. S.** (Murad Agha) R.C. 4–1930 p. 853–873.
9) **Aurigemma. S.** (Moh. Abdella di Chio AAI–5–1942) Vol. 3 p. 703–744.
10) **Aurigemma. S.** (Il Castello di Tripoli di barberia) La rinascita della Tripolitania p. 535-563. Milano 1926.
11) **Aurigemma. S.** (Per la storia della fortificazioni di Tripoli) R.C. 1939 p. 460-473.
12) **Barth. H.** (Travels and discoveries in North Central Africa) Cass. London 1965 Repr.
13) **Bartoloncini. R.** (Gli edifici di interesse storico artistico ed archelogico di Tripoli e dintorni). La rinascita della Tripolitania Milano 1926 – p. 350-352.
14) **Bergna. C.** (I Caramanli) Libia – 1–1953 p. 5–59.
15) **Bono. S.** (I Corsari Barbareschi) Torino -Eri 1964.
16) **Cappovin. C.** (Tripoli e Venezia nel secolo XVIII) Airoldi Editore.
17) **Corradini. E.** (L'ORA di Tripoli) Treves Milano 1911.
18) **Coro. F.** (Una relazione venete su Tripoli nel settecento R.C. - 4–1930) p. 1092 1102.

